



دَارُ الْكِتَابِ الْمُصْرِيِّ

طباعة - نشتر - توزيع

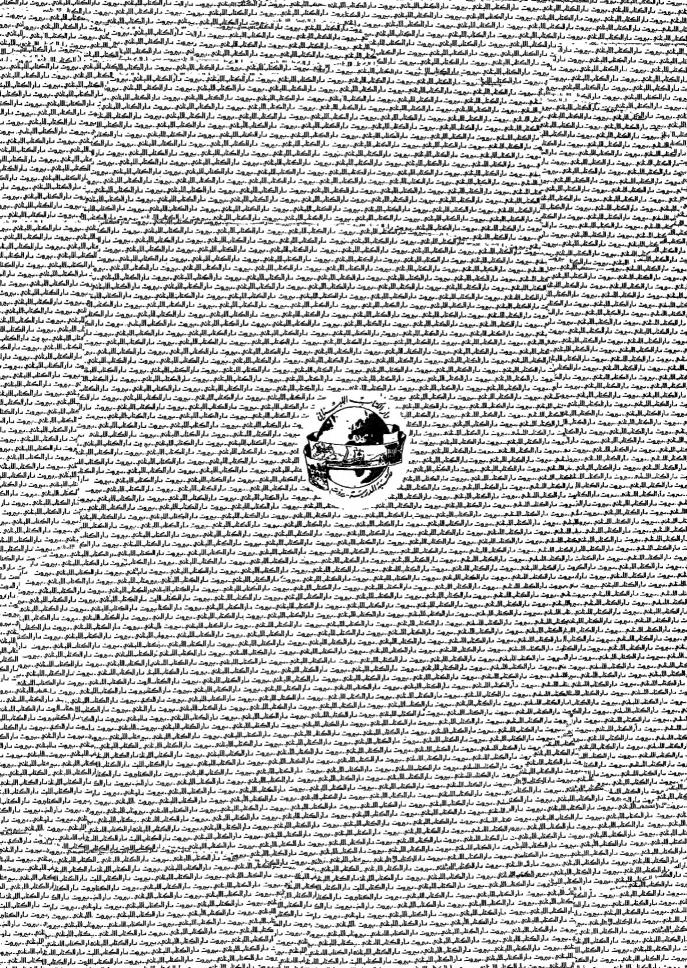
۳۳ شكارع قصت النسيل - القراه مرة ح م ع سن : ۳۹ ۲۵۲۱/۳۹۲۲۱۲۸ و تاكسميلي : ۲۰۲۱) ۳۹۲۶۲۷۷ دید در در ماری کامصر

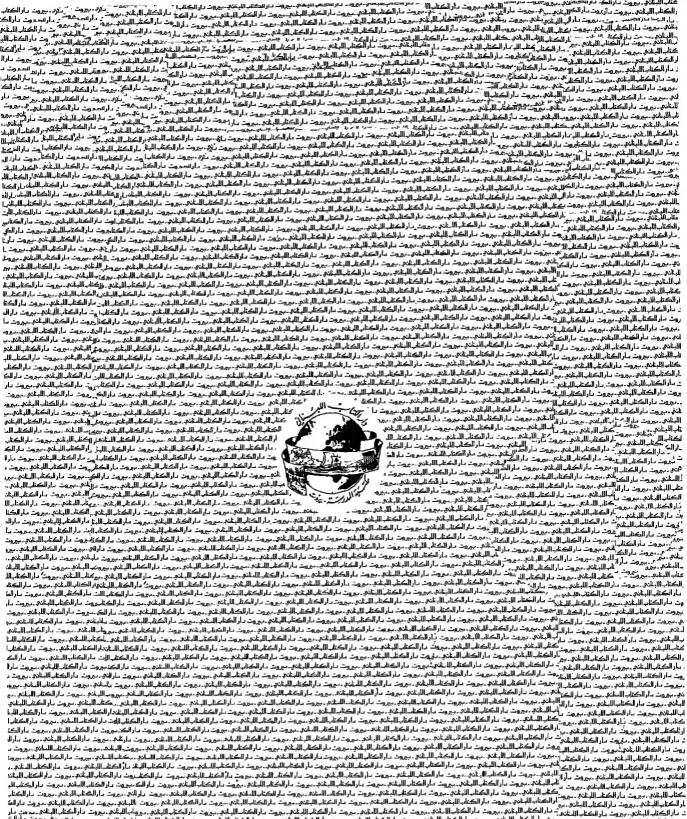
TELEX No. 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN FAX:(202):3924657CAIRO - EGYPT



طباعة - نشر - توزيع

شارع مت امرکوری میت اه مندق بریش تول دند : ۱۱۱۹ ۱۹۳۱۸ میلی : ۱۱۱۹ ۳۵۱۵۳۳ صربت: ۱۱/۸۳۳۰ أو ۱۳۵۳۵۲ برفتيا: داکليکان ـ بَيَرُوت ـ لُبنان TELEX NO: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. H. EL - ZEIN FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON





ار الكتاب الليناندار الكتاب اللينان

وت بأن الكتاب الليناني

يحَــ توِيعَلى _____

الحكم المطلق في العرب العشرين الصهبونية المسالمية المساردية والأدياث هوت لوفي المديرات فلاسفة الحكم في العصر الحديث

> دارالكتابالصرك القاهرة

دارالكتاباللبنائم بيرويت

رقم الإيداع 199. / \$001 I.S.B.N. 977 - 238 - 097 - 8

دارالكتاب اللبنائي شارع مدام كوري مرمقابل فندق بربيسول

ت ۱۳۵۱/۲۰۱۲م مدام دوردی سه سبس سدن برسسور. ت ۱۳۸۱/۱۸ او ۱۳۵۲۸ بیاری ۲۳۸/۱۱۱ او ۱۳۵۳ بیروت لبنان. مرفیا داکلهان برفیا داکلهان مرفیا داکلهان TELEX: DKL 23715 LE مرفیا داکلهان

FAX: (9611) 351433

دارالكتاباللصرك حوق الطست والنشب محا

٢٢ سُنارع قصرالنيل - القاهرة ج.م.ع ت :۱۱۱۱۱۲۸ ز ۲۹۲۲۸ فاکسمیلی ۲۹۲۱۱۱۸۲ و ۲۰ س ب: ادار - برقيا كلامت الادار - برواد - ب

الطبعة الكاينية 11310- - 19910

والنشسر محفوظة

Second Edition 1991 A.D - H 1411 عَبَاسِيَهُ الْمُ

أنحكم المطلق في القرن العِشرين

دارالكتاباللبناني ـ بيروت

هل فشلت الديمقراطية

كان الاستبداد المطلق مقدساً في زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء مآربهم وكان هو يستعين بهم على تقرير نفوذه وشمول سبلطانه على الضهائر والاجسام ، وكان لحق الحكم مصدر الهي يتلقاه الحاكم المستبد من السهاء فلا يُسأل عنه ولا يكون للشعب الا أن يطيعه كها يطيع خالقه ويؤ من بحكمته التي تخفى عليه كها يؤ من بأسرار حكمة القدر . فالحكومة رسالة سهاوية معصومة على هذه الارض الخاطئة ، والشك في الحكومة كالشك في العقيدة كلاهها كفر يعاقب عليه بالحرمان السرمدى من رحمة الله .

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة الى ما قبل القرن الثامن عشر ، وكان الايمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه الا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراءهم كها يخفي المجرم جريمته والآثم وصمة عاره ، فلها انتقل سلطان الحكم من الملوك المستبدين الى مشيئة الشعوب انتقلت القداسة معه الى المصدر الجديد وأصبح حق الحكم مقدساً مرة أخرى من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والكهان ، وتغير النظام القديم ولم يتغير قالبه الذي صنعته العادات المتأصلة والمصالح المتشعبة والعقائد الموروثة ، وربما بدأت هذه القداسة الشعبية

على سبيل المجاز في التعبير يلجأ اليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس الحكومة الغابرة وأساس الحكومة الحاضرة ، ثم أضيفت الى هذا المجاز حماسة الفكرة الناشئة وروح الامل في المستقبل والنقمة على الماضي فاصبحت القداسة الحديثة عقيدة في الضمير يشوبها من الابهام كل ما يشوب العقائد التي تستعصى على متناول العقول .

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة في العرف الشائع فجاءها الخطر من هذه الناحية في عصر الشك والسخرية من جميع « المقدسات » . . . وسمع الشاكون والساخرون بهذه « المقدسة » الجديدة فعلموا ان هناك شيئاً طريفاً يظهرون فيه براعة التنفيذ وقدرة التصغير والتقييد! فاسرعوا اليه في جد ووقار وأعنتوا أنفسهم كثيراً ليقولوا ان الديمقراطية شيء لم يهبط على الارض من السهاء وان القداسة هنا مجاز لا حقيقة له في العلم والاستقراء . . . فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمؤمنون بتلك القداسة المنزهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والسداد ، والمؤمنون بتلك القداسة المنزهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والسداد ، هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الانكار ، فالذين يضعونها هذا الوضع ينظرون اليها من أضيق حدودها التي يعرفها المجازيون والجهلاء ولا ينظرون اليها من أوسع الحدود التي يحيطبها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها ينظرون اليها من أوسع الحدود التي يحيطبها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح . وإذا كان المتكلم الذي يقول ان الماء العذب شهد حلو المذاق نحطئاً في صيغة التعبير العلمي فأشد منه امعانا في الخطأ والغفلة عن الحقيقة من يحمل الماء العذب الى المعمل الكيمي ليثبت ان الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق كها يقولون في لغة المجاز .

* * *

في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت و السيكولوجية ، أو علم النفس وتفرعت فروعه وكثر الاشتغال بتطبيقه على الافراد والشعوب . ولعل أغرب ما استغربه الناس من قضايا هذا العلم وصفه لاطوار الجهاعات والاساليب التي يجرى عليها في تكوين عقائدها وتوجيه أهوائها وتسيير حركاتها واثارة خواطرها . فقد جاء هذا الوصف بعد شيوع الديمقراطية في العالم الجديث بأكثر من جيلين فلاح

لمعظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف للمقرر في الاذهان أو لما يجب ان يتقرر في الاذهان ! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتي سنة أو لو أنه تقدم في عصر الاصلاح مثلاً لما وقع من الافكار موقع الغرابة في شيء ولا أحاط به ذلك السحر الذي يحيط بكل هجمة نخالفة للمألوف ، ثم لجأت الديمقراطية حيًّا في سياقها الطبيعتي دون أن يخيل الى أحد أن حقائق علم النفس تعارض الحكم الديمقراطي أو تعارض حكم الشعوب . لأن الديمقراطية كانت نتيجة لازمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجة لجهل الناس بالسيكولوجية وخطئهم في تفسير حركات الجهاعـات . فلـو علم الناس في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا منزهة غن عيوب الطبيعة البشرية لما كان ذلك مانعا لوقوع تلك الحركات في أوانها ولا واقياً للانظمة العتيقة من التداعي والسقوط. ولكن « السيكولوجية » ظهرت بعد الديمقراطية فنشأة غرابتها من ثمَّ وكان استغراب الناس اياها وهما متولداً من الوهم القديم الذي تطرق اليهم من تقديس الشعب بعد تقديس العواهل المستبدين . فلولا الخرافة الداثرة خرافة المستبدين الالهيين لما وجدت خرافة الشعوب الالهية ولا اتخذت أطوار الجماعات التبي استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلا على بطلان الديمقراطية ، ولا قيل ان نظامها قائم على أساس واهن لانه قائم على مشيئة وهي مشيئة لا توصف بالعصمة . ! وقديما عرف الناس من أطوار الافراد أنهم يطمعون ويستأشرون وأنهم ينقادون للهموى ويخضعون للشهوات وأنهم عرضة للخطأ الكثير والضلال البعيد وأنهم غير معصومين بحال فلم يكن هذا العلم باطوار الافراد هو الذي قضي على حكومة الفرد ولم تتقوض النظم الاولى الآحين تعذر التوفيق بينها وبين أحوال الرعايا ومطالب الامم . * * *

لم تنقض على الديمقراطية سنوات حتى خيبت آمال الحالمين فيها وخيبت آمال أولئك المظلومين الذين صوروا زمانها المترقب في صورة الفردوس الارضي أو العصر الذهبي الذي تغنى به الشعراء وتحدثت به الاساطير. فلا ظلم ولا المحاف ولا تمييز بين القوي والضعيف أو القريب والبعيد: كأنما صوت الشعب المنطلق من غيابات الاسر نغمة ساحرة كنغات «أورفيوس » يتجاور في ساعها

الليث والحمل والضاريات والنقاد ، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية فلا جرم يخيب فيها الظن ويحكم عليها الحاكمون بالفشل بعد أول صدمة مع وقائع الحياة وعثرات التجربة الاولى وهي لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب . فلم يكن أقسى على الديمقراطية ولا أظلم لها من غلاة المؤ منين بها الذين كانوا يكلفونها ما ليس يكلفه نظام في هذه الدنيا أية كانت قواعده من الصحة ونيات القائمين به من الصلاح .

هذه كلها أسباب يصح أن تسمى بالاسباب المصطنعة للشك في حقيقة النظام الديمقراطي والاخذ فيه بالعرض دون الجوهر المقصود . على أنها ليست بجميع الاسباب المصطنعة التي يمكن أن تعدد في هذا المقام . فهناك أسباب مثلها دعت الى الشك في حكومة الشعب قلما تتجاوز العرضيات الى دخائل الامور . فمنها أن عيوب الحكومة الشعبية مكشوفة ذائعة لاستفاضة علاقاتها واشتراك المئات والالوف في دعواتها وأعمالها . فليس لها حجاب من الفخامة والروعة كذلك الحجاب الذي كانوا يسترون به عيوب الحكومات المستبدة ويتعاون فيه الكهان والمداح والبلاطيون على التمويه والتزويق ، وخليق بهذا التكشف أن يغض من وفائلها بعض الشيء ويرسل عليها ألسنة الثراثرة والفضوليين ومن لا ينظرون الى عواقب الكلام .

ومن الاسباب المصطنعة ان نقد الديمقراطية يرضي غرور تلك الفئة التي تحب أن تتعالى عن « الشعبيات » لما في ذلك من الامتياز والادعاء ، ومنها ان المستبدين الطامعين في رجعة الحكم القديم يسعون سعيهم سراً وجهراً لتشويه كل نظام غير نظامهم وتأليب الناقمين على الحكم الحديث ولا بد في كل حكم من راضين وناقمين ، ومنها أننا في زمن تتوالى فيه المخترعات ويسألون فيه أبداً عن أحدث الآراء وأغرب الاخبار . فاذا مضت خمسون سنة على الناس وهم يمدحون الديمقراطية فالذي يفاجئهم بعد ذلك بنقدها لا يعدم له سامعين بين طلاب الذي الطريف في كل مجال .

فانت ترى ان نقد الديمقراطية يصادف من العناية أضعاف ما تستوجبه الاسباب المصطنعة التي لا دخل فيها للوهم والغرض والفضول. وأما الاسباب المصطنعة

فها هي وما مبلغ ما تجيزه ؟ هي أشياء لا تجيز لاحد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولا بأنها في طريق الفشل القريب .

لم تفشل الديمقراطية

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر الى الآن من آثارها وعلاماتها الا ما يدل على نجاحها وثباتها وانها ستكون أساساً للحكم في المستقبل تُبنى عليه قواحد الحكومات ويُرجع اليه في اصلاح كل ما يحتاج منها الى الاصلاح . أما تلك الاسباب المصطنعة التي ألمنا بها فأكثر من يتعلق بها ويعمل لترويجها هم أنصار الحكم المطلق والرجعة الى الاستبداد القديم وهم أقل الناس حقاً في تجريح الديمقراطية بعد ما تبين من فشل حكمهم في بلاد كثيرة وأحوال مختلفة . فاذا بطل ايمان الناس بقداسة الديمقراطية - مجازا أو حقا فمن المقرر المقطوع به أنهم لا يرجعون الى الايمان بقداسة المستبدين وما يزيفونه من المدعاوى والجهالات ، واذا قيل ان الجهاهير تنخدع للزعهاء وتؤخذ بالمظاهر وتستمال الى العقائد التي تبث فيها بالايحاء والتكرار فهذه الاطوار لم تكن ملغاة في العصور الماضية ولا كان شأنها ضعيفا في تصريف الامم وقيادة الحكومات . وماذا كان يصنع المستبدون طوال العصور الماضية الا أن يستعينوا على خداع الجهاهير تارة بالخرافات والاوهام وتارة المومور الماضية الا أن يستعينوا على خداع الجهاهير تارة بالخرافات والاوهام وتارة بالمظاهر والوجاهات والالقاب والاسهاء وتارة اخرى بالعطايا والمواعيد الى سائر ما هو معروف من أساليبهم في تمويه الاعمال واخفاء الحقائق والتحيل على الغرائز بالخرافات والاوهام وتارة اخرى بالعطايا والمواعيد الى سائر

والشهوات. ولو أحصيت الحروب التي أريقت فيها دماء الالوف من المحاربين والمسالمين لحداع الشعوب وتمليقها ، أو لو أحصيت الارواح البريئة التي أزهقها أعداء الحرية والمعرفة ، أو لو أحصيت الثورات والقلاقل التي شجرت بين الحكام والرعايا من أجل المظاهر والاسهاء والمنازعات الصبيانية والدعاوى الفارغة ، أو لو أحصيت الدسائس والجرائم التي انغمس فيها طلاب الحظوة وأعوان الطغيان لكان في بعض ذلك شاهد على حقيقة من تنفعهم غفلة الجماهير ومن يضرهم انتباهها وأن تلك الغفلة لم تدم كها دامت في عهود المستبدين ولم تفد أحدا كها أفادتهم ولم يحذر واشيئا قطكها حذر وا يقظتها ولا رغبوا في شيء قط كها رغبوا في بقائها واستطالتها . وانما الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال يتسع في هذه لاقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها ولكنه لا يتسع في عهد الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على الغش والكتان

وان مجرد القول بان الشعوب لا تصلح للديمقراطية دليل على انها درجة عالية يجب أن تتوجه اليها آمال المصلحين وطلاب الكهال ، في حين ان القول بجهل الشعوب واضطرارها من اجل ذلك الى الحكم المطلق دليل على مصلحة الحكام المطلقين في بقاء ذلك الجهل وتخليد هذه الحالة التي بها يخلدون .

ومما يضعف جانب الحكام المطلقين في دعوتهم هذه أنهم يعيبون على الجماهير أطوارها ليتخلصوا من ذلك الى تزكية الحكم الدكتاتوري أو الحكم المطلق مع أن التجارب الكثيرة ـ والتجارب الحديثة منها على الخصوص ـ قد أظهرت ان الدكتاتوريين الصالحين هم رجال الشعوب وثمرة تلك الاطوار وأن الجماهير لا تنقصها البديهة التي تفطن بها الى مقدرة القادة وتوليهم اعجابها وتخصهم بثقتها واقبالها وتسلمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التي تغار عليها وتغضب للمساس بها اذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الاعجاب . فاذا احتاجت الجماهير الى المصلح النافذ في اصلاحه فليس أقدر على هذا المطلب من زعيم شعبي تبرزه البديهة الشعبية ولا أسرع منه في حث غريزة الامم ومغالبة ما فيها من العيوب ، وكأن هذا المصلح هو الزوج المحبوب الذي يطاع لان طاعته سرور . ويقاس مقدار حبه بمقدار المشقة التي تبذل في اطاعة أمره . وقد بكون الزوج

زوجا بالصيغة الرسمية ولكنه لا ينال هذه المكانة ولا يامن السرياء والخيانـة اذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطاعة الظاهرة .

وعبثٌ ولا ريب أن تعاب أطوار الجهاهير وأن يقتصر الامر فيها على النقد والزراية وهي هي الاطوار التي لازمتها في كل ما تمخضت عنه الانسانية من الثقافات وفي كل من تمخضت عنهم من الدعاة والمصلحين ، فأصلح الطبائع لاحياء الشعوب مجاوبة في الشعور ومساجلة في عناصر الحياة ، وإذا كانت الشعوب تخطىء في عرف العلماء فليس عرف العلماء هنا هو المقياس الذي يُرجع اليه في تقدير الدوافع والنتائج لان الطبيعة لا تستشير العلماء فيا تعمل وفيا تريد . بل ليس العلماء انفسهم بنجوة من الخطا على حسب مقياسهم لان أخطاءهم قديما وحديثا في تصور الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات .

وللديمقراطية عبوبها ولكنها عبوب الطبيعة الانسانية التي لا فكاك منها . وقد يكون لهذه العبوب في مجموع الحضارات الانسانية فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها ان لم يزد عليه ، ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المتن الاعلى المنشودة في الخيال والموصوفة في الاحلام . اذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون لها موضع . ولكنها تقارن بالانظمة الاخرى في جملتها وينظر في عبوبها بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف فلعل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التي لا يستغنى عنها أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية ، اذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تزلها فيا مضى ولا يرجى أن تزيلها فيا بعد . وكذلك لا يصح أن نقيس الديمقراطية بمقياس الاغراض التي أعلنها دعاتها والأمال التي عقدوها عليها لان هؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحصروها ويسيطروا عليها واغا تقاس مزاياها بالصرورات التي أدت اليها أو يحصروها ويسيطروا عليها فعلا ولا تزال تنجم : فهي بلا ريب قد أوجدت للعصبيات الحزبية غرجا غير الفتن الدموية وأقنعت الشعوب بن عليها أوجدت للعصبيات الحزبية غرجا غير الفتن الدموية وأقنعت الشعوب بن عليها من الاشتراك في الحكم وأنها قادرة على تبديلها ، وهي في مدى خسين سنة قد من الاشتراك في الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهي في مدى خسين سنة قد

صاحبت في عالم الصناعة والعلم تقدما لم تبلغه الانسانية في خمسين الف سنة ، وكلم ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤ منوا بتلك الخرافة التي كانت تهييء لفرد واحد أن يملكهم له ولابنائه من بعده ملك السيد للعبيد .

米米米

يقول بعض الباحثين ـ (ومنهم الاستاذ سار وليا الذي ألقى محاضراته في هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية) ـ ان الحكم النيابي تراث انجليزي غير قابل للتعميم في الامم الاخرى . ويضرب « ساروليا » المثل بالامة الفرنسية التي لا تستقر فيها الوزارات طويلا لاختلاف الاحزاب وصعوبة التوفيق بينها الى زمن طويل . ويعتبر ذلك الاختلاف من اعراض الحكم النيابي ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل امة ! ولوكان الحكم النيابي هو الذي خلق العصبيات الحزبية في فرنسا لكان قول الاستاذ وقول أمثالُه صحيحا في هذا المعنى وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية ، ولكن الواقع ان العصبيات الحزبية لم تفتأ تمزق فرنسا كل ممزق في عهود حكامها المطلقين ولم يخل جيل واحد في تاريخها من فتنة على وراثة العرش أو فتنة على المذاهب الدينية أو فتنة على القحط والافلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لاخفاء هذه المنازعات ، حتى توطدت فيها الديمقراطية فانحصرت « العصبيات » في مناوشات الاحزاب وسكنت الثورات وبطلت المجاعات ولم يمنعها اختلاف الاحزاب أن تتاسك بعد الحرب العظمي وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصارا لا ينكر افادتهم لها منكر ، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها في عهد الملوك الشموس، وأن تكون هي وزميلاتها المنتصرات عنوانـا لانتصـار الحـرية الشـعبية وآية على أن حكومـات الشعوب تحتمل من الصدمات مالم تحتمله حكومات القياصرة والطغاة . فانكسرت الروسيا والنمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التاسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة في الشؤ ون العامة بين الشعب والحكومة ، وخرجت الامم من تلك المحنة بعبرتها التي لا تضيع .

وقد فعل تراث الحكم النيابي فعله في انجلترا كما فعل فعله في الامة الفرنسية فوقاها الثورات والخصومات الدامية وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مرتين في القرن التاسيع عشر عند الخيلاف على تقسيم الدوائس الانتخابية وتعمديل شروط الانتخاب، وهو في جوهره أشد من الخلاف الذي أفضى الى الثورة الجائحة في عهد الاستبداد.

ومن النظريات التي أذاعها بعض المؤرخين ـ وفي طليعتهم فلندرس بترى العالم المشهور في الاثريات المصرية ـ أن الحكومة الشعبية كانت هي الدور الاخير من ادوار الدول في التاريخ القديم ولا سيا تواريخ الدول المصرية : يبدأ الدور بفاتح عظيم ثم يضعف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الغالبون ثم يضعف القادة ويستسلم أبناؤ هم للترف والصغائر فتثور عليهم العامة وتتولى الامر الحكومة الشعبية ، ثم يسطو عليهم مغير جديد فيبدأ الدور الاول كرة أخرى وهكذا دواليك عصراً بعد عصر في سجلات الفراعنة ومن جاورهم من المشارقة والمغاربة ، فاذا صح هذا قهو مختلف مما نحن فيه اليوم لان الحكومة الشعبية كانت في التاريخ القديم فترة منفردة تقع في احدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها في تلك الفترة بل ربما كانت في بداية الدور الاول ـ دور الفاتح العظيم ـ فتحدث الغارات من ثم وتتجدد الادوار . اما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفترة المنفردة ولا بالدور المقصور على بعض الحكومات !

على أننا اذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم كها تكررت في دولات الفراعنة وجيرانهم فكل ما يستخرج من هذه النظرية أن الحكم قد تعذر على الطغاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم فصار الامر الى الشعوب تحكم نفسها الى حين . ويبقى علينا أن نسأل أنفسنا متعجبين : هل يعقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية التي وصلنا اليها ان هي الا فترة موقوتة جاء بها وباء عام أصاب الطغاة والنبلاء في مقدرتهم على الحكم دون الكافة والاوساط ثم نعود بعد زوال هذا الوباء الى عهد يكون فيه لنا طغاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من ملكوت الله ؟ لقد كانت الديمقراطية بالامس حكومة الشعب وكان الشعب هو العامة . أما ديمقراطيتنا فليس نصيب العامة فيها الا جزءاً من سلطان الامة وهي كُلُ شامل يدخل فيه السوقة والسراة والامراء .

تمثيل الشعب

في الحكومات النيابية يختلف تمثيل الشعب على حسب اختلاف القوانين الانتخابية . فقد ينتهي الانتخاب على طريقة من طرقه الكثيرة الى تمثيل طبقة واحدة دون طبقات الشعب كله أو تمثيلها جميعاً ما عدا طبقة واحدة هي الطبقة الفقيرة التي لا يتيسر لها شروط الكفاءة المالية . وقد ينتهي الانتخاب الى تمثيل جميع العناصر على نسبة متوازنة يشعر كل عنصر فيها باشتراكه الصحيح في تكوين الحكومة وقدرته الصحيحة على تبديلها بالوسائل الدستورية . وهذه هي الحكومة الديمقراطية في أحسن أشكالها وأوفاها بالغرض من هذه الحكومة .

لم تثبت التجربة قطأي فرق في نوع النواب وكفاءتهم العامة بين المجالس النيابية التي انتخبت من درجات النيابية التي انتخبت من درجات متعددة ، فنتيجة الانتخاب على درجة واحدة كنتيجة الانتخاب على درجتين أو أكثر من حيث الكفاءة العامة للنواب الذين يقع عليهم الاختيار في النهاية ، وكل ما هنالك من فرق بين الطريقتين ان تعديد الدرجات يسهل الغش والاكراه وشراء الاصوات وأن الانتخاب من درجة واحدة يمنع ذلك جهد المستطاع .

كذلك لم تثبت التجربة أن حصر الاصوات او تضييق حقوق الانتخاب أصلح لتسيير الحكومة ومراقبتها من التوسيع والتعميم ، بل قد ثبت على نقيض ذلك أن الرشوة والاكراه وعامة الوسائـل الشائنـة تروج مع حصر الاصوات وتقـل مع اطلاقها وتوزيعها بين أكبر عدد من الناخبين . فكَّان الانتخاب في انجلترا قبلُّ قانون سنة ١٨٣٢ أشبه بسوق علنية لشراء الاصوات ومساومة الناخبين ، وما برحت عيوبه القديمة فاشية في تلك البلاد حتى اتسعت حقوق الانتخاب في سنة ١٨٨٥ فأخذت تقضى شيئاً فشيئاً على تلك العيوب ، ومن عجائب المشاهدات ان توسيع الحقوق الانتخابية لم يؤد الى تحكيم السلطة التشريعية في الحكومة كما أنذر بعض المحافظين المتخوفين من تفاقم الحركة الشعبية وتقييد التباج ومجلس النبلاء ، بل هو قد أدى الى تقوية الوزارة واقامة الموازنة بينها وبين مجلس النواب على نمط يدعو الى الحكمة والتؤدة في تدبير الامور. ويعللون ذلك بخوف النواب - ولا سيا بعد ان أصبحت لهم مرتبات - من حل المجلس ومواجهة الحرب الانتخابية في كل وقت ، فإن كان هذا هو السبب أو كان السبب شيئاً آخر غير هذا الذي يقوله المحافظون والمعارضون في توسيع الحركة الشعبية فينبغي أن نذكر أن مزية الديمقراطية المحققة هي ايجاد هذه الموازنة بين المصالح المتباينة لا تطهير القلوب البشرية من التفكير في مصالحها أو انشاء نواب لسياسة الامم زهاد وقديسين . وحسن ـ وليس بقبيح من وجهة المصلحة العامة ـ الا يكون اسقاط الوزارات سهلا هيناً بحيث يندفع فيه النواب مع أول خاطر يخطر على البال . وهناك من الجانب الآخر ضهان الرأي العام والخوف على السمعة السياسية يحول بين النائب وبين التادي في مجاراة الوزارة الى حد التفريط المذموم ، فمتى توازنت جميع العوامل الديمقراطية توازناً يمنع بعض المصالح ان تطغى على جميع المصالح الأخرى فهذه هي مزية الديمقراطية على الاستبـداد . واذا قيل ان الديمقـراطية تجعل النواب والوزراء ورجال السياسة على العموم ملائكة أبراراً لا يؤخذون يوما بضعف النفوس البشرية فذلك هراء لا يصدقه أحد ولا يصادف عند الناس الا ما يصادفه كل ادعاء كاذب من الشك والحذر والاستياء ، ولكننا اذا وطنا العقول على أن الديمقراطية هي المصالح المتوازنة بين العوامل المشتركة في الحكومة فقد وطناها على الحق المعقول وهو في ذاته غاية تستحق كل ما يبـذل في سبيل

الديمقراطية من الجهود .

وهذا التوازن الذي لا غنى عنه هو الذي يقضي بألا تُستثنى من الانتخاب طبقة او يصدُّ عنه عدد كبير من أبناء الامة . فحسب الاغنياء وأصحاب المصالح الكبيرة والمفكرين وذوي النفوذ أنهم اصحاب قوة فعالة في الحياة الاجتاعية والسياسية قد تربى على قوة الاصوات العددية التبي يخولها أفراد الجهاهمير. والاشتراكيون المتطرفون يهزأون بالحكومة النيابية ويقولـون عنهــا انهــا حكومــة طبقات أو حكومة ماليين لان أصوات الناخبين لا تقاوم النفوذ الذي يناله الماليون بالتواطؤ مع السواس وتسخير الصحف والكتاب والخطباء . فكيف اذا أصبح الألوف والملايين الفقراء ـ وهم يطالبـون بالموت في الدفـاع عن أوطانهــم ـ ولًا أصوات لهم في الانتخاب ولا رأي لهم على الاطلاق الى جانب آراء الاغنياء والملاك وذوى النفوذ؟ ومن المغالطة أن يقال ان الديمقراطية تسوي بين العالم والجاهل والغنيُّ والفقير لانها تعطى كلا منهم صوتاً واحداً في الانتخاب ، فان الديمقراطية لن تسوى بين رجل له نفوذ شعبي ورجل لا نفوذ له على غير نفسه أو لعله لا يملك النفوذ على نفسه الا لينقاد به لسلطان الآخرين . اما اذا تجرد العالم أو الغني من النفوذ الشعبي فذلك على الاعم الارجح دليل على أنه لا يصلح للاعمال الشعبية وأن مجال صلاحه في ناحية أخرى بعيدة عن أصوات الناخبين . ان باستور لم يمنعه أن يكون باستور وان يملأ الارض بعلمه أنه صاحب صوت واحد في الانتخاب . فاذا فرضنا أن شهرته لم توله كلمة مسموعة في سياسة قومه وأنه لم يتسع له الوقت لقيادة الجماهير فلا خسارة عليه ولا خسارة على الجماهير في التفريق بين كفاءته الشعبية وكفاءته في دائرة العلم والتفكير .

أهم ما في الديمقراطية أن يشعر كل فرد وكل فريق بانه صاحب رأي في حكومة بلاده . وبغير ذلك لا تتحقق لها مزية ولا يطمئن المحكومون الى المجالس النيابية ، فالحكم النيابي الارلندي الذي تقرر الغاؤه سنة ١٨٠١ لم يفلح في اختلاس ثقة الشعب ولنم يمنع ثورته الدموية والحاحه في طلب الانفصال عن الدولة البريطانية ، والبرلمان الذي انتخبه الملكيون في فرنسا بعد هزيمة نابليون لم يفلح في شيء قطحتى خدمة الملكية التي انتخبته !! فحلته الوزارة على الاثر

وأعادت الانتخاب بطريقة أقرب الى الحرية والتخيير . فالديمقراطية اما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً ، لانها حين تزيف أو تحصر لا يطول عليها تعويل الشعب ولا تعويل المستبدين .

وقد تعززت مبادىء التوسع في حقوق الانتخاب عملا قبيل الحرب وبعدها فاخذت بها أكثر الامم في انتخاب مجالس النوب ، ففي نحو مائة دستور يلخصها كتاب الاحصاءات السياسية لم تشذ غير انجلترا التي ينص قانونها على شروط مالية غاية في السهولة ، والارومانيا التي تشترط في الناخب ان يؤ دي ضريبة ما من الضراثب العامة ، والاجمهورية العبيد التي تشترط الملكية ، والا بضع ولايات وجمهوريات في أمريكا تشترط اداء ضريبة الرؤ وس . وقليل جداً من الدساتير يشترط القراءة والكتابة في الناخبين لان الاميين بينهم من جنس آخر وهم على الاغلب حمر أو سودا

١) امريكا الوسطى والجنوبية للاستاذ وليام شبرد

بلاد الدكتاتورية

(١) اسبانيا

لما وقعت حوادث الانقلاب في تركيا وايطاليا واسبانيا ومصر جمعها بعضهم باسم الدكتاتورية في بلاد البحر الابيض وحاول آخرون ان يجعلوا من هذه التسمية رابطة تسوغ شيوع الدكتاتورية في تلك البلاد . كأن كلمة البحر الابيض كافية لالقاء الشبه بين بلاد لا يشبه بعضها بعضاً في الجنس ولا في الاحوال السياسية أو الاقتصادية . فالفرق بين تركيا واسبانيا كالفرق بين أبعد أمتين على ظهر الكرة الارضية وكذلك الفرق بين مصر وايطاليا من وجوه كثيرة وان كانت جميعها وافعة على سواحل بحر واحد .

وهذه البلاد على اختلافها في كثير من الشؤ ون تختلف كذلك في الاسباب التي أدت الى الانقلاب والعوامل التي تمكن فيها الحكومة الانقلابية . وأشد هذه البلاد اختلافا هي اسبانيا التي لا تضارعها في أحوالها المتناقضة أمة أخرى من أمم الحضارة .

مصطفى كهال وموسليني كلاهها بطل الانقلاب في بلاده ومحور الحركة القومية

التي اشتهرت باسمه . اما بريمودي ريفيرا (او بجوبلتو) كها يعرفونه في وطنه فلم يكن بطل الانقلاب ولا كان هو المختار لتمثيل دوره ، وانما انصرف اختيار الرجعية أولا الى الجنرال « أجوليرا » لتنفيذ الخطة المرسومة وانعقدت النية على ابراز هذا الجنرال لقيادة الحركة وأوشك ذلك أن ينفذ لولا أنه وقف مرة في مجلس الشيوخ يقول ان شرف العسكري مقدم على شرف « غير العسكري » فتصدى له رئيس الوزارة السابق « سانشي جوير » وصفعه صفعتين فقضي على مستقبله في الدكتاتورية بهذا الحادث الذي كثر حوله اللغط واشتد من جرائه اللجاج في البيئات العسكرية والاجتماعية .

عندئذ تحولت العناية الى بريمودي ريفيرا وهو رجل ارتقى الى رتبة القيادة قبل الثلاثين وشمله الطالع السعيد لانه ابن أخى الجنرال بريمودي ريفيرا الذي خذل الحكومة الثورية في سنة ١٨٧٤ ورد العرش الى ملوك البربون ، ولم يكن لذلك الجنرال ولد من نسله فكوفيء على عمله بترقية ابن أخيه حامل اسمه ووارث سمعة سنه !

والحركة كلها معتمدة على قوة الضباط الذين يكرهون الحكومة الدستورية الحرة لانها تريد أن تحد من عددهم ومرتباتهم وتنفق هذا المورد الكبير فيا ينفع الامة ويصلح مرافقها المهجورة . اما الرجعية فهي تأبى ذلك وتستبقي هذه القوة الكبيرة لقمع كل حركة تتوجس منها . وما الضباط في اسبانيا ؟ هم قوة لا نسبة بينها وبين حاجة الامة ولا عدد الجنود . « فقد قيل انه كان في اسبانيا عند نهاية الحرب مع الولايات المتحدة ٤٩٩ جنرالاً و٧٧٥ كرنيلا و ٢٣٠٠ ضابط . وبعبارة أخرى انه كان للاسبان ٣٦ ضابطا حيث يكفي ضابط واحد للجيش الفرنسي في أخرى انه كان للاسبان ٣٦ ضابطا حيث يكفي ضابط واحد للجيش الفرنسي في ضباط ، وكان ستون في المائة من موارد الدولة تنفق على الجيش في أوائل هذا القرن وثلاثة أخماس هذا المبلغ تنفق على الضباط . . والقواد يتدخلون في السياسة كلما عنت لهم مناسبة . ففي سنة ١٩٠٥ نشرت احدى الصحف

⁽١) كتاب الفونس الثالث عشر مكشوف الغناع للكاتب الاسباني الكبير بلاسكو ابانيز .

القطلانية مقالات اغضبت العسكريين فهجمت ثلة من الضباط على مكتب الصحيفة ودمرته تدميراً . ولو حدثت هذه الحادثة في غير اسبانيا لعدت تمرداً على النظام ولكنها لا تعتبر كذلك في اسبانيا على ما يظهر ، فان الضباط لم يعاقبوا . . لا بل ذهب القواد الى أبعد من ذلك فطلبوا أن يسلم كل من يتعرض للجيش او للمملكة الى لجنة عسكرية تفصل في أمر ادانته بدلا من تسليمه الى المحاكم القضائية ، فجعل الوزراء يستقيلون واحداً بعد واحد في مواجهة هذا الطلب ثم اقترح « جارشيا بريتو» وزير الحقانية يومئذ أن يحل المشكل بزيادة العقوبة على هذه الحملات مع بقاء المحاكمة موكولة الى القضاء . فتوعد الجنرال لوك وزير الحربية ـ بالاستقالة من منصبه وأمهل « جارشيا بريتو» حتى يتدبر في الامر ويأتي باقتراح آخر قبل يتسنى للجنرال ان يقول هل الجيش راض بالاقتراح الجديد او غير راض ! وكان مغزى الكلام واضحا فلم يسع جراشيا بريتو الا أن يستقيل لانه لم يقبل الاذعان . ومن ثم اتفقوا على التوسط في نظام المحاكمة فتركوا قضايا الحملات على الضباط للمحاكم العسكرية وأبقوا القضايا التي تتعلق بالمملكة والراية للمحاكم القضائية » تتعلق بالمملكة والراية للمحاكم القضائية »

ومما يزيد الارتباك في سياسة الجيش ان صغار الضباط من فرق المشاة نحالفون لرؤ سائهم في الميول والمطالب لاتهامهم اياهم بالمحاباة في الترقيات ، فهم يريدون الاصلاح ويشايعون خصوم القواد المكروهين بعض المشايعة . وليس من شأن هذا الاختلاف أن يهون علاج الحالة لمن يريد العلاج الحاسم لاصل الداء .

فهذه الحركة العسكرية تؤيدها الرجعية الممثلة في النبلاء والكنيسة ومن يكمنون وراءهم هي سر الانقلاب المدبر المرسوم بمعزل عن الحياة القومية على مثال غير الذي عرف في تركيا وإيطاليا ، وما النبلاء أيضا في اسبانيا ؟ وما الكنيسة فيها ؟ أما النبلاء فهم الطبقة المسيطرة على الامة بين طبقات الاسبان . اذ ليس هناك الاسادة غنية وجماهير فقيرة وليس بينها موضع للطبقة المتوسطة التي تظهر

⁽ ١)الاستاذ شارل شبهان في المجلد السادس والعشزين من تاريخ المؤ رخين .

في الامم بظهور المشروعات الاقتصادية ورواج الصناعة والتجارة والتناسب في توزيع الارض الـزراعية . يقول الاستاذ شارل شبهان : ١ ان بين النبـــلاء والجم هير فجوة واسعة لان الطبقة الوسطى ضئيلة الشأن بالقياس الى ما ينبغي أن تكون . والجماهير على الغالب عنصر طيب محب للحرية ميال الى الديمقراطية ولكنهم مرهتون بسوء الحال وقلة فرص الاعمال. فينزع الطامعون منهم الى الهجرة وارتياد الرزق في الارجنتين والمكسيك وغيرهما من أصقاع امريكا الاسبانية ، ويبرح اسبانيا في كل سنة مائة الف او أكثر من خيرة العناصر المطلوبة للبلاد ، ويبقى الَّذين يتخلفون في حالة من الضنك بالغة في السوء والضعة » . اما الكنيسة أو رهبان الاديرة فقد كان لهم في القرون الوسطى نصف الارض ومعظم الثروة ، ولا تزال لهم في اسبانيا قوة لا تغالب لانها كانت مباءة رجال الدين ومحكمة التفتيش بعد اجلاء العرب واشتداد الدعوة الصليبية . فتواطأ سلطان الاستبداد وسلطان الكنيسة على قتل التعليم ومحاربة العلوم والفنون التي لا يد منها لاحياء الصناعة وتثمر موارد الثروة . ختى حظروا دخول الكتب الاجنبية وحرموا كل معرفة لا يباركها أنصار العصبية الدينية . ونجم عن ذلك « ان اسبانيا فيها الآن الفا الف هكتار من الارض لا تزرع وستة وعشرون الف الف هكتار من الارض الصالحة للزرع لا تروى والف الف فقط من الارض المروية المزروعة . . . وأنهار البلاد تتدفق الى البحــر فتجــرى في أفــاليـم جرداء ظامئة وتطم في الشتاء لاجتراف كل ما يعترضها في طريقها لا لاخصاب الاقاليم واصلاحها للزراعة . ففي اسبانا صخور كثيرة لبناء الكنائس والاديرة ولا صخور فيها لبناء السدود والخزانات »١

وجاءت المستعمرات فافسدت ولم تصلح وضاعفت البلاء ولم تخففه . نزح اليها نخبة الشباب وخلفوا الديار خاوية على عروشها للنبلاء والرهبان والكسالى من السكان ، ثم تهورت المملكة في حرب مع الولايات المتحدة من أجل تلك المستعمرات فكان كل ما أصاب الحكومة منها أنها خرجت بدين أهلى قدره مائتان

(١) في ظل الكنيسة للكاتب الكبير بلاسكو ابانيز

وسبعون مليون جنيه بفائدة سنوية أربعة في المائة وستون مليونا بفائدة سنوية خسة في المائة . وهذا فضلا عن الديون الاجنبية وأثبان الارض المبيعة بما أدى الى متاجرة الحكومة بورق النصيب ونقص المرتبات واختلال الوظائف وشيوع الفساد في دواوين الحكومة ، حتى أصبح الموظف يقبض ما يقبض من مرتبه ولا يذهب الى ديوانه لاشتغاله بحرفة أو حرف أخرى ، وروي عن موظف اسباني قبل سنوات قليلة أنه كان يشتغل بخمس عشرة حرفة غير الوظيفة الد

في وسط هذه الفوضى الفاشية في كل مكان ، وفي وسط هذا الاستبداد الذي يتعاون عليه الرجعيون جميعاً ويستمسكون به كلما أنذرتهم بوادر التداعي والزوال ، في هذا الغمار المضطرب المتقلقل حبطت مساعي الاحرار وشاعت البطالة والتسول والفقر المدقع وسرت روح التذمر بين العمال وتفرقت البلاد شيعاً وأقاليم يطلب كل منها الاستقلال لبلده ويمعن بعضها في ذلك حتى يعلن الثورة وينادي بالانفصال كما حدث في قطالونية . اذ يجب ان نذكر ان اسبانيا كلمة واحدة ولكنها في الواقع أمم شتى لم يندمج بعضها في بعض ولم يزل كل فريق منها يكره كل فريق غيره ويعيره أصله وقومه . ففيها ملل كثيرة تزيد على العشرة وفيها أقاليم منعزلة تلح في طلب « اللامركزية » ولا يعنى ابناؤ ها بالوطن كما يعنون بمصلحة الاقاليم .

هذا الى جانب الدعاية الجمهورية والدسائس المتشعبة بين أجزاء الامة المفككة الاوصال ، وإلى جانب المكائد الخفية التي تعرقل كل اصلاح يرجى أن يقتلع أصول الحكومة السيئة ، فلما وقعت كارثة α النورال α وهي الكارثة التي قتل فيها عشرة آلاف جندي والقائد سلفستر ومئات من الضباط واستأسر بقية الجيش كله للمراكشين α جرى التحقيق على أيدي لجنة النواب واشترك فيه الملكيون والجمهوريون فظهر من أقوال الشهود ومن أوراق ضبطت في أمتعة القائد القتيل ان خطة القتال التي أودت بذلك العدد الكبير من ابناء البلاد قد وضعت بغير علم

⁽١) اسبأنيا الحديثة من ١٨١٥ الى١٨٩٨ للاستاذ بتلر كلارك .

⁽ ٢) الاستاذ شبهان في تاريخ المؤ رخين .

وزير الحربية الذي نبزه واضع تلك الخطة المشؤ ومة بلقب « الحمار » . . فهاجت الحواطر هياجا عظيا وأوشك أن يقع الحادث المنتظر وأن يسقط معه المسؤ ولون عن هذا الفساد ولكنهم عجلوا بالانقلاب _ وقد طال تحفزهم له _ ودفعوا آلاتهم للتنفيذ فمضوا فيه وكان أول ما اهتموا له مهاجمة البرلمان والاستيلاء على محاضر لحنة التحقيق !

هذه حالة لا شبيه لها في غير اسبانيا من بلاد العالم أجمع وذلك انقلاب يراد به اطالة أسباب الفساد لا اصلاح تلك الاسباب التي لن يرجى مع بقائها صلاح.

تركيا

اذا كانت اسبانيا نخالفة جداً لتركيا وإيطاليا في انقلابها فالشبه من الجهة الاخرى غير قريب بين أسباب الانقلاب الذي حدث في هذين البلدين ومظاهره وأشخاص القائمين به . غير أنها قد يتشابهان في أمر واحد وهو أن بطل الانقلاب في كليها هو محركه ومحوره وان تباينت البواعث والاغراض .

لما عقدت الهدنة بعد الحرب العظمى كان قد مضى على تركيا سبع عشرة سنة في حروب متلاحقة من حرب طرابلس الغرب الى حرب البلقان الى الحرب العظمى الى ما تقدم ذلك وتخلله من مناوشات في اليمن وأرمينية والبانيا وغيرها ، بحيث انقضى على معظم الجنود في الجيش العثماني خمس عشرة سنة لم يلقوا السلاح ولم يزالوا طوال ذلك الزمن بين هزيمة فادحة أو ظفر لا غنم فيه . هذا الى شظف العيش وادمان الهجرة وقنوط النفس من عواقب الجهاد المتتابع في غير طائل . ثم كانت الطامة الكبرى بعد الحرب العظمى فسقطت تركيا متهالكة من الاعياء لا رمق فيها ولا رجاء : خراب فوق خراب ويأس مطبق لا منفذ فيه للرحمة ، جيش مشتت مفلول وأمة منهوكة يرهقها ذل الهزيمة وعاصمة محتلة وحكومة منخوبة القلب يعبث بلبها الوعد والوعيد وخليفة يخير نفسه بين حماية انجلترا أو حماية القلب يعبث بلبها الوعد والوعيد وخليفة يخير نفسه بين حماية انجلترا أو حماية

الولايات المتحدة ، والحلفاء من وراء ذلك ظافرون مختالون قد حكموا على عدوهم الواقع في قبضة يدهم بالمحو والفناء وقسموه بضعة بضعة وأطلقوا على كل بضعة منه خصما متعطشا للنقمة يقتل وينهب ويهتك الاعراض ويدمر العمار .

من هذا الخراب المطبق انشأ مصطفى كهال دولة جديدة تنفض عنها ضعف القنوط ويبرم لها أعداؤها قيوداً جديدة فتخرج هي من محنتها وقد حطمت قيوداً لاؤلئك الاعداء كانت ترسف فيها قبل الحرب وأبطلت كل ماكان لهم في بلادها من الامتيازات وكل ماكان لهم في دواوينها من الجاه المطاع.

لم يكن مصطفى كمال حكيا متئداً بلا ريب حين صحت عزيمته على أن يحارب الحلفاء ويحارب اليونان ويحارب حكومته ويحارب الخائنين من أبناء وطنه ، لم يكن حكيا متئداً حين صحت عزيمته على أن يحارب هؤ لاء جميعا بطائفة من أمته الصغيرة مثخنة بجراح الهزيمة والافلاس معودة أن يتورطبها القادة فيما لايفيد ولا يعود منه فخر ولا عزاء . وانما كانت الحكمة كلها والاتئاد كله عند اناس آخرين من الترك كانوا يجلسون في الاستانة في هينة وسكينة ينتظرون الحاتمة التي ما كان عنها محيد ، وكانوا يعلمون ما لا فضل في علمه لاحد على أحد : كانوا يعلمون أن الحلفاء أقوياء ظافرون وأن مصطفى كهالا ضعيف مخذول ، وأن الحهاقة كلها حيث يعمل مصطفى كمال والحكمة كلها حيث يعملون هم مع الحلفاء أو بعبارة أخرى مع الانجليز . وصدَّفوا ـ لانهم حكماء متئدون ـ أنَّ الآنجليز لا يتنمرون لتركيا ولا يشتطون عليها في شروط الصلح الالأن فيها حركة وطنية وانسانا يسمى مصطفى كهالا يقود تلك الحركة الوطنية! فبعشوا اليه البعوث تقاتله ونصبوا المحاكم تدينه في غيبته وقضوا عليه هو وصحبه بالموت لانهم عصاة يقلقون سلام الدولة ويفسدون بطيشهم سياسة الدهاة المحنكين! قال مصطفى كمال : « كانوا يقولون للامة من جهة ولحكومة الاستانة من جهة أخرى لا تعترفوا بمصطفى كيال ولا تثقوا به لان الحلفاء لم يشتدوا على تركيا الا من جراء فعله . كانوا يقولون ذلك ويزعمون انه اذا قضي عليَّ نالت البلاد عند الـدول الاجنبية كل صداقة وهوادة ، كان دهاة الاستانة المحنكون هم الحكهاء المتئدون لانهم صدّقوا هذا الكلام المفنع الجميل . أما مصطفى كهال فلم يكن الا رجلا وطنيا غيوراً بحس احساس الوطني الغيور . رجلا يشعر بعاطفة الحب لبلاده فلا يصدق أنها تموت كها لا يصدق الوالد المشفق ان وليده مائت بين يديه وإن أحدقت به أعراض المنية ولم يبق فيه الا قليل ذماء ، ولم يكن بعيداً عن مصطفى كهال أولئك الذين يوسوسون له بان أمته أمة هالكة لا تستحق حبه ولا ينفعها ولاؤه . فقد كان في أوائل الحرب يشكو الى الرؤساء إشراف الألمان على جيش بلاده وتسليم الهيئة الألمانية جميع اسراره ومعداته فلم يأبه له أحد ولم يظفر منهم بخبر ، الا صديق له من أصحاب المناصب الكبيرة في وزارة الحربية قال له وهو يتلطف اليه : « اننا أكثر منك تجربة أيها الاخ ! لا أنكر ان ما يستجيشك الى هذه الاخيلة وهذا الشعور انما هو حب وطنك وايثارك مصلحة قومك . ولكن أترى ان هذا الوطن وهؤ لاء القوم يستحقون منك مفاحة المستحرة ؟ » المستحقون منك مفاده المحبة المستحرة ؟ » المستحدة والمناه المحبة المستحرة والمناه المناه المناه المحبة المستحرة والمناه المحبة المستحرة والمناه المناه المناه المناه المناه المستحرة والمناه المناه المناه المناه المناه المحبة المستحرة والمناه المناه الم

فاكبر انتصار يؤثر لمصطفى كهال هو لا مراء هذا الانتصار الاول على اليأس والرهبة وسوء الظن بالامة . ولو انه يئس لما ليم على يأسه ، أو رهب لما كانت رهبته لغير سبب ، أو أساء الظن بالامة لسوغت ظنه السيء خيانة الخائنين وجهل الجهلاء وخطل السواس وقلة جزاء العاملين ، ولكنه قهر هذه الوساوس في نفسه وأدال منها للعزيمة والرجاء وعلم أنه زعيم ليجعل الامة تستحق لا لأن الامم تستحق كل شيء بغيره ، فكان انتصاره على وساوس الضعف هو البطولة الصادقة وهو الغلبة التي لا تذكر معها غلبته على خصومه في ميدان الحرب والسياسة .

ويحق لنا أن نسمي مصطفى كهالا « دكتاتورا » اذا عنينا أنه صاحب الفضل الاكبر في انقاذ أمته وتفريج أزمات بلاده ، ولكنه ليس بالدكتاتور اذا انظرنا الى نظام حكومته وقواعد دستوره واتصاله الحميم بشعبه .

فائه لم يحكم قط لا في الحرب ولا في السلم بغير هيئة نيابية ، ولم يدع الى انتخاب المجلس الوطني الكبير الا بعد أن صدر امر « وحيد الدين » بحل مجلس

⁽١) راجع مذكرات الغازي مصطفى كمال التي نشرتها الصحف التركية وترجمت نبذ منها الى العربية

المبعوثين ولحقت بانقرة جماعة النواب المؤيدين له في الحركة الوطنية على المبعوثين ولحقت بانقرة جماعة النواب المؤيد الى مالطة ومن النواب المنتخبين في الاناضول ثلمائة وخمسون نائبا هم قوام الحكومة الكمالية وهم أصحاب السلطان الاعلى في التشريع والتنفيذ وادارة اعمال الحكومة كافة ، فالأمة هي صاحبة السيادة الكاملة والمجلس الوطني الكبير هو ممثل الأمة وهبو المذي يوكل عنه الوزراء والولاة بل هو الذي انتلب مصطفى كمالا للقيادة وجددها له فترة بعد فترة ، وكانت مدة المجلس سنتين في ابان الحرب لمتابعة الحوادث ، وتمثيل الامة فيه أثناء التطورات الحربية أصح تمثيل . ثم استقرت الامور وتعدل الدستور في المعشرين من أبريل سنة ١٩٢٤ فزيلت ملة المجلس الى أربع سنوات ونصت المادة السابعة على ان لا المجلس يباشر سلطته التنفيذية بواسطة رئيس الجمهورية المادين ينتخبه المجلس وبواسطة الوزراء الذين يختارهم رئيس الجمهورية ولكن الذين ينتخبه المجلس وبواسطة الوزراء الذين يختارهم رئيس الجمهورية ولكن لبس لهذا الرئيس ان يحل المجلس الوطني الكبير ولا أن يرفض القوانين التي أقرها النواب وليس من حقه أن يشترك في المناقشات وان كان يجوز له في حالات خاصة أن يخضر جلسات الوزراء ويجوز للمجلس ان يسقط الوزارة متى شاء .

قالت الكاتبة الانجليزية جراس اليسون في كتابها الحديث « تركيا اليوم » : « ان القدر قد ارتفع به الى أعلى ذروة في بلاده ولكنك لا تلمح عليه انه صاحب مطامع شخصية اوخاضع لاية رغبة في المال او الاسرة او المنصب ، ولو تسنى بقاء السلطان لبقي على عرشه . فقد رجاه هو مرة ان يتقدم بنقسه ليتسلم أزمة الامور ، ولما القى إليه الشعب الشاكر مقاليد السلطنة والخلافة رفضها بتاتا على الخلاص الشعب وجده في اقتراحه » .

وقد جهر مصطفى كمال بامتعاضه من سياسة أحمد زوجو ملك ألبانيا الجديد وأبى أن يعترف به لئلا يكون في اعترافه تشجيع للذين يستخدمون ثقة الأمة لمثل هذه الأغراض. فليس لأمة من الحقوق الدستورية مشل ما للاسة. التركية في حكومة مصطفى كمال ، وإذا أقدم هذا الرجل العظيم اقدام الجسور في اصلاح

^(!) Turkey to day

قومه فانما يفعل ذلك بشفاعة عن حبهم اياه واعجابهم به ورغبتهم في ارضائه وتسهيل عمله ، وطوبى لامة تجتمع لها حقوق الدستور ونخوة الاعجاب وترزقها العناية رئيسا تثق به ويثق هو بأنها جديرة بين الامم باعلى مقام .

ومصطفى كمال بعد عالم في فنه مطلع واسع الاطلاع على سير القواد والعظهاء ، خطيب فصيح وكاتب اديب وسائس موفق السياسة ومصلح بصير بدخائل النفوس ومواقع الاصلاح ورجل اجتاع مستظرف الكياسة وانسان تشرف به الانسانية ويعد في الذروة العليا بين الرجال العاملين .

الى مثل هذه الزعامة تحتاج الامم ، لان الامم لا تطلب الزعاء الا لينهضوا بها فوق ضعف الحرص والضرورة وفوق ضعف الشهوات الباطلة والعروض الزائلة ، ولوكان عمل الزعاء فيها أن يجنبوها كبار الآمال ويوصوها بالحرص على الشهوات القريبة والعروض الميسرة لاستغنت عنهم أيما استغناء ولكان لها الكفاية فوق الكفاية من ذلك الجشع المركب في دخائل النفوس والذي ما وجدت القوانين والاخلاق والاديان والزعامات الالانه محمود الزوال والخفاء وليس بمحمود البقاء والناء .

ايطاليا

تنبيه

كتبت عن « الفاشزم » في اوربا وأمريكا عشرات من الكتب ومئات من الرسائل والمقالات أكثرها لا يمكن التعويل عليه لما هو معلوم من سعة الدعوة التي يقوم بها الفاشيون في كل مكان وكثرة الاغراض التي تدور حول الدفاع عن هذا المذهب بين أصحاب أموال يجبون أن تشيع القوانين الصارمة في معاملة الصناع أو محافظين يكرهون الديمقراطية والاشتراكية أو خصوم سياسيين لخصوم موسليني يساعدونه للنكاية بابناء وطنه الآخرين . ويجب الحذر على الاخص مما يكتب عن الفاشية في بلاد الانجليز لان السياسة البريطانية تمالىء موسليني لأسباب منوعة يتعلق بعضها بالتفاهم السري على الشرق واوربا الشرقية ـ والقراء في مصر لا ينسون مسألة جغبوب ـ ويرجع بعضها الى ما يأتي وهو :

(أولا) ان موسليني كان داعية الحرب في صفوف الحلفاء حين وقف الساسة الايطاليون موقف الحياد أو المحاباة السلمية لدولتي اوربا الوسطى عملا بالاتفاق القديم . فمن مصلحة السياسة البريطانية أن تؤيده في ايطاليا وتخذل خصومه بكل ما تستطيع .

(ثانيا) ان موسليني انشق على الاشتراكيين وأفرط في محاربة الشيوعية وهمي

عدو لدود للسياسة البريطانية يهمها أن تؤلب عليه الانصار.

(ثالثا) انه ينافس فرنسا في البحر الابيض فهو قرين موافق للسياسة البريطانية .

(رابعا) ان السياسة البريطانية احتاجت بعد الحرب العظمى الى رد فعل للمبادىء الولسنية والافكار العامة التي اطلقت آمال الشعوب ودفعت بها في وجهة الحرية والديمقراطية ، فهي تجد في الفاشين حاجتها لكبح تلك الأمال وعاربة تلك الافكار حيث يروقها أن تحاربها في البلاد الشرقية . ولا سيا وهي تستطيع أن تعمل ذلك دون أن تغضب الامة الانجليزية بل هي تعمله لتملق هذه الامة وتعتبر الحكم الديمقراطي مزية خاصة لها لا تشاركها فيها الامم الاوربية ولا شعوب الشرق من باب أولى .

(خامسا) ان في انجلترا حزبا من المحافظين الجامدين وبعض رجال الدين لسان حاله صحيفة المورننج بوست ـ يكره الديمقراطية كراهة شديدة ويدعو الى سياسة الدم والحديد لانها خير سياسة للامم قاطبة والامم المستعبدة منها على الحصوص . ويقول ان حركات الشعوب كانت دسيسة يهودية لتدمير اوربا وتقويض الحضارة المسيحية واضعاف سلطان الكنيسة الكبرى ! ويعتمد في هذا الكلام على حركات ايطاليا نفسها لانها وجدت العضد الاكبر بين جماعات الماسون وكان اليهود فيها غير قليلين . وأشياع هذا الحزب هم الذين اكتتبوا بمبلغ من المال اشتروا به سيفا في قراب ذهبي أهدوه الى القائد داير صاحب مذبحة امرتسار في الهند .

فالذي يكتب عن الفاشية في الصحف الانجليزية وفي بعض الكتب مشوب باغراض كثيرة لا يسهل استخلاص الحقيقة من بينها ، وقد يخدع به القارىء اذا لم يتخذ لنفسه الحيطة فيبنى عليه حكما بعيداً عن الصواب . وكاتب هذه الرسالة قد عالج مصداق ذلك في نفسه من قراءاته السابقة واللاحقة في هذا الموضوع .

بعد هذا التنبيه الذي لا بد منه تقول ان الفاشية هي المذهب الوحيد في بلاد الدكتاتورية الذي يدعي أنصاره أنهم يصدرون في حكومتهم عن مبادىء عامة تقابل مبادىء الديمقراطية ، وقد أعلنوا هذه المبادىء في مؤتمر عقدوه في شهر سبتمبر سنة 197 وتتلخص في أساس واحد وهو « أن الامة ليست هي مجموعة الافراد الاحياء فحسب ولا هي آلة للاحزاب ولكنها بنية تدخل فيها سلسلة الاجيال التي لا نهاية لها ولا يعد الافراد الا أجزاء عارضة منها ، وهي بعبارة أخرى جملة جميع العناصر المادية وغير المادية التي تنطوي عليها القومية » .

وادراك الامة على هذا النحو ليس بالرأى الجديد ولكن الرأى الجديد فيه هو ما استخرجه (الفاشيون » من هذه الحقيقة وهو أن الحكومة هي كل شيء ولا يصح أن تتألف في الامة هيئة مجتمعة خارجة عن السلطة الحاكمة حزبا كانت هذه الهيئة أو نقابة عمال أو جماعة تتولى العمل للمصلحة العامة ، وواضحٌ ان هذه النتيجــة الغريبــة مناقضة لادراك الامة على النحو المتقدم لان القول بان الامة ١ بنية تدخل فيها سلسلة الاجيال التي لا نهاية لها وأنها جملة العناصر المادية وغير المادية التي تنطوي عليها القومية ، أحرى ألا يجعل مقاديرها الحاضرة والمستقبلة لعبة في أيدى بضعة أفسراد يحكمونها في جيل واحد بغير مناقشة او تعقيب ، وقد شاع أن الفاشية عدو الشيوعية المبالغ في مطاردتها واستئصالها وهو صحيح من حيث الظواهر والعناوين وصحيحً مثله أن بعض طوائف الاشتراكيين تحارب الشيوعية كهذه الحرب بل أشد منها نقمة وبغضاء ، ولكن الواقع أن « الفاشية » أخت الشيوعية في الجوهر والاساس وهو محو « الفرد ، واستغراق حريته وحقوقه في سلطة الحكومة . فها جهد « كار ل ماركس » لشيء جهده لاثبات هذه الفكرة التي يقوم عليها بناء الاشتراكية كلمه ، فالمنافسة الفردية لا يصح بحال من الاحوال أن تقف في طريق الشيوع الاجماعي ما دام أن الفرد عنصر عارض لا قيمة له في حوادثالتاريخ ، وعلى هذا يجب أن تستولي الامة على كل شيء ولا يستأثر الفرد بشيء . ! بيد أن الشيوعيين يقولمون ذلك ولا يقطعمون الامل على الفرد في المستقبل كما يقطعه عليه الفاشيون ، فهم يمنونه بالحرية التامة في توجيه حياته وتكميل خصائصه متى خف عنه ضغط الفاقة وجهاد المعيشة بمنع الملك والاستئثار واعفاء المجتمع من حروب الطبقات . اما الفاشيون فلايفتحون له باب هذا الأمل ولا يبرح الفرد عند حكومتهم مستغرقا في المجتمع الذي لاحق لانسان فيه خارجا عن حق الحكومة الخالدة ! ومن ثم يبدو لنا موضع الخطر الدفين ويتبين لنا أن المسافة بين الشيوعية والفاشية ليست من البعد بحيث توهمنا الخصومة الظاهرة والعداوة العنيفة . تلك الخصومة التي ينشب ما هو أعنف منها بين الاشتراكيين والاشتراكيين والتي قد نشب ما هو أعنف منها فعلا بين البلشفيين والمنشفيين .

هل كان الفاشيون على هذه العقيدة منذ البداية ؟ لا . قال السنيور نيتي في رسالته التاريخية في المجلد الخامس والعشرين من تاريخ المؤرخين : «كان من مقاصد الفاشية في بدايتها انشاء الجمعية الايطالية الدستورية على أن تكون فرعا لجمعية الشعوب الدولية التي ترمي الى تغيير قواعد المجتمع سياسة واقتصادا والوصول يغير تدرج _ الى تطور الحضارة واعلان الجمهورية الايطالية مع الحكم الذاتي للاقاليم وسيادة الشعب تتولى تنفيذها هيئات مختصة والغاء مجلس الشيوخ وكل هيئة مصطنعة تحد من اطلاق السيادة الشعبية ، والغاء الرتب الميزة للطبقات والغاء الجندية الاجبارية ونزع السلاح وانشاء معاهد شعبية كبيرة للتسليف الخ الخ مما جعل المفاشية بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٧٠ نزعة ثورية ونم على أصلها الاشتراكي . الاأن النزاع بينها وبين الاشتراكية _ وكلاها له أصل واحد _ قد صبغها بالصبغة الوطنية ثم بالصبغة المحافظة خلاقا لبدايتها الاولى . وقد ساعد على ذلك انتظام كثير من جنود الحرب في صفوفها فلم يبق ذكر لمقاصدها الاولى ».

كذلك نشأت الفاشية في بدايتها ، ثم صارت في سنة ١٩٢١ الى ما رأينا ! فلها جاء دور الحكم كانت تحية موسليني لمجلس الشيوخ كلمة طيبة وتحيته لمجلس النواب انذاراً يشبه انذار كرمويل للبرلمان الانجليزي في اللهجة والزراية ، وأصبح مفروضاً على كل فاشي أن يقسم يمين الولاء للملك كها يفعل الجنود في الجيش .

وليس، هذا أول تحول في آراء موسليني أو تناقض بين مبدئه وعمله ، فانه كان ينكر الحرب عامةً وكان أحد الذين قبض عليهم وحوكموا لاثارتهم الشغب والهياج في أيام الغارة الطرابلسية . ثم كان شديد المعارضة لاشتراك ايطاليا في الحرب فكتب في « افانتي » صحيفة الاشتراكيين بتاريخ ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ يرد على صحيفة

« الايديانسونالي آ أي الفكرة الوطنية التي كانت تحث على دخول الحرب: « آه! لقد ظهرتم اخيراً. ان الحرب تدبر لتعزيز جاه البيت المالك والجيش والحكومة. . حسن! ولكنكم لا تقولون لنا جديداً أيها السادة. فلهذه الاسباب عينها نحن لا نبغي حربا. لان الغاية التي نقصد اليها معكوسة على خط مستقيم ، نحن نقصد الى هدم جاه البيت المالك وجاه الجيش وجاه الحكومة » وكتب في « افانتي » أيضاً يقول: « ان المعاونة على حصر الحرب وتضييقها هي واجب ايطاليا المجيد الذي عليها أن تقوم به ما دام منع الحرب غير مستطاع ، وليس في وسعنا أن نكون خداما ولا ممالئين لالمانيا والنمسا » .

كتب موسليني ذلك لان الجانب الذي كان ينتظر ان تنحاز اليه ايطاليا هو جانب المانيا والنمسا على حسب الاتفاق القديم بين الدول الثلاث، ولم يكن هناك محل للمعارضة في انحياز ايطاليا الى الحلفاء لانها لم ترتبط بعهد يوجب عليها الانحياز اليهم . ومن هنا جاء قوله « ليس في وسعنا أن نكون خداما ولا ممالئين لالمانيا والنمسا » ولم يقل « ليس في وسعنا أن نكون خداماً لانجلترا وفرنسا » اذ أن شيئاً من ذلك لم يقع في الحساب . ولكن ما هي إلا أسابيع بعد شبوب الحرب حتى كان موسليني يدعو الى التأهب للقتال ثم الى مشاركة الحلفاء واذا به ينشق على الاشتراكيين فينشىء مع فقره .. صحيفة مستقلة لترويج هذه الدعوة ثم يتقدم الى الحرب فيخرج فيها ويعفى بعد ذلك من القتال لمواصلة الدعوة بالقلم واللسان .

ولا جرم يستجيز موسليني كثيراً من هذا فانه يتخذ مكيافلي اماماً وقائداً ويقول: « انني أريد أن أحتفظ بالصلة اللازبة بين مبدأ مكيافلي وحياتي أناكها عشتها وبين آرائه وآرائي في الناس والحوادث وبين مزاولته ومزاولتي للحكومة » وهو ينظر الى مواطنه الآخر العظيم يوسف ماتسيني نظرة هازئة ويسميه القديس يوسف أو قديس جنوه على سبيل السخرية . وماكان ماتسيني في الحق الا قديساً كرعاً من قديسي الانسانية ومثلا فاضلا في الاخلاص والثبات والفداء .

⁽ ١) كتاب رجلِ القدر لفتوريو دي فيوري صديق موسليني .

⁽١) عدد اكتوبر ١٩٢٤ من الـ يـ فورتنيتلي رفبو ،

ولو أجاب الملك الوزارة الى اعلان الاحكام العرفية حين أراد الفاشيون إجبارها على الاستقالة لتغيرت الاحوال في ايطاليا وجاز ألا يظفر الفاشيون بالحكم كها ظفروا به الآن . ولكن الملك لم يعلن الاحكام العرفية لان الجيش كان يعطف على الفاشية عدو الاشتراكيين الذين كانوا يستخفون بالعسكرية وافرطوا في ذلك بعد خروج ايطاليا من الحرب العظمى بغير عوض يذكر ، ولان الفاشية كانت قد أدت كل ما عليها للملك من الطاعة والولاء وهجر مبادئها الاولى التي كانت تعوقها عن ولاية الحكومة .

وبعد فهل كان للفاشية موجب ؟ وهل كانت هي العلاج الوحيد لما كانت عليه ايطاليا في تلك الايام ؟

اما الفاشيون فيقولون بالبداهة نعم ويتعللون لذلك بكشرة الاضراب والاضطراب في الشؤ ون الايطالية بعد الحرب العظمي . ويقول توماسوسيلائي احد كتاب موسليني في الرد الرسمي الذي رد به على مقال ولز الكاتب الانجليزي المعروف : « في سنة ١٩١٩لم تعد لايطاليا مسحة البلاد المتمدنة . فقد اجتزف البغض الجماهير واستثارتهم فئة من المهيجين بغير ضمير فاستسلموا لشر ضروب العدوان وأصبح مشايخ الحرب الموقرون يهانون ويضربون والمحاصيل تحرق فى الحقول وتركت الماشية تموت وكثرت حوادث الاعتداء على أرواح أصحاب الارض ووكلائهم الامناء ومديري المصانع المذين حاولموا أن يصدوا العمال الشيوعيين عن التخريب . وبلغت الاضرابات لاسباب اقتصادية بحت في تلك السنة ١٦٦٣ اضرابا اشترك فيها ١،٠٤٩،٤٣٣ مضربا وتعطل في أثنائها ١٨،٨٨٧، ٩١٧ يوما من أيام العمل . وتوقفت ـ لاسباب سياسية ـ حركة الحياة في شبه الجزيرة كلها وشلت الاعمال العامة والسكك الحديدية والترامات والبريد والتلغراف والتليفون وظلت البواخر بلا حراك في الموانىء . وحدث في أحوال كثيرة أن قُصر توزيع الخبز على أعضاء الجهاعات الثورية وبات وجود الشرطى في القطاركافياً لوقفه تواً ولو اتفق ذلك في العراء فلا يسير حتى يُطرد الشرطي الذي يعد مجرد حضوره استفزازاً . فتعاظم سخط الايطاليين الصالحين واشمئزازهم ولا سبًّا المشايخ الاجلاء والطائفة الناشئة بين المستنيرين واهل الجد من العمال

وكان استياؤهم من الحكومة التي عجزت عن معالجة الحالة على أشده ١٠

هذا مجمل الاسباب الموجبة لقيام الفاشية في رأي ذلك الكاتب الذي هو أحد أعوان بطلها وحملة اقلامه . وقد أتى فتوريو دي فيوري صديق موسليني على أسباب كهذه في كتابه الحديث « رجل القدر » مع بعض التفصيل وطابقها كتاب أخرون معدون في اوربا وامريكا لنشر الدعوة وكلهم يقولون ان الفاشية قامت لتدفع القوة بالقوة وترد الثورة بالثورة وتريح الامة من تلك الفوضى الطارئة التي عجزت عن مكافحتها الحكومة .

أما خصوم الفاشية فيقولون ان أخبار الفوضى الايطالية كانت اشاعات مبالغا فيها جدا في الصحف الاجنبية . بالغ فيها الفاشيون لتسويغ عملهم ووافقت هلع القوم في اوربا يومئذ من خطر الشيوعية فوقعت عندهم ايضا موقع المبالغة والتهويل . والحقيقة أن الايطاليين ما كانوا قط في تاريخهم جادين في الثورة على النظام الاجتاعي ولا كان منظورا لتلك القلاقل التي أعقبت الحرب الا أن تهدأ بعد التجربة الفاشلة وأن يقلع عنها أصحابها عن اقتناع يدوم أثره ويفلح علاجه وليس كعلاج العدوان والعنف الذي يغري بالمقاومة ويضرى بالكراهية ويلقي في روع المقموعين المضطهدين أنهم غلبوا قهرا الى أن تتاح لهم معاودة الكرة واستئناف التجربة .

ويكفي ان تكون في ايطاليا طبقات كثيرة تغضبها الاشتراكية كما يقول الكاتب الفاشي ليدل ذلك على أن الخطر عارض قريب الغور وليس ببعيد القرار في طبيعة الامة بل يكفي ان يكون في البلاد الحزب الكاتبوليكي ــ وهـو يضـم اليه سواد الفلاحين ــ والاحزاب الاخرى التي تؤ من بالتطور ولا تؤ من بالثورة ليكون ذلك عاصها من عموم الفتنة ودوام الفوضى . وقد عرف العمال خطأهم بعد الاستيلاء على المصانع فتخلوا عنها بانفسهم وثابوا الى العمل طائعين في سئة ١٩٢٠ ، وسهلت الحكومة لغلاة الشيوعيين أن يججوا الى الروسيا غير معارضين ليشهدوا بأعينهم حقيقة الحال فقفلوا من رحلتهم وهـم شاكون مترددون بعـد الايمان

عدد مايو سنة ١٩٢٧ من مجلة التاريخ السائر

الاعمى والرغبة الجامحة في تحقيق أحلام الشورة الاجتماعية وتطبيق مبادئهما النظرية . . « ودع عنك أن ايطاليا ليست بالبيشة الملائمة للشورة وإن الشوار المنظورين لا طاقة لهم بأكثر من التحدث ببركات الشيوعية ولا علم لزعيم من زعمائهم بدخائل التدابير الروسية . فليس في ايطاليا أناس لهم كفاءة الفهم والقدرة الفنية اللازمة للثورة الناجعة غير اتباع توراتي الملقب بابي الاشتراكية الايطالية وهو رجل قد دأب ثلاثين سنة ولاء على التحمذير من العنف والشورة وعمل ما في وسعه بعد الحرب لكبح جماح المتطرفين . وقد ظهرت استحالة القيام بأية ثورة جدية في ايطاليا ظهوراً لا يقبل المراء في خريف سنة ١٩٢٠ حين تنحي العمال عن المصانع ورجعوا الى أعمالهم مؤمنين بعجزهم عن ادارة عن المصانع ورجعوا الى أعمالهم مؤ منين بعجزهم عن ادارة دولاب الصناعة بغير المال والخبرة الفنية . وقد أذن لهم جيوليتي ببعد نظره الساخر أن يجربوا هذه التجربة العظيمة مؤثراً إياها على اقصائهم بحد السيف والاقبال على مجازفة الحرب الاهلية ، وضربت الاحزاب الثائرة ضربة أخرى حين وافق أتباع توراتي على اقتراحه الانفصال التام من أنصار الاشتراكية المسكوفية المعروفين بالمكسمليين وتقرر ذلك في مؤتمر الاشتراكيين في شهر يناير سنة ١٩٢١ . . على ان المنقدين الحقيقيين لايطاليا هم بلا ريب الشعب نفسه بما بادر من العودة الى العمل منذ تبدد السراب الروسي ورجع وفد الاشتراكيين الايطاليين من رحلة الاستطلاع والمعاينـة غـبر مزودين بوسائق القمح من عند الزميل لنين . وبرهان محسوس على نشاط الشعب وعلى أن الحكومة لم تكن تلك الحكومة العاجزة التي يصورونها أن الدين الاهلي _ وكان مقداره ثلاثة وعشرين ملياراً بعد الحرب _ قد هيط الى ثلاثة مليارات قبل أن يتولى السنيور موسليني الوزارة ١٠ .

ولقد أطنب الفاشيون في منافع حكومتهم ونسبوا اليها كل فضل في احياء الصناعة الوطنية وروجوا دعوتهم في أوربا وفي مصر فقرأنا لبعض كتابنا كلاما يريدون منه أن يفهم الناس أن الفاشية هي التي استخدمت قوة مساقط الماء

⁽ ١) بقلم لينا واترفيلد في عدد نوفمبر سنة ١٩٢٤ عن مجلة الفورتنيتلي .

وأصلحت الزراعة والصناعة ، وهو زعم باطل ممؤه والاحصاءات الرسمية تنبىء عن بطلانه وتدل على أن الصناعة الايطالية في جلتها ولدت ونمت وقطعت شوطها الأبعد في عهد الديمقراطية أو في عهد الحكومة الشعبية التي يسخر منها موسليني وبطانته ومريدوه . ففي الاحصَّاء الرسمي الذي كتب باسم البحارة الايطاليين وأهدي الى زملائهم في الاسطول الامريكي بيان واف عن تطور الصناعة ننقله هنا بحرفه وهذه ترجمته و في سنة ١٨٧١ استعملت ايطاليا نحو ٠٠٠، ٠٠ طن من الفحم فزاد ما استعملته في سنة ١٩١٤ على عشرة ملايين لا يدخل في حسابها الترقي العظيم في استخدام القوة المائية التي يقدر ما استخدم منها بقوة تسعمائة الف حصان يدار بها لا أقل من سبعة آلاف عمل . وكان العمال الصناعيون في السنة الاولى بعد سنة ١٨٧٠ أقل من ثلثاثة الف فقار بوا في السنة السابقة للحرب مليوني رجل . . أما من حيث الانتباج فهناك صناعتان تفوقتا على الصناعات الاخرى وهما صناعة التعدين وقد ارتقت من ستة وثلاثين مليون ليرة في سنة ١٨٧١ الى نصف مليار في سنة ١٩١١ ، وصناعة الكيميات التي أنتجت في سنة ١٩١٣ أكثر من مائة وأربعين مليون ليرة وكانت في حكم المعدومة في سنة ١٨٧١ ، وتستحق صناعة النسيج التفاتا خاصا فان ايطاليا قد أنتجت قبل الحرب خمسة آلاف طن أرسل جزء منها خاما الى الخارج ونسج جزء كبير في الانــوال الوطنية التي يبلغ عددها نحو عشرين ألفا نصفها على التقريب ميكانيكي . ويشتغل نحو ماتتى ألف عامل بصناعة القطن الذي لا يزرع الا بمقدار قليل في صقلية لحرارة جوها والذي يستؤرد منه نحو مائتي الف طن من امريكا تغزل وتنسج في ايطاليا على أنوال تبلغ ٠٠٠، ١٣٠ معظمها ميكانيكي كما ظهر من احصاء سنة ١٩١٢ ، والصناعة الصوفية التي اشتهرت بها ايط اليا في القـرون الوسطى قد سرت فيها روح حياة جديدة فكان لها في سنة ١٩١٣ خمسة عشر الف نول معظمها ميكانيكي واشتغل بها نحو خمسين الف عامل . . ويجب ألا ننسي في صدد المنسوجات صناعات القنب والكتان والجوت لان ايطاليا في مقدمة الامم المنتجة للقنب وهي تصدر جزءاً كبيراً منه خاما وان كانت تستورد كل الجوت على ْ وجه التقريب من الخارج . وقد بلخ عدد المشتغلين بالغزل والنسيج في هذه الصناعات نحو أربعة وأربعين الف عامل في سنة ١٩١٧ وقدر عدد المُشتَغلين بصناعات النسيج كلها بنصف مليون ومقدار المال الموظف فيها بنصف مليار ليرة . وصناعات المعادن والآلات لا تقل في القيمة ولا في النطور عن المنسوجات . . فقد بلغ ما انتجته ايطاليا فيها قبيل الحرب مليون طن من الصلب اي عشرة أمثال نتاجها في سنة ١٩١٠ ، ويضاف الى ذلك تلك الاعمال الكبيرة التي أسست لاخراج أصناف خاصة من الصلب تضارع أحسن مثيلاتها في بلاد العالم ، وأنشئت في ليجوريا وفي ترني باومبريا وعلى مقربة من نابلي مؤسسات رائجة تصنع جميع أصناف الالات للسفن الحربية وتستخدم ماثة وخمسين الف عامل زاد عددهم الآن زيادة كبيرة فأضيف اليهم مائتان وخمسون الفاً يعملون في الصناعات الميكانيكية ومنها صناعة السيارات . وقد كانت قيمة ما صدر من دواليب السيارات في سنة ١٩٠٧ مائتي الف ليرة فوصلت بعد خمس سنوات الى ٢ ه مليونا لا يدخل في حسابها ما يشترى داخل البلاد . وهناك أعمال النقل الكهربائي التي تنقل الفحم من سافونا الى قمة جبال « الابنين » وخط الكهرباء على سكك جبال سنيس وسمبلون وجيوفي وكلها من مبدعات المثابرة والعبقرية الايطاليتين ومما يبشر بالتقدم المنتظر في صناعة ايطاليا ريثها يتيسر بعد الحرب المال والعمال ، أما الصناعات التي أنتجت عشرة ملايين قنطار من السماد الكيمي وخمسين الف طن من الكربون الممعدن ونحو عشرة ملايين طن من محصولات أخرى فهي تكاد تكون مخلوقة خلقاً من حيث لم يكن لها وجود . وكذلك صناعات الاطعمة وبخاصة السكر والجلود والجبن والمحفوظات قد خطت كلها خطوات محسوسة في خلال العشرين السنة الاخيرة ».

ويقول السنيور نيتي في رسالة نشرت في المجلد الخامس والعشرين من تاريخ المؤ رخين : « تستطيع ايطاليا أن تزيد قوتها المائية الى خمسة أضعافها وأن تنشىء في سنوات قليلة مصانع تعطيها تسعة ملايين أو عشرة ملايين « كيلوات » . . والذي يعني ايطاليا بصفة خاصة هو توزيع مائها لانها محاطة في الشهال بسلسلة الجبال الالبية وتتخللها على طولها سلسلة الابنين ، وهي لاحاطة البحر بها من جميع الجوانب ما عدا الشهال كثيرة مساقط الماء في مساحة صغيرة ، وفضلا عن هذا بينا تكون أنهارها الشهالية على أعلاها صيفاً لذوبان الثلج والجليد في جبال

الالب تكون انهار الابنين على أعلاها في الشتاء . فبناء الخزانات التي تسهل اقامتها على طول شبه الجزيرة يساعد على الانتفاع بقوة الماء وعلى تنظيم استعمالها في الصناعة وفي تسيير القطر الكهربائية » .

ولم نذكر السفن ولا خطوط الملاحة ولا المصنوعات الكثيرة التي ابتدعتها ايطاليا الحرة في عهد حكوماتها الشعبية ، لان شرحها يطول في غير جدوى . أما الزراعة فإحصاء البحارة الذي أشرنا اليه آنفا يقول انه « من سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٩٠٦ مهد للزراعة ما يقرب من ستة ملايين هكتار كانت مهجورة قبل ذاك وتضاعفت هذه المساحة تقريبا في العشر السنوات الاخيرة . . وقد أنشئت وسائل فعالة في بوجليا التي يقل فيها الماء لجلبه اليها خلال قمم الجبال العالية . . ويضاف الى هذه الاعهال الجليلة التي ستمتد وتكبر بعد الحرب اصلاح أساليب الزراعة باستعمال الادوات الميكانيكية في جميع الاقاليم بفضل المدارس العديدة والارشادات النافعة والنقابات الزراعية . . فالمحصولات التي الم تتجاوز قيمتها مليارين من الليرات في نسة ١٨٦٠ قد أصبحت اليوم ثمانية مليارات ويوشك أن تبلغ العشرة في زمن قريب . وسنت القوانين الضرورية لتجديد غرس الغابات في الجبال التي جنت عليها شدة الطمع في الربح فحرمتها الاشجار ».

هذا ما صنعته الديمقراطية في بلاد كايطاليا لا حديد فيها ولا فحم الا النزر القليل ، وليس من السهل اختراق جبالها بالمواصلات البخارية ولا من المنيسر انتاج الخامات اللازمة للصناعة في أرضها . معجزة خارقة صنعتها الديمقراطية في جيل واحد من ايطاليا المفككة المتنازع عليها بين البابوية ودول أربع تحكمها لغير مصلحة أهلها . ولا ننس صعوباتها الجغرافية التي جعلت توزيع الخصوبة والاعمال الصناعية فيها مضطرب التناسب بين الشمال والجنوب ، ولا ننس انها كانت الى زمن قريب عدة ممالك لا وحدة بينها في السياسة ولا في الادارة ولا في المصلحة ولا في الاحوال الاجتاعية ، ولا ننس تزايد سكانها من سبعة وعشرين مليوناً عند استقلالها الى أربعين مليونا في هذه الايام ، ولا ننس مع تزايد السكان الاضطرار الى الهجرة المتوالية حتى ناهز عدد الايطاليين في الخارج سبعة السكان الاضطرار الى الهجرة المتوالية حتى ناهز عدد الايطاليين في الخارج سبعة

ملايين وأحصى المهاجرون في السنوات الخمس السابقة للحرب بأكثر من مليونين ونصف ميون ، ولا ننس غير ذلك من العوامل المربكة والمؤثرات المشتبكة التي تحيط بأمة تنتقل هذا الانتقال وتعالج هذه المتناقضات . فكل ما في ايطاليا من تلك الخيرات هو ثمرة الديمقراطية وعلى أساسه يقوم كل أمل في مستقبل الطليان .

وما يقال عن الدعوى التي يدعيها الفاشيون في مسألة الصناعة يقال عن دعواهم في مسألة البطالة . فمرتبات الموظفين تنقص فترة بعد فترة لمداراة الميزانية والبطالة تزداد يوما بعد يوم والاحصاء الذي قدمته الحكومة الفاشية لعصبة الامم يقدر عدد العاطلين في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ب ١٩٢،٧٩ بيقابلهم في فرنسا ١٧،١٧٨ وهي لا تعاليج معضلة البطالة بغير الوشائل الدستورية ولا تلجأ الى القمع والارهاب كها يلجأ الفاشيون . أما الآن فربما كان عدد العاطلين ضعف ما كان عليه قبل عامين ، وقد حرم على الصحف كان عدد العاطلين ضعف ما كان عليه قبل عامين ، وقد حرم على الصحف تحريما باتا ان تشير الى مسألة البطالة وفرض على كل عامل ان يشترك في نقابات الحكومة وان يبرز شهادة بذلك للمصنع الذي يعمل فيه والا حرم على المصنع الحكومة وان يبرز شهادة بذلك للمصنع الذي يعمل فيه والا حرم على المصنع ضربا من العسكرية الاجبارية لا حيلة فيه للعامل ولا منفذ له الى الشكوى . فهذه هي العلاجات الفاشية لمعضلة البطالة وهي علاجات طبيب يستر الاعراض ويكم فم المريض ويزعم انه استأصل الداء .

وقل مثل ذلك في مسألة الديون وهي مسألة لم يبق لنا مع تكتّم المصادر الفاشية الا أن نرجع فيها الى مقال السنيور نيتي الذي يتكلم بالارقام في هذا الموضوع . قال « ان الحالة الصناعية وحالة الديون قد ساءت في عهد الفاشية وان كانت صحفهم تردد كل يوم ان الطوالع تبشر بالتحسين ولعل بعض الفاشيين لجهلهم يصدقون ما يقولون . فهناك ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٢١ ليرة من قراطيس الخزانة تستحق السداد في أوقات مختلفة حولتها الحكومة الى دين موحد بخسارة كبيرة لاصحابها وللجمهور وللمصارف . ولما كانت الحكومة تحتاج الى المال ولا يمكنها الرجوع الى قراطيس الخزانة بعد التقصير في السداد فقد عمدت

الى دين موحد جديد . وكانت خطتها في هذا الدين من أهزل المهازل في تاريخ المعاملات المالية لانها اضطرت الجمهور الى ان يشترى بسعر ٥،٨٧ قرضا موحداً كان يمكنه شراؤه في سوق المصارفات بأقل من ثمانين! فاختبلت أسعار الاسواق وهدد رجال المصارف بالموت وأذيع بصفة رسمية ان أسماء البائعين ستنشر . . ! وكانت هذه التجربة كها يقول الاقدمون تجربة الصليب التي كشفت عها في نفوس الجمهور الايطالي من قلة الثقة بهذه التصرفات. فقله اتخذت كل وسيلة لارغام الجمهور على الاكتتاب وأكره جميع التجار على اعطاء ضهان من قراطيس الخزانة وامر الموظفون وعمال السكك الحديدية بل أمر الصناع بشراء أوراق القرض الجديد . . ولكن اي فشل ! فان الحكومة لم تجمع بعد كل هذا الاكراه والارغام الاثلاثة مليارات! قارن هذا بالقرض الذي عقد بعد كارثة « كابرتو » العسكرية في أشد الظروف حرجا وجمُع فيه ستة مليارات يوم كانت قيمة الدولار ٢،٣٤ ليرات . وقد جُمُّع في القرض التالي الذي عقد لمعالجة تضخم العملة ٢١ ملياراً بذلها الناس أحراراً غير مكرهين ولا مأمورين . فالجمهور الايطالي المستنزف اليوم يضمر أسوأ الظن بالحكومة الفاشية ، اذ الحكومة التي تسيطر على كل شيء لا تضمن شيئا . ومن المستحيل على أي انسان ان يستطلع الحقيقة عن الميزانية الآن فانني مع خبرتي الطويلة بالماليات الايطالية لا أقدر على فهمها . فهي محفوفة بأوامر خفية كالامر الذي صدر في ٥ يونية سنة ١٩٢٦ لايجاد ميزانية مصطنعة ولم يدون لنا لا المصروفات العسكرية الحقيقية ولا بيان الحالة المالية الصحيحية ١٣٠

مع هذه الاساليب الغريبة بل مع شعار الفاشيين الذي يعلنونه وينادون به وهو ان « الامة قاطبة للفاشية قاطبة Tutte il paese a tutte il fascismo لا يجوز لاحد ان يتلقى بالتسليم كل ما يذاع من المصادر الفاشية عن هذه الامور كها أننا نقف موقف الحيدة فلا نتلقى كل ما يقوله خصومها بالتسليم .

على أن الامر الذي يجب أن نلاحظه هنا هو أن الفاشية لا تريد الآن أن تقاس

⁽١) عدد اعسطس سنة ١٩٢٧ من مجلة التاريخ السائر .

بمقياس التحوطات الموقوتة التي تلجىء اليهــا الطــوارىء والضرورات كما قد تلجىء الى الاحكام العرفية المحسوب حسابها في كل حكومة ديمقراطية ، ولكنها تريد ان تجعل نفسها مذهبا في الحكم يقابل مذهب الديمقراطية الحرة ويحل في محلها . فعلى هذا الاعتبار لا تكون فوائدها . على فرض صحتها ـ شيئا يقام له وزن في جانب اضرارها أو في جانب النكسة التي تُعفّى على كل ماكسبته الأمم من تجارب العصور المديدة ومحن المظالم والثورات. فلم يكن عبثا هذا الذي كسبته الانسانية في ألوف السنين من تقرير حرية الفرد واطلاق الحياة البريثة بين أرض اللَّه وسهائه بغير حد من ارادة انسان آخر يدعى لنفسه عليها السلطان والرقابة والامتثال لفكره وهواه . لم يكن عبثا هذا الذي كسبته الانسانية بل لا يصح أن يقال انها كسبت شيئا قط أن كان هذا المكسب الجليل عرضة للرجعة والنزاع ، ولم يكن عبثا هذا الذي كسبته الامم من تبديل الحكم القديم الذي كان يضطرها الى عمل عنيف كلمًا اضطرت الى تغيير حكومة ، والذي كان الحكام فيه لا يسقطون الا اذا أوقعوا بأمتهم قصاري الشر الذي يطيقه صبر الانسان حتى ليؤ ثر خراب الثورات على احتال المزيد منه ، والذي كانت الامم فيه كأنما تعيش في ميدان حرب يتعاوره بالارهاب كل فاتح جديد في كل دولةًا جديدة . كلا لم يكن عبثا هذا الذي كسبته الانسانية من ضروب المحـن في طوال العصور . فلو ان الفاشية حكمت كما تحكم الاحزاب الغالبة في الامم الديمقراطية لما كان عليها غبار ولوجب لها الشكر على ما منعت من ضر وجلبت من خمير ، ولكنها أبت الا ان تستأصل كل حزب غيرهما بقموة السملاح والارهاب، فهي ديمقراطية ناقصة مشوهة أو هي استبداد ناقص مشوه لانها ليست من الديمقراطية وليست من الاستبداد القديم . وحسبك ان تعلم ان السنيور موسليني يتولى في الوقت الحاضر ست وزارات عدا رئاسة الوزارة لتعلم ان الفاشية نظام لا يمكن أن يقوم مقام الديمقراطية لانه محصور في فئة واحدة لا يجد رئيسها ستة رجال يطمئن الى كفاءتهم أو يطمئن الى اخلاصهم ، فهو يتولى وزارة المداخلية ووزارة الخبارجية ووزارة الحربية ووزارة البحرية ووزارة الطيران ووزارة النقابات ولا يعقل أن يفعل ذلك لوكانت له ثقة في رجال حزبه من حيث الكفاءة والاخلاص أو لو كانت الاعمال تسير في تلك الوزارات على

خطة الدقة والنظام ، فالارهاب وحده هو الذي يداري ما هنالك من الخلل والاجحاف والشكاوى والسيئات ، وما كانت حكومة من حكومات الاستبداد يعوزها مثل ذلك الارهاب الذي هو اصلح أداة للمداراة وان كان اسوأ أداة لعلاج العيوب .

ولقد شعر موسليني بقرب الانتخابات التي ستجري في سنة ١٩٢٩ فعدل طريقة الانتخاب للمرة الثالثة في عهد وزارته وقرر ان تجري الانتخابات المقبلة على طريقة لا مثيل لها في بلاد العالم . فالمجالس الوطنية (وهي مجالس يعين أعضاؤها تعيينا) ستختار تسعائة اسم تعرضها على مجلس الفاشية الاعلى فيختار منها ـ أو من غيرها اذا شاء ـ اربعائة اسم ويسأل الناخبين عنهم فلا يكون لهم الا أن يجيبوا بالموافقة على جميع الاسماء أو رفض جميع الاسماء ، فان جاءت الكثرة بالموافقة فذاك والا تجدد اختيار الاسماء مرة اخرى وتجدد سؤ ال الناخبين . . والوزارة باقية سواء اكان الجواب بالرفض ام بالقبول . . !

يقول خصوم الفاشيين ان هؤ لاء لم يثبوا وثبتهم الى الحكم الا لانهم أنسوا أن الحركة الشيوعية تضمحل وتخمد ويوشك أن تدخل في دور الاستقرار ـ فاشفقوا أن تفلت من أيديهم حجة الوثوب وأن تضيع عليهم فرصة استغلال الخوف من الشيوعية في ايطاليا وفي خارجها فتألبوا مع أنصارهم على احداث ذلك الحدث الحطير في الحياة الايطالية . ويقول خصوم الفاشيين ان هؤ لاء ما كانوا يفلحون في وثبتهم لولا أنهم استغلوا ـ الى جانب الشيوعية ـ عاطفة الوطنية الثائرة في تلك الايام واتخذوا من مسألة فيومي وتوسيع الحدود الايطالية ذريعة لتأليب جميع الاحزاب ، والواقع أن خطر الشيوعية ـ سواء أكان عظيا كها يقول الفاشيون أم كان موهوما كها يقول حصومهم ـ لا يسوع القضاء على النظام الديمقراطي الصحيح واستمرار الحكم عدة سنين على الاسلوب الذي يحكم به الفاشيون . فان هذا النظام لم يعجز عن مكافحة الخطر الشيوعي العظيم في المانيا وهي صريعة الحرب ولم يعجز عن مكافحته في فرنسا وهي أيضا صريعة الحرب بين المنتصرين . وكل حسنة للفاشية أو كل ضرورة لها تصغر وتتبدد اذا كانت لا المنتصرين . وكل حسنة للفاشية أو كل ضرورة لها تصغر وتتبدد اذا كانت لا المنتصرين . وكل حسنة للفاشية أو كل ضرورة لها تصغر وتتبدد اذا كانت لا المنتصرين . وكل حسنة للفاشية أو كل ضرورة لها تصغر وتتبدد اذا كانت لا ألمن الباهظ الثقيل ، فقد حرمت الحياة في ايطاليا على كل

انسان لا يدين بمذهب الفاشية ولا ينتمي الى لجانه ونقاباته ، وحظر على الجامعات أن تدرس فلسفة التاريخ والسياسة إلا على النمط الذي يرضاه الفاشيون وإلا كان نصيب الاساتذة العزل والنفي والارهاق، والصحف محظور عليها أن تكتب الا ما يروق الوزارة ومحظور على أصحابها أن يختـاروا الكتاب إلا من ينتدبهم لها الفاشيون ، ورؤساء الفاشية هناك يصنعون ما بدا لهم غير عابئين بالعرف أو القانون . فمن أمثلة ذلك ما رواه روبرت سنكورت في مجلة التاريخ السائر عن الجنرال بتشيو وزوجته الامريكية وهي واقعة من عدة وقائع نجري على شريعتهم الجديدة : شريعة القوة وقلة المبالاة . قال سنكورت وهو من غير خصوم الفاشية : « تزوج الجنرال بتشيو من أمريكية وولدت له ابنا وقصت شعرها في باريس فضربها الجنرال جهاراً في بعض المطاعم العامة . ثم ذهبت الى إيطاليا في شهر يونيو سنة ١٩٢٤ فحاول أن ينتزع منها ومن وصيفتها الارلندية الطفل الذي حكم القضاء الفرنسي بتسلميه اليها. فلما أرادت الزوجة السفر من إيطاليا أصدر الجنرال أمره بضبط جواز سفرها فهربت الى سردينية لتركب منها البحر الى قورسيقة الفرنسية ، ولكنه علم بذلك فتعقبها بطيارات الحكومة وردها الى روما هي والطفل والوصيفة . ثم أخمذ الطفل وسجن الوصيفة في ثكنة وأمر الزوجة بترك البلاد الايطالية ، فرفضت أن تطيع أمره ولاذت بالسفارة الانجليزية فقطعت جهيزة قول كل خطيب » وقس على هذا ما يكن أن يستبيحه كل فاشي من الكبار أو الصغار الذين يلقنون هذه المبادىء في طفولتهم ويشبون على العنف وقلة المبالاة بالقوانين الى غير ذلك مما تخشى عاقبته على السلم في ايطاليا وفي الامم التي تتصل بسياستها اذا اطردت الاحوال على هذا المنوال ، قال الاستاذ جاجليلمو سلفادوري : « اتفق لموسليني _ من المصادفة أو الدهاء _ أن يقيم نفوذه على الذرية التي نشأت جامحة سريعة الانفعال متبطلة في سنوات الحرب أيام كان آباء الصبية في الخنادق وكان أمهاتهم الجازعات مشتغلات باعمال الرجال بعيدات من البيوت ، وكانت المدارس والمصانع فوضى وطوارىء الحرب غذاؤهم كل يوم ولديهم قدوة ماثلة من غارة دانزيو على فيومي يتعلمون منها الاعتساف ـ فهؤلاء الصبية كانوا في مدارج الطفولة يوم نشأت الفاشية وفتحت لهم منفذاً لما ركب فيهم من القلق

والجاح ، وجاء موسليني فأرضى فيهم ولع الطفولة بالمظاهر والغرائب وألبسهم القمصان الزرق على صدورها صور الجاجم أو الشارات الرومانية على الجيوب ».

ان هذه الصرامة في خطط الفاشية وجنودها قد تدل على أي شيء إلا على الضبط والنظام ، فلو أن هناك ضبطا ونظاما على ما يرام لما خفيت المؤ امرة التي دبرت لاغتيال ملك البلاد ولما أفلت الجناة بعد انفاذ مؤ امرتهم فلم يقف حراس الآمن ولا المحققون لهم على أثر .

موسليني

قال الكاتب الانجليزي الكبيرج. ه. . ويلز . « حسب المرء أن يدرس قليلا من صور موسليني التي بعثرت في انحاء الارض ليدرك أنه محدث مصنوع وليس بأصيل مبتكر ، فهذا الوجه الممتزج فيه الضعف والقوة هو وجه الممثل بجميع أوصافه ، فهو دائب يحملق من وراء كساء يتشبه فيه بالابطال الاقدمين وخوذة منتقاة بعينين خلو من الفكر والذكاء توحيان اليك معنى التحدي الفارغ كأنما يقول : حسن ! ماذا عسى أن تقول عني ؟ انني أنكره . ! هو وجه رجل مغرور أغلظ الغرور يجفل اجفال الخوف من أقل هسيس . وليس ما به خوف الجسد أو الخوف من القاتل الكامن في الظلام ، ولكنه الخوف أقتل الخوف من الحق الذي يمشي في وضح النهار . . ألا فليذهب هؤ لاء جميعا . ليذهب نيتي وامندولا وفورني وميسوري وماتيوتي وسالفيني واستورزو وتوراتي . ليذهب جميع هؤلاء الرجمال المذين يرقبون وينقلمون وينظمرون . فهاذا تراهم ينتظرون ؟ ما من اسم من اسماء هؤ لاء الرجال الذين ضربوا ونفوا أو قتلـوا القتل الدنيء الا وهو اسم رجل حير من هذا الممثل الذي يستأثر بالمسرح اليوم في ايطاليا . وأكبر خطيئة تعد لواحد من هؤ لاء هي قدرتـه على كشف المخبـأ ونظرته المصمية المثلجة . والحق أن موسليني لم يصنع شيئا لايطاليا وانــه هو نفسه صنيعة من صنائعها : صنيعة مشوهة مخدجة . فآذا سأل الايطاليون : ما العمل بغير موسليني ؟ فالجواب : انكم تجدون غيره . فان هذا الذي يدرُّب اليوم وينظم باسم الفاشية كان موجوداً قبله وسيبقى موجوداً بعده . فاذا هو قضى نحبه فلن تعانى الفاشية أقل صعوبة في اخلافه من موارد ايطاليا المخصبة ببديل يضارعه في التمثيل والقعقعة الخطابية ، وانما صعوبتها أنها ربما وجدت خلفاء كثيرين بعده ».

وأيا كان مبلغ الصواب في تقدير ولز لموسليني فالحقيقة التي لا مراء فيها هي اللك لا تقرأ لهذا الرجل كلاما يدل على فكر ثاقب أو درس حصيف أو اطلاع واسع . وهو في كلامه عن نفسه يزرى باللدرس والاطلاع ويقول انه اطلع على كتب أشتات ولكنه لم يعول على غير كتاب واحد هو كتاب الحياة وعلى أستاذ واحد هو أستاذ الاختبار ، ويعجبه كتاب جوستاف لوبون عن أطوار الجماعات وهو الكتاب الوحيد الذي ذكر اسمه من بين قراءاته للآداب الالمانية والانجليزية والايطالية التي تحدث بها في ترجمته المكتوبة بقلمه في مجلة بريطانيا الحديثة . على أنك لا تتبين من كتاباته أثراً للدرس العميق حتى في أصول الاشتراكية التي كان يبشر بها ويتفاني في الدعوة اليها ، فهي عنده مذهب مزاج لا مذهب معرفة واختبار . ورثها عن أبيه وتلقاها في بيته ووجد فيها منزعا لخليقة الهجوم والتحدي والظهور التي فطر عليها وعرف بها من صباه ، وهو يذكر أباه ويصفه والتحدي والظهور التي فطر عليها وعرف بها من صباه ، وهو يذكر أباه ويصفه بالبطه والاخلاص ولكنه يخص أمه بأحسن اعجابه وحبه ويقول إنه استفاد من طلعها أجل الفوائد وأدومها في حياته ، ونظرة الى صورتها وصورته تريك انه غلقها أجل الفوائد وأدومها في حياته ، ونظرة الى صورتها وصورته تريك انه قد أخذ منها الخلقة كها أخذ منها الاخلاق فجاء أشبه وأقرب اليها في ملاعه ومؤاجه .

كانت أمه معلمة في الزمن الذي كان التعليم فيه قليل العائدة وضيع المقام . وكان أبوه حداداً فقيرا يتشيع الى الاشتراكية والثورة فسهاه بنيتو على اسم الثائر المكسيكي بنيتو جوريز المسؤ ول عن اعدام الامبراطور مكسمليان فهو اشتراكي المولد لا اشتراكي الرأي والعقيدة ، وماكانت العقيدة قطعند موسليني

⁽ ١) راجع الاعداد الخمسة الاول في مجلة بريطانيا الصادرة في شهر مستمبر سنة ُ١٩٢٨ وما يليه (٣) كتاب رجل القدر لفتوريو دي فيوري .

الا القالب الذي يفرغ فيه طبيعة الهجوم والغضب والظهور ، فهي تأتي تالية ويأتي قبلها الغضب والعراك على حسب الدواعي والظروف ، وما وقفت العقيدة قط في طريق موسليني ولا كانت هي صاحبة وحيه ومسدد خطاه . فموسلني الذي انحى على المسيحية وألقى عليها تبعة سقوط الدولة الرومانية يوم كان اشتراكيا غاليا يجوب الآفاق في البلاد السويسرية هو موسليني الذي افتتح وزارته بالصلاة الجامعة يوم نجحت غارته على العاصمة الإيطالية ، وموسليني الذي أبى الحرب أشد الاباء هو موسليني الذي دعا اليها أشد الدعاء بعد ذلك بأسابيع معدودات ، وموسليني الذي كان يصب النار على أصحاب الاموال هو موسليني الذي أصبح يصب النار على العمال ، وهو في كل أولئك رجل يريد أن يهجم ويعارك وليأت سبب العراك حيث أتى فلا عبرة عنده بالاسباب واغا العبرة بالواقع الراهن وبما يشاء أن يقوله اليوم لا بما كان يقوله قبل أيام :

وحيثها تجد المتعة العقلية والفكر الراجح والذكاء والالمعية في كتابات نيتي وأصحابه الذين ذكرهم ولز لا تجد في كتابات موسلني الا النطبيل والتهويل والارعاد والابراق. فأنت تفقده اذا بحثت عنه في مجالم الواسع ولا تعرف مكانه الا اذا بحثت عنه في مجال الحركة والنشاط والمفاجآت، فليس هو بالسائس المدبر ولكنه هو القامع المرهب الذي لا يبعد بنظره عها هو فيه وسكينة ايطاليا في الوقت الحاضر ليست بالآية النادرة ولا بالبرهان الصادق على حسن السياسة وصلاح الحكومة. فإن السكينة شاملة للروسيا في عهد الشيوعيين وكانت شاملة لمصر في ابان الحرب العظمى فهبت بعدها الثورة بين ليلة ونهار . فها كانت السكينة يوما بالبرهان الصادق على صلاح الحكومة أو رضى المحكومين أو صحة المبادىء التي تدار بها الامور أو ملاءمتها للحالة التي تكون فيها الامة . وانما القدرة السياسية الصادقة هي أن تسود السكينة وتسود تكون فيها الامة . وانما القدرة السياسية الصادقة هي أن تسود السكينة وتسود والزعاء لا لأن المغرض الاكبر هو ابتغاء السكينة بأي ثمن وعلى أية حال ، وهذا والزعاء لا لأن الغرض الاكبر هو ابتغاء السكينة بأي ثمن وعلى أية حال ، وهذا الذي اراده نيتي وجيوليتي وأصحابها بالمصابرة والانتظار وأوشكو أن يصلوا اليه على ما يقول العارفون .

ان كان لموسليني، فضل على ايطاليا فانها لم تنعم بفضله لان الحكومات التي سبقته كانت تسلك مسلكه وتضطهد خصومها اضطهاده ، كلا ، والا لما بقي موسليني في ايطاليا أو لما بقي قي قيد الحياة ، ولكن ايطاليا ظفرت بموسليني لان الحكومات التي سبقته كانت تطلق، الحرية لاصحاب المذاهب والافكار ينقحونها بالتجارب ويهتدون الى الرأي الامثل كها اهتدى موسليني من الشيوعية الى الوطنية ومن الفوضى الى النظام .

ولقد احسن موسليني اغتنام الفرصة من سخط الايطاليين الشديد على الشيوعيين وموت عاطفتهم القومية واستخفافهم علانية بالنصر البذي كلف أمتهم ألىوف الارواح وملايين الاموال واجترائهم في قوارع الطرقات على الاعلام الوطنية وأنواط الشرف التي كان يلبسها الجنود العائدون من ميدان القتال ، وبلغت الحماسة الوطنية أعلاها حين تحفزت الامة بقيادة الشاعر دانزيو لرد المدن الايطالية التي بقيتٍ في قبضة الدول المجاورة فقامت الفاشية في تلك الايام باسم روما الخالدة تتزيَّي بشعارها وتتشبه بتحياتها وتترنم بانغامها ، وطفق موسليني يرفع لابناء وطنه ذلك المثل الاعلى ويسخر من الساسة الذين يغفلون عن حياة هذه العاطفة الكريمة ويشغلون الامم بأحاديث المنافع والدراهم . يقول مؤ رخه وزميله فتوريو دي فيوري في الفصل الاخير من كتاب رجل القدر : « وبينها تتلوى روما الصيارفة تحت ضربات لومه وتقريعه يعيش هو في روما الماضي وروما المستقبل : يعيش في روما الخالدة التي لا تتبدل » ويقول في الفصل الثامن : « وعبثا كان جيوليتي يوجه خطابه الى أخس غرائــز الجماهــير وأسفلها ، الى الخوف من الحرب والموت ، الى الرغبة في المنافع المادية . فان روح ايطاليا التي كانت تنطق بلسان الشاعر والخطيب أبت كل مساومة وعقدت عزيمتها على النضال n .

الخلاصة

والخلاصة أن تاريخ ايطاليا الحديث هو تاريخ نجاح الديمقراطية وليس تاريخ الفشل والافلاس لحكومات الشعوب ، وأن ما يحدث في ايطاليا منذ بضع

سنوات لا ينفي ارادة الشعب وانما هو حالة تعرض لكل حكومة و يحسب حسابها في كل ديمقراطية ، أو هو كها قلنا ديمقراطية ناقصة مشوهة لانها تعترف بارادة الشعب ولا تعترف بحرية أفراده كها يجري احيانا في البلاد الخاضعة للاحكام العسكرية ، والفاشية لم تنكر ارادة الشعب ، لكنها استخدمت ارادة الكثرة الغالبة لارهاق القلة الصغيرة .

اما الذين يترسمون الفاشية في مصرفهم أحرى ألا تنفعهم في كثير ولا قليل ، اذ عليهم ان يذكر وا ان الفاشية قوة وطنية وليست بقوة أجنبية وأنها قامت سخطا على المتساهلين للاجانب في المطالب القومية ولم تقم حب المتساهل في تلك المطالب على الكره من ابناء البلاد ، وأنها تتغذى بحماسة الشباب ولا تتغذى بفضلات فتور الشيوخ ، وأنها تقود الشعب بالمثل الاعلى والنخوة النبيلة ولا تقوده بالتزلف الى اخس غرائز الجماهير ، وأنها لا تفصل في قضية الشعب الكبرى وآماله الباقية وانما تفصل في عروض تتولاها الوزارات ، وعليهم ان يذكروا غير ذلك أن الفاشية نشأت في بلاد كانت مقسمة الى أربع عمالك وست امارات ، وأنها نشأت في بلاد لا تزال مقسمة في أوضاعها الجغرافية الى اقسام تتوزع فيها الصناعة والزراعة توزعا يباعد التفاوت في الاحوال الاقتصادية بين جميع الاقاليم ، وأنها نشأت في بلاد يهجرها عشرات الالوف من ابنائها كل عام ، وأنها نشأت في بلاد تعطلت فيها المصانع فجأة بعد الحرب العظمي وقلت المكاسب وغلت الاسعار ، وأنها نشأت في بلاد هي مقر الرجعية الدينية التي تجدّ الى اليوم لاسترجاع سلطانها المضاع ، وعليهم أن يسألوا انفسهم ماذا كانت تكون خواطر العمال والمعوزين في مصر بعـد الحـرب العظمـي لولا الحماسـة الوطنية التي استغرقت فيهم كل عاطفة وصرفتهم عن الشيوعية وحرب الطبقات ، والتي يخمدونها اليوم ما استطاعوا ليتركوا مكانهـا خلـوا لوسـواس المصلحة واغواء الدعاة!

بسمارك

ظهرت الدكتاتورية _ أو ما يسمونه الدكتاتورية _ في أمم أخرى غير تركيا وإيطاليا واسبانيا وفي أصقاع أخرى غير شواطىء البحر الابيض المتوسط . ظهرت في المجر وبولونيا ورومانيا ولكنها لم تتأصل في واحدة من هذه الامم ولم تكن نظاما من أنظمة الحكم أو مذهبا من مذاهب السياسة ، ويقال على الاجمال انها حيث ظهرت كان ظهورها لقلة الديمقراطية لا لكثرتها وكانت تظهر في البلاد التي ابتليت بالتقسيم واختلاف الاجناس قبل الحرب العظمى وبعدها ، فكانت من عقابيل الحكم المطلق وبقايا فساده وسوء تصريفه ولم تكن من جرائر الديمقراطية التي هي ترياق تلك الآفات .

بدأ النزاع الحديث بين الديمقراطية والدكتاتورية (أو الاستبداد) في القرن الماضي يوم كان الايمان بحكم المستبدين ضرباً من الدين وضرباً من الوطنية في وقت واحد: ضرباً من الدين لان المستبدين كانوا يرتفعون بدعواهم الى مشيئة الله ويزكون أفعالهم بشهادة القساوسة والاحبار، وضرباً من الوطنية لان مبادىء الحكم الديمقراطي كانت مبادىء الفرنسيين الغالبين وكانت مجاربة فرنسا فرضا قوميا على اعدائها المغلوبين، ومع هذا _أي مع مناصرة الدين والوطنية

والعادات والقوة ـ فشل الاستبداد وظفرت الديمقراطية وصار أكبر المستبدين في القرن الغابر هم عبرة هذا النزاع الذي يضرب به المثل وتعرف منه العواقب . ولهذا أردنا أن نتخذ هذه العبرة من تاريخ رجلين هما بغير خلاف أكبر المستبدين في عصرهما ان لم يكونا أكبرهم في جميع العصور . ولد أحدهما يوم أن دالت دولة الآخر وهما بسهارك ونابليون .

كان بسارك مستبداً بفطرته لانه ولد في أسرة من أسر الريف في الضياع البروسية ، فكان من طفولته معتدا بنسبه متعصبا لطبقته فخورا بأوضاع وطنه ، وكان مدار الخلاف بينه وبين الاحرار أنه يقيم وحدة المانيا على القوة والحرب وكانوا يريدون أن يقيموها على الحرية الشعبية والسلم ؛ وفي هذا الخيلاف يطول الاخذ والرد واستعراض الحوادث والاسانيد ، ولكن الامر الذي يتفق عليه الاجماع هو ان الحروب التي اقتحمها بسارك لتوحيد المالك الالمانية قد أفردت المانيا بين الدول وجعلتها غشية محذورة لا يؤ من جانبها ولا يستبعد عليها أن تعتدي على أحد أو تنقض عهداً بينها وبين حليف ، ومصاب المانيا بهذه العقيدة التي ذاعت عنها وانتفع خصومها بترويجها هو المصاب الاكبر في الحرب العظمى وفي المساجلات السياسية التي سبقتها وأفضت اليها .

وفي تاريخ بسازك حادثة لها أوثق ارتباط بالحرب العظمى ومعقباتها يتبين منها كيف يتغلب الشعور الشخصي على سياسة المستبدين حتى في المسائل التي تتوقف عليها مصائر الامم وجلائل الخطوب. تلك هي حادثة المحالفة الروسية التي تقلبت أدوارها على حسب التقلب في الميول الشخصية بين ساسة الروس وساسة الالمان. فقد كان بسارك نصيراً لمحالفة الروسيا وكان متفقا مع القيصر على تأييد السياسة الروسية في مؤتمر برلين. ولكن جرشا كوف المندوب الروسي في المؤتمر علم أن بسارك يسعى لتعيين شوفالوف صديقه وزيرا للقيصر بدلا منه في المؤتمر علم أن بسارك وحصل على وعد بذلك في مقابلة التأييد الذي اتفق عليه بسارك مع القيصر. فلما اتصل هذا النبأ بجرشاكوف تعمد الاقلال من المطالب الروسية في المؤتمر فتعذر على بسارك أن يساعد الروسيا لانه كما قال لا يسعه أن يطلب له أكثر مما تطلب لنفسها. فانفض المؤتمر وروسيا ناقمة متذمرة يسعه أن يطلب له أكثر مما تطلب لنفسها.

واستطاع جرشاكوف أن يقنع مولاه بان بسهارك قد لعب به واخلف معه وعده ولم يساعده المساعدة التي كآن ينتظرها منه . فقال له مولاه : اذن تبقى أنت في مركزك . . ! وكان هذا هو الغرض الذي عبث هذا الرجل من أجله بمصالح بلاده في عالم السياسة الدولية . فلما خاب أمل بسمارك في تعيين صديقه شوفالوف انقلب على الرومىيا وحسّن للامبراطور ولهلم الاول أن يعرض عنها ويحالف النمسا مناظرتها . . وراح يتمحل لذلك أعذارا ما كان يعبأ بهـا من قبل: كقوله أن الروسيا همجية أو توقراطية والنمسا جرمانية على شيء من حكم الدستور! مع أنه كان يبغض الدستور والامم الدستورية! أو كقوله ان الروسيا مستغنية عن المانيا ولكن النمسا محتاجة اليها ، أو كقول ان مطامع الروسيا كبيرة لا تطاق وان النمسا تقنع من حلفائها بالقليل ، فلم يوافقه ولهلم الاول على رأيه وتشبث بمعارضته على خلاف عادته . لماذا ؟ لاسباب لعل أهمها القرابة بين البلاطين الروسي والبروسي . . أو لعل المنافسة الشخصية بين فينا وبرلين اللتين تقاسمتا العظمة والظهور في أمم الجرمان هي أيضا سبب من أهم هذه الاسباب ، ثم انقضي هذا الدور وجاء ولهلم الثاني واستحكم الشقاق بينه وبين بسمارك ووافق ذلك اوان تجديد المعاهدة السروسية واضطر بسمارك الى الاستقالة قبل تجديدها فاهملت المعاهدة وتغيرت وجهة السياسة الالمانية والسياسة الدولية تبعا لذاك . . فلهاذا هذا التغير ؟ لأن ولهلم الثاني اطلع على وثيقة سرية يصفة فيها قيصر الروسيا بالخرق والخبل! ولان هو لشتين عدو بسيارك كان يومئذ هو صاحب القول الفصل في السياسة الخارجية ، وهكذا تتقلب مصالح الامم بين أهواء المستبدين حتى حين يكون المستبد رجلا كبسمارك عظيم الوطنية عظيم اللب عظيم الدهاء .

ومن العبر النواطق بالمغزى البعيد أن تسمع رأي ولهلم الثاني في عواقب استبداد بسيارك! وولهلم الثاني كها تعلم هو خليفة بسيارك في الاستبداد على سياسة الالمان. فهو يعزو هزيمة المانيا الى تقصير سياستها الخارجية ويعزو هذا التقصير الى كراهة بسيارك للمستقلين من مرؤ وسيه وانفراده وحده بتدبير كل شيء بغير مشاورة الوزراء والمرؤ وسين « فخلت الوزارة والسفارات من الناشئة المدربة وامتلأت باللين تعودوا الطاعة العمياء والعمل بوحي الرؤساء. فها

كان مكتب الشؤ ون الخارجية الا مكتبا خاصا للمستشار العظيم يجري فيه العمل بارشاده وأمره. فلا تدريب ولا تخريج هناك للقادرين المستقلين في الآراء ، بخلاف ما كان عليه مكتب القيادة العامة برئاسة مولتكي حيث كان الضباط الحديثون يتربون ويتدربون على التفكير الحر والعمل المستقبل على حسب الاصول المصححة ورعاية للتقاليد مع العناية بما تهدى اليه المستحدثات، فلم يكن في مكتب الشؤ ون الخارجية الا ادوات منفذة لرأي واحد لا يؤذن لها ان تطلع على دخائل الامور التي تعمل فيها ولا قدرة لها من أجل ذلك على الاستقلال بعمل ، فكان البرنس ثمة كالصخرة العظيمة في البطحاء اذا تزحزح من مكانه لم تكد ترى فيه الا زواحف الديدان وميت الجذور الا

وأعجب من هذه العبرة أن يعود بسهارك بعد أن كافح الريشستاج جيلا كاملا فيقول وقد رأى عواقب فصل الشعب عن الحكومة وأوجس من المستقبل القريب: « ربما كانت خطتي التي قمت فيها بواجبي هي سبب خلو المانيا من عمود فقارها وكثرة طلاب المناصب وخدام الفرص فيها . . فاجدر الامور بالاهتمام هو تقوية الريشستاج ولا سبيل الى ذلك الا بانتخاب النواب المستقلين . . واذا دام الريشستاج على حالة الضعف الراهنة فالحق ان المستقبل لمظلم . . واعتقادي أن الازمة كلها تأجلت كانت أدهى وأخطر . . وربما خبأ غيب الله لالمانيا عصر ذبول آخر يتلوه عصر مجد جديد ـ ذلك ولا ريب سوف يكون على أساس الحكومة الجمهورية الله .

⁽ ۱) مذكرات ولهلم الثاني من سنة ۱۸۷۸ الى سنة ۱۹۱۸ (۲) صفحة °77 من حياة بسارك لاميل لدفج .

نابليون بونابرت

تعبت فرنسا من الشورات والفتن والحروب وشعرت باعدائها يناوئونها ويتربصون بها فسهل عليها أن تنقاد لنابليون الذي عودها النصر وحسن البلاء .

وشغلها نابليون بالمجد والاعجاب وأحاديث الاخطار والجهاد فنسيت الحرية قليلا ولكنها لم تنسها طويلا ، فرأى آخر الامر أنه لا بد له طوعا أو كرها من الديمقراطية وأنه حين أخذ الحرية وأعطى المجد قد دخل في صفقة لا دوام لها ، لان المجد يغري الشعب بطلب الحرية وهو غير مستطيع أن يعطي الشعب مجدا في كل حين .

ولما عاد من ألبا ومثل بين يديه الوزير الديمقراطي كونستان قال له :

« قل لي ما هي أفكارك ؟ حرية الكلام وحرية الانتخاب ووزراء مسؤ ولون وصحافة حرة ؟ انني موافق على كل ذاك وبخاصة حرية الصحافة . فان محاولة سحقها بعد الآن لسخف . . انني انا رجل الشعب . فاذا كان الشعب يريد الحرية حقا فلا بد لي من اعطائه الحرية . . لست بالفاتح ولا طاقة لي أن أكونه

بعد اليوم . انني أعرف ما يمكن وما لا يمكن وكل قصدي الآن أن أقيم فرنسا مرة أخرى على قدميها وأمنحها دستورا يلاثم مزاج شعبها . . انني لا أكره الجرية وان كنت قد بسطت لها مرقداً واسعاً حين وجدتها في طريقي ، وانني لأفهم الحرية وبهذا الطعام اغتذيت . لقد ضاعت جهود خمس عشرة سنة فلو أردت البدء من جديد للزمتني عشرون سنة واحتجت أن أضحي بمليوني رجل . . فأنا أريد السلم ولكني لن أناله الا بنصر ولن أنال النصر الا بتأييد من الشعب . وسيطلب الشعب الحرية ثمناً لتأييده . حسن جداً . سيأخذ الشعب الحرية . . ان موقفي لموقف جديد . فانني أشيخ ، وفي الخامسة والاربعين لا يكون الرجل كما كان في الثلاثين . فسلام الملك الدستوري يلاثمني جد الملاءمة ، ويقيني أن هذه الحالة ستلقى الرضي والقبول من ولذي » .

فنابليون بقوانينه واصلاحاته وأكاليل المجد التي على تاجه لم يستطع أن يظل حاكما بأمره في أوائل القرن التاسع عشر ولم يرج النصر الذي يسبغ السلام على علكته الا برضوان شعبه . وقد شاءت المقادير ان تجزيه واحدة بواحدة فخلع برلماناً وخلعه برلمان ، ولولا أن نواب الشعب دعوه الى اعتزال الملك لما جسرت الدول على طرده لان ملوكها المطلقين كانوا قد عرفوا معنى الحرب التي تقودها ارادة الشعوب

نعم ان فرنسا عادت الى الاستبداد باسم نابليون جديد هو نابليون الثالث ابن أخي نابليون الكبير ، ولكنها عادت اليه للدفاع عن حقوق الشعب لا لاهتضام تلك الحقوق ، فقد كان الرجعيون في البرلمان هم الذين ضيقوا على الشعب وحرموا العمال حق الانتخاب وعطلوا حرية الصحافة وحرية الاجتماع وأسرفوا في الحجر على جميع الحريات في قانونهم المعروف بقانون مارس سنة ، ١٨٥ . فحاء لويس نابليون يلغي ذلك القانون ويعيد الى الشعب جميع تلك الحقوق ، ثم آل أمره الى اعلان الديمقراطية التامة في سنة ١٨٦٩ وتجديد الحكومة النيابية في أوسع نطاق . الا أن دسائس الحكم المطلق بقيت مع جراثيم السنين الماضية لي أوسع نطاق . الا أن دسائس الحكم المطلق بقيت مع جراثيم السنين الماضية لتقضي عليه آخر قضاء . فلما شجر الخلاف على وراثة العرش الاسباني تصدت لله الامبراطورة اوجيني ـ وكانت اسبانية لها مطامع خاصة في بلادها ومن رأيها ان

الحرب توطد دعائم عرشها . فعرفت كيف تستميل اليها المعجبين بها من القواد الظرفاء والساسة المتأنقين ، وعرفت كيف تصم مسامع الامبراطور المتردد عن نصائح تير وأصحابه الاحرار الذين كانوا يذادون عن البلاط ولا يقبلون فيه الاعلى جفوة وغضاضة . فكانت الحرب مع بروسيا وكانت الهزيمة العاجلة وكانت نكبة فرنسا التي لم ينقذها منها الا تير وأصحابه الاحرار .

خاتمة

عا تقدم نعلم أن كلمة « بلاد البحر الابيض » كلمة لا معنى لها اذا أريد بها تسويغ الحكم المطلق في البلاد الواقعة على ذلك البحر . لان الحكم المطلق أو الحكم الدكتاتوري ظهر في بلاد كثيرة غير تلك البلاد ، ولان الاسباب التي أفضت الى قيام الدكتاتورية ـ أو ما يسمونه الدكتاتورية ـ في تركيا وإيطاليا واسبانيا ليست خاصة بالبحر الابيض ولا بطبيعته الاقليمية أو الجنسية ، اذ هي أسباب يمكن ان توجد في اي بلد وفي ظل آية حكومة ، وواحدة من تلك الامم وهي تركيا _ أجدر بأن يقال أن الذي حدث فيها هو انشاء الديمقراطية لا انشاء الدكتاتورية ، وان القوانين الحازمة التي يسنونها هناك انما هي القوانين اللازمة الدكتاتورية ، وان القوانين الحازمة التي يسنونها هناك أنما هي القوانين اللازمة النظام القديم وعوامل التقهقر . فليست هي استبداداً ولا الغرض منها توطيد حكم الاستبداد ، وفي كلام مصطفى كمال مع الكاتبة الانجليزية جراس حكم الاستبداد ، وفي كلام مصطفى كمال مع الكاتبة الانجليزية جراس اليسون عن تحرير المرأة يقول : « كيف يتاح لنا أن نبني ديمقراطية تامة ونصف الأمة في الاصفاد ؟ « ويقول مرة أخرى : « ان الرجال الذين يُطلبون في عهد الديمقراطية لا بد لهم من منزل يتربون فيه . والآن وقد خلصنا من الاجنبي في الديمقراطية لا بد لهم من منزل يتربون فيه . والآن وقد خلصنا من الاجنبي في

وسعنا ان نبدأ بتنفيذ الاصلاح ، ومصطفى كهال هو الذي جعل شعاره في تحرير الشعب كله : « خير وسيلة لتعليم قوم قيمة الحرية هي أن تطلقهم احراراً » وهو رئيس حزب الشعب ورافع السيادة الشعبية الى حيث لم يرتفع بها دستور في وطن من الاوطان. فمن الظلم والخطأ ان تسمى حركة الرجل العظيم بالحركة الدكتاتـورية الا بمعنى وأحـد فيه الفخـر كل الفخـر لمصطفـي كمال وللشعب التركى على السواء ، وهو أن ذلك الشعب قد أحب مصطفى كمالا واعجب به لانه يستحق حبه واعجابه فأولى حكومته كل ما تحتاج اليه من السلطان لتحريره والنهوض به وترقية شؤ ونه . وقد علم مصطفى كهال أن شعبه مفتقر الى الاصلاح فلم ينظر اليه نظرة المحتقر ولم يعزل نفسه عنه هو وصحبه ولم يتذرع بذلك الى حرمانه حقاً من حقوقه . لان هنـاك طريقتـين لادراك أدواء الشعوب: احداهما طريقة الوارث الذي يسمع بمرض مورثه فيرتاح الى تصديقه وينقبض لعلامات الصحة التي تبدو على مريضه ويود أن يؤكد كل نذير من نذر العلة ويدحض كل خبر من اخبار الشفاء ، والاخرى طريقة الأب العطوف الذي يسمع بمرض ولده فلا يرتاح الى تصديقه ويستبشر بكل ما يخلف ظنه ويؤ من جد الايمان بحياته ويبذل ما في وسعه لتعجيل شفائه ، وكانت هذه هي طريقة مصطفى كمال في ادراك أدواء الشعب التركى ـ وهي الطريقة الفذة لعلاج الشعوب ـ ولم تكن طريقته أن يبحث عن علامات الخطر بحثاً لانه يريدها ويفرح بها ويعلق آماله جميعاً على الوفاة .

ان العدو الاجنبي ليستطيع أن يرى عيوب الامة التي يبغضها ويستعبدها ولكننا لا نحتاج منه الى هذه النظرة وليست حاجتنا الا الى نظرة الوطني المشفق الغيور الذي يستفز في أمته كل ما يستفزه الكائن الحي في بنيته من كامن قوة يغالب بها الداء.

أما ايطاليا واسبانيا فقد غُلبت فيهما الديمقراطية ولم تفشل . وفرق بين أن يغلب على أمره وبين أن يتداعى من صميم بنيانه ، فها من نظام حكومة في التاريخ الا وقد غلبته القوة في بعض أزمانه ، ولكن الفشل شيء غير هذا وهو أن يثبت بالتجارب الطبيعية في المواطن المختلفة أن هذا النظام غير صالح للقيام .

ولم يثبت قطأن الديمقراطية كانت فشلا في ايطاليا أو في اسبانيا بل ثبت نقيض ذلك أن آفة إيطاليا واسبانيا معاً هي حكم المستبدين لا حكم الشعوب وأن الذي تشكوان منه هو الموانع التي تمنع شعبيها أن يكون لهما الرأي النافذ في سياسة البلاد .

ولسنا نريد أن نعرض هنا لخفايا الاسباب التي أحاطت بقيام الدكتاتورية في إيطاليا واسبانيا ، بيد أننا نقرر مالا خلاف فيه وهبو أن الدكتاتوزية قامت في الأمتين على قوة وطنية معتزة بالشعور الوطني والآمال القومية ولم تقم على قوة أجنبية ولا قامت لاخلاء روح الآمة من كل نخوة حية ومن كل اعجاب سام ومن كل شيء غير التهافت على المنافع المكذوبة والصغائر التي لا تنهض بها همم الشعوب . ولقد عز على نابليون بونابرت أن يحكم اسبانيا قبل مائة سنة ولم يعز ذلك على بريمودي ريفيرا ومن وراءه في هذا العصر وهم أقل جنداً وأقل شأنا وأقل اصلاحا من نابليون ، وهم يحكمون أمة أعلم وأرقى وأكبر من التي أراد أن ليريمودي ريفيرا ومن معه الا لفرق واحد تتضاءل فيه جميع الفروق ، ذلك هو الفرق بين الحكومة الاجنبية والحكومة الوطنية وان عجزت هذه أسوأ العجز واقتدرت تلك أحسن الاقتدار .

وسواء صحت الضرورات التي انتحلت للحكم الدكتاتيوري في اسبانيا وإيطاليا أو لم تصح فالحقيقة الواضحة أنها ضرورات لا مثيل لها في غير هاتين الامتين من أمم البحر الابيض المتوسط. وأين في غير اسبانيا وايطاليا تلك الملايين المعطلة والحروب التي تقتل فيها عشرات الالوف والقلاقل التي تذهب بالارواح على قوارع الطرقات والديار التي يهجرها مئات الالوف في كل عام والاقاليم التي تهم بالانفصال والسطوة التي يملكها رجال الدين في السر والعلانية والمذاهب الاجتاعية والسياسية التي تضرب في قرار الاساس ؟ أين في غير اسبانيا وايطاليا من أمم البحر المتوسط هذه الاسباب أو هذه الضرورات صحت كلها على علاتها أو كان منها المبالغ فيه وغير الصحيح ؟

على أن الحكومة النيابية في أمم الديمقراطية لم تعي قط بمراس أسباب كتلك

الاسباب وضرورات كتلك الضرورات ، بل لم تعي حكومات الديمقراطية حتى في الزمن القديم بعلاجها والاحتياط لها وهي بالقياس الى حكومات اليوم ناقصة النظام ناقصة التمثيل ناقصة الاداة . ففي روما القديمة كان مجلس الشيوخ في أوقات الخطر على الوطن ينتدب من زعاء أوقات الخطر على الوطن ينتدب من زعاء الامة « دكتاتوراً » يساعده قائد حربي ويطلق يده في الشؤ ون العامة زمنا أقصاه في العادة ستة أشهر ، وكثيراً ما كان الدكتاتور يعتزل وظيفته باختياره اذا أنجز ما انتدب له قبل الموعد المضروب ، وكان مجلس الشيوخ على كل حال يحتفظ بحقوقه التامة في أثناء ذلك ويشرف يوما يوما على أعهال الدكتاتور وأعوانه الحربيين ، ولم يحدث قط الا عنوة واقتساراً - أن يجيء الدكتاتور والسكينة مستقرة والحقوق العامة مصونة فيستبد بالناس وينتهك الحق المصون ويفرق وحدة الامة المتفقة . . هذا وهو لا يكون دكتاتورا الا بنوع من البطولة المهيبة المحبوبة يغني النفوس بعض الغني عن الحرية بعزة الوطنية ونخوة الاعجاب ولن يكون دكتاتورا وهو سخيف هزيل لا مظهر له ولا نجبر ولا يصدق أحد من الناس أنه مالك أمره وصاحب القوة التي بها يصول على أبناء وطنه .

ان أحمق المستبدين هو ذاك الذي يهدم الديمقراطية في هذا العصر ليبني على أساسها صرح الاستبداد العتيق . فان الديمقراطية اذا هدمت لم يخلفها في مكانها الا أحد مذهبين : فاما الفوضية وإما الشيوعية على نظام من أنظمتها الكثيرة . ذلك أن الفوضيين والشيوعيين يشككون الناس في كل نظام معهود ويقولون ان الحكومة بطبيعتها قائمة على الغصب والاعتداء لخدمة طائفة من الامة هي الطائفة التي تقبض على الزمام . لا فرق في هذه الخلة بين حكومات المستبدين والحكومات النيابية التي يقال انها حكومات الشعوب ، فاذا ساء ظن الناس بالتمثيل النيابي بعد ما جربوا ضروب الحكومات الغابرة ساء ظنهم بادعاء كل بالتمثيل النيابي بعد ما جربوا ضروب الحكومات الغابرة ساء ظنهم بادعاء كل والشيوعيون ، وبطل يقينهم بالحكم وثقتهم بالطبيعة البشرية فباتبوا في حياة والشيوعيون ، وبطل يقينهم بالحكم وثقتهم بالطبيعة البشرية فباتبوا في حياة خاوية عميقة لا اخلاص فيها ولا أريحية ولا يقين . فكل مستبد يحارب الديمقراطية اليوم انما يخدم الشيوعية أو الفوضية من حيث يخيل اليه أنه يخدم نفسه ويعود بالناس الى زمن دابر لن يعود .

فليحذر المستبدون من عزل الشعوب عن الحكم أو من شكها في الحكومة الشعبية لانها في هذه الحالة لن تؤ من الا بالحكومة الطائفية ولن يكون من وراء ذلك الا انتصار محقق للشيوعيين ، وليحذر الكتاب الذين يسرفون في نقد الديمقراطية لانها انما تقبل الاصلاح على مبادئها القويمة ولا تقبله على مبادىء اخرى ، أما اذا انقلبت أو بطل الايمان بها فلن يرجى من ذلك خير ولن يخلفها نظام أصلح منها يُظن به أن يدوم أو يطول .

米米米

على انني لا أحب أن اغفل في ختام هذه الرسالة اعتراضا يصوب الى الديمقراطية ويلوح عليه بعض الرجحان في باب غير باب الحكومة والسياسة ، ذلك ان الديمقراطية ترجع الامر في الفنون والآداب والمعارف الشائعة الى أذواق الجهاهير فيقل الابداع والتفوق ويكثر البهرج والتلفيق ، ورجحان هذا الاعتراض ظاهر ولكنه عرضة للمبالغة وخطأ التقدير . فينبغي أن نذكر أولا ان عهد الديمقراطية الحديثة لم يتجاوز خمسين سنة فلا نطالب هذه السنين الخمسين بان تخرج لنا من مبدعاتها ما يوازن مبدعات العبقرية في جميع العهود ، وانما يحق لنا أن نقابل الخمسين بخمسين مثلها في أي زمان وفي أية حال ، وعندئذ نرى أن الديمقراطية لا تجيء في هذا الميدان متأخرة ان لم نقل انها تجيء متقدمة بين الصفوف .

وينبغي أن نذكر بعد هذا ان اساليب التعبير عن العواطف الانسانية قد تنوعت في أيام الصحافة والصور المتحركة والصور الشمسية فكان لذلك أثر موقوت لا بد أن يحسب حسابه الى أن تزول مفاجأته وتطرد الاذواق الفنية في سياقها الاصيل ، وان الفنان الذي يرزق العبقرية العالية لا يسف بها الى المباراة في سوق التصنع والغرور ، وانه حتى اذا كانت الجاهير تغوي المستضعفين من رجال الفنون باسفاف ذوقها وكثرة تقلبها فليس دواء ذلك أن نقول للجهاهير قفي ولا تتعلمي ولا تطلبي الفنون الآداب أو ان نضرب عليها حجراً كذلك الحجر الذي ضربه الهنود على الطبقات فحاقت بهم اللعنة أجمعين . كلا ! وانحا دواؤه ان تتعلم

الجهاهير وتتعلم وتتعلم حتى تسمو الى مقربة من الذوق السليم ، وأن يتهذب شره المال الذي نخشى غوايته على العبقريين في سوق المنافسة والزحام ، وأن يوكل التهذيب والتنقيح الى اختيار الزمن الذي يضع كل شيء في نصابه حسب ما يحتويه من جراثيم البقاء ، وما دام لنا في الانسانية أمل فهذا المطلب ميسور مطمأن اليه موثوق بفلاحه . أما اذا ضاع الامل في مستقبل الانسانية قاطبة فأهون بضياع الامل في الديمقراطية حينذاك .

عَبَاسِ عَنْ وَ الْمُعَالِينِ الْمُ الْمُعَالِينِ الْمُ الْمُعَالِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعَلِينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلِّينِ الْمُعِلِّذِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِي الْمُعِلْمِينِي الْمُعِلَّيِي الْمُعِلَّيِينِ الْمُعِلَّينِ الْمُعِلَّينِ

الصهبونية العسالمية

دارالكتاباللبناني - بيروت

بداءة العقاد والصهيونية بقلم محمد خليفة التونسي

معظم فصول هذه الرسالة أحاديث أذاعها أديبنا الكبير الأستاذ عباس العقاد بعنوان « الصهيونية العالمية » فكان لها صدى قوي بين مستمعيها ، أوجب تقييدها ، ليتمكن من سمعوها - ومن لم يسمعوها أيضاً - من الرجوع الى مباحثها القيمة ، حتى يزداد النفع بها بدءاً وعوداً .

وليس من همنا هنا تلخيصها ، إذ لا حاجة به ولا جدوى منه ، وهي ـ كسائر ما يكتب الأستاذ ـ مستعصية على التلخيص لايجازها وإجمالها ، ولكننا نومىء إلى موضوعها وبعض مضامينها والفكرة الجامعة بينها ومنزع كاتبها فيها ، فالفصول كلها بينة سوية متكاملة يشد بعضها بعضاً .

هذه الدراسة العلمية الموجزة لنشاط « الصهيونية العالمية » في كثير من اتجاهاتها ومجالاتها ـ تشتمل على معلومات وثيقة المصادر مدعمة بالأسانيد ، ونتائج وطيدة تقوم على أسس منها عميقة الجذور ، حتى إن الأذهان المبرأة من الأهواء المريضة ـ لتتأدى من مقدماتها الى نتائجها في ثقة ويسر ، للصلات الوثقى التى تربط بين شتى هذه الأطراف .

هي ليست تاريخاً للصهيونية وإن كانت تبدأ بإلمامة شاملة لنشوء فكرة الصهيونية وأطوارها السياسية المختلفة حتى الآن ، مع البراهين الحاسمة على أنها لم تكن في شتى عصورها الاحركة سياسية البواعث والغايات ، لا سند لها في المراجع التوراتية ، وإن زيفت لها أصول دينية رغبة في رواجها

وتعزيزها في نفوس اليهود وغيرهم ، فانطلت خدعها على الجمهرة بين الفريقين . وهذه إلمامة كافية كي تمهد لموضوعها ، وحسبنا من جديدها أنها تهتك الحجب عن أصول الصهيونية الزائف وتنسفه من أساسه .

وتمضى الفصول في الكشف عن ماهية الصهيونية وخفاياها ، وتربيف أكاذيبها ودعاواها ، ومن أشيعها أكذوبة النبوغ اليهبودي ودعوى اضطهاد اليهود بسببه ، فتفضح الرسالة هذه الأكذوبة في التاريخ القديم والحديث بالحجة البينة وتشير إلى معظم أسباب الاضطهاد ، وكلها تنبع من العزلة التي يفرضونها على أنفسهم وموقفهم العدائي من كل أمة يواطنونها أو يجاورونها لما طبعوا عليه من سوء وزعارة وحماقة ، فهم وحدهم المسؤولون عن كل ما يحيق بهم من بلاء ، وهنا تبين الرسالة. الأسس النفسية والاجتماعية للصهيونية وعلاقتها بأخلاق اليهود ونزعاتهم المأثورة ، وقيام الصهيونية أخيراً متحالفة مع قوتين : هما قوة المصالح الاستعمارية وقوة التعصب ضد الاسلام ، ولولاهما لانهارت أو قنعت كذأبها بالذلة والخمول .

ثم تكشف الرسالة عن مكايد الصهيونية التي تنفذها على أيدي طوابيرها الخامسة بين الأمم في الميادين الاقتصادية والثقافية والسياسية ، وتبين أساليبها قديماً وحديثاً ، واستباحتها أبغض الوسائل لتحقيق أغراضها ، فهي حركة جنونية هدامة تسعى جهدها لحرب الأديان والأوطان والأسر ، لتنفرد بسلطان المال على مصاير المجتمع ، وهي لا تخلق حركة اجتماعية ولا قدرة لها على خلقها ، ولكن لا تكاد حركة تنبع في ناحية حتى تسارع هي إلى استغلالها وتوجيهها إلى ما يخدم مضالحها ، ولا سيما الحركات الهدامة وآخرها الشيوعية اليوم ، وهنا الخطر الحق للصهيونية ، ومن أمضى أساليبها الغش والغدر واستطلاع الأسرار المحلية والعالمية وتسخير المال والنساء وتوطيد الصلات بأصحاب النفوذ في كل أمة ، استغلال كل ذلك لمصلحتها ، ولا منفذ لها بغير هذه الوسائل السرية وما يشبهها خفاء وخبثا ، لمصلحتها ، ولا منفذ لها بغير هذه الوسائل ، ولا نجاح لها إلا بها ، لأنها حركة هدم لا تعمير .

وثلث الرسالة الأخير يوضح مستقبل الصهيونية ووليدتها إسرائيل ، ويبين

منابع قوتها ومكامن ضعفها ، وما ينتظرها من سوء المصير ، ويعين أسباب فشلها لضعف داعي بقائها أمام عوامل فنائها ، ومرجعها جميعاً إلى تبدل الأحوال العالمية والمحلية ، وكلها تنذر الصهيونية بالتفكك ، وتهدد إسرائيل بالزوال ، فالدسائس الصهيونية متعسرة أو متعذرة مع وضوح العلاقات الدولية اليوم وتشابكها . وتوزع السيطرة السياسية والاقتصادية بين قوى عالمية مختلفة المصالح والنزعات والمطامع ، وإسرائيل دويلة مريضة متناقضة البنية والأسس والمشكلات ، وهناك مقاطعة العرب واقفة لها بالمرصاد ، فلا راحة لها مما قاطعوها ، ولا بقاء لها إذا طالت القطيعة وستطول . هذا إلى قيامها بين دول ناهضة تفوقها عدداً وثروة ، وكلها تمقتها وتتربص بها الدوائر ، جزاء ما أسلفت من عدوان عليها ، ولأن قيامها يهدد أرزاقها بل حياتها بالبوار .

هذه إيحاءات إلى بعض مضامين « الرسالة » وهي قليل مما كتب الأستاذ العقاد في موضوعها ، فنحن لا نجد بين شيوخ أدبائنا وشبيبتهم من هو ألهج منه بالكشف عن خفايا الصهيونية وتزييف مزاعمها والانحاء عليها فيما يكتب ويذيع ويتحدث . وموقفه منها غير مستغرب على من عرف حياته أو آثـاره وهي صورة حياته ، ومن يقرأ كتبه ولا سيما عبقرياته وحملاته ضد الحكم المطلق والمبادىء الهدامة ـ يعرف أنه يدين بالقيم العليا ، ويقيس عظمة الرجال والأعمال بالمقاييس الأخلاقية ، والصهيونية دعوة جنونية بهيمية ضارية ، وحركة هدامة خبيئة الوسائل والأهداف ، فلا جرم تخف في ميزانه وتستحق عنده الجفاء ، إنها عدو البشر تنزع منذ قامت حتى اليوم إلى حرب المجتمع بأخس الوسائل ، وتعمل وسعها على إفساد أخلاقه وتمزيق أواصره وهدم قيمه ومقوماته لكي تتسلط عليه فتسخره في مصالحها وتستأشر بخير ألعالم دونه ، والعقاد لا تنقصه الغيرة ولا الايمان بالمبادىء الانسانية وهـو مطبوع عليهما ، فلا يستغرب منه الغضب على الصهيونية التي تهدرها ، ولا تنقصه الشجاعة فيما يراه حقاً وهو مطبوع على الشهادة ، وان كان يعلم عين اليقين أخطار عداوة الصهيونية ولا يسلم من جرائرها ، ولا يثقل ضميره ولا عقله هوى مريض يقعده عن التصدي لها وإن خطبت رضاه ، فما قلمه الجبار بأضعف من الأقلام الهزيلة التي تحرص الصهيونية على رضاها بكل

ثمن في كل أمة ، ولا تنقصه المعرفة الواسعة العميقة لما ظهر وبطن من وسائلها وغاياتها الحقيقية والمزعومة ، بل قل بين أكثر الساسة والمفكرين من عنده علم قديمها وحديثها مثله ، وهذه هي بواعث العقاد حين يجفوها ، فهو يعافها عن نزعة انسانية رفيعة لا عن ترة شخصية ولا طائفية ، ولا عن تعصب ديني ولا وطني .

وليس من الضروري أن ينحو الانسان نحو أستاذنا العقاد في شعوره وتفكيره ومنزعه ليعاف الصهيونية ويجفوها مثله ، فكل من يحب الخير للناس مهما يكن دينه أو وطنه يجد نفسه مضطراً إلى الاشمئزاز منها وجفوتها مثله ولولم تنله بسوء ، ومكافحتها كما يكافح كل وباء ولولم يتهدده بضرر ، فما كانت الصهيونية في جميع العصور إلا وباء يهدد سلامة المجتمع وأمنه وأواصره بالفساد ، أولئك قطاع الطرق حيث كانوا منذ كانوا ، ولن يصمهم أعدى أعدائهم بشر مما وصمتهم به كتبهم المقدسة وهي القدوة والسند ، او مما يصمون به أنفسهم طائعين بل مفاخرين .

أخي القارىء ، ليست هذه مقدمة ، فما أنا بأهل لتقديم العقاد ، ولا حاجة بأحد لذلك ، ولكنها توطئة مما يناجي به الأخ أخاه في البدء ولهذا أود أن تحظى منك هذه « الرسالة » بما تحظى به « الرسائل الأخوية » ولولا ذلك لأمسكت ، أو لكانت التوطئة هي الختام .

محمد خليفة التونسي

١ _ الصهيونية قبل الميلاد

يغلب على ظن الكثيرين أن الصهيونية حركة دينية قديمة ، وأنها مرتبطة بما ورد من الوعود للخليل إبراهيم عليه السلام .

والواقع أنها ليست بالحركة الدينية ، وليست بالحركة القديمة في بني إسرائيل أنفسهم ، ولكنها حركة سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها في بيت داود .

فغاية ما بلعه إبراهيم عليه السلام تحت قمة صهيون أنه اشترى قبراً هناك بالمال كما جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين في العهد القديم .

ومضت القرون بعد إبراهيم إلى عهد موسى عليه السلام . ثم مضت القرون بعد موسى والحال على ما كانت عليه ، وبقيت مدينة بيت المقدس في أيدي اليبوسيين ، وجاء في سفر القضاة من العهد القديم أن بني بنيامين كانوا يسكنون مع اليبوسيين ، ولا يدعون معهم حقاً في المدينة ، ثم أغار بنو يهودا عليها فدمر وها وأحرقوها ، ولم يخطر لهم أن يتخذوا فيها مقاماً ذا قداسة عندهم أو غير ذي قداسة . وعاد إليها اليبوسيون فجددوها وأقاموا فيها إلى أن تولاها داوود ، وخلفه سليمان فبنى فيها الهيكل المشهور . ولم يتفق اليهود أنفسهم على قداستها بعد قيام الهيكل فيها . فإن الملك « يهواش » ملك اسرائيل أغار عليها ، واستباح هيكلها ، وغنم ما فيه من التحف والآنية ، ثم قفل إلى السامرة ، وجاء في العهد القديم خبر وفاته على الصيغة المرضية فقيل عنه إنه اضطجع مع آبائه ، أي قضى على الأقل غير مغضوب عليه .

وإذا رجعنا إلى كلمة « صهيون » نفسها لم نجد لها أصلا متفقاً عليه في اللغة العبرية . وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل لها نظير في اللغة الحبشية ، وأنها من مادة الصون والتحصين . وكانت فعلا من حصون الروابي العالية . والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة الذين سكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمثات السنين . وهم الذين أطلقوا على الأرض اسم أرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع وقنع وخنع بهذا المعنى في لغتنا العربية الحاضرة .

والكلمة تكتب في العبرية تارة بالسين وتارة بالزاي ، ولم يحرص عليها اليهود بعد دخولها في حوزتهم . بل جاء في سفر صمويل الثاني أن داود غير اسمها باسم بيت داود ولم يشأ أن ينقل تابوت الرب إليه بل مال به إلى بيت عوبية . كذلك كان شأن صهيون قبل سبي بابل . فلما حمل اليهود إلى الأسر أصبح الحنين إلى صهيون رمزاً للحنين إلى عودة المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الالهية في كتبهم تحولا جديداً مع مصالح السياسة ، فانحصرت في ذرية داوود - عليه السلام - ليخرج منها غير ذي النذرية من اليهود .

وليس هذا بالتحول الأول عندهم في هذه الوعود على حسب المصالح السياسية . فقد كان الوعد لابراهيم فحولوه إلى إسحاق ليخرجوا منه أبناء إسماعيل . ثم حولوه إلى يعقوب ليحصروه في سلالة إسرائيل . ثم حولوه إلى ذرية داود لينحصر في مملكة الجنوب دون مملكة الشمال . وهكذا كان وعد صهيون (وعداً سياسياً) تابعاً لمآرب الدولة ومآرب الهيكل الذي يقام في جوارها ، فلا شأن له بالعقيدة الدينية التي تشمل جميع سلالة إبراهيم .

وفي الأسر البابلي تعلم اليهود بقايا الديانة القديمة ، وما احتوته من البشائر عن عودة « مردخ » الى الأرض ، وعودة رسول النور كل ألف سنة إليها لاصلاح فسادها . فتعلقت آمالهم بعودة المملكة على يد بطل من أبطال الغيب . ولم يكن هذا البطل مقصوراً عندهم على ذرية داود ، بل زعموا مرة أنه هو « كورش » الفارسي الذي سمى بالمسيح في الاصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعبا . ولبشوا دهراً يتخيلون المسيح الموعود ملكاً

صاحب عرش وتاج ، يفتتح بيت المقدس بالسيف ، ويعيد فيها الدولة الدائلة . ثم يئسوا مع الزمن من تجدد المملكة بقوة السلاح فعلقوا الرجاء بالرسول المختار من عالم الروح ، وقيل في وصفه كما جاء في سفر زكريا « انه عادل ومنصور ووديع يركب على حمار ابن أتان » .

ولما بعث المسيح ـ عليه السلام ـ أنكر كهان الهيكل بعثته وآمن به بعض اليهود وبعض أبناء الأمم المقيمين في فلسطين ، واحتج القوم عليه يوعد إبراهيم ، فقال لهم : إن أبناء ابراهيم بالروح هم الموعودون بالخلاص ، فكل من آمن بدينه فهو من أبنائه ، ولا فرق بين اليهودي واليوناني ، لأن رباً واحداً للجميع . كما جاء في الرسالة إلى رومية .

وقد حدث في عصر السيد المسيح أن اليه ود تفرقوا في أنحاء الدولة الرومانية ، واتخذوا لهم وطناً في كل قطر من أقطارها الواسعة ، فكتب فيلون فيلسوف الاسكندرية اليهودي يقول في تحديد موقفهم من الدولة π إن اليهود _ لكثرة عددهم _ لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون إلى أورشليم مقر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطناً لهم كل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم وأجدادهم من قبلهم π .

والكلمة التي عبر بها فيلون عن الحاضرة هي الكلمة اليونانية « متر وبوليس Metropolis » أي أم المدن من كلمة « متري » بمعنى أم وبوليس بمعنى مدينة وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد أو الدواوين .

فالصهيونية في الزمن القديم لم تكن عقيدة دينية ، بل كانت نزعة سياسية ، ثم ذهب الأمل في نجاحها السياسي ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافي ، وأطلقت في بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كل البعد من المعاني الجغرافية ، وذاك حيث يقول صاحب الرسالة إلى العبرانيين من الانجيل « إنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرم بالنار . . بل أتيتم الى جبل صهيون ، وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية . . وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات وإلى الله ديان الجميع » .

بمكان معين ، ولا تتطلب العودة إلى فلسطين ، ولذلك ناهضها المتدينون من اليهود عند ظهور الدعوة إليها ، واعتبروا هذه الدعوة تجديفاً وإنكاراً للمسيح المنتظر في عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين بالمسيح - عليه السلام - وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه في آخر الزمان ، فاتفقتا على شيء واحد ، وهو الفصل بين الصهيونية السياسية والفكرة الدينية .

والواقع أن الصهيونية الحديثة كأختها القديمة : كلتاهما وليدة السياسة والسياسيين ، أيّاً كان السبب الذي تستند إليه .

وجملة أسبابها _كما يذكرها المؤرخون لها _هي الاضطهاد وظهور الفكرة القومية ومطامع الاستعمار .

لهذا نشأت أول الأمر في أوربا الشرقية وأوربا الوسطى ، حيث بلغ الضغط على اليهود أشده في القرن التاسع عشر ، ثم نشأت مع المسألة الشرقية واستخدمها الساسة لتحقيق مطامعهم في بلاد « الرجل المريض » . . أي الدولة العنمانية كما سماها رواد الاستعمار .

فلما اتجهت أوروبا كلها إلى طرق المواصلات بين الشرق والغرب خلال الدولة العثمانية - أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة في هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الرسمية إعلاناً دعا فيه يهود إفريقية وآسيا إلى موافاة جيشه بمصر ، ليدخلوا معه إلى أورشليم ، وراجت في باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية إلى اغتنام الفرصة ، للاستعانة بفرنسا على تنظيم اعمالهم التجارية بين الوجه البحري في مصر وعكا والبحر الميت وشواطىء البحر الأحمر .

ولم تكد هذه الدعوة تحبط بحبوط حملة نابليون حتى تصدى الايرل أوف شافتسبري الانجليزي سنة ١٨٤٢ لتبنيها واحتضانها ، منعاً لتنفيذها على يد دولة أخرى ، وعلى الخصوص الدولة الروسية ، فوضع مشروعاً سماه مشروع « الأرض بغير شعب للشعب بغير أرض » ويعنى بالأرض مكاناً خالياً يصلح للاستعمار الزراعي في أنحاء فلسطين ، ثم انعقد مؤتمر برلين وهذه الفكرة شائعة فيه بين الأروقة يزجيها رجال المال من وراء الستار .

ولما فوتح السلطان عبد الحميد الثاني في هذه المسألة أراد بدهائه المعروف أن يسخرها لغرضين من أغراضه: وهما الحصول على القروض بأيسر الشروط، واستخدام اليهود في رد حملات التشهير التي كانت تنهال عليه باسم المذابح الأرمنية. وسنرى فيما يلي من الكلام عن أطوار هذه المسألة أنها كانت ولا تزال ألعوبة من ألاعيب السياسة التي تتوارى خلف ستار من الدين، ولكننا قبل أن ننتقل إلى الصهيونية بعد العصر القديم نود أن نميط الستار عن حقبة أخرى ترتبط بتاريخ الصهيونية، ويتجاهلها الذين تذرعوا باسم الانسانية لتعليل هذه الحركة الجهنمية.

فهم يقولون ـ ولا يملون تكرار القول ـ إن الاضطهاد هو علة الصهيونية الأولى ، وان تيام الصهيونية يقضي على هذه العلة أو يمنع تجديدها .

والحقيقة التي نريد أن نقر رها هي أن الاضطهاد نتيجة لداء مزمن في اليهود سيبقى معهم في دولتهم الجديدة كما كان معهم في دولتهم القديمة .

فمن الذي اضطهد اليهود في مملكة سليمان حتى انقسمت على أهلها ثم انقسم كل شطر من شطريها على أهله .

ومن الذي اضطهدهم يوم تمردوا على كل نبي من أنبيائهم ، وكل قائد من قادتهم ، وهم بعيدون من سلطان غيرهم ؟

إن القرآن الكريم قد وصفهم حقاً حيث قال عنهم π تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى π ولم يصفهم القرآن الكريم إلا بما وصفتهم به كتبهم ورسلهم من أقدم عصورهم الى ما بعد عصر المسيحية .

ففي الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية يقال لهم بلسان الـرب : « إني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » .

وفي الاصحاح التاسع من سفر نحميا إنهم « أعطوا كتفاً معاندة ، وصلبوا رقابهم ولم يسمعوا » .

وفي الاصحاح السابع عشر من سفر أرميا انهم « قسوا أعناقهم لثلا يسمعوا ولئلا يعقلوا ».

وفي أعمال الرسل أنهم غلاظ الرقاب . وفي غير هذه الكتب اجماع على

غلظ رقابهم ، وشكاستهم ، وامتناع الوفاق بينهم . وهذه هي الافة التي لا تفارقهم في دولتهم الجديدة ، وما فارقتهم قط في دولتهم الغابرة ، حتى قضوا عليها قبل ان يقضي عليها أعداؤها . وقد جروآ على انفسهم الاضطهاد في كل بقعة وفي كل عصر وبين كل قبيل ، فليس من المعقول أن تكون العلة في غيرهم ، وليس للأمم من حيلة معهم إلا أن تخضعهم آخر الأمر أو تخضع لهم برمتها ، وإنه لهو المستحيل بعينه على كل فرض من الفروض ، وإنما آفة القوم الكمينة فيهم أنهم كائن ممسوخ من الوجهة الاجتماعية ، لأنهم جماعة مقتضبة لم تصبح أمة ، ولم ترجع إلى نظام القبيلة البدوية . واشتبكت مع العالم وهي في مرحلة غير نامية وغير صالحة للنمو على حدة ، ولم علاج لها ميؤوس من جدواه ، ما لم يغلبها العالم على طبيعتها ، ويدمجها اضطراراً في طوية أممه ، وسوف يكو ن ذلك لا محالة ، لأن غيره لن يكون .

٢ - الصهيونية

من الميلاد إلى القرن التاسع عشر

منذ القرن الأول للميلاد لم يطرأ على « الصهيونية » شيء جديد قبل القرن التاسع عشر ـ فكل ما عرفه اليهود عن الصهيونية في عصر السيد المسيح بقي كما كان في القرون الوسطى ، وفيما تلاها من قرون النهضة والاصلاح إلى أوائل القرن التاسع عشر ـ أي إلى القرن الذي يصح أن يسمى في وقت واحد بعصر الثورة ، وعصر الاستعمار ، وعصر الصناعة الكبرى ، ولكل صفة من هذه الصفات علاقة باليهودية لا تخفى على النظرة العاجلة ، ولكنها تستحكم وتتغلغل في جميع الجوانب بعد إنعام النظر إليها .

كان اليهود يعيثون في أرجاء الدولة الرومانية بين أناس يخالفونهم في العقيدة ، وكانوا يعزلون أنفسهم عن المجتمع باختيارهم ، وينشئون في أنحاء الدولة مراكز متفرقة للمعاملات التجارية ، وشؤون الصيرفة ، ومبادلة السلع والنقود ـ ولكنها متفقة فيما بينها على قصد وعلى غير قصد لانعزالها في كل بقعة على حدة ، فإذا سافر اليهودي من الاسكندرية إلى روما علم قبل سفره أن هناك بيئة مماثلة لبيئته ، يذهب إليها ليستعين بها على عمله ، ويشترك معها وبإرشادها في استغلال من حوله . وكان هذا الاستغلال بطبيعته سبباً لنقمة الفقراء والأغنياء في وقت واحد ، فكان اليهود عرضة لغضب المعوزين كما كانوا عرضة لغضب المدينين وأصحاب المحصولات الراعية من الضياع الواسعة ، وبخاصة في إبان الأزمات والحروب الخارجية والاهلية ، وقد كانت تتعاقب على كثرة من قبيل انهيار الدولة الومانية .

وكلما كثرت الحروب وضح لأبناء الأمم المختلفة أن هذا الشعب المسمى

« اليهود » متفق عليهم ، متفاهم فيما بين أبنائه على ابتزازهم واستباحة أموالهم وأرزاقهم ، لأنه يعتزلهم كافة بمجتمعه في كل بقعة ، ثم يرتبط بالمعاملة بينه وبين أبنائه في المعسكرات المتقاتلة ، ولا ينظر اليهودي إلى زميله نظرة العداء والمقاطعة ، وإن قطعت الحروب والفتن بين البلدين .

ودانت أمم الغرب بالمسيحية شيئاً فشيئاً فلم تتغير هذه الحالة ، بل جد عليها سبب مفهوم ، للتقاطع بين اليهود والمسيحيين ، وهو عداء اليهود للسيد المسيح ، فعاش اليهود في عزلتهم ، وتعرضوا من جراء هذه العزلة لتهم كثيرة وشبهات أكثر ، حتى شاع عنهم في أيام الوباء أنهم هم الذين يسممون الماء والطعام .

وضاعف الاشتباه فيهم أنهم كانوا ينفردون بمطاعمهم في المدن ، وقلما يؤاكلون أحداً في الريف .

وحدث غير مرة أن اليهود كانوا ينصرون كل مغير على البلد الذي يقيمون فيه ، وحدث غير مرة أنهم كانوا يصاحبون ا الجيشين المتقاتلين لشراء الأسرى ، وبيع المؤنة ، وبذل القروض ، ثم يتقابلون على تفاهم عند « تصفية الأعمال » والمساومة ، فوقر في أخلاد الأمم انهم شعب غريب .

وكان شعورهم نحو بيت المقدس خلال هذه القرون لا يتجاوز شعور الحنين إلى مجد قديم ، وانتظار الوقت الموعود في الزمن الذي يختاره الله ، ولا شأن لها بتقديمه أو تأخيره مع المشيئة الآلهية ، وأصبحت الصلوات التي يعيدونها كل يوم أو كل أسبوع طلباً للرضوان الآلهي ، ألفاظاً تعاد على الأكثر بغير معنى ، كأنها الدعوات التي يرددها الجهلاء من أتباع كل نحلة ، وهم لا يفقهون معناها .

ويسجل التاريخ الأوروبي على اليهود أنهم كانت لهم مشاركة في كل فتنة ، وكل إغارة . ولكن المؤرخين يختلفون في تعليل هذه المشاركات المتواترة ـ فيعزوها بعضهم إلى المصادفة لوجود اليهود في كل بيئة ، ويعزوها بعضهم إلى شعور النقمة الطبيعي على كل سلطان غاشم يخضع له المحكومون على رغم واضطرار ، ويعزوها بعضهم إلى التدبير المتعمد لهدم المجتمع المسيحي من داخله وتقويض دعائم الدولة والكنيسة في وقت

واحد ، ومما قيل وأصر القائلون عليه أنهم أسسوا جماعة البنائين الـذين السنهروا باسم الماسون ، وقرنوا بين التعاهد على بناء الهيكل وبين هذه التسمية ، وما يتصل بها من المصطلحات والشعائر ، وقيل غير ذلك كثير مما تتشعب فيه الظنون ولا حاجة الى استقصائه ، لأن الظواهر تغني فيه عن الأسرار .

وكان يتفق في بعض السنين أن يتجه اليهود والمسيحيون معاً إلى بيت المقدس ، على أثر الاشاعات « الفلكية » التي يزعمها أناس من المنجمين موعداً لعودة المسيح ـ عليه السلام ـ فتكثر الهجرة إلى المشرق على اعتقاد المهاجرين جميعاً أن الدنيا تنتهي بهذه العودة الموعودة ، وليست فكرة الوطن القومي مما يدخل في هذا الاعتقاد ، بل كان من المسيحيين من يرى أن ارتداد اليهود عن كفرهم بالديانة المسيحية شرط لقيام الساعة ، فلا أمل لهم قبل ذلك في اليوم الموعود .

أما فكرة « الوطن القومي » فلم تنشأ قبل عصر النهضات الوطنية ، ولم يسمع فيه صوت لليهود إلا لأن هذا العصر كان كذلك عصر الصناعة الكبرى وعصر الاستعمار .

فلا يخفى أن الاستعمار قد بدأ بالتجارة ، وأن طريق الهند كان أهم الطرق التجارية في العالم القديم ، ومن ثم كثر الاهتمام بفلسطين ومصر ، وارتفع في المجامع الدولية صوت اليهود لاتصالهم في وقت واحد بالتجارة وبهذه البلاد ، واشتبكت مسألة القروض بمطامع المستعمرين في أقطار الدولة العثمانية ، فلم ينظر الأوربيون إلى مطالب اليهود كأنها مطالب منفصلة تعنيهم وحدهم ويغارون عليها من أجلهم ، ولكنهم جعلوها من الوسائل المعول عليها في خدمة السياسة والاستعمار .

وأثار القرن التاسع عشر مسألتين لا مسألة واحدة فيما يرجع إلى موقف اليهود من العصر الجديد .

أثار مسألة القومية اليهودية ، لأن القومية كانت على كل لسان في البلاد التي يكثر فيها اليهود خاصة كبولونيا ورومانيا وأسبانيا وهولندة ، فخطر لليهود أن يطالبوا بقومية مستقلة ، وأن يطالبوا لهذه القومية بوطن تساعدهم الدول

على احتلاله .

وأثار القرن التاسع عشر مسألة المساواة في الحقوق العامة ، فاعترف بعض الأمم لليهود بالمساواة بينهم وبين غيرهم من أبنائها .

واعترضت أمم أخرى على اعتبار اليهود من الوطنيين ، لأن الوطنية لا تقبل الولاء لوطنين اثنين ، وكان اليهود قد أخذوا في ذلك الوقت ينادون بالوطن القومي على اختلاف بينهم على موقعه : أين يكون وكيف يكون ؟

وفي هذه المرحلة صدر كتاب موريتس هيس Moritz Hess بعنوان رومة أورشليم ، ومداره كله على ضرورة الاعتراف بوطنين للشعب اليهودي ، وعلى اعتبار اورشليم مركزاً لليهودية كما تعتبر رومة مركزاً للكنيسة المسيحية الكبرى .

ومما يؤيد تلفيق الدعوى الدينية في مسألة الصهيونية الحديثة ، أن إمام هذه الصهيونية الأكبر تيودور هرزل لم يفكر فيها إلا بعد سنوات من صيحته الأولى في سبيل « خلاص اليهود » وإنما كانت فكرته الأولى تحويل اليهود إلى المسيحية ، وإنشاء سدرسة في فيينا لابتداء هذه المحاولة ، وإقناع الجاليات اليهودية بين الأمم الأخرى بمحاكاتها ، ثم نظر اليهود فوجدوا لهم « لزوما » في دسائس الاستعمار ومساعيه الخفية الظاهرة ، ووجدوا لهم « لزوما » في عصر الصناعة والطرق التجارية خلال بلاد الدولة العثمانية ، ووجدوا لهم « لزوما » في عصر المسألة الشرقية وتفاهم الدول المستعمرة على تقسيم تركة الرجل المريض ومنها فلسطين ، فجاءت الصهيونية بعد ذلك كله « وليدة » السياسة كما كانت وليدة لها في أقدم عهودها .

وقبل أن تشتبك الصهيونية والمطامع الدولية خطر لليهود أن يصححوا مراكزهم ، ويلائموا بينهم وبين العصر الحديث بوسائل متعددة ـ لم تعرض لهم فكرة « الوطن القومي » إلا في نهاية المطاف .

فأنشأوا جراعة هسكالا أو « شكل » في ألمانيا لتجديد العقيدة ، والتوفيق بين التربية الدينية والتربية العصرية ، وأنشأوا جماعة « حلوقة » على غرار الجماعة القديمة التي كانت تجمع التبرعات من أنحاء الأرض ، لايواء

الشيوخ والعجزة في أورشليم وصفد وطبرية وغيرها من مواقع فلسطين التي يكثر فيها اليهود ، وطمع بعصهم بقيادة موسى مونتفيور في شراء البقاع الواسعة في فلسطين من محمد على الكبير لتعميرها بالسزراع من المهاجرين ، وتألفت في الأستانة جماعة اليهود الروس المعروفين باسم «بيت يعقوب» لتشجيع الهجرة بعد استئذان السلطان .

فلما شعر اليهود بسهولة الطمع في « الوطن القومي » رفضوا هذه المحاولات جميعاً ، واندفعوا الى فكرة « الدولة اليهودية »، ولم يقنعوا بالوطن القومي لمجرد السكني والتعمير .

ولكنهم - حتى في هذه المرحلة - لبشوا مترددين في اختيار الموقع بين أوغندة في افريقية ، واقليم من الأقاليم الخالية في الولايات المتحدة ، وبقعة من البقاع على البحر الأسود بين روسيا والبلقان ، وكانت طائفة من أقوى جماعاتهم الدولية وأكبرها - وهي طائفة عقودة اسرائيل - تعارض فكرة الوطن القومي إلى أيام الحرب العالمية الأولى ، ولم تعدل عن معارضتها الا بعد إعلان وعد بلفور .

وظلت فكرة الوطن القومي ، أو فكرة الدولة اليهودية ، كالسحاب الـذي يتشكل على حسب أوهام الناظرين إليه ، حتى أوشك القرن التاسع عشر أن ينتهي دون أن تستقر على وضع محدود ، ثم تبلورت على شكل ثابت في مؤتمر بال بسويسرة سئة ١٨٩٧ ، وتم تشكيلها على الوضع الأخير بوعد بلفور بعد عشرين سئة .

أما مؤتمر بال المسمى بالمؤتمر الصهيوني فقد أصدر في اليوم الثاني من أيام انعقاده قراراً يقول فيه تعريفاً للصهيونية انها حركة ترمي الى إنشاء وطن للشعب اليهودي شرعي معترف به في أرض فلسطين ويرى المؤتمر أن الوسائل الآتية صالحة لتحقيق هذا الغرض وهي:

١ ـ ترقية اليهبود المقيمين بفلسطين في أعمالهم الرزاعية والصناعية والتجارية .

٢ _ تأليف اليهود في جميع البلدان جماعات محلية ، او جماعات عامة على

- حسب القوانين المرعية في تلك البلدان .
 - ٣ ـ تقوية الوعى اليهودي حيث كان .
- ٤ ـ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضروري من الحكومات .

ثم نشبت الحرب العالمية ، فاتصل الصهيونيون بالمعسكرين وساعدتهم ألمانيا والنمسا عند الباب العالي لتحقيق هذا المطمع في فلسطين ، وعلم جمال باشا انهم يمهدون لانتصار دول الغرب على دول أوربا الوسطى فاشتد في مقاومة مشروع التعمير ، واتفق في أثناء ذلك أن أستاذاً كمائياً في جامعة مانشستر كشف طريقة لاستخراج المواد اللازمة للمفرقعات من بعض الحبوب ، فطلبت الجامعة مكافأته ، وأبى هو أن يطلب شيئاً لنفسه ، قانعاً بوعد من الحكومة البريطانية أن تصغى إلى مطالب قومه .

هذا الأستاذ هو الدكتور حاييم وايزمان الذي اشتهر بعد ذلك في زعامة الحركة الصهيونية ، وشفاعته هذه كانت المقدمة « المرغوب فيها » لاعلان وعد بلفور ، ولكنه لم يعلن يومئذ في البلاد العربية ، بل خطرت الاشارة إليه في الشرق العربي كله إلى ما بعد الهدنة بشهور ، وما كانت شفاعة الدكتور وايزمان الا تعلة لاصدار هذا الوعد الذي كان جزءاً من السياسة البريطانية العامة ومعداً قبل إعلانه لتنفيذه في الوقت المناسب ، وقد كان في طريق التنفيذ بغير هذه الشفاعة ، وإنما أصدرته الحكومة البريطانية ليكون ثمن الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة ، كي تحصل بريطانيا على المساعدات اللامريكية التي كانت في حاجة ملحة إليها للمضي في الحرب العالمية الأولى .

٣ _ الصهيونية منذ وعد بلفور

دخلت الصهيونية في دور العمل السياسي النافذ بعد وعد بلفور ، وانتداب بريطانيا العظمي لادارة فلسطين .

وترجمة هذا الوعد « أن حكومة جلالته تنظر مع الموافقة إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي بفلسطين ، وستبذل أفضل مساعيها لتيسير الوصول الى هذا المطلب ، مع العلم بأنه لن يعمل شيء يمس الحقوق المدنية أو الدينية للطوائف التي تسكن فلسطين الآن من غير اليهود ، أو يمس الوضع السياسي المخول لليهود في أي بلد آخر ».

ويخيل إلى بعضهم من اليهود ومن العرب أن هذا الوعد منتزع أو مغصوب بحكم الضرورات الحربية ، ولكنه في الواقع جزء من سياسة عامة تتناول الشرق الأدنى برمته ومنه فلسطين وسائر البلاد العربية ، فهذا الوعد هو الجزء المقابل لوعود أخرى بذلت للأمراء في بلاد العرب التي خرجت من حكم الدولة العثمانية . ومن سخرية القدر أن نرجع اليوم إلى أقوال زعاء اليهود بعد استقرار الانتداب البريطاني على فلسطين نحو عشر سنين ، فقد كان اللورد ملشت الصهيوني الانجليزي يقول في سنة ١٩٣٦ « إن اقامة ثلاثة ملايين من اليهود في فلسطين سوف يقضي إلى الأبد على احتال نجاح الثورة التي تهب على دولة الانتداب » . . وكان بن غريون رئيس الوكالة اليهودية يقول « من خان بريطانيا العظمى فقد خان الصهيونية » .

وكان غيره يصرحون بأمثال هذه التصريحات ولا يقتصدون فيها ، ولو اطلع أحد على الغيب في تلك الآونة لقال مع أبي العلاء (وتقدرون فتضحك الأقدار . .) .

ومن الواجب على الدوام تذكر المناورات السياسية التي أدت إلى قيام الوطن

القومي في فلسطين ، فكل ماكان وليداً لهذه المناورات قد يموت بها في يوم من الأيام ، ولا سيا وليد التلفيق ، أو وليد المفاجآت .

إن الواقع المحقق في مسألة الصهيونية أن اليهود يستغلون الدول ، والدول تستغلهم . وهذا الواقع المحقق وحده هو الذي يقرر لنا أن العامل المهم في بقاء الصهيونية بفلسطين يتوقف على إرادة الأمم العربية في نهاية المطاف ، فلن تدوم الصهيونية في الشرق الأدنى اذا عملت أمم العرب على أن تموت ولا تدوم .

وقَد تكون الشعوب بمأمن من تقلبات السياسة لو أنها نشأت نشأة طبيعية على أساس قويم ، أما ان تكون تقلبات السياسة هي مادة وجودها ومادة بقائها ـ فهي حالة لم تعرف لها سابقة في التاريخ .

عالجت بريطانيا مشكلة الانتداب فلم يسلس مقادها في يديها بعد عشرين سنة من وعد بلفور ، فقسمت فلسطين شطرين بينها شقة مستقلة في الناصرة وبيت المقدس ، وأبى العرب واليهود هذا التقسيم ، فاقترح العرب حكومة وطنية تراعى فيها مصالح الأقلية ، واقترح اليهود حكومة يهودية تعيش فيها الأكثرية عالة على اليهود مع فتح أبواب الهجرة لهؤلاء بغير قيود ولا حدود ، ثم مضت سنتان وأعلنت دولة الانتداب قيام الحكومة اليه ودية على أن تصبح فلسطين بعد عشر سنين حكومة اتحادية ، وسمحت بدخول خمسة وسبعين الفأ من المهاجرين اليهود خلال السنوات الخمس الأولى بعد سنة ١٩٣٩ ، فكانت لجنة الوصاية بعصبة الأمم أول المعترضين على هذا الحل ، واضطرمت نيران الحرب العالمية الثانية دون أن ينقض أو يوقف عن التنفيذ .

ثم تأسست الجامعة العربية في أعقاب الحرب العالمية ، وتكرر العدوان في أواخر تلك الحرب من عصابات الارهاب الصهيونية وأشهرها عصابة أرجون ، وعصابة شتيرن ، وعرضت حكومة العمال الانجليزية مسألة فلسطين ومسألة الانتداب على هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، فأحيلت هذه المسألة كلها إلى لجنة من لجان الهيئة ، وعادت اللجنة إلى خطة التقسيم مقترحة أن تقسم البلاد إلى حكومتين مستقلتين في غير الشؤون الاقتصادية ، وأن يوضع بيت المقدس تحت الوصاية الدولية .

وماذا كان.هذا الاستقلال في غير الشؤون الاقتصادية يعنى بالنسبة إلى العرب وإلى الصهيونية ؟

إن ربع قرن مضى في تشجيع اليهود على الهجرة والاستعار وتنظيم الشركات لم يبق للعرب بقية من الاستقلال في شؤون الاقتصاد ، فإذا استقل العرب وسلموا زمام الاقتصاد إلى الحكومة العامة فمعنى ذلك أنهم يسكنون في حجرات بيت خلا من حجرة الطعام ، وسلم مفتاحها ومطبخها الى الساكن الآخر يعطى منه ما يعطى ويمنع ما يمنع كما يشاء .

وقبل الصهيونيون هذا الحل ببعض التحفظ إلى حين ، واحتج العرب عليه ، واستعصى الأمر على الدولة المنتدبة ، فنظر مجلس الأمن فيه ، وقرر بجلسة الثاني من أبريل سنة ١٩٤٨ احالته إلى هيئة الأمم لاعادة النظر في التقسيم ، وبحث مسألة الانتداب على احتال اسناد الوصاية الموقوتة إلى هيئة الأمم ، فتركت الهيئة مشروع التقسيم كها كان ، وقررت أن توفد إلى فلسطين رسولا يصلح بين الفريقين ويبسط للهيئة حلا يرضيانه أو ترضاه وتفرضه على الموافقين والمخالفين .

وكانت بريطانيا العظمى قد أعلنت عزمها على الجلاء عن فلسطين ، والتخلي عن مهمة الانتداب ، وعينت للجلاء موعداً في الرابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، فكأنما كان هذا اليوم موعداً لقيام دولة إسرائيل واعتراف الولايات المتحدة بها قبل انقضاء ساعة من لحظة الاعلان .

ودخلت الجيوش العربية فلسطين ، واجتاحت أمامها عصابات اليهود ، ولأول مرة من تاريخ مجلس الأمن تعمل المادة التاسعة والثلاثون من ميشاق الأمم المتحدة عملها الناجز في وقف القتال حرصاً على سلام العالم . . فكانت الهدنة فرصة لتزويد الدولة اليهودية بالسلاح والعتاد ، وتهديد كل دولة عربية على انفراد للكف عن القتال ، مع الحرمان من كل مدد تستطيع أن تحصل عليه .

وقد تجددت في هذه المرحلة مناورات السياسة من الدول الكبرى التي تسيطر على سياسة العالم ، فاعتقدت كل دولة منها انها آمنة من مساعدة

الصهيونية . لأن الصهيونية في حاجة إليها ، فالولايات المتحدة تعطى القروض وتأوي في بلادها خمسة ملايين من اليهود ، وبريطانيا العظمى صاحبة النفود الأكبر في الشرق الأدنى وعلى مقربة من حدود إسرائيل ، وروسيا يسكنها ملايين من اليهود وتدين بالمذهب الذي نشره اليهودي كارل ماركس وتابعه عليه الكثيرون من أبناء جلدته في جميع البلدان .

ثم كان ما هو مذكور من وقف القتال في السابع عشر من شهر يونيو سنة 1959 وطغيان اليهود على بلاد فلسطين جميعاً إلى اقصى الجنوب وذهب أبناء الببلاد مشردين بالعراء ، محرومين من المأوى والمرتزق في مواطن آبائهم وأجدادهم منذ آلاف السنين ، وشذاذ الآفاق ينعمون بخيرات تلك المواطن ويتدفقون عليها بغير حائل ولا مانع ، حتى بلغ سكان إسرائيل أكثر من مليون وستائة ألف عند نهاية سنة ١٩٥٧ .

لقد رأينا كيف يتدرج الصهيونيون من طمع إلى طمع كلما أنسوا التشجيع أو الاغضاء من دول الاستعمار . كانوا يقنعون بالسكن حتى وجدوا من يطمعهم في الوطن القومي فطلبوه وزادوا عليه إقامة الدولة في ذلك الوطن المغصوب ، وكانوا يقنعون بالقسمة فهم لا يقنعون اليوم بما دون السيطرة الكاملة على جميع البلاد ، ووضح من تسمية الدولة الناشئة باسم إسرائيل أنهم يتطلعون الى مملكة يهوذا في الجنوب ، ووضح من دعوتهم ودعواهم على ألسنة المتهوسين منهم انهم يطمعون في الدولة التي رسمت حدودها في سفر التكوين « من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات . . » والتي رسمت حدودها في كلام يشوع من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . . والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس » .

وليست دعوة المتهوسين بين هؤلاء القوم غير دعوة العقلاء والحكماء كلما سنحت الفرصة ، وواتاها من الأقوياء تشجيع واغراء . وحسب صهيون من تشجيعهم واغرائهم حتى الساعة أنها لم تحاسب قط على مخالفة ، ولم تحفل قط بقرار يتفق عليه الأقوياء أو يختلفون . وتنقضي الأيام على مصرع رسول الأمم ، وعلى اقتحام بيت المقدس ، وعلى اختراق الحدود ، وإهدار دماء الأبرياء ، وترويع المشردين فوق ما أصابهم من ترويع وتشريد ـ فلا تُدان

صهيون بجريمة من هذه الجرائم، بل تتجنى على غيرها وتشكوه، فتنفتح الأذان والصدور لاستاع شكواها، ثم لا يقال لها أقل ما ينبغي أن يقال في هذا المجال: اذهبي فأطيعي الهيئة التي ترزئينها ثم تستمدين العون منها، ولعلها ستعان ثم تعان قبل أن تؤمر يوماً بأن تسمع وتطيع.

وفي وسع الدول الكبرى أن تصنع كشيراً لاسرائيل ، إلا شيئـاً واحــداً لا تستطيعه ، لأنه لا يستطاع .

ليس في وسعها أن تقيمها على قدميها وأن تغنيها عن معونتها ، وهي لا تفتأ تستعين بها على نفقات الدفاع ، ونفقات الايواء والتعمير ، وسداد الديون ، وإن طال صبرها على معونتها فليس في وسعها أن تضمن لها دوام « التقلبات السياسية » في مصلحتها ، ولا أن تقتلع من طباع أبنائها جذور ذلك الداء الذي شكاه أنبياؤها قديماً ، وسيشكوه لا محالة أصبر الساسة من الأقوياء ، والضعفاء : داء الرقبة الغليظة ، وليس له دواء .

أما الأمم العربية فهي في الحق ضعيفة أمام أنصار إسرائيل . ولكنها تحبط ما يعملون بعمل واحد : وهو الاعراض عنها والكف عن معاملتها . وإن دولا أقوى من إسرائيل ، وأسلم منها بناء في موظنها . لتنخذل مع الزمن إذا طالت المسافة بين من تعاملهم ويعاملونها ، ونضبت مواردها عن تعويض منافعها من أقرب الناس إلى مصانعها وأسواقها ، وليس للأمم العربية من خيار إلا هذه المقاطعة ، أو سيطوة إسرائيل عليها بما تأخذه من خيراتها وتستفيده من جهودها .

ومن خيرته الحوادث بين هذين فقد وضح الطريق أمام عينيه .

٤ _ الصهيونية العالمية

الصهيونية العالمية حقيقة واقعة .

هي قوة مرجودة باعمالها وآثارها ، موجودة بدعايتها وأخبارها ، موجبودة بمقاصدها وغاياتها ، ولا حاجة بها إلى وجبود في صورة أخمرى ما دامت موجودة بالأعمال والدعاية والغايات .

ظهرت في القرن الماضي مجموعة من الوثائق السرية سميت بمحاضر مشيخة إسرائيل ، وانتشرت من روسيا حيث ظهرت أولا إلى فرنسا وإنجلترا ثم سائر الأقطار الأوربية ، وخلاصتها أنها تجمع المحاضر التي تسجل قرارات المشيخة الصهيونية ، وأن هذه المشيخة تلتقي من حين إلى آخر للنظر في شؤون العالم ، واتخاذ الخطط المرسومة لتوجيه السياسة الدولية وإثارة الفتن والقلاقل في أمم الحضارة ، سعياً وراء غاية واحدة : وهي تخريب العالم وهدم دعائم الأخلاق والأدتيان والقضاء على كل سيادة روحية أو دنيوية فيه ، لتمكين الصهيونية من السيطرة عليه ، وتسليمه للصيارفة والسماسرة وأشباههم من خدام المال المستترين وراء كل شبكة مالية واسعة النطاق ، ومعظمهم من الصهيونيين .

والملاحظ على هذه الوثائق أنها لا تظهر في لغة من اللغات الا اختفت على أثر ذلك ، وأنها تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد ، وهذه هي الشبهة القوية التي أقنعت بعض المشتغلين بالنشر والصحافة الكبرى بصحة الوثائق ، واهتمام الصهيونيين باخفائها ومنع تداولها .

ونحن على بغضنا للصهيونية لا نريد أن نعطي هذه الوثائق فوق حقها ، فنحن لا نجزم بنفيها ولكننا كذلك لا نجزم بصحتها ، ولا نرى أن الدلائل التاريخية كافية لاثباتها والتعويل عليها .

بل نحن نميل إلى الشك فيها كثيراً ، لأننا نستكثر على الصهيونية أن يكون لهم خلق الطاعة والولاء ، وأن يتعودوا الاخلاص في خدمة هيئة علنية او سرية . فلم يعرف في تاريخ هؤلاء القوم قط أنهم يخلصون في طاعة هيئة دنيوية أو دينية ، وليس في تاريخهم كله عشر سنوات متواليات خلت من الفتنة والعصيان والتمرد على الرئاسة من أبناء جلدتهم ومن غير أبناء جلدتهم ، ولا فرق بين رئاسة دينية أو دنيوية في هذه العاهمة المزمنة بين هؤلاء القوم .

بل هم لم يخلصوا في طاعة نبي قط من عهد ابراهيم الخليل إلى عهد موسى ، إلى ما بعد انقضاء عهد النبوات لاسرائيلية وظهور السيد المسيح ، وقد وصفهم القرآن الكريم أصدق وصف في قوله تعالى : « بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

وهذا وصف إلهي صادق عليهم في جميع العصور ، ولكننا لا نحب ان ندينهم بكتاب لا يؤمن به أنصارهم من الغربيين ، وفي كتبهم المعتمدة كفاية وفوقالكفاية لتوكيد هذا الخلق الذي نسميه عامة مزمنة فيهم ، ما زالت ولن تزال .

ففي التوراة من سفر الخروج « قال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة » .

وفي السفر نفسه بلسان الاله : أني لا أصعد في وسطك ، لأنك شعب صلب الرقبة لئلا أفنيك في الطريق .

وفي سفر التثنية يقول لهم موسى عليه السلام: « إنى عارف تمردكم ورقابكم الصلبة ».

وفي سفر التثنية أيضاً يقول لهم : « ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها ، لأنك شعب غليظ الرقبة ».

وليس في العهد القديم سفر واحد خلا من وصف كهذا الوصف بمعناه أو بما هو أشد من معناه ، ولم تتغير طباثعهم بمضي الزمن إلى أيام السيد المسيح . فإن السيد المسيح هو الذي يخاطب أورشليم قائل : « يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ، ولم تريدى » .

وبعد السيد المسيح كان بولس الرسول يقول لهم : « يا قساة الرقاب ، يا غير المطهرين بالقلوب والآذان ، انتم تقاومون الروح في كل حين » .

فالصهيونيون لم يعرفوا في تاريخهم شيئاً يسمى الولاء والاخلاص في الطاعة لمن يتولى شؤونهم . وكل ما عرفوه وعرفوا به في تاريخهم الطويل طبيعة التمرد والشكاسة والالتواء والعصيان ، وليس هؤلاء بالذين يخلصون في طاعة هيئة خفية أو ظاهرة ، ولكنهم لا يحتاجون إلى ذلك لتحقيق مآرب الصهيونية العالمية ، فانهم في غنى عن هذه الهيئة بما لديهم من الوسائل الأخرى ، وهي كثيرة غير قليلة في العصر الحاضر .

فهم موجودون في أوطان متعددة _ ولهم _ باصطلاح العصر الحديث .. طابور خامس في كل دولة ، ولهم وسائلهم التي لا تتورع عن شيء من ضروب الرشوة ، وارضاء الأهواء والشهوات .

وهم متعصبون متحزبون في كل مكان ، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض ، ولكن تجمعهم كراهية الآخرين كما يجمعهم الحقد على العالم ، لأنهم استثاروه في كل بلد وفي كل زمن ، واستثاروا في نفوس ابنائه سوء الظن بهم وشدة النفور منهم ، فهم بغضاء اليه يعلمون أنهم مبغضون ، وحسبهم هذا ليعملوا مع متعصبين متحزبين .

وقد قيل إن عشرة متفقين أقوى من ألف متفرقين ، لأنهم في هذه الحالة عشرة أمام واحد ، ويتكرر هذا الموقف في كل بيئة على تباعد الديار بينهم فتجتمع منهم حلقة مفرغة ، تحيط بكل من يحاربون او يطمعون منه في معونة ، فتتوافر لهم بذلك قوة متآمرة مستمرة ، لا حاجة بها إلى رئاسة خفية تسيطر عليها في جوانب الكرة الأرضية .

ومع هذا كله لا نعتقد أن قوتهم هذه كافية _ وحدها _ لبلوغ ما بلغوه في فلسطين .

إن نفاذ الصهيونية الى فلسطين يرجع ، ولا شك ، إلى قوة الصهيونية العالمية . ولكن هذه الصهيونية العالمية لا تعمل وحدها في هذا الميدان ، بل تعمل معها قوتان أخريان أكبر منها ، وهما : قوة المصالح الاستعمارية ، والتعصب الشديد على الاسلام .

إن الغربيين الذين يساعدون الصهيونية العالمية لا يساعدونها حباً لها ، فما في الناس أحد يحب الصهيونية ، والصهيونيون أنفسهم لا يحب بعضهم بعضاً حتى في فلسطين . وإنما المسألة هنا خدمة للمصالح الاستعمارية ، وعداوة للاسلام وليست محبة للصهيونية .

إن الحالة الواحدة لتطرأ على إسرائيل وتطرأ على بلد من بلاد الاسلام ، فينظرون إليها في المغرب بعينين مختلفتين .

كل من الباكستان واسرائيل دولة قامت على أساس العقيدة الدينية ، وكل منهما تأخر وضع الدستور فيه لاختلاف الآراء على التوفيق بين الأحكام الدستورية والأحكام الدينية . ولكنك تقرأ في كلام الغربيين أن أمة الباكستان أمة متأخرة لأنها قائمة على أساس دينها ، ومتأخرة لأنها لم تتم بعد دستورها ، ولا تقرأ شيئاً من هذا القبيل بتة عن الصهيونيين ودولة إسرائيل ، بل تقرأ عنهم كل ما شاءوا من أوصاف التقدم والحضارة .

هي إذن ثلاث قوى تعمل في قضية فلسطين: قوة الصهيونية العالمية ، وقوة المصالح الاستعمارية ، وقوة التعصب على الاسلام ، ولهذا نقول إن الصهيونية العالمية لا حاجة بها إلى مشيخة اسرائيل ، فحسبها الطابور الخامس المنتشر في كل مكان ، ومعه الطوابير الأخرى التي. تجتمع على البغضاء وإن لم تجتمع على المودة والولاء .

⁽١) تم دستورها بعد كتابة هذا الكلام وصدر في شهر مارس سنة ١٩٥٦ (التونسي) .

٥ _ الصهيونية العالمية

جنايتهم على أنفسهم

الصهيونية منسوبة إلى صهيون في بيت المقدس.

ولكننا حين نتكلم عن الصهيونية العالمية ، نعني بها شيئاً أقـدم من هذه النسبة ، وأقدم من وصول العبريين إلى أرض فلسطين منذ أكثـر من ثلاثـة آلاف سنة .

نعني بها ذلك الخلق الذميم الذي تأصل في طائفة من العبريين منذ أقدم العصور ، وجعلهم بغضاء منبوذين في كل مكان أقاموا فيه أو دخلوه .

نعني به خلق العدوان والادعاء والانانية ، وهو داء قديم في هؤلاء القوم ، لم يفارقهم قط في عهد من عهودهم التاريخية ، ولا شك أنه كان ملازماً لهم زمناً طويلا قبل ظهورهم على مسرح التاريخ .

هذه الصهيونية بغيضة إلى كل الناس ، بغيضة من كل بلد ، بغيضة في كل زمن ، بغيضة في الزمن الحديث ، لا يحبها ولا يعطف عليها أحد بلا استثناء لانصارها المستعمرين والمتعصبين .

ولقد كان الصهيونيون يعرفون أنهم مبغضون ولا يستغربون ، وكان خصومهم يعرفون أنهم يبغضونهم ولا يستغربون : كان هؤلاء وهؤلاء لا يستغربون بغض الصهيونية لأنهم يعرفون أسبابه في زمانهم ، وإن اختلفوا فيمن هو على حق وفيمن هو على باطل .

أما العصور الحديثة فقد اختلط فيها الأمر على بعض الباحثين فخلطوا بينه وبين التعصب الديني على اليهود ، وهما شيئان منفصلان . وأرادوا أن يطلقنوا على مغض الصهيونية اسماً جديداً فسموه كراهية الساميين Anti-Semitism لظنها أنها من عدواة الأجناس .

ثم ظهرت مباحث علم النفس الحديث ـ ولا يخفى أن الكثيرين من دعاته يهود ـ فراح الباحثون في علل الظو اهر الاجتماعية يبحثون عن علة نفسانية لكراهية الساميين ، وحاول بعضهم أن يجعلها علة دخيلة تصيب الأمم والجماعات كما تصيب المخبولين من آحاد الناس ، فخبطوا في ذلك خبطا ذريعاً ، وجانبوا الصواب في كل ما زعموه ، لأن المحاولة من أولها قائمة على ضلال ، أو على غرض يسوق إلى الضلال .

قال بعضهم: إن كراهة الساميين مرض اجتماعي يظهر في الأمم التي تصاب بمركب النقص ، وتشعر بأنها محتقرة بين الشعوب ، أو متخلفة عنها .

وقال بعضهم: إن كراهة الساميين مرض يصيب الأمم التي يتسلط عليها المخوف ، فتتهم من تستطيع اتهامه ، وتجد اليهود بينهم منعزلين متميزين ، فتخصهم بذلك الاتهام .

وقال بعضهم : إن كراهة الساميين داء تبتلى به الأمم المتكبرة التي توالت عليها الهزائم ، فهي تتشفى وتنتقم ممن تقدر عليه ، كما فعل النازيون .

وقال آخرون : إن الأمم الفقيرة تصاب بداء الحسد ، وتنتقم من الأجانب والغرباء عنها إذا اعتقدت فيهم الثراء والنجاح .

وكل هذا لغو وخرافة ، لأن الأمم كلها لا تصاب بالأدواء النفسية ويسلم منها الصهيونيون دون سواهم . وإذا كان الصهيونيون مكروهين من قديم الزمن فالبحث العلمي المنزه عن الغرض يتجه إليهم أولا ، قبل أن يتجه إلى الآخرين .

والواقع أن الصهيونيين لم يألفوا أحداً ولم يألفهم أحد ، منذ عرف اسم العبريين في التاريخ .

إن هؤلاء القوم من سلالة سامية نشأت في جزيرة العرب مهـ له الشعـوب السامية ، على أرجح الأراء

فشجر النزاع بينهم وبين جيرانهم وهاجروا الى العراق في الجنوب ، ثم هاجروا من جنوبي العراق الى شماليه في عصر يقارب عصر إبراهيم الخليل ، ثم هاجروا من العراق الشمالي إلى الصحراء السورية فدخلوا أرض كنعان ، وهناك كان يسكن الأدرميون والمؤابيون والعمالقة وعشائر مختلفة من الأراميين والكنعانيين ، وبدأ التاريخ يسمع بأنباء القتال بين هؤلاء جميعاً بعد دخول العبريين إلى ارضهم ، وبدأ التاريخ يسمع النزاع بين أتباع إبراهيم الخليل أنفسهم فانقسموا الى شطرين .

ومنذ تلك الحقبة لا يعرف التاريخ لهؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على الفة ووئام مع جيرانهم ، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون ، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون ، وقامت لهم دولة في عهد النبي داود فشغلتهم بالاغارة على جيرانهم واتقاء الغارة من أولئك الجيران . ثم جاء سليمان الحكيم فبنى لهم الهيكل فثار وا عليه لأنه فرض عليهم الاتاوات لبنائه وبناء قصره ، ثم انقسموا بعده قسمين : إلى الشمال والى الجنوب ، وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون في الجنوبيين ، وما قاله الجنوبيون في الشماليين ، فإذا هو أشد وأشنع مما قاله أعداء الساميين فيهم أجمعين ، من أقدمين ومحدثين .

ثم سباهم البابليون وحملوهم إلى أرض بابل ، فلم تنعقد الألفة بينهم وبين جيرانهم هناك ، وسرحهم «كورش » عاهل الفرس بعد حين ـ نفيا في حقيقة الأمر ، وعفوا عنهم في ظاهر الأمركما قالوا وكما قال .

وجملة تاريخهم بعد العودة من السبى تكرار لهذا التاريخ ، ولما تفرقوا في البلاد بعد هدم الهيكل حدث لهم في كل بلد ما حدث في البلد الآخر : نفور وقتال وكراهية للساميين بالتعبير الحديث .

ولا حاجة إلى بيان ما حدث لهم بعد ذلك . فإنه ماثل في جميع الأذهان ، وهو من المواضيع التي لا تنقطع الكتابة عنها والكلام فيها بين الغربيين والشرقيين ، وبخاصة بعد اقتحامهم لأرض فلسطين ، متواطئين مع ساداتهم المستعمرين ونصرائهم من المتعصبين .

أفكل العالم مريض والصهيونيون دون سواهم هم المبرؤون من العلل والأمراض ؟!

إن ذلك لهو اللغو بعينه كما أسلفنا في هذا الحديث ، وكفى أن تبرئة الصهيونيين من الاثم والملامة تلقى التهمة على أمم العالم جمعاء . . كفى ذلك لنعلم أنه اتهام باطل ينطوي على الغرض كما ينطوي على الضلال . .

لكن الواقع أن أعراض المرض النفساني ظاهرة محققة في الصهيونيين على نحو لا يقبل المراء .

إنهم مصابون بالبارانويا Paranoia بكل عرض من أعراضها التي يحصيها الأطباء النفسانيون .

إن أعراض البارانويا هي غرور الأنانية والانفصام عن الوسط الذي يعيش فيه المريض ، والوهم المتسلط والشعور بالاضطهاد ، والتوجس الدائم من الأعداء .

أي عرض من هذه الأعراض لا يظهر جليا واضحاً في هؤلاء الصهيونيين ؟ إنهم يسمون ربّ العالم « رب إسرائيل » ويحسبون أنه خلقهم وحدهم لعبادته وخلق الأمم جميعاً لخدمتهم الى آخر الزمان .

انهم مصابون بالانفصام فيعزلون في كل مكان دخلوا فيه مجتمعين او متفرقين .

إنهم يتوقعون الاضطهاد ويستثيرونه بوقوفهم موقف المقاومة له ، سواء تعرضوا له أو حرضوه بالعزلة والتآمر على استغلال الآخرين .

إنهم يجمعون كل أعراض البارانويا والشيزوفرانيا كما يحصيها الأطباء النفسانيون .

وكراهة الساميين إذن ليست مرضاً في الأمم الانسانية قاطبة باستثناء الصهيونيين ، ولكنها مرض في الصهيونيين يلازمهم في كل مكان وفي كل زمن ، ويثير في النفس « رد الفعل » الطبيعي له من كل إنسان سليم الطباع . إنهم لهم الجناة على انفسهم ، وإنهم لقوم « لا يعقلون » كما وصفهم

٦ ـ الصهيونية العالمية

دعوى الاضطهاد

حديثنا هنا موضوعه دعوى الاضطهاد .

ونحن لا نسميها « دعوى الاضطهاد » لأن الاضهاد غير موجود أو لم يوجد في الأزمنة الماضية ، ولكننا نتكلم عن هذه « الدعوى » من جوانبها التي تخفيها الصهيونية ، ويعاونها على إخفائها أذنابها المنتشرون في بلاد العالم ، ومنهم السافرون والمتسترون .

نريد أن نقول (أولا) إن الصهيونية هي المسؤولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها وعلى أبناء دينها .

وأن نقول « ثانياً » إن الصهيونيين أشد الناس اضطهاداً لغيرهم إذا ملكوا القدرة الظاهرة أو الخفية .

وأن نقول « ثالثاً » إن الصهيونيين يستغلون دعوى الاضطهاد ، ويتخذونها وسيلة لتخير الأمم باسم الانسانية والغيرة على الحرية .

إن الصهيونية مسؤولة عن كل فاصل تقيمه بينها وبين أمم العالم . لأنها من قديم الزمن تقسم العالم إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله لغير سبب إلا أنهم أبناء إسرائيل ، وقسم آخر يسمونه قسم الأمم أو « الجوييم » ويشملون به جميع الناس من جميع الأقوام والأجناس .

وفي كتب التلمود المعتبرة عندهم وصايا كثيرة عن المعاملة التي يستبيحونها مع غيرهم ولا يستبيحونها مع أحد من ملتهم ، ويكفي منها مثلان أو ثلاثة من تلمود شلقان عراق Shulchan Araq الذي لا يزال متداولا بينهم ،

ففي هذا التلمود يقال لهم: « إذا خذع يهودي أحداً من الأمم وجاء يهودي آخر واختلس من الأممي بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التي أرسلها إليهما يهواه » وهو اسم الاله في التوراة .

ويقال لهم في هذا التلمود « إنه وإن لم يكن من المفروض على اليهودي أن يقتل أممياً يعيش معه بسلام ، إلا أنه لا يجوز له في حال من الأحوال أن ينقذ حياة أحد من الأمميين » .

وقد ينكر بعض الصهيونيين اتباعهم لهذا التلمود ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينكر وا انهم يستبيحون اليوم ما أبيح لهم قديماً في التوراة ، وقد جاء في كتاب الخروج من الاصحاح الحادي عشر أن شعب اسرائيل أمر « بان يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . . وأن الرب أعطى نعمته للشعب في عيون المصريين » فأخذوا الأمتعة وهم على نية الرحيل من الديار .

ومعاملتهم لأعدائهم من باب أولى لا تعرف الحداود ، ومنها استباحة قتل الأطفال والنساء واحراق الحرث والنسل وتدمير المدن بما فيها من مساكن وحصون .

وليست عداوة الأمم داء قديماً عفى عليه الزمن كما يقول اليوم بعض الدعاة الصهيونيين ، فهي باقية على أشدها حتى اليوم ، وهي باقية حتى في شعور الصهيونيين نحو المنقذين لهم والقادمين لنصرتهم ، وقد ذكر كمشى Kimche داعية الصهيونية المشهور أن المحققين هالهم ما وجدوه من شعور المعتقلين بالعداوة نحو المسيحيين في سنة ١٩٤٦ وأن واحداً من اليهود مزق الجواز الذي يبيح له السفر إلى الولايات المتحدة لأنه لا يطمئن إلى احد من المسيحيين ».

قال كمشى في الصفحة الثالثة والثمانين من كتابه الطرق الخفية : « إن عداوة الأمم _ Anti -Goyism _ ذلك السرطان القديم في الحياة اليهودية قد جدد أخيراً أجله في الحياة ، وأنه مع الصهيونية يكهرب معسكرات اليهود في

القارة الأوروبية » .

وكمشى هذا هو صاحب صحيفة « جويش أوبزرف » وصاحب المؤلفات المشهورة في الدعاية الصهيونية ، ولا يزال قائماً بهذه الدعاية الى الآن .

فالدعوة المعروفة بعداوة السامية أو عداوة اليهود حركة مشكوك فيها قابلة للاختلاف على بواعثها ، ولكن الدعوة التي لا شك فيها هي عداوة الأمم التي طبع عليها الصهيونيون المعاصرون ، أو عداوة الجنوييم ، أو السلا-Goyism كما يسميها الصهيونيون المعاصرون جمهرة ولا يتكلفون لمداراتها وتلبيسها ، ثقة منهم بالضمائر المعروضة في سوق الخداع والتضليل ، وثقة منهم فوق ذلك بغفلة الغافلين ، وفرط العداوة في نفوس بغض الناس للاسلام ، فهم يحاربونه ولا يجهلون مساوىء الصهيونيين .

فإذا كان هذا هو شعور الصهيونية نحو الأمم فلا غرابة في شعور الأمم نحوهم بفواصل التفرقة والانقسام ، ويتمم هذا الشعور أن الصهيونيين من أيام اسلافهم متوارثون خلائق العناد والشراسة ، ويصفهم أنبياؤهم بصلابة الرقاب ، ويقول موسى عليه السلام نفسه : إلى متى يغفر الرب لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة ؟

أما أن الصهيونيين معروفون باضطهاد المخالفين لهم كلما استطاعوا فلا حاجة إلى الشواهد على ذلك من التاريخ القديم ، وهو مشحون بهذه الشواهد منذ أربعة آلاف سنة بل حسبنا شهادة واحد منهم وداعية من أكبر دعاتهم ، وذلك هو صاحب « نيويورك تيمس » الذي ينشر لهم أباطيلهم في الولايات المتحدة . فإنه يقول إنه « ينفر من أساليب الاكراه التي يعمد إليها الصهيونيون في أمريكا إذ يستخدمون الأسلحة الاقتصادية لاسكات من الصهيونيون في أمريكا إذ يستخدمون الأسلحة الاقتصادية لاسكات من يخالفونهم ، وانه هو نفسه ـ وهو أمريكي يدين باليهودية ـ قد يتعرض للمتاعب من جراء هذه الشكوى » .

إن هذه المُكرى مما أشار اليه دوجلاس ريد في الصفحة المائة والتسعين من كتابه « الدخان والخنق » . . وزاد عليها أنه يستطيع أن يعززها بما يملأ كتاباً كاملا عما يلقاه المخالفون للصهيونية من ضروب الاضطهاد .

فليس من حق صهيوني أن يشكو الاضطهاد إذا تعرض له بسوء نيته وسوء خلقه وسوء فعله ، فإنما الذنب فيه ذنبه قبل غيره ، وليس من شأن سوء النية وسوء الخلق وسوء الفعل أن يجر إلى المودة والشكر والثناء .

والأعجوبة الكبرى في دعوى الاضطهاد أن الصهيونيين يستخدمونها لاقناع الناس بمطالبهم ، ولا يتورعون عن أكذوبة قط في سبيل مطلب مقصود .

هل يخطر على بال أحد أن هجرة اليهود من ألمانيا كانت باتفاق مع هتار ؟ وأن حركة الاضطهاد كانت تنظم على علم من الدعاة الصهيونيين في القارة الأوربية ؟

هل يخطر على بال أحد أن الصهيونية كان لها مكتب معترف به في برلين ، وأنها كانت على اتصال دائم « « « بالجستابو » عن طريق هذا المكتب وفروعه في البلاد الألمانية ؟

نعم . كان لها مكتب معلوم في العارة رقم (١٠) من شارع مين كستراس Maine Chestrasse يديره اثنان أحدها يدعى بينو Pino والآخر يدعى بار جلعاد Bar Gilad وكلاها من زعاء الحركة الظاهرين في أنحاء القارة . الأوربية . . وكلاها مذكور بالفخار في كتاب كمشى ـ الذي سبقت الاشارة اليه .

وكان هذا المكتب ينظم الهجرة الصهيونية سراً إلى فلسطين ، في الوقت الذي تثار فيه الثائرة على الجستابو وفظائعه المسلطة على اليهود . .! .

ولما أعلن الجنرال مورجان ، بعد هزيمة ألمانيا ، أنه لم ير أحداً من اليهود المهاجرين في حالة سيئة ، وأنهم جميعاً يهاجرون ووجوههم مشرقة ، وجيوبهم منتفخة بالأموال مبت عليه الأقلام المأجورة من أنحاء العالم تتهمه بالنازية والتواطؤ مع الأعداء ، وتلح على حكومته بوجوب تجريده من ألقابه ومن كسوته العسكرية ، جزاء له على كشف القناع عما وراء الستار .

هذه هي « دعوى الاضطهاد » في جوانبها التي تخفيها الصهيونية ، وهي

تدين المضطهدين قبل أن تدين المضطهدين ، وتبرىء العالم كله من إثم الصهيونية ، لأنها لو وجدت في عالم من الملائكة لما كان لها فيه نصيب أكرم من هذا النصيب ، بل لعلها كانت في عالم الملائكة لا تنال من الرغد والنجاح ما تناله بالرشوة وخدمة الشهوات في ميادين السياسة الدولية ، كما ابتلى بها العالم الآن .

٧ - الصهيونية العالمية

والنبوغ

من الحقائق المتواترة ، بل من المشاهدات العيانية الثابتة ، أن الصهيونيين _ كما قدمنا _ مكروهون في كل مكان وفي كل زمن ، وأنهم يعرفون ذلك ولا يجهلونه ، ويعترفون به ولا ينكرونه . . لأنه أظهر من أن يجوز فيه المراء .

يعرف الصهيونيون أنهم مكروهون ، ويعترفون بذلك لأنه ظاهر متواتر ، ولكنهم لا يعترفون به لمجرد الاعتراف بالواقع الظاهر المتواتر ، بل يعترفون به لأنهم ينتفعون منه ، ولأن دعواهم كلها قائمة على شكوى الظلم والاضطهاد ، وعلى الحاجة الملحة إلى الانصاف .

يعرفون أنهم مكروهون ، ويحاولون في الزمن الحديث أن يفسروا ذلك تفسيراً يبرثهم من العلة ، ويرجع بالعلة كلها إلى أمم العالم دونهم ، فلا يفلحون !! .

على أنهم في الزمن الأخير يسلمون أن العلة منهم ، ولكنها علة تشرفهم ولا تعيبهم ، وإنما تعيب غيرهم من أعداء الساميين .

العلة في زعمهم أنهم قوم محسودون ، لأنهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم من الأمم . . فهم ناجحون في ميادين الأعمال ؛ ناجحون في ميادين العلوم والفنون ، وخليق بهذه الكفايات النادرة ، خليق بهذا النجاح الملحوظ أنه يحلب عليهم الحسد والكراهية ، لغير ذنب جنوه !!

وهذا هو الوهم الباطل بحذافيره !

هذه هي الاشاعة الكاذبة من الألف إلى الياء!

هذه هي الأكذوبة التي يقوم الدليل عليها بالحساب والأرقام ، والنظر إلى الواقع الذي نراه بيننا ، ولا يذهب بنا إلى بعيد .

في مصر كثير من الجاليات التي تعمل في ميادين الحياة العامة غير الصهيونيين .

فيها جاليات من اليونان ، ومن الأرمن ، ومن إخواننا أبناء الأمم العربية الشرقية .

ونظرة سريعة إلى الناجحين من كل جالية ، ترينا بالحساب والأرقام انهم لا يقلون عن الناجحين من الصهيونيين .

ويبقى بعد ذلك فارقان عظيمان: الفارق الأول ان الناجحين من هذه الأمم ينجحون في التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون، وأن الصهيونيين على خلاف ذلك _ قلما ينجحون في عمل غير السمسرة والتجارة.

والفارق الآخر أن الجاليات الأخرى تعمل وحدها ولا تستند إلى عصبة عالمية من أبناء قومها منتشرة في أرجاء العالم ، وليس منها طوابير خامسة مبثوثة في كل بقعة تعاونها سراً وجهراً ، وتحارب من ينافسونها ويزاحمونها ، كما يفعل الصهيونيون .

فالصهيونيون ـ مع هذا التعاون بينهم وبين طوابيرهم الخامسة في أنحاء العالم ـ لم يبلغوا من النجاح مبلغاً يفوقون به غيرهم ، ولم يبلغوا نجاحاً إلا في ميدان واحد دون سائر الميادين .

ندع هذا ونعود إلى دعوى النبوغ في العلوم والفنون ، فلا نرى أن الصهيونية أنشأت لها ثقافة مستقلة قط في زمن من الأزمان : وإنما يستفيد الصهيوني الألماني من ثقافة ألمانيا ، ويستفيد الصهيوني الانجليزي من ثقافة أمريكا . ويقال مثل ثقافة إنجلترا ، ويستفيد الصهيوني الأمريكي من ثقافة أمريكا . ويقال مثل ذلك عن الصهيونيين في إيطاليا وسويسرة وهولندة والبلجيك ، فهم

يستفيدون من ثقافات هذه الأمم ، وينبغي لذلك ان يكون الناجحون منهم في العلوم والفنون أضعاف الناجحين من جميع الأمم بالنسبة لعددها ، ولكنهم بالنسبة إلى عددهم ، وبالنسبة إلى استفاداتهم من جميع الأمم أقل من غيرهم في عدد النابغين بكثير .

وإذا ذكرنا الطوابير الخامسة في ميادين الأعمال الاقتصادية ، فلنذكر هذه الطوابير الخامسة في ميادين العلوم والفنون ، ولنذكر أن الصهيونيين يتدخلون في شركات الصحف وشركات الاعلان ، وشركات النشر والطباعة ، وأنهم يتعصبون ويتألبون ويتحزبون ، فينال الكاتب الصهيوني من الشهرة فوق ما يستحقه ، ويبدو ذلك جلياً من شهرة أناس من أمثال لدفيج ، وموروا ، وزفايج ، وكافكا ، وريلكة ، وبروست وسارتر ، وآخرين وآخرين . . فإنهم أقل من نظرائهم في بلادهم ، ولكنهم يشتهرون بفعل الدعاية والتآمر عليها ، لأنهم صهيونيون آباء وأمهات ، أو لأنهم أبناء أمهات من الصهيونيين .

إن المقياس الصحيح لنبوغ الصهيونيين في العلوم والفنون هو تاريخهم القديم .

إن تاريخهم المستقل بثقافته ودراساته هو المقياس الصحيح لتلك العقول ، أو لتلك الكفايات !

وقد كانت في الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات في الطب والفلك والجغرافية والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت هذه المكتبة الجامعة التي احترقت في بعض الحروب عنواناً لثقافة الأمم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت فيها محفوظات من تآليف هذه الأمم ومقتبساتها ، فكم كتاب كانت فيها من تآليف الصهيونيين الأقدمين ؟ كم أثراً من آثارهم في علوم الفلك أو الجغرافية أو الهندسة أو الطب أو الفلسفة ، أو غيرها من ثمرات العقول الانسانية ؟

لا كتاب! ولا أثر! ولا ثمرة . . وهذا هو المقياس الصحيح لتلك العقول وتلك الكفايات .

ولقد كان أذكياء اليهود يخجلون من هذه السبة ، وكان أذكياء الأمم يعيرونهم بها ويسألونهم عنها ، كما فعل ابيانAnnian حيث وجه السؤال بصددها إلى المؤرخ اليهودي يوسفيوس ، فبماذا أجابه يوسفيوس ؟

إنه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للانكار ، وإنما اعترف بها واعتذر منها كما قال بحروفه : « إننا نسكن بلداً بعيداً من البحر ، ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات ، فهل من العجب أن أمة كهذه الأمة على بعدها من البحر قبل اشتغالها بالكتابة _ تظل مجهولة بين غيرها ؟» .

وقد أورد فولتير هذه العبارة ، فعلق عليها قائلا ـ على فرض أن كتب العهد القديم تعد من كتب الصهيونية : « لا بد أن نلاحظ أن اثنين وعشرين كتاباً صغيراً ليست بالعدد الكبير إذا نظرنا إلى آكام الكتب التي كانت محفوظة في مكتبة الاسكندرية . . ولا شك أن اليهود قد كتبوا قليلا وقرأوا قليلا ، وأنهم كانوا على جهل مطبق في علوم الهيئة والرياضة والجغرافية والطبيعيات ، وأنهم لم يفقهوا شيئاً من تواريخ الأمم الاخرى ، ولم يبدأوا بالتعلم إلا في الاسكندرية حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف ، وما كانت لغتهم إلا خليطاً بربرياً من الفينيقية والكلدانية المحرفة ، ناقصة في تصريفات الأفعال ، فقيرة في أدوات التعبير ، وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها . .

ومن السهل أن يقال عن فولتير كل شيء إلا أنه كان من أعداء الساميين ، ولو كان من أعدائهم لما قدح ذلك في كلامه عنهم ، لأنه لم يقرر كلمة واحدة في غير الواقع الملموس .

تلك حقيقة الدعوى التي يروجها الصهيونيون عن النبوغ المحسود ، وعن الكراهية التي يثيرها في النفوس امتيازهم بالكفايات والملكات ، فهم في الثقافة عالة على كل أمة يستمدون منها التعليم ، وهم في ميادين الأعمال دون غيرهم من الأمم التي لا تستعين بالطوابير الخامسة كما يستعينون بها ، وآية ذلك ظاهرة من المقارنة بينهم وبين الجاليات الأخرى من الديار المصرية .

وتلكَ الطوابير الخامسة هي مصدر القوة الصهيونية العالمية ، وهي التي نشرحها فيما يلي من الفصول .

٨ _ الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة في ميادين السياسة والاقتصاد

الطوابير الخامسة إذن هي مصدر القوة الكبرى للصهيونية العالمية ، لأنها منتشرة في كل بلد ، متفقة على الحقد والضغينة ، وإن لم تتفق على المحبة والخير ، مطلعة على أسرار الدول وأسرار الشركات وأسرار المجتمعات . ولا توجد قوة في العالم تنتشر هذا الانتشار ، وتتفق على الحقد والضغينة هذا الاتفاق ، وتطلع على الأسرار وعلى وسائل استغلالها هذا الاطلاع .

لقد و جدت في العالم دول قوية نشرت جواسيسها في كل بلد ، واستأجرت الدعاة لترويج مقاصدها وتمهيد الأذهان لقبول سياستها ، ولكنها لم تبلغ في القوة مبلغ الصهيونية العالمية . لأن الدولة القوية تناهضها دولة قوية مثلها ، وتستثير عليها الأوطان التي تحكمها ، ولأن الجاسوس الذي يعمل لدولة غريبة أو قريبة _ غير الجاسوس الذي يعمل لنفسه ولجنسه ويصدر في عمله عن الحقد المتغلغل بين جوانحه ، والموروث من أبيه وجده ، ويعتقد أن إلهه يبارك حقده وشره ، ويتكفل له بالنصر على أعدائه ، وقلما يتمكن الجاسوس في بلد من البلدان كما يتمكن منه الصهيوني المقيم فيه ، المرتبط بمعاملاته وعلاقاته ، وقلما يتجاوز جواسيس الدول الألوف فيه ، المرتبط بمعاملاته وعلاقاته ، وقلما يتجاوز جواسيس الدول الألوف الى الملايين . . أما طوابير الصهيونية فهم يتجاوزون الملايين ، من الظاهرين غير المسترين .

نعم من الظاهرين غير المستترين ، لأن الغالب على الكثيرين أن يحصروا الصهيونين فلا يحسبون منهم إلا المقيمين على ديانتهم المعترفين بنسبتهم إلى أبناء جلدتهم ، ولكنهم لا يحسبون الصهيونيين الذين أظهروا التحول عن دينهم ، ليكون هذا التحول أعون لهم على الدسيسة ، وأخفى

لأغراضهم عن الرقباء ، وأدنى بهم إلى مكامن الأسرار وبواطن النيات .

وهناك غير الصهيونيين المقيمين على دينهم ، وغير الصهيونيين المتحولين عنه إلى دين آخر ، طوائف من الصهيونيين بالمصاهرة والمقاربة في الشعور ـ لا يقلون في الغيرة على قضية الصهيونية عن زملائهم الأخرين .

هناك الصهيونيون من الأمهات الصهيونيات ، وقد ترقى بعضهم إلى مراكز الوزارة في أكبر الدول ، وتربوا من المهد على خدمة الصهيونية ، كما يتربى الطفل على حب أمه ، وهو لا يلتمس لذلك الحب علة ولا برهاناً غير العاطفة التي لا تحتاج إلى تعليم ولا تلقين .

فالصهيونيون أكثر من ملايينهم الظاهرين ، وهم مم هذه الكثرة مطلعون على أسرار الدول والمعاملات المالية بحكم صناعتهم ، إذ كانت الصناعة الأولى التي توارثوها هي صناعة الصيرفة والسمسرة المالية ، وهي أحوج الصناعات إلى الاطلاع على الأسرار . لأن سراً واحداً عن الحرب والصلح قد يعمر الخزائن بالملايين ، وقد يخرب الخزائن ذات الملايين .

وهذا عدا أسرار المضاربات في الأسواق بمعزل عن أخبار الحرب والسلام . . فربما ارتفعت أسهم وهبطت أسهم من جراء سر يعرف المضارب قبل الأوان ، وربما حل الدمار بقطر واسع من عواقب هذا الارتفاع وهذا الهبوط .

وليست الأعمال المالية _ أعمال الصيرفة والسمسرة _ وقفاً على الصهيونين ، فهناك صيارفة كبار من غير صهيون ، وهناك البيوت المالية في جميع الأمم والقارات ، ولكن الشبكة العالمية وقف على الصهيونية العالمية ، فلا توجد شبكة مثلها للصيرفة والسمسرة تضارعها في الانتشار .

يوجد في العالم أفراد من ملوك المال أمثال مورجان وروكفلر ، ولكن لا يوجد فيه ملوك مال من قبيل الأخوة روتشيلد : روتشيلد بريطاني في لندن ، وروتشيلد فرنسي في باريس ـ وروتشيلد الماني في برلين ، وروتشيلد نمسوي في فيينا ، وحولهم شبكة محكمة ، في السر والعلانية ، تحيط بالأسواق ودواوين الحكومات .

قال الكاتب الانجليزي شسترتون الذي ننقل عنه هذه الملاحظة من كتاب: فاجعة السامية وعداوتها . « إن سفينة خرجت من ميناء في أمريكا اللاتينية أثناء الحرب العالمية ، وأرادت الدولة البريطانية أن تردها فلجأت إلى من ؟ . . الى بيوت روتشيلد ، فوقفت السفينة حيث شاءت » واستطاع المال في هذا الحادث ما لم تستطعه القوة . لأن القوة تخشى عواقب المناورات السياسية ، وتتقيد بالقانون الدولي ، وتخاف من سوء السمعة ، ولكن المال يفعل فعله سراً دون أن يعلم أجد بمن عمل ولماذا عمل . وقد يكون في عمله الرضى للمخدوعين غير العارفين ، وللمنتفعين بتدبيره من العارفين .

ومضى شسترتون A. KCheserton يقول في الكتباب نفسه في الصفحة الثمانين: « والأمر أعمق من ذلك وأخفى . فقد حدث قبل الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات ، أن أوغنده عرضت على الصهيونيين فرفضوها ، لأنهم علموا أن حرباً عالمية في الطريق ، وأن فلسطين في خلال تلك الحرب تنتقل على سبيل الهبة إلى أيدي البريطان » .

قال شسترتون بعد ذلك : « إن يهوديا بريطانيا معروفاً تحدث إلى وليام هيكي Hickey عن مشروعات يتممها بعد الحرب ، أي قبل أن تشتعل الحرب العالمية الثانية بسنتين .

وفي الصفحة الخامسة والثمانين من هذا الكتاب بعينه يروي شسترتون قصة الكتاب الأبيض الذي صدر من وزارة الخارجية البريطانية عن ثورة روسيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وأن هذا الكتاب الأبيض جمع من الأيدي بعد صدوره ، وتغيرت بعض عباراته ، ولم يكن ما تغير منه إلا عبارات تشير إلى المساعي الصهيونية ، ثم صدر الكتاب كما هو بعد هذا التغيير .

وينقل الكاتب كلاماً كثيراً من الصحيفة اليه ودية الرسمية التي تسمى جويش كرونيكل Jewish Chronicle لا يخطر على البال إلا إذا اطلع القارىء على نصوصه التي لا شك فيها ، ومنها أن السير ستيوارت صمويل ـ كما جاء في عدد السابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٩ ـ قد أنبأ عن تولي مستر

شرشل لوزارة الداخلية في الوزارة القادمة ، وأنه سيؤيد القوانين التي ترضي البزلاء اليهود ولا يتيسر تأييدها في الوقت الحاضر .

وقد نشرت صحيفة مانشستر جارديان في عدد الحادي والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٠٨ أن مستر شرشل أرضى اليهود بأجوبته عن بعض الأسئلة ، وأنهم فضلوه بتأييدهم وقدموه على اليهودي الصراح جوينسون هيكس Joynson Hicks . . . ولولا ذلك لما كان على المنبر الذي ارتقاه ذلك اليوم . . » .

ومستر شرشل كما يعلم حضرات القراء هو الذي كان يقول ولا يداري خبيئة صدره « إنه صهيوني » . . وهو الذي نقلت عنه الديلي تلغراف في التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٢٦ انه قال : « إني في كل حياتي السياسية كنت على صلة حسنة بالمواطنين اليهود » . . . و بعد هذا وذاك ، لا يخفى أن الرجل ينتمى من جهة أمه إلى سلالة يهودية !

هذا طابور من الطوابير الصهيونية الخامسة التي تعمل للسيطرة العالمية ، وهو طابور الصيارفة والسماسرة ، وله من الوسائل ـ كما رأينا ـ ما يطلع به على أسرار الحروب المقبلة ، وما يجري فيها لمصلحة الصهيونية ، وله من الوسائل ما يتسلل به إلى مراكز الوزارات والمجالس النيابية ، وله من الوسائل ما لخصه روتشيلد في كلمة واحدة حيث قال :

« مكنّى من إصدار النقد والاشراف عليه في أمة من الأمم ولا أبالي بعد ذلك من يشرع لها القوانين » .

وإن هذا الطابور الخامس لواحد من طوابير كثيرة ، فإن كان في الأمر عجب فليس هو العجب لنفوذ الصهيونية في العالم ، بل العجب ألا يكون لها في العالم نفوذ أكبر من هذا النفوذ . . .

٩ - الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة من ميادين الثقافة

حسب الصهيونية العالمية سلاحاً ماضياً في جميع الميادين ـ طابورها الخامس في ميدان المال والاقتصاد .

إن هذا الطابور الخامس متغلغل في كُل ميدان ، في كل بلد ، في كل حركة عالمية ، في كل دولة من الدول الكبرى على الخصوص .

وحسب الصهيونية العالمية أن يكون لها هذا الطابور الخامس ، لتملك به وسائل السيطرة في كل ميدان من ميادين الحضارة الحديثة ، وفي مقدمتها ميدان الثقافة والدعاية العالمية .

لكن الصهيونية العالمية لا تكتفي بالطابور الخامس في ميدان المال والاقتصاد ، ولا تكتفي بأثره القوي في شؤون الدعاية وما يتصل بها من شؤون الثقافة وشؤون الأداب والفنون على الجملة ، وإن كان في هذا الأثر الكفاية .

لا تكتفي بسلاح المال والاقتصاد عامة وإن كان فيه الكفاية . بل تعمل للسيطرة على الثقافة العالمية مباشرة في ميدانها الأصيل ، ولا تقنع منه بسيطرة الماليين والصيارفة وأصحاب الشركات والمشروعات في ميدانهم الكبير .

تتوسل الصهيونية العالمية إلى السيطرة على الثقافة والفنون بوسائل كثيرة ، نتكلم في هذا الفصل عن بعضها لأنها أظهرها وأعمها ، ولا نحصرها جميعاً لأنها بطبيعتها متشعبة في كل طريق ، ويوشك أن تتشعب إلى كل مركز من مراكز الثقافة والدعاية من بعيد ، او من دورة ملفوفة لا تفطن لها الأنظار .

وسائلها الظاهرة للسيطرة على ثقافة العالم هذه الوسائل الأربع :

(أولا) وسيلة الصحافة العالمية .

(ثانيا) وسيلة الشركات التي لها اتصال وثيق بالصحافة ولا سيما شركات لاعلان .

(ثالثا) شركات النشر والتوزيع .

(رابعاً) هيئات الثقافة العالمية .

وهذه الوسائل الأربع كافية ـ مع التضامن والتألب ـ لتمكين الصهيونية العالمية من السيطرة على الكتاب والقراء لا تتيسر لقوة عالمية أخرى .

تتمكن الصهيونية العالمية من الصحافة بالمساهمة في رؤوس الأموال ، والمساهمة في التحرير و المراسلة ، وبالمساهمة في السبق إلى الأخبار والأسرار .

ولكن الوسيلة النافذة هي الوسيلة الثانية ، وهي شركات الاعلان .

فالصحف التي تطبع الملايين في البلاد الغربية لا تستغني عن الاعلانات ، ولا يتأتى لها تعويض النفقات الكثيرة بثمن البيع أو الاشتراكات السنوية . فإن ثمن الصحيفة أقل من ثمن الورق الذي تطبع عليه ، فضلا عن تكاليف التحرير والادارة والطباعة والتوزيع ، وكلما اشتدت المنافسة بين الصحف عملت على نقص ثمن النسخة وازداد تعويلها على الاعلان ، حتى بلغ ثمن الصحيفة المؤلفة من عشرين صفحة بنساً واحداً ، وبلغت أجور الاعلان خمسة أضعافها في الربع الأول من القرن العشرين .

والصحيفة التي تجازف بالموت هي الصحيفة التي تهاجم الصهيونية العالمية ، أو تناهضها في دسيسة من دسائسها ، فإن المساهمين في رأس مالها يهددونها ويحرجونها في مجالس الادارة ، فإن لم تكن للصهيونيين حصة كبيرة من رأس مالها ، ولم يكن لهم دخل في تحريرها وادارتها ، فهناك الاعلانات التي تعول عليها ولا تستغني عنها ، فإنها تنقطع عنها فجأة ، وتتركها عرضة للافلاس . ولا تزال عرضة للافلاس والتعطيل حتى

تتوقف فعلا عن الصدور ، أو تدركها شركة جديدة ، بمعونة جديدة ، معلقة على قبول السياسة التي تملى عليها ، بأسلوب صريح أو غير صريح .

وليس كل الكتاب في الغرب من كتاب الصحافة الذين يعملون لها في التحرير والمراسلة واصطياد الأخبار والأسرار ، بل هناك كتاب الأدب وكتاب الاجتماع وكتاب المذاهب الفكرية والفنية على التعميم . وهؤلاء لا تتركهم الصهيونية العالمية بمأمن من وسائل تأثيرها وطغيانها في كثير من الأحوال . . ووسائل النشر والتوزيع والنقد بعض أدواتها الفعالة في عالم التأليف والتفكير .

وليس بالقليل بين دور النشر ما يملكه الصهيونيون منفردين بتمويله وادارته ، وأكثر من ذلك دور النشر التي يساهمون فيها بالحصص والأسهم ، أو الادارة والاشراف ، وكل هذه الدور لا تستغني عن الدعاية الصحفية وغيرها من أساليب الدعاية في العصر الحديث .

وتأتى الهيئات العالمية بعد هذه الهيئات المشتغلة بالصحافة او النشر أو الاعلان والدعاية .

تأتي بعد ذلك هيآت عالمية لا تخطر على البال لأول وهلة ، لأنها مفروض فيها أن تعمل لخدمة الأمم الانسانية جميعاً ، ولكنها لا تعمل لخدمة أحد كما تعمل لخدمة الصهيونية العالمية .

خذوا لذلك مثلا تلك الهيئة المعروفة باسم (اليونسكو) . . والتي يقال إنها مجعولة لخدمة الثقافة الانسانية في ارجاء العالم ، والتي تتقاضى المال من كل أحد غير الصهيونيين .

فهذه الهيئة العالمية ـ الانسانية ـ ينتشر في دواوينها الصهيونيون بين أمناء السر ، ورؤساء المكاتب ، ومديري الحسابات ، وزمرة المحررين والمسجلين ، ولم تعمل حتى اليوم عملا أظهر وأجهر من أعمالها في خدمة الصهيونية ومحاربة أعدائها ، وبخاصة أعدائها المعروفين بكراهة الساميين .

وبين أيدينا الآن نحو عشرين رسالة في موضوع العنصر والسلالة ، تدور

كلها من بعيد أو قريب على محور واحد ، وهو الدفاع عن الصهيونية ، وتسفيه آراء الناقمين عليها والمشهرين بها ، والقائلين بالفوارق الجنسية التي تمسها وتغيبها في نظر الأمم الأخرى .

وظاهر هذه الدعوة أنها انسانية عامة ، وبعض المشتركين فيها يكتبون لها على هذا الاعتبار ، ولكن الاهتمام بها في الواقع إنما هو اهتمام بالسامية دون غيرها ، لأنها هي مسألة العنصر المعروضة هناك على الأسماع والأبصار ، وعلى العواطف والعقول ، ولا يوجد انسان تبلغ به البلاهة أن يتصور « اليونسكو » عاملة على محاربة الولايات المتحدة مشلا في قضية الزنوج السود ، ولا عاملة على خدمة الصهيونية دون غيرها : تبذل فيها أموال الأمم ، وتسخر لها الهيئة العالمية الدولية ، باسم العلم والانسانية .

ولا يحسبن أحد في الشرق أننا نحن الشرقيين بمنجاة من هذه الشبكة العالمية في قضايانا مع الصهيونية ، فإن الدعاية التي يسيطر عليها الصهيونيون لا تنسى الانتقام من أعدائها ، ولا تنسى مكافأة اصدقائها ، وبين حين وحين نسمع تلك الدعاية الخارجية ـ التي لا تعرف حرفاً واحداً من العربية ـ تهلل لبعض الأعوان ولا تعرف لهم عملا إلا أنهم أغضبوا الاسلام ولم يغضبوا الصهيونية بفعل أو كلام .

ولنا أن نتخذها قاعدة عامة في الدعاية العالمية التي تتولاها الصهيونية . تلك القاعدة العامة أنها لا تشيد بذكر كاتب من الأوروبيين او الامريكيين ، لا يعمل طوع بنانها في ترويج دعوتها الظاهرة أو الخفية ، ومن دعوتها الخفية هدم العقائد والأخلاق وتحطيم الأديان والأوطان ، وليس على حضرات القراء عناء كبير للتحقق من هذه القاعدة ، فحسبهم أن يلتقطوا خمسة أسماء أو ستة من أصحاب الحظوة في الدعاية العالمية ، فلن يجدوا منهم واحداً يعادي الصهيونيين ، وقد يجدونهم جميعاً خداماً للصهيونين السافرين أو المقنعين .

١ - الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة في المجالس النيابية

حديثنا هنا عن الطوابير الصهيونية الخامسة في المجالس النيابية .

والصهيونية العالمية تهتم بالوصول الى المجالس النيابية أحياناً ، ولكنها لا تهتم بالوصول اليها في جميع الأحيان ، لانها تختصر الطريق فتصل الى الحكومة مباشرة ، فتعطل ما تعطل من القوانين الصادرة ، ومن التشريعات المنتظرة ، أو توجه السياسة عملا إلى غير وجهتها التي لا ترضى عنها .

ولقد حدث في بلاد المجر أن الصهيونية التهمت ثروة الفلاح الصغير ، وملكت زمام الفلاح الكبير ، بالديون واشتباك المعاملات مع الشركات والمصارف ، وساعدها على ذلك أن اليهود ـ منذ القدم ـ كثيرون في أوربة الوسطى وأوربة الشرقية ، وأنهم ازدادوا كثرة بعد قيام النازية في ألمانيا ، فهاجروا آحاداً وجماعات من ألمانيا إلى المجر وانتشروا في العواصم والأقاليم ، وأصبحت بلاد المجر معروفة في ذلك العهد باسم « فردوس إسرائيل » لأن زمام الثروة فيها تجمع بين أيدي اليهود الأصلاء واليهود المهاجرين .

فلما تفاقم الخطر وثار الشعب الجائع على المرابين والمستغلين ـ لم يكن في وسع الهيئة التشريعية أن تصم آذانها عن هذا النذير العاجل ، وتقدمت إليها مشر وعات متعددة لانقاذ ضحايا الربا الفاحش والاستغلال الذريع ، ونصت القوانين على تحديد حصة اليهود في كل شركة أو كل عمل مالي بستة في المائة ، وذهب بعضها إلى تنظيم المصادرة على آجال متتابعة ، وصدر بعض هذه القوانين فعلا ، وظل بعضها الآخر معروضاً للبحث والمناقشة بين

التأجيل والاهمال .

من هذه القوانين ما توقف عند الوصي على العرش فأسقطه بحق « الفيتو » أو حق التعطيل .

ومنها ما صدر من البرلمان ومن ديوان الوصي على العرش ، ولم ينفذ ولم يسمع له بعد ذلك خبر .

ومنها ما بقى في لجان البرلمان يدرس ويعاد درسه ، ويؤجل ويعاد تأجيله ، إلى أن طواه النسيان .

فالصهيونية لا تهتم بالوصول في كل حين إلى المجالس النيابية ، أو هي لا تهتم بها إذا أمكنها أن تسيطر على الحكومة بوسيلة من الوسائل . فأما إذا تعذر عليها أن تسيطر على الحكومة واحتاجت إلى صوت مرفوع في المجالس النيابية لتأييد قضية من القضايا العزيزة عليها ، فهي لا تعيا إذن بالوسائل التي تمكنها من التأثير في المجالس النيابية ـ ولو بعض التأثير وأهم هذه الوسال الدعاية العامة « أولا » ثم استغلال الأحزاب التي تحتاج إلى المال في ابان الانتخابات ، وقل أن تستغني خزائن الأحزاب عن المال الكثير في ابان المعركة الانتخابية ، لأنها تنفق المال جهرة وخفية على الحملات الصحفية ، ومنشورات الدعاية ، وتأمينات المرشحين ، ولجان الدوائر وما إليها من الأعوان الحزبيين .

وقد تنبهت الأمم الديمقراطية إلى هذه المساومات الوبيلة ، فأصدرت التشريعات التي تحدد المقدار المسموح بانفاقه في الحملة الانتخابية ، أو التي تقضي باعلان مصادر الأموال في خزانة الحزب ، أو التي تشدد العقاب على اعطاء الرشوة وقبولها أثناء الترشيح ، ولكن هذه القوانين لا تنفذ إلا قليلا ، لأن الادانة فيها تمس الغالب والمغلوب .

وفي إنجلترا مثلا يكفي أن يقدم المرشح سيجارة إلى الناخب ليكون ذلك حجة للطعن في انتخابه ، ولكن الناخبين احرار في الدعوة لمرشحهم ، فما لا يفعله المرشح يفعله الناخبون .

وقد اهتم الصهيونيون بالوصول إلى مجلس النواب الانجليزي بعد الحرب

العالمية الثانية ، لأنهم اعتقدوا أن قضية فلسطين تحتاج إلى صوت مسموع في ذلك المجلس ، فوصل إليه نحو سبعين منهم ، كما جاء في كلام البريجادير مكسونBrigadier Mackeson المثبت في سجلات هنسارد Hansard الرسمية ، وهو عدد يزيد على عشرة أضعاف النسبة التي يقدرها لهم قانون الانتخاب .

ولم يكن هؤلاء السبعون جميعاً متدينين باليهودية علانية ، بل كان منهم ثمانية وعشرون يهوديا ثابتون على دينهم ، وكان سائرهم يهوداً متحولين الى المسيحية لتلبيس المقاصد الصهيونية على جمهرة الناس .

قال دو جلاس ريدDouglas Reed في كتابه α من الدخان إلى الخنق α .

« إن عدد النواب اليهود في برلمان سنة ١٩٤٥ من العسير تقديره فيما يلوح لي . فإن الصحف اليهودية تقدرهم بثمانية وعشرين ، ولكنها إذا أرادت بذلك عدد اليهود غير المعترفين بدينهم فالصورة بعيدة جداً من الصحة ، وقد حدث بعد المناقشة التي دارت بالمجلس في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ عقب اقتناص اثنين من الجنود البريطانيين في فلسطين ثم شنق الصهيونيين لهما أن النائب البريجادير مكسون وقف كما جاء في سجل هنسارد فأشار اليهم قائلا : هنا نجو ستين أو سبعين عضواً محترماً من اليهود يؤيدون الصهيونية .».

ثم استطرد المؤلف إلى الكلام على الحملة العنيفة التي شنها الصهيونيون على بريطانيا ، لأنها لم تتوسع في مطاردة العرب مرضاة لاسرائيل .

يحدث هذا في انجلترا ، أعرق البلاد البرلمانية ، فلا حاجة الى الكلام عما يحدث في غيرها من البلاد التي لم تتمكن فيها بعد تقاليد الانتخاب .

والواضح أن السياسة العالمية كلها قد تأثرت بهذه المناورات الصهيونية ، فإن الدولة البريطانية علمت أنها هدف لحملات الدعاية الصهيونية في العالم ، وأن الصهيونيين يهددونها بالعزلة في الحرب العالمية التالية ، وقد كانت الدولة البريطانية تخشاهم خلال كل حرب عالمية ، لعلمها بنفوذهم في الولايات المتحدة ، وقدرتهم على توجيه الرأي العام هناك ـ ولو بعض

التوجيه ـ الى اعتزال الحرب والوقوف على الحياد . . وكانت ـ أي الدولة البريطانية ـ مطمئنة الى كراهة اليهود لألمانيا ، وسعيهم الى تأليب الدول عليها ، ولكنها لا تدري كيف يكون الموقف خلال المنازعات الدولية التالية ، فقد تقف الصهيونية بأسرها في وجه إنجلترا لتعزلها وتبذل جهدها في إثارة الامريكيين عليها ، وقد تقف انجلترا يومئذ وحيدة في الميدان بتدبير المؤامرة الصهيونية ولهذا كانت تحتمل منهم في فلسطين اهانات ولطمات لم تصبر على مثلها في بلد آخر ، ولهذا اشتبك الدهاء البريطاني والدهاء الصهيوني في صراع الجبابرة استعداداً للنزال في المستقبل ، وما زال الدهاء البريطاني يحتال احتياله حتى أصبحت « بريطانيا العظمى » أقل الدول اليوم خوفاً من المؤامرات الصهيونية العالمية خلال الحرب المقبلة ، لأن الولايات المتحدة هي صاحبة الشأن الأول فيها ، فإذا حار بها الصهيونيون وانضموا إلى أعدائها هدموا بيتهم على رأسهم عامدين أو غير عامدين .

وما أكثر ما يقال عن دسائس الصهيونية في المجالس النيابية لو اتسع المقال .

١١ - الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة في السياسة الشرقية

كان نابليون الكبير من الخبراء الحذاق بصناعة الحكم ، وكان على علم بديهي بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ في الرأي العام ، وكان من أجل هذا عظيم العناية بعوامل النفوذ الصهيوني في البلاد الفرنسية وفي البلاد التي يتطلع اليها بنظره ، لأغراض سياسية أو عسكرية .

كان في سنة ١٨٠٦ سيد القارة الأوربية غير مدافع ، هزم النمسا وبروسيا ، وتغلب على وليام بت في ميدان العلاقات الدولية ، ولكنه في تلك السنة كان يرفع يديه دهشاً ويسأل من حوله قائلا : « بأية معجزة اصبحت أقاليم كاملة من فرنسا مرتهنة لليهود ، وليس منهم فيها أكثر من ستين ألفاً ؟» .

لا جرم يفكر نابليون في الصهيونية العالمية قبل حملته على المشرق ، ويساوم هذه الصهيونية على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة ، فهم يعودون إلى أرض الميعاد ويعيدون فيها دولتهم البائدة ، وهو يستفيد من أموالهم ودعايتهم في تأييد تلك الحملة ومقاومة النفوذ السياسي ، أو المالى ، الذي يعترضها ويعوق حركاتها .

ففي سنة 1۷۹۹ نشرت صحيفة جازيت ناسيونالGazette Nationale الرسمية بياناً لنابليون يدعو فيه يهود آسيا وأفريقية أن يهرعوا إلى رايته ليدخلوا تحت ظلالها إلى أورشليم ، ويقول إنه قد جند منهم فرقاً تزحف على حلب .

وقبل هذا البيان بسنة واحدة نشر اليهود في باريس دعوة للاجتماع بها ، والاتفاق مع الحكومة الفرنسية على رد الصهيونية الى وطنها ، وذكروا أن ذلك الوطن يشمل الوجه البحري من القطر المصري ، مضافاً إليه إقليم يحده خط من عكا إلى البحر الميت ، وخط من جنوب البحر الميت إلى البحر الأحمر ، وأنهم باستيلائهم على هذه المملكة يسيطرون على تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقية الشرقية وأفريقية الجنوبية ، وأن مجاورة هذه المملكة لحلب ودمشق تيسر لهم سبل التجارة مع البلاد الفارسية ، وتفتح لهم من طريق البحر الأبيض المتوسط أسواق أسبانيا وفرنسا وسائر أنحاء القارة الأوربية ، وتصبح هذه المملكة من مركزها في وسط العالم مستودع المحاصيل العالمية فتمنح فرنسا و في مقابلة المعونة على رد اليه ود إلى وطنهم وحمايتهم فيه - جزاء مالياً وافياً ، وحصة كبيرة من التجارة وأرباحها .

وجاء في الدعوة اليهودية أن المقترحات التي عرضت في الوقت نفسه على الدولة العثمانية ستظل في طي الكتمان ، وأن المعول فيها على حكمة المجلس المشرف على هذه الدعوة ، وعلى حسن النية من جانب الأمة الفرنسية .

هذه الدعوة نشرت بنصها في كتاب سوكولوف Sokolow عن تاريخ الصهيونية من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٩١٨ ، ونشر فيه كذلك بيان نابليون وبعض التعليقات التي تكشف القناع عن دخائل المناورة وحواشيها .

وواضح من خطة نابليون أنه لم يكن يريد المعونة العسكرية من الصهيونيين ، وان الفرق المزعومة التي قال إنها تهدد مدينة «حلب» لم يكن لها وجود ، وإنما أراد بها معونة الأيدي الخفية في مراكز السياسة العليا ، كما أراد معونة المال اذا ضنت به خزانة الدولة .

هذا مثل من الأمثلة على أساليب الصهيونية في علاقتها بالسياسة الشرقية ، وأخصها سياسة فلسطين والديار المصرية .

تستطلع الأسرار ، وتحس بوادر الخطط الخفية قبل تنفيذها ، وتحاول أن تساوم عليها ، فلا تعدم من يقبل هذه المساومة مخلصاً او غير مخلص في مقصده ، وتجعل المصلحة المتبادلة ضماناً بعد ذلك لدوام المنعة بين

الطرفين .

فقبل حملة نابليون بسنة كانت الصهيونية على علم بموعدها ، وكان سفراؤها في باريس يساومون عليها ، ولا ينسون السفارة عند السلطان العثماني ، متكتمين طبيعة تلك المساومة ، ولكنها ظاهرة من قرائنها ، ولا بد فيها من عنصر الرشوة وعنصر الحريم .

وبعد قرن على التقريب ، بدأت طلائع الحملة الانجليزية ، وعملت فيها الصهيونية عملها الظاهر والخفي على نحو من هذه الأساليب ،

كان الخديو اسماعيل يبحث عن القروض فلا يجد من يقرضه ، ويرى بين يديه أسهم قناة السويس وهي قريبة من نصف الأسهم ، فتلح عليه الحاجة العاجلة وتضطره الى عرضها للبيع سراً ، لخوفه من مناورات الهبوط والصعود في الأسواق المالية ، وخوفه قبل ذلك من مناورات السياسة الفرنسية والانجليزية ، وهما تتناظران ولا تكفان عن النزاع في شؤون القضية المصرية .

وهنا تنبري الصهيونية للعمل ويتدخل بيت روتشيلد بواسطة الدوق ديكاز Dicaze لتحذير البيوت الفرنسية من شراء الأسهم المعروضة عليها ، وتمكين بيكنسفيلد رئيس الوزارة البريطانية الاسرائيلي ـ من شراء الأسهم بالشمن المطلوب .

كيف تذلل هذه العقبة ؟

بل كيف تذلل هاتان العقبتان : عقبة السياسة الفرنسية ، وعقبة السياسة البريطانية ؟

هنا تفعل الصهيونية العالمية أفاعيلها التي يعجز عنها الساسة ، ولا تحيط بها المجالس النيابية .

فرنسا عدوة مناظرة لبريطانيا العظمى ، فكيف تترك لها هذه الغنيمة الشهية ؟

تتركها لأن بيت روتشيلد موزع بين باريس ولندن وبرلين ، ولأن بسمارك

يهدد فرنسا بعد حرب السبعين ويعزلها في سياسة القارة الأوربية ، فإذا تدخل بيت روتشيلد لاقناع فرنسا بارضاء بريطانيا ، وللتقريب بين السياستين الفرنسية والبريطانية في القارة الأوربية ، وللتعاون بين الدولتين معاً على مناهضة بسمارك او مناهضة الدولة الالمانية الناشئة _ فهي صفقة رابحة تأتي في أوانها ، ويقوم بها سمسار قادر عليها ، لأنه يملك نفوذ المال في باريس ولندن وبرلين . .

وربما سبق إلى الظن أن العقبة في بريطانيا أهون من هذه العقبة ، لأنها تشتري وتستفيد ، ولا حاجة بها الى اقناع للحصول على هذه الفائدة . إلا أن الواقع أن عقبة بريطانيا كانت أصعب من عقبة فرنسا! وأحوج منها إلى التدبير والتواطؤ مع الصهيونية العالمية .

أولا: لأن البرلمان كان في اجازة .

ثانياً: لأن المحافظين كانوا يخشون معارضة الأحرار في كل أمر يتعلق بالمسألة الشرقية .

وكان المبلغ الـلازم أربعـة ملايين جنيه ، وليس من السهـل صرف هذا المبلغ ولا أقل منه بغير إذن البرلمان .

ولكن بيكنسفيلد صهيوني ، وروتشيلد صهيوني ، وصاحب المصرف مستعد للمجازفة بالمال في جميع الأحوال ، فانحلت العقدة ، وزال الاشكال ، ولم يبال بيكنسفيلد ان يعلن بعد ذلك :

« أن الصفقة مالية وسياسية وأنها لازمة لتمكين الامبراطورية » .

ودارت الأيام دورتها وجاءت الحرب العالمية الأولى وصدر وعد بلفور المشهور موجهاً إلى اللورد روتشيلد كأنه _ وهو رعية بزيطانية _ نائب دولة أجنبية أخرى . وتطايرت الاشاعات عن الباعث على وعد بلفور ، فقييل إنه كان مكافأة على اختراع كيماوي للصهيوني « وايزمان » افعاد الحلفاء في صناعة المتفجرات ، وما هذه الاشاعات عن الباعث المزعوم إلا تلفيقاً من الدعاية الصهيونية والدعاية البريطانية لا يثبت على المراجعة والتمحيص . . ففي الثاني والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ نشرت صحيفة « المانشستر

جارديان n مقالاً صريحاً ربطت فيه بين انتصار الحلفاء وقيام الصهيونية في أرض فلسطين ، وقبل ذلك كان فلاديمير جابوتنسكي Jabotinsky في القاهرة يؤلف فرقة النقل الصهيوني ، ويشكو من القائد سير مارك سايكس Sykes لأنه لا يؤيد الصهيونيين ، ولم يتأخر اعلان الوعد ـ وعد بلفور ـ الا لمصلحة هؤلاء الصهيونيين ، إذ كانوا ينتظرون النصر الحاسم في جانب الحلفاء قبل أن يجهروا بتأييدهم ، محافظة على حبل الاتصال بين الجانبين .

هذه هي أساليب الصهيونية العالمية في السياسة الشرقية لا نظنها من تدبير هيئة مسيطرة قائمة في جميع الأوقات ، ولكنها أسرار تعرف في أوقاتها ، وفرص تغتنم من القادرين عليها ، ولا حاجة بالصهيونية العالمية الى تدبير أثبت من هذا التدبير .

١٢ _ الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (١)

تختلف أساليب الصهيونية بين عصر وعصر على حسب اختلاف الحوادث والأفكار والمناسبات واختلاف وسائل الاقناع والدعاية والتأثير . ولكنها في جوهرها شيء واحد ، تتلخص في استطلاع الأسرار والخفايا ، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوي النفوذ ، والاتجاه بها إلى الوجهة التي تحقق لها مصالحها وأغراضها .

وينبغي قبل البدء ببيان هذه الأساليب ، أن نعلم انها بطبيعتها أساليب هدم ومقاومة ، وأساليب غش وتضليل ، ولا مناص لها من ذلك إلا إذا خرجت على طبيعتها وتخلت عن وجودها . لأنها لا تستطيع البناء والتعمير ، ولا تستطيع الأمانة والعمل الصريح .

إنما تستطيع الصهيونية البناء إذا استطاعت أن تقيم دعواها على عقيدة تنشرها وتدعو الأمم إلى الايمان بها ، ولكنها إذا فعلت ذلك نقضت دعواها الأولى والأخيرة ، وهي احتكار الإله لنفسها ، والايمان بأنه إله إسرائيل كما يدعونه في الصلوات ، وليس للأمم الأخرى حظ من رضاه .

فالصهيونيون الذين يزعمون أن الله لهم وحدهم ، وأنهم شعب الله المختار ، دون غيرهم ، لن يقبلوا مشاركة أحد لهم في هذا الاحتكار ، ولن تراهم قط مبشرين بدين يدعون الناس إلى الدخول فيه ، خلافاً لأصحاب الأديان أجمعين .

إنهم كأصحاب الميراث الذين لا يقبلون شريكاً فيه ، أو كأصحاب الشركة التي ينفردون بها ولا يوزعون على أحد سهماً من أرباحها ، فليس في

استطاعتهم أن يقيموا سلطانهم على عقيدة عامة تشاركهم فيها الامم ، وليس في استطاعتهم أن يقنعوا الناس صراحة بقبول هذه الفكرة النابية ، وكل ما في وسعهم أن يهدموا عقائد الناس وأخلاقهم ودعائم افكارهم وشرائعهم ، ثم لا يخلفوها بعقيدة أخرى تقف لهم في الطريق .

كذلك لا تستطيع الصهيونية العالمية أن تسود بغير الخداع والتضليل ، لأنها لا تعمل بسلطان القوة الظاهرة أو بسلطان الملك والسلاح ، وإنما تعمل بسلطان المطامع والمنافع والشهوات من وراء ستار . فلا بد لها على الحالين من أساليب الهدم وأساليب الخداع .

لهذا تبادر الصهيونية إلى استغلال نفوذها في اثارة الفتن والقلافل ، وتظفر الفتنة بتأييدها كلما توقعت منها الامعان في الهدم والفوضى ، لأنها لا تنجح في عالم فيه ايمان بالخلق او بالوطن او بالدين ، وإنما تنظر إلى الأخلاق والأوطان والأديان كأنها حصون تحمي منها فرائسها وضحاياها ، ولا تطلق أيديها بالعمل كما تشاء حيث تشاء .

أما إذا أصبح المسلم غير مسلم ، وأصبح المسيحي غير مسيحي ، وأصبح الوطني لا يبالي بوطنه ، وأصبح الضمير الانساني ولا موضع فيه للحلال والحرام ـ فهي على الأقل في ميدان لا موانع فيه ولا عقبات ، إن لم يكن فيه أعوان وأذناب .

وقد اشتركت الصهيونية في كل حركة من حركات الهدم والتدمير ، وآخر ما اشتركت فيه _ ولا تزال مشتركة فيه _ حركة الشيوعية في العصر الحديث .

ربما كان الصهيوني من أصحاب الملايين ، ولكنه يحرص على نشر الشيوعية ويمولها بالمال والدعاية ، ويواليها بالدسائس والمؤامرات في مجتمع السياسة الدولية .

ولا حاجة إلى أكثر من سرد الأسماء لاظهار الأيدي الخفية من وراء هذه الحركة في إبانها ، وليست هذه الأيدي الخفية إلا أيدي الصهيونية العالمية في كل مكان .

كان رئيس الدولية الشيوعية الأولى في العالم كله زينوفييف ، واسمه

الصهيو ني أبفلبوم Apfelbaum ، وكان رئيس البوليس السياسي ياجودا أو يهودا وكان وزير الخارجية ليتفيذوف واسمه الصهيوني فنكلشتين .Finkelstein

وكان أهم سفير في الخارج مارسل روزنبرج ، لأنه كان يعمل في أسبانيا لتوطيد الشيوعية بعد الجمهورية ، وكان تروتسكي وكانيف وتومسكي وريكوف وكاجانوفتش على رأس الدولة السوفيتية ، ولم يكن فيها من الزعماء الكبار غير لنين وستالين من الروس الذين لا يدينون باليهودية ، ولكن د لنين اكان نصف يهودي يسمى إيليانوفتش ، وستالين كان صهراً لكاخانوفتش الصهيوني . . وهذا كل ما استطاعوه لادخاله في زمرة الصهيونين .

ولقد أعلن جاكوب شيف Jacob Schiff الصهيوني صاحب الملايين ، أنه أمد تروتسكي بالمال لاقامة الدولة الشيوعية ، وثبت أن صاحب الملايين «ماكس ووربورغ » في ستوكهام كان هو الواسطة القريبة لتزويد «تروتسكي» بالمال كلما احتاج إليه .

وإنها لضربة من ضربات القدر طاحت بهذه الدولة الصهيونية قبل استقرارها على قواعدها العلنية المعترف بها في العالم كله ، فقد تغلب متالين على تورتسكي ، وأحس الغدر من عصابة الصهيونيين فعجل بها قبل أن تعجل به ، وتمكن من الغلبة على منافسه في مبدأ الأمر بمعونة فريق من العصابة ، لأنه كان _ كما تقدم _ زوجاً ليهودية وصهراً لكاجانوفتش. أبيه في الحساب » كما يقولون .

أمصادفات هذه في عرض الطريق ؟

كلا . لا يمكن أن تتفق المصادفات كل هذا الاتفاق ، ولا يمكن أن تسري هذه المصادفات في كل مكان ، فيتولى زعامة الشيوعية في المجر « بيلا كوهين » و يتولاها في النمسا فريتز أولىر ، وأوشك أن يتولاها في المانيا ليبكنخت وروز الكسمبرج ، لو لم تعاجلها الأقدار بما خيب الآمال .

ومن المعلوم ، قبل هذا كله ، أن إمام الشيوعية الأول هو ﴿ كار ل ماركس ﴾

اليهودي ، وأن منافسه في ألمانيا لاسال من سلالة اليهود .

ولقد تأسست حكومة إسرائيل في فلسطين وهم لا ييأسون من تسبخير الشيوعية لتأييدها في المجامع الدولية ، وتسخيرها من جهة أخرى لتخويف دول الغرب ، وتهديدها بالتحول إلى جانب الكتلة الشرفية ، إن لم تسعفها بالمال والسلاح والمعونة الدولية . وكانت الكتلة الشرفية ترجو أن تبسط يديها على اسرائيل من وراء المهاجرين الشيوعيين ، فلم تلبث أن عرفت غلطتها ، وأدركت ان الصهيوني يحترف الشيوعية ، ويتسمى باسم المسيحية ، ويعلن الالحاد جهراً ، أو يدين به سراً ، ولكنه صهيوني من الصهيونيين مهما تختلف الأسماء والأراء .

ولم تكن هزيمة تروتسكي وشيعته نهاية الحلف القديم بين كارل ماركس وأبناء ملته . فإن الصراع بين ستالين وتروتسكي لا يتكرر في كل بلد على هذه الصورة ، وإذا تكرر فحسب الصهيونية كسباً أن تتهدم أركان الوطنية والدين ، وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب ، فتستريح من هذه العوائق في طريقها ، وتتفتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب .

* * *

إن بعض المؤرخين قد هالهم هذا الامتزاج بين الشيوعية والصهيونية فاعتقدوا أن الصهيونية قد خلقت هذه الثورة خلقاً ، وصاغتها على يديها بمحض مشيئتها . بيد أنه غلو في تقدير قوة الصهيونية لا نترهم عليه . وأنها على تشعب مساعيها واتساع ميادينها لأهون شأناً من أن تخلق ثورة لم تخلقها أسبابها ولم تسبقها مقدماتها . وإنما شأنها كله ان تستطلع الأسرار الخفية ، وأن تغتنم الفرصة السانحة ، وأن تتسلل من الثغرة المفتوحة . وأن مثل الشيوعية لواحد من أمثلة كثير على أساليبها في استغلال الحركات الاجتماعية ، والاتجاه بها إلى وجهتها في العصر الحديث .

١٣ _ الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (٢)

من أساليب الضهيونية العالمية استغلال الحركات الاجتماعية والاتجاه بها إلى الوجهة التي تريدها ، وأحب هذه الحركات إليها من كان كفيلا بهدم القيم والأخلاق وتفكيك أوصال المجتمع وتلويث العرف الشائع بين أهله ، ولهذا ظفرت الحراء الشيوعية منها في العصر الحاضر بكل تشجيع وترويج ، كما أسلفنا في الفصل الماضي .

ومع استغلال الحركات الاجتماعية تعنى الصهيونية في كل وقت باستغلال المراكز العالمية والعلاقات الشخصية بأصحاب النفوذ من حكومات العالم جميعاً ، وحكومات العالم الكبرى قبل سواها .

فما من رئيس ذي سلطان في السياسة الدولية ، وفي سياسة قومه ـ يتركه الصهيونيون بغير رقابة منهم على القرب ، تحيط به وتنفذ إلى أسراره ونياته ، وتبذل له الخدمة التي يتعودها ، ويتوهم مع الزمن أنه لا يستغني عنها ، فلا يزال معولا عليها في كل عمل يفكر فيه أو يقدم عليه .

وقد لوحظ في إبان المشكلات العالمية ـ وفي إبان الحروب خاصة ـ أن الحاشية التي تحيط بالعظماء من قبل الضهيونيين تحكم حلقاتها ، وتشدد رقابتها ، وتتطوع للقيام بالمهام التي تؤثر في مجرى الأمور ، وقد تخلقها أحياناً لتقوم بها وتستجمع أزمة الأمور بين أيديها .

لوحظ ذلك في الحرب العالمية الشانية ، ولوحظ قبل ذلك في الحرب العالمية الأولى ، فأحاط الصهيونيون بويلسون ولويد جورج كما أحاطوا بروزفلت وتشرشل وعملوا جهرة وخفية كل عمل ينفع الصهيونية ويعجل

بتنفيذ مآربها .

ما من رئيس ذي خطر إلا يحيط به صهيونيون وصهيونيات ، ولكل من الفريقين عمله وميدانه الذي يعمل فيه .

وهؤلاء الصهيونيون ذوو حرص ودهاء ، يخفون أنفسهم ما استطاعوا عن الأنظار والأسماع ، ولكنهم تغلبهم سكرة القوة أحياناً فيفخرون بها ويكشفون سرها ، أو لعلهم يفعلون ذلك متعمدين غير مغلوبين على أمرهم ، كلما احتاجوا إلى الارهاب وفت الأعضاد وايقاع الياس في نفوس الخصوم .

من ذلك أن وايزمان هدد بريطانيا العظمى قبل الحرب العالمية باقامة القيامة عليها في جنيف .

وتساءل المتسائلون: ما هي القوة التي يعتمد عليها وايزمان في هذا التهديد؟ ومن أين له السلطان الذي يمكنه من اللعب بجنيف وعصبة الأمم فيها، ويتيح له ان يقيم القيامة هناك على من يشاء؟

ومن ذلك أن مستر « باروخ » صديق روزفلت الحميم تحدث عن نفسه في انجلترا يوماً فقال « إنه أخطر رجل في أمريكا » . . وتحدثت إلى فكتور لاسكي مرة فقال . د إنه هنا في انجلترا يحمل العصا للأولاد الكبار لكيلا يفسدوا عليه مشروعات السلام » .

وأذاع مراسلو الصحف المتحدة هذا الحديث ، فبدا للمستر باروخ بعد هذا أن يكف من نشره فكان له ما أراد .

وتساءل المتسائلون هنا أيضاً: « من هو باروخ هذا ؟ وما هي العصا التي يخوف بها الأولاد الكبار ؟ ومن الذي خوله هذه السلطة التي يعامل بها أقطاب الدول كأنهم أولاد كبار ؟

وقد كان جاكوب شيف Jacob H. Schiff الصهيوني يتولى الرئاسة في جماعة صهيونية تسمى بجماعة الأمم الحزة ، ويشاركه فيها خمسة من أصحاب المصارف اليهود ، وكان على اتصال دائم بكل رئيس ذي خطر في

الولايات المتتحدة ، وأولهم الرئيس ويلسون صاحب الوصايا المشهورة . . فما هو إلا أن علم أن الرئيس ويلسون يتردد في إقرار مسائل التعويضات حتى ادركه برسالة برقية غيرت موقفه على الأثر من مسألة السار ومسألة سليزيا العليا ومسألة دانزيج وفيومي ، لأنها كلها من المسائل التي ترتبط بأموال التعويضات والمصانع العظمى ، وكلها بطبيعة الحال من المسائل التي ترتبط بمارب الصهيونيين .

ونشرت التيمس أسماء المدعوين إلى القصر الأبيض لتكريم مستر أتلى Attlee في سنة 19 في المحكمة القاضي فرانكفورتر عضو المحكمة العليا ، والشيوخ فوليت Follette وكوناللي Conally ووارين أوستن Pollette ووليام جرين العليا ، والشيوخ فوليت Sol Bloom وشارل إيتون Charles Eaton ووليام جرين William Green ويس اتحاد العمال واريك جونسون William Green رئيس اتحاد العمال واريك بونسون المناجم ، ومستر الغرفة التجارية ومستر جون لويس (Lewis) رئيس عمال المناجم ، ومستر ايراموشر Ira Mosher عضو اتحاد الصناعات ومستر برنارد باروخ Baruch ومستر هربرت سووب Swobe الصحفي والناشر ، ومستر اويجين ماير ومستر جوزيف دافيز Joseph السفير السابق عند الكرملين .

وما من عنصر امريكي مثـل في تلك الوليمـة الفخمـة كمـا مثـل فيهـا الصهيونيون .

ولقد نشرت هذه المعلومات جميعاً بين الصفحة المائتين والصفحة المائتين والصفحة المائتين والصفحة المائتين والعاشرة من كتاب مأساة العداوة السامية مؤلفو الكتاب على سبيل التحدي للكاتب الصهيوني الذي تولى الدفاع عن أبناء قومه ، فلم يكن له من جواب سائع على خبر من هذه الأخبار ، ولم يستطع أن ينقض الوقائع وان غالط في التفسير والتأويل .

وليس علينا أن نبحث طويلا للعثور على الأدلة القديمة أو الحديثة التي تثبت هذه الخطة الصهيونية أو هذا الأسلوب الصهيوني في استغلال العلاقات الشخصية ، فأن كتب اليهود التي يتعبدون بها طافحة بأخبار الرجال والنساء الذين يجدون النعمة « أو اللائي يجدن النعمة في أعين »

الملوك والرؤساء ، ولا شك أن المستور أكثر وأغرب من المنشور والمشهور .

هذا أسلوب من الأساليب الصهيونية القديمة الحديثة ، التي عهدت منهم قبل ثلاثة آلاف سنة ، وتعهد اليوم على نمط يو افق الزمن ومطالبه . فلا يتورع الصهيونيون عن استغلال العلاقات الشخصية والانتفاع بنفوذ الرؤساء واصحاب السطوة والجاه كلما احتاجوا إلى استغلالها ، ولا يختلف بين أمس واليوم إلا نوع الخدمة ونوع الوظيفة ونوع المهمة السياسية ، وإنما الأسلوب الحديث هو الأسلوب القديم سواء عمل فيه الصحفي ورئيس الشركة وعضو المجلس النيابي ، أو عمل فيه الكاهن والصراف ومندوب الجالية المختار!!.

وفي كل حالة من هذه الحالات يضطر الصهيوني الى الغش والافساد ، لأنه لا يقدر على الصراحة والاستقامة إلا يقدر على الصراحة والاستقامة إلا إذا قام العمل على الاقتاع والمساواة ، وما من أحد يمكن أن يقتنع بتسخير الله لعباده اجمعين في خدمة الصهيونيين ، وما من مساواة بين الناس عند إله يسمونه « رب اسرائيل » ويعادي الأمم جميعاً حباً لأمة واحدة هي أمة صهيون!

وهكذا فرضت طبيعة الصهيونية على قومها أن يعملوا للهدم والخداع سواء عملوا في استغلال الحركات الاجتماعية ، أو عملوا في استغلال العلاقات بذوى الجاه والرئاسة .

١٤ _ الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (٣)

كل جهود الصهيونية العالمية في الوقت الحاضر تنحصر في غاية واحدة ، وهي إنقاذ (إسرائيل » من قضائها الذي تخشاه .

ولا سبيل إلى ذلك في تقدير الصهيونية ـ وفي الواقع الذي يراه غيرها كما تراه ـ إلا بوسيلتين :

أولاهما الصلح مع العرب .

والأخرى استبقاء نفوذها في البلاد الأمريكية .

فالواقع أن إسرائيل هالكة لا محالة إذا استمرت مقاطعة العرب لها « سياسياً واقتصادياً » بضع سنوات أخرى .

ولهذا يتعمدون خلق المشكلات بين إسرائيل والبلاد العربية ، عسى أن يؤدي البحث في الصلح ، وعسى ان يؤدي البحث في الصلح ، وعسى ان يؤدي البحث في الصلح إلى فك الحصار السياسي والاقتصادي عن الدويلة القائمة على غير أساس .

وقد تحدث رؤساء العصابة التي تسمي نفسها حكومة إسرائيل عن مشكلات الحدود الفلسطينية ، فقالو ا : إنها عمل من أعمال القصاص ، وإن إسرائيل لا تلجأ إليها بأختيارها ، وإنا نضطر إليها اضطراراً لكف العدوان على حدودها .

لكن الصهيونيين أنفسهم يكذبون هذه الدعوى ، ويصرحون بما ينقصها في كلامهم الـذي ينشرونـه بين الأمريكيين ، ويعلنــون أن خلــق هذه المشكلات على الحدود إنما هو خطة مدبرة لاكراه العرب على الصلح ، وإنقاذ اسرائيل من الخطر المحتوم الذي تهددها به المقاطعة .

نشر أحدهم موشى برليانت Moshe Brilliant في عدد شهر مارس ١٩٥٤ من مجلة هاربر Harper's Magazine مقالاً بعنوان لا سياستة القصاص الاسرائيلية » كتب له على رأس المقال خلاصة قال فيها: لا إن حوادث المحدود الدموية قلما تكون عرضية . . وإنما هي من بعض جوانبها قصاص وأخذ بالثأر ، ومن الجانب الآخر خطة مدبرة لسوق العرب كرهاً إلى مائدة الصلح ، ومن الناس من يصفها بالواقعية ، ومنهم من يصفها بالخبث ، ولكنها تؤذن بأن تنجح وتفيد » .

ومضى موشى برليانت يقول: « إن هذه الخطة جلبت على الحكومة اليهودية لوم مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة ، وجرت عليها تأنيب لجنة الهدنة المشتركة في الشرق الأوسط، وبعض التقريعات الدبلوماسية من واشنطون ولندن وباريس ، بل أوشكت أن تحول عن الدولة اليهودية عطف أبناء دينها في الولايات المتحدة ، فقل الاقبال على تلبية النداء الموجه إليهم بطلب الاعانة من جماعة اليهود المتحدة ، ولوحظت هذه القلة على الدوام عقب حوادث القصاص على الحدود».

وراح الكاتب يعدد المواقف التي أفادت فيها هذه الخطة المدبرة ، فذكر منها الموقف الموقف الأول وهو إكراه العرب على وقف القتال ، وذكر منها الموقف الثاني وهو إكراههم على عقد الهدنة ، وقال : إن هذه الخطة بعينها ستكرههم على الموقف الأخير وهو قبول الصلح مرغمين ، ولم يبال هذا الكاتب الصفيق أن يقول : إن إسرائيل كانت تختلق المعاذير والتعلات لقتل من تقتلهم باسم الثأر على سنة العين بالعين ، ولكنه استطرد قائلا : « إنه أمام هذه السوابق تولد في إسرائيل شعور بأن الوسيلة الوحيدة لسوق العرب كرها إلى مائدة الصلح إنما هو العلم بأن حالة الهدنة ضارة بهم غير موافقة لمصلحتهم . وهذا ضرب من التفكير يخالف مزاج الأكثرين من المحدث منظق من الصعب مقاومته ، فضلا عن تعزيزه بمجرى الحوادث منذ سنة 19 29 3 .

فهؤلاء الناس لا يخجلون من المناداة بتدبير الاجرام وانتحال أسباب القتل والعدوان لتنفيذ خطة مرسومة بالدم البارد كما يقولون ، لاكراه العرب على مصالحتهم واضطرارهم الى قبول استغلالهم وتسخيرهم لمطامعهم ، ويحسبون أن الرأي العام الذي يخاطبونه بهذه الصراحة لا يؤاخذهم على . اجرامهم وعدوانهم ، لأنه يريد لهم النجاح بكل وسيلة مستطاعة ، ولا يبالي ما يصيب العرب إذا كان في هذا المصاب تحقيق مطامع إسرائيل .

إن هذه الصراحة في الاعتراف بالاجرام لدليل على كثير ، وأدل ما تدل عليه انهم يعتقدون أن اللائمين لهم إنما يلومونهم على سوء السياسة ، وعلى التورط في الأخطاء التي تعزى إلى الرعونة وقصر النظر . فأما إذا كان العدوان تدبيراً محكماً فلا لوم عليهم في التصريح به علانية ، ولا ضير في اتخاذ كل وسيلة لاكراه العرب على الاذعان لاسرائيل .

على أن الشواهد المتوالية تخيب ظن الصهيونيين في هذا التقدير . لأن هؤلاء الصهيونيين قد جاوزوا الحد في الاعتماد على عطف المؤيدين وغفلة الغافلين ، وقد بدأت بوادر السآمة بين الأكثرين في الغرب من هذه اللجاجة التي لا تعرف الحياء ، وضاق الناس ذرعاً بما تكلفهم عصابة إسرائيل من ثمن ثقيل لا يؤدونه اليوم حتى تعود فتكلفهم بثمن جديد ، ومن هؤلاء الذين ضاقوا ذرعاً بمشكلات العصابة الصهيونية أناس من اليهود أنفسهم ، كما قال موشى برليانت في المقال الذي أشرنا إليه .

ولقد أخذ الكثيرون من الأمريكيين يحسون أنهم يحتملون من أجل إسرائيل فوق الطاقة على غير جدوى وإلى غير نهاية .

وقد ظهر هذا الاحساس في مواطن كثيرة ، وأشفق الصهيونيون من عقباه فهداهم ذلك الطبع الأعوج الذي فطروا عليه إلى الخطة التي جربوها مع الانجليز بفلسطين ، واعتقدوا أنها صالحة للتنفيذ في كل موضع وفي كل أونة ، وهي خطة الارهاب والتهديد .

غرهم أنهم قتلوا « برنادوت » رسول الأمم المتحدة ولم يصبهم شيء من جراء قتله ، فأنشأوا في البلاد الأمريكية جماعة ارهابية من قبيل الجماعات

التي اشتهرت بفلسطين ، وكأنهم يتسوا من دوام نفوذهم القديم بغير الارهاب ، فاستعدوا بالارهاب لطوارى، الزمن وتقلب الأحداث ، وخيل إليهم ان استبقاء نفوذهم في البلاد الامريكية ضرورة لا غنى عنها بكل ثمن وبكل حيلة ، لأنها مسألة الحياة والموت في هذه المرحلة من حياة الصهيونية العالمية ، فهم يستميتون في سبيلها ، وينسون أن الاستماتة قد تميت .

إن اليهود في الولايات المتحدة يبلغون خمسة ملايين ، نحسب منهم من تتوسط بهم السن فوق الخامسة عشرة ودون الأربعين فنكاد نقول إنهم كلهم مشتركون في منظمة الارهاب ، لأن اعضاءها يعدون بمئات الألوف ، وربما كان المساعدون على الأرهاب أكثر من العاملين به ، بل ربما كان اليهود المخالفون لخطة الارهاب عرضة للتهديد والانتقام قبل غيرهم من المخالفين . فلا مبالغة في القول بأن «الارهاب» هناك خطة خمسة ملايين ، وليس بالخطة المقصورة على عشرات الألوف أو مئات الألوف .

إن هؤلاء الارهابيين يكتفون اليوم بالتهديد الاقتصادي ، وتهديد حملات التشهير والدعاية والفضائح الاجتماعية وقد يضغطون بالرؤساء على المرؤوسين الذين يعارضونهم ولا يتواطئون معهم على مساعيهم ودسائسهم طواعية بغير مقاومة ، ولكنهم - أي هؤلاء الارهابيين - سيندفعون ويتهجمون كلما اشتدت المقاومة واشتد الخطر على نفوذ الصهيونية ، وسيندفعون ويتهجمون كلما اغتروا بالقوة وأمعنوا في هذه الصناعة التي تشبه رذيلة الادمان في الاغراء بالمزيد ، كلما استحكمت العادة ومردت عليها النفس المنكوبة بشرها . وفي تاريخ الارهاب من عهد شيخ الجبل - او عهد حسن بن الصباح - أمثلة على البداية والنهاية في هذا الطريق ، فقد بلغ الخطر أشده حين أحس به الجميع ، فلما أحس به الجميع قضى عليه وجني على نفسه كما جنى على ضحاياه .

حياة الصهيونية العالمية في الصلح مع العرب ، وفي استبقاء نفوذها بالبلاد الأمريكية ، وكل جهودها في العصر الحديث ضائعة إن لم تحقق هاتين الغايتين ».

١٥ _ عصبية الصهيونية

فى ميدان الثقافة والسياسة

عصبية الصهيونية الحمقاء داء قديم متأصل في نفوس القوم لا يسلم منه كبير فيهم ولا صغير ، ولا تخفى شواهده عمن تنزه عن الغرض ، سواء نظر الى تاريخهم القديم أو تاريخهم الحديث .

وقد أشرنا في هذه الفصول إلى هذا الداء الوبيل ، وأتينا على بعض شواهده .

ونشير هنا إلى بعض آثار هذه العصبية وتبشيرها بالدعوات والحركات المضللة في ميادين الثقافة والعلم والسياسة ، فتمضي أكاذيبها بين الكثيرين من المستنيرين وكأنها حقائق لا تقبل الشك ، أو آراء جديدة تقابل بالجد والاهتمام .

وإنهم ليستعدون لترويجها والدعوة لها بمن يجندون من صفوفهم أو من حملة الأقلام المأجورة لخدمتهم ، ويظهر منها ما يظهر ، ويختفي ما يختفي ، مقدراً على حسب الأجواء المهيأة له ، وكل ذلك يجري في غفلة عن بواعثه الخفية والدسائس اليهودية .

وما أشد ما تتردد الدعايات الحماسية المحمومة في الكتب والصحف والمعارض ودور الصور المتحركة لما يبتدعون أو يبتدع غيرهم من المدارس والمذاهب الأدبية والفنية العلمية والفلسفية التي تتجه إلى الهدم خدمة للصهيونية ، كما تتردد هذه الدعايات المجموعة من أجل هذا الغرض لتعلي شأن البارزين والبارزات من اليهود حتى تطغى شهرتهم على من هم أولى منهم بالتقدير والشهرة ، أو لتغض من أقدار النابغين من غيرهم دون

جناية لأحد من هؤلاء المظلومين إلا أنه ليس من اليهود ولا صنائعهم وأوليائهم ، أو ممن قال فيهم يوماً كلمة حق تغضبهم ، فاستحق من أهلها المقت واللعنة من رضوانهم ورضوان أذنابهم في كل ميدان .

وأمامنا الحركات الفكرية والاجتماعية والسياسية في الغرب ، وأصداؤها هنا وهناك ، فإن دراستها على حقيقتها دون عناوينها تدل على عبث الصهيونية بأقدس القيم ، وتسخيرها كل حركة ـ ما استطاعت ـ لافساد العقول والأخلاق .

وقد كان من رأينا أن مثل هذه الحركات ينبغي أن تفهم مع فهم بواعثها في نفوس أصحابها والقائمين بها ، وأنه لا سبيل إلى فهمها بغير ذلك .

وهكذا ينبغي أن تفهم الحركات الحديثة في الغرب ، وتفهم معها العوامل الصهيونية التي تحركها سراً وعلانية ، ليتبين ما فيها من حق وباطل ، تنكشف بواعثها وأغراضها الحميدة والذميمة .

وقد قلنا منذ سنوات في مقال عن الوجودية : « لن تفهم المدارس الحديثة في أوربة ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي أن اصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية ، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الانسان في جميع الأزمان . فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان . واليهودي دركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب ، واليهودي - أو نصف اليهودي - سارتر وراء الوجودية التي نشأت معززة لكرامة الفرد فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات السقوط والانحلال .

ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع في أوربة مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود .

وهناك أمثلة على هذه العصبية من نوع آخر ، تعزز كل ما قدمنا ، وتؤكد لنا أن هذا الداء العياء لم يسلم منه أحد بينهم حتى العلماء (المستقلين) . من ذلك فرويد صاحب المذهب المشهور في الطب النفساني ، وإن كان ليقال فيه ما قلنا عن ماركس ودركايم وسارتر ، إنه كان من وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والاداب الدينية والخلقية والفنية والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية ، ويحاول أن ينسخ قداستها ويخجل الانسان منها ، ويسلبه الايمان بسموها وسمو مصدرها حين يردها إلى أدنى ما يرى هو في نفسه ، وبهذا تتمزق صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وما وراءه .

ويبدو فرويد « مستقلا » بعلمه عن « يهوديته » ولكنه كان في الحقيقة لا يطمئن إلى أحد في عمله إلا أن يكون من « اليهود » ولا يثق بعمل مساعد له من غير ملته في المستشفى والمعمل ومعهد التطبيب .

وكان من المولعين بالعقد النفسية ، وكنا ولا نزال نرى أن الولع بهذه العقد قد يكون إحدى العقد النفسية ، وأن المكثرين من الحديث عنها قلما يسلمون من مركبات النقص وما إليها ، وكذلك عاش فرويد .

وكان الدكتور إرنست جونس أكبر تلاميذه الأحياء قد أصدر الجزء الثاني من ترجمة أستاذه ، وجاء فيه بشواهد كثيرة تعزز هذه الملاحظة ، ولم يقصد بروايتها غير تقرير الحقائق ، لأنه من المعجبين بالأستاذ إعجاب التقدير والوفاء . من تلك الشواهد الكثيرة أن فرويد كان يتبع أوراقه فيحرقها قبل أن يتمكن أحد من الاطلاع عليها .

ومنها انه كان إذا نوى السفر ذهب إلى المحطة قبل وصول القطار بنحو ساعة .

ومنها أنه كان شديد القلق يعمد على الدوام إلى تهدئة أعصابه بالافراط في تدخين التبغ اللاذع ، وتعزى إلى ذلك إصابته بالسرطان في فمه .

ومنها أنه كان يحيط نفسه بأعوان من اليهود ، ويندر أن يعمل مع أحد من غير دينه .

وترد الصحف الغربية بأنباء الاحتفال بمرور مائة سنة على مولد فرويد فنرى أعجوبة من أعاجيب التذكار لهذه المناسبة ، لأن العرف قد جرى على الاشادة بمآثر المحتفى به من أمثال هذه الـذكريات ، ولـكن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لاحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو ـ وعدتهم نحو أربعة آلاف ـ قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسؤول في مركزه العلمي والرسمي ، وهو الدكتور برسفال بيلي Bailey مدير معهد النفسانيات بولاية النواز ، وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها ، وأن آراءه لا تضيف شيئاً إلى القيم الانسانية ، لأنه يرتد بالانسان إلى الباطن ، ويهمل جانبه المنطقي الشاعر ، وأنه لم يكن ينذوق الموسيقى ، ولا يحس جلال العقيدة .

وإنه لمن العجب أن يكون الدكتور إرنست جونس تلميذه الوحيد من غير اليهود ثم ينساق في تقديره مع الوعظ التبشيري باسم العلم والثقافة .

ونحسب أن فرويد لم يعمل عبثاً إذا كان العالم قد استطاع بعد أقل من عشرين سنة من وفاته أن يضعه على المشرحة التي كان يضع عليها مرضاه . ويذكرني هذا بقصة التلميذ اليوناني وأستاذه في علم الجدل والسفسطة ، فإن التلميذ أنكر حق الأستاذ في الاجر المتفق عليه بعد انتهاء الدروس التي حضرها عليه ، وقال له انه سيناقشه في هذا الحق فإن أقنعه بأنه لا يستحقه فلا أجر له عنده ، وإن لم يقنعه فلا أجر له عنده كذلك ، لأنه لم يعلمه كيف يقيم البرهان على دعواه .

قال الأستاذ: بل أستحق الأجر مرتين لأني علمتك أن تغلب أستاذك ؛ وعلى هذا النحو يستطيع فرويد أن يهدأ في قبره ، لأنه علم الناس كيف يضعونه على المشرحة ليطبقوا مذهبه عليه .

ومثل آخر هو ألبرت أينشتين صاحب نطرية النسبية ، وأكبر ما في « يهوديته » أن الكثيرين يحسبونه « مستقلا » منقطع الصلة بها لأنه يعيش أيامه كلها على اتصال بمعاهد العلم والعلماء .

ولكنه كان ينادي بالعصبية الصهيونية حين لا يضطره أحد إلى هذا النداء.

وقد نشرت بعد وفاته مجموعة من الرسائل والخطب في طبعة جديدة ، وقيل إنه أقر اختيارها وتنسيقها في هذا الكتاب . · ويجهر اينشتين في جملة من هذه الرسائل « بعصبية الصهيونية » ويؤمن باسرائيل كأنها عالم البعث للحياة اليهودية ، وليست مجرد وطن أو « مأوى » للمضطهدين من المهاجرين .

ويعتقد العالم « المستقل » برابطة الوحدة التي لا تنفصم بين الصهيونيين ثم يزعم أن موقف العالم من اليهود هو الذي ير بطبينهم بهذا الرباط الوثيق ، ولا يذكر أن موقف اليهود من « الجوييم » سابق لكل موقف من مواقف الأمم الأخرى في المشرق والمغرب نحو هذه السلالة التي تعزل نفسها ولا تكتم عزلتها وانفصالها بين الأمم بالنسب والعقيدة والمصلحة والسيادة الموعودة على أبناء آدم وحواء .

فهو يقلب الحقائق رأساً على عقب ليسوغ « العصبية اليهودية » ويلقي تبعتها على « الجوييم » وما كان للجوييم هؤلاء من وجود في غير شعائر اليهود ، ونصوص الترجوم والتلمود .

ومثل آخر من علمائهم ولكنه من طراز عجيب هو العالم الطبيب ماكس نوردو الذي ترى من نظرة واحدة إلى معارف وجهه ولمحات عينيه ذلك الحبر العبري القويم الذي لم تغير من قسماته ولا خصاله مئات السنين التي قضاها أسلافه بين ربوع أوربة ، وقد شغف طول حياته بالهدم أشد من شغفه بالبناء .

ومن أعاجيب نوردو ان كاديقسم الأخلاق إلى إسرائيلية وغير إسرائيلية ، وأنه كان شديد الغيرة للدعوة الصهيونية ، حريصاً على التبشير بها مع تطرفه في الالحاد ، كأنه كان يستخرج من الحاده فخراً صهيونياً ، فإن نهاية الالحاد أن ينفي كل ما وراء المادة ، وفي ذلك شاهد على جودة الطبع اليهودي عنده لأنه سبق إلى هذه النهاية ، إذ لم تنظر الديانة الموسوية فيما وراء المادة مطمعاً للانسان . وكان طول حياته يبشر بدين المنفعة ، ونسميه ديناً على عمد لأنه في الحقيقة دين يلب عنه بكل ما يكون لدين هكذا من الغيرة واصرار العقيدة . فهو يؤمن بدين المنفعة ولا يعرف للأشياء غاية تعدوها ، ولا يثنى على خلق إلا إذا استطاع أن يبين نفعاً ظاهراً في هذه الأشياء المحسوسة .

بل لو رجعنا إلى مواهب نوردو وعادات تفكيره لوجدنا أبرزها عادة ملكت نفسه وغلبت على هواه ايما غلب ، وهي فيما نرى مفتاحه الذي نستعين به على تقدير أحكامه ومعرفة اتجاهاته ، وهذه العادة هي « الاسرائيلية » التي يكاد لا ينساها في جميع آرائه ، ولا يعدو أن يكون مدافعاً عنها في كل مبحث من مباحثه ولو بعدت الشقة بينه وبين الاسرائيلية والاسرائيليين .

فإذا رجعت إلى الصفات التي يثنى عنها وينوه برجحانها ويتخذها مشلا للفطرة السليمة وعنواناً على الصلاح في الحياة وجدتها هي صفات اليهود التي تفوقوا فيها على غيرهم أو اشتهروا بها بين الأمم ، وعلى نقيض ذلك نرى الصفات التي عرف اليهود بالتخلف فيها أو التجرد منها عرضة لتهكمه وتهجينه ، او معدودة عنده في المراتب المرجوحة التي لا تميز أمة على أخرى ، ولا تتفاضل بها معادن الرجال ، وكثيراً ما يحسبها من الصفات الكمالية أو الهمجية الصائرة إلى الضعف مع تقدم المدنية ، وتارة أخرى يتجاهلها في نقده أو يعتدها عرضاً من أعراض النكسة والاضمحلال ، وربما بدر ذلك منه عفواً في بعض الأحيان ، ولكني لا أظن إلا أنه قد كان يقصده أحياناً ويتحراه ويترفق في دفع شبهته عن قلمه ، وكأنما شك الرجل في اليهودية بفكره و بقي على اعتقادها بوجدانه ، فرجع عن قولهم إن اليهود شعب الله المختار ، ليقول إنهم هم شعب الطبيعة المختار .

وخلاصة ما اعتمده نوردو من الرأي في الفصل بين الأخلاق والآداب هو قسمتها إلى ذينك الشطرين فما كان منها من صفات قومه فهو الصالح المطلوب ، وما لم يكن من صفاتهم أو كان نصيبهم منه قليلا أو ملتبساً فذلك هو النافلة الذي لا غناء به ولا معول في الحياة عليه ، وهو لم يكن يدفع عن قومه فحسب بإعلاء دين المنفعة ، بل كان يدفع عن نفسه كذلك ، فقد كان كما قدمنا يدين بدين المنفعة دون غيره .

فهو من حيث أراد ومن حيث لم يرد مهيوني غارق في الصهيونية ، متعصب لها أشد التعصب بمزاجه وأخلاقه ومولده (إذ هو ابن كاهن) وبأحوال عصره ، فلما ظهرت الحركة الصهيونية كان من أعوانها الكبار وأعوانها المعدودين ، فشن الغارة على الكنيسة الكاثوليكية ، واتهمها

بالتحريض على ذبح اليهود في فرنسا ، وظل إلى آخر أيامه غيوراً على نشر الدعوة الصهيونية لا يني كاتباً أو خاطباً في تأييدها وشد أزرها ، فلما صرح اللورد بلفور تصريحه المعروف شخص هو إلى لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية في تفاصيل إنشاء الوطن اليهودي بفلسطين . وهناك قال قولة تروى عنه وهي ان الانجليز لا يساعدون اليهود حباً في سواد عيونهم ولكن طمعاً في الدفاع عن قناة السويس ، وأنه على هذه القاعدة من تبادل النفع يجب أن يبنى الاتفاق بين شعب إسرائيل والحكومة الانجليزية .

وهذه الكلمة مفتاح كل كتب نوردو ، وخلاصة جميع آرائه فيها ، لأنه لم يكن يؤمن بغاية للفرد والنوع غير النفع المادي المحسوس في هذه الدنيا وهو في هذا يجري على اساس أسلافه وعشيرته. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى وطرد من فرنسا رحل إلى أمريكا لخدمة الدعوة الصهيونية بمقالاته وخطبه ومحاضراته .

وقد يستغرب من العلماء الماديين أن يلقوا بأنفسهم في غمار الحركات الدينية ويتشيعوا لها أشد التشيع كما كان يفعل نوردو ، ولكن هذا الذي يستغرب من سائر العلماء لا يجوز أن يستغرب من عالم إسرائيلي لما هو معلوم من أن اليهودية وطن للاسرائيليين وجامعة نفعية لا دين ولا نحلة فحسب ، ومن أجل هذا ولأسباب أخرى صار نضال الرجل منهم عن نحلته صورة أحرى من نضاله عن نفسه ومصلحته وكرامة شخصه ، ولهذا لا نرى غرابة ما في تصدي طائفة من العلماء كلهم ملحدون لقيادة الدعوة الصهيونية .

وينبغي ألا تنسى هنا الحملة الشعواء التي شنها نوردو في كتابه « الاضمحلال » أو « الانحطاط » على النابهين من أدباء عصره وغيرهم ممن وقع في طريقه ، فقضى عليهم جميعاً بالمسخ والخداج وانتكاس الأذواق والعقول ، وأضرم ناراً من النقد الجائر كنيران محكمة التفتيش فجعل يلقي فيها ما يلقي من كتبهم ودواوينهم باسم العلم في هذه المرة لا باسم الدين .

وقد أنحى فيه على طائفة كبيرة من أعلام المفكرين وفحول الشعراء والأدباء الذين اشتهر ذكرهم في عصره والعصر الذي قبله وقسم أدباءه أو قل مرضاه _ إلى طبقتين : طبقة عالية تخفي فيها أغراض المسخ بعض الخفاء وأخرى واطئة لا تمتاز في شيء من سائر المعتوهين والأمساخ ، واستخرج من معاني أشعارهم ومضامين سطورهم دلائله التي خالها أعراضاً شاهدة عليهم جميعاً بالمسخ وفسولة الطبع ، فمنهم _ فيما زعم _ مجانين الأنانية ، ومنهم أسرى الشهوات والمصابون بالاضطرابات المخية والنخاعية ، ومنهم البله والسوداويون ، والمعذبون بالصرع والوسواس ، والمتهوسون في البله والسوداويون ، والمتقشفون الموكلون بتعذيب أنفسهم وتنغيص الدين او العصبية ، والمتقشفون الموكلون بتعذيب أنفسهم وتنغيص لذاتهم ، والناشزون على العرف والآداب ، وكثير من أمثال هذه الآراء التي أرسلها في صفحاته بسخاء من ذلك القلم المنغمس في كتابة التفسيرات وأوراق الأدوية ! .

وقد تتلخص كل أعراضه في ظاهرتين اثنتين: هما العجز عن حصر الذهن وسوء نقل الحواس والأعصاب عن مؤثرات البيئة أو عدم الاحساس بالأشياء على خقيقتها.

ولتعليل إعجباب قراء العصر بأولئك الأدباء والمفكرين رمى نوردو الطبقات القارئة كلها وبعضاً من الطبقات الأخرى بالضعف واختبال الحس ثم مضى يعلل لهذه الأوهام ليدين عصره كله بالخلل والفساد .

وحملة أخرى شنها نوردو في كتابه « الأكاذيب المقررة في المدنية المحاضرة »، ولكن حملته هنا على المجتمع لا على الأدباء ، وقد فضح كل ما ظهر له من أكاذيب الحضارة الأوربية ، وسمى ما لم يرقه بالأكاذيب ، ومما سماه أكذوبة الدين وأكذوبة الحكم المطلق وأكذوبة الزواج والأكذوبة السياسية والأكذوبة إلاقتصادية وما إلى ذلك ، وهو في نقده لما سماه الأكاذيب متقحم متسرع ، وقد أملى له في تهجمه فوق ما قدمنا يقين الشباب واقبال التفاؤل ولولا هذا اليقين وجرأة في نوردو صحبته طول حياته لكان الاولى به ان يسمى « الحقائق في سبيل التطبيق » بدلا من « الاكاذيب المقررة » لأن كثيراً من الأكاذيب التي أوردها إنما هي حقائق يخالطها الزغل عند التجربة على صفائها ؟ أليس من الحقائق الرياضية - وناهيك بدقتها - ما التجربة على صفائها ؟ أليس من الحقائق الرياضية - وناهيك بدقتها - ما

يختلف بين الأوراق والأعمال ؟؟ .

وإذا كان هذا مبلغ العصبية الصهيونية عند العلماء المستقلين حتى الملحدين وانغماسهم في غمراتها الى هذا القرار فكيف بمن ليسوا علماء ولا مستقلين ولا سيما المتدينين ؟ وإذا كان هذا مبلغ الغلو في العصبية عند من ينبغي لهم سترها أو الاعتدال فيها وهم قادرون عليه ولا ضرورة تمنعهم دونه _ فكيف بالمجاهدين المؤمنين الذين لا ينتظر منهم ستر ولا اعتدال ولا قدرة لهم عليه ولا مفر لهم منه .

ونختم حديثنا عن عبث الصهيونيين بالمذاهب والحركات الفكرية بالاشارة الى أن كثيراً من صنائعهم ، والببغاوات من أدعياء الثقافة بيننا يتلقفون هذه الدعوات المعرضة في عالم الأدب والفن والفلسفة وغيرها ، ويبشرون بها باسم التقدم أو التحرر أو التجديد او الاصلاح وما إلى ذلك من الأسماء كأنها هي دعوات هداية وبناء من قادة منزهين عن المرض والغرض . وان إلمامة خفيفة بما ينشر في الصحف والمجلات والكتب بيننا لتبشير بتلك الدعوات والتنويه بشأن البارزين من الصهيونيين وأعوانهم ، واللغط الفارغ بتاريخهم وأعمالهم سواء كانوا من العلماء والأدباء والزعماء أو من فتيات المسرح ودور الصور المتحركة وعارضات الأزياء إن إلمامة خفيفة بذلك لتدل على أننا نعاني محنة في المروءة والأخلاق فضلا عن محنتا في العقول والأذواق .

ونحن لا نلوم « العلماء المستقلين » خدام الحقيقة المطلقة لأنهم يتعصبون للملة اليهودية .

ولكننا نلوم من ينسى مروءته بيننا من أجل كلمات يتلقفها ويسميها علماً ينفصل بصاحبه عن بني قومه في معترك العصبيات والأخطار ، وإنهم لأحوج الأمم الى عون العارف والجاهل في عزلتهم أمام الصهيونية والاستعمار ودسائس الأعداء والطامعين من تل قبيل .

وندعو تلك الطائفة من أدباء العربية وعلمائها المستذلين للأذلاء لنقول لهم : من كان منكم أعلم من فرويد وأينشتين وغيرهما ممن ذكرنا فله أن يقيس أدبه وعلمه على غير قياس ، وأن يتصل به أو ينفصل عمن يشاء من

الناس.

ومن كان منكم يحسب أن الصهيونية أحوج من قومه إلى الأعوان فليبخل بعونه على هؤلاء القوم « الأغنياء ».

أما الخذلان ولا غنى عن الغوث فإن أهون وصماته ليخزي من لا يخزيه شيء .

وننتقل إلى بيان شواهد من عصبية الصهيونيين في ميادين السياسة ، وهي أغلظ وأظهر ، وإن أعمالهم التي تدفعهم إليها حماقتهم لتوبقهم وتغني في القضاء عليهم لولا أن خصومهم يلقونهم أحياناً بمثل ما عندهم من الحماقة .

ومن أحدث الشواهد التي تدل على الارتباط الشديد بين مسائل العالم في العصر الحاضر حملتهم الخفية على إيدن رئيس الوزارة البريطانية في يناير هذا العام ، وهي حملة تهدد مركزه كما يقولون من جراء حوادث الشرق الأدنى .

ويتألب عليه في هذه الحملة فريق صغير من المحافظين وفريق كبير من العمال وتدير الحملة كلها من وراء الستار أيدي الصهيونية البريطانية تؤيدها الصهيونية العالمية من بعيد .

ولا عجب في انضمام فريق من المحافظين إلى الحملة إذا تذكرنا أن رئيس الحزب في الواقع هو الاستعماري الصهيوني العتيق ونستون تشرشل ، وهو يصرح بانتمائه إلى الصهيونية وإن كان لا يصرح بالسبب . فإنما السبب الحقيقي أنه ينتمي من جانب أمه إلى سلالة إسرائيل .

أما العمال فلا عجب أيضاً من دخولهم في الحملة أو قيادتهم لها جهاراً ، لأن خزانة الحزب تخوى من المال إن فقلت معونة المرشحين الصهيونيين بارزين ومستترين .

ورئيس الوزارة البريطانية لم يفعل شيئاً يجحف باسرائيل ليستحق من الصهبونية هذه العداوة .

ولكن الدنيا تجهل إسرائيل وتجهل الصهيونية كلها إن لم تعلم أن القوم حمقى في الغاية القصوى من الحماقة ، ومن حماقتهم هذه الأنانية المريضة التي تخيل إليهم انهم وحدهم شعب الله ، وأن الله إلههم وحدهم بغير شريك ، وأن الساسة في العالم كله مطالبون بخدمتهم ومحاباتهم والتعصب لهم مائة في المائة ، وإلا فهم أعداء مغضوب عليهم بغير عذر ولا هوادة .

ونحن والله نود لو ينجحون في حملتهم على رئيس الوزارة البريطانية ، لأن هذا النجاح سيكشف الحقيقة لأعين الناس ، ويخرجها من حيز المناورات البرلمانية وراء الستار ، ويومئذ ترجع الصهيونية إلى وكرها مسحوقة الرأس والذنب ، ليستريح العالم من شرورها الجهنمية إلى أن يشاء الله .

إن القوم حمقى في الغاية من الحماقة . ولكنهم يسلمون من جرائر حماقتهم بحماقة مثلها في بعض الخصوم الذين ينهضون لمكافحتهم والقضاء عليهم فينفعونهم ويضمون إليهم الأعوان والأشياع .

عاداهم كما قدمنا جماعة الكوكلكس كلان في الولايات المتحدة وبلغ عددهم أربعة ملايين كعدة اليهود جميعاً في تلك الولايات ، ولكن حماقة هذه الجماعة سولت لها أن تعادى الصهيونية وتعادي معها الكنيسة الكاثوليكية وحركة التحرير التي ترمي إلى إنصاف السود والملونين ، فاجتمع عليها من الأعداء أكثر مما تطيق .

وعاداهم في إنجلترا جماعة « المستميتين » في المحافظة إذ كان لسان حالهم صحيفة المورننج بوست ، ثم عاداهم موزلي وأصحابه من أنصار الفاشية والنازية ، فانتفع الصهيونيون بعداوة هؤلاء لأنهم جمعوا معهم الأحرار والعمال والمحافظين المتوسطين .

ويعاديهم اليوم في فرنسا حزب « بوجاد » ولكنه لحماقته يحاربهم ويحارب الجمهورية ويربذ أن يرجع بالاستعمار مائة سنة الى الوراء ليحكم الشعوب الشرقية حكم السادة للعبيد .

حماقة خصومهم هي التي تنقذهم من حماقتهم ، ولكن الله سخر لهم

دويلة إسرائيل لتكشف عنهم كل مستور ، وتثبت للعالم أنهم ـ كما وصفهم القرآن الكريم ـ « قوم V يعقلون V فلا يريحون وV يستريحون ، ولن يزال العالم كله في خطر ما داموا يقبضون بأيدهم على زمام الدسيسة والغرور .

فإذا انقطع هذا الزمام فهم شرعلى أنفسهم وذويهم ، والعالم منهم في أمان .

ولا شك عندنا في حقيقة الحملة التي ترامت أخبارها من البلاد الانجليزية ، فإن الأسباب الظاهرة واهية لا تستر ما وراءها ، وكلها تدور على غلاء المعيشة كأنه من المستحدثات في الأشهر الأخيرة ، وقد كان قبل شهر يونيو في العام الماضي (١٩٥٥) حين اجتمع برلمانهم الجديد أشد مما هو اليوم .

والبركة في إسرائيل والعياذ بالله من هذه البركة .

إن إسرائيل هي القضاء المبرم على إسرائيل وعلى الصهيوبية بعدها بأمد قصير .

17 _ مصير الصهيونية العالمية والأسباب الدولية

تكلمنا في هذه الفصول عن الصهيونية العالمية ، وعن المرض النفساني الذي تنطوي عليه ، وعن الطوابير الخامسة التي تعمل بها في البلاد المختلفة ، وعن العوامل المجملة التي تستمد منها نفوذها ، وعن أساليبها في استغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية ، وعن اضطرارها يحكم طبيعتها _ إلى الغش والافساد في كل أسلوب تعول عليه .

وننظر بعد ذلك في هذا الفصل وما يليه إلى مصيرها الذي تنبئنا عنه الوقائع الحاضرة ، ونستطيع أن نقول في كلمة موجزة ين إن الصهيونية العالمية قوة مولية ، وإن عوامل الزوال التي تحدق بها أكبر من عوامل الثبات .

ولذلك أسباب متعددة ، نتناول منها في هذا الفصل جملة الأسباب الدولية كما تبدو لنا الآن ، وكما تؤول إليه مع التطور الواقعي في المستقبل القريب .

إن الصهيونية هيئة عالمية ، ولا مهرب لها من التأثير بأطوار الشؤون العالمية في هذا. الزمن خاصة ، لأ زمن تتداخل فيه شؤون الأمم في كثير من المصالح والعلاقات .

لقد كانت الصهيونية هي الهيئة العالمية الـوحيدة التي تعمـل طوابيرهـا الخامسة دون التفات إليها في القرون الخالية .

كانت كل أمة تحس بالصهيونية في حدود بلادها ، وكان الاحساس بها مقصوراً على الشؤون الاقتصادية كلما ثقلت على الناس وطأة الديون ، ونشبت في أعناقهم مخالب المرابين والمستغلين . أما الاهتمام بالصهيونية

من الوجهة السياسية فلم يكن مما يشغل بال أحد . لأن السياسة « أولا » لم تكن شغلا شاغلا لأذهان الجماهير ، ولأن الصهيونية « ثانياً » كانت حريصة على التستر والعمل في السياسة من وراء حجاب ، فكانت مساعيها العالمية مجهولة بين كل أمة ، وكانت كل أمة لا تحس بها في غير شؤونها التي تعنيها داخل حدودها ، وكانت هذه الشؤون مقصورة كما تقدم على أزمات الديون والربا المضاعف والاستغلال .

أما اليوم فالعلاقات الدولية ظاهرة في أهم الشؤون المامة ، وليس في وسع الصهيونية العالمية أن تعمل من وراء حجاب . فلا بد لها من العمل الظاهر من التحدي المكشوف . . وتلك ولا ريب فاتحة الدمار . لأن الهيئة التي تتحدى العالم كله ـ منهزمة في النهاية بغير مراء .

ومما تغير في الأحوال العالمية أن السيطرة الاقتصادية كانت فيما مضى سراً من أسرار المكاتب ، وعملا من أعمال السمسرة الخفية وراء الأسواق . وكان في وسع الصهيونية بالألاعيب المكتبية ، أو بحبائل السمسرة - أن تتلاعب بالأسواق والأسعار وهي آمنة وراء جدرانها .

أما اليوم فالسيطرة الاقتصادية مسألة متشعبة ترتبط بالأحوال الاجتماعية ، والحقوق الوطنية ، وأنظمة الزراعة والصناعة في جميع الفارات ، وليس في طاقة هيئة عالمية _ مختلسة _ أن تقبض بأيديها على أزمة هذه الشؤون وأن تسخر لمشيئتها جميع العاملين في هذه الميادين .

وقد تفعل السمسرة فعلها في مبادلات العملة ومقادير الواردات والصادرات ، ولكن الألاعيب التي تقدر عليها السمسرة الخفية تقف اضطراراً إذا اصطدمت بسياسة تحسب حساب الثبورات والقلاقل ، ولا تجازف بالاخطار وتهديد عوامل الاستقرار ، ومهما يكن من نفوذ الصهيونية في دولة من الدول فهو نفوذ مصطنع ، يتمرد عليه الساسة حتما كلما بلغ حد المخاطرة ، ودفع بهم إلى تجاهل الواقع في مشاكل الأطوار العالمية ، وتدخل فيها مصالح كثيرة في الشرق والغرب ، لا ينقاد زمامها للصهيونية العالمية ، ولا لهيئة من الهيئات على انفراد .

ومن أهم الأسباب التي زعزعت قوة الصهيونية في سياسة الأمم هذا التغيير الكبير الذي طرأ على مراكز الدول العظمى ، وهذه الضرورات العالمية التي أخرجت الولايات المتحدة من عزلتها ، وجعلتها طرفاً مهما في كل نزاع بين المعسكرين المتناظرين .

كانت بريطانيا العظمى تقود أحد المعسكرين في كل حرب عالمية ، أو كل حرب عامة تشترك فيها دول كثيرة .

وكان دور الصهيونية العالمية عظيما جداً في الحروب والأزمات الكبرى من أجل ذلك ، اي من أجل قيام بريطانيا العظمى على قيادة أحد المعسكرين ، في كل حرب عالمية .

ومن أيام حروب نابليون ، كانت بريطانيا العظمى تستعين بالصهيونية العالمية لتضييق الخناق على أعدائها ، وضرب الحصار الاقتصادي المحكم على المعسكر الآخر ومن يعاملونه في أسواق التجارة .

واستفادت الصهيونية كثيراً من اللغب بالنفوذ بين الدول ، ولم تكن متبرعة في الحقيقة بمساعدتها لبريطانيا العظمى ، لأن بريطانيا العظمى كانت مركز الصناعة والتجارة وميزان الأسواق .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وتلتها الحرب العالمية الثانية ، فتعاظم شأن الصهيونية في السياسة الدولية ، وراحت تساوم على الوساطة والدعاية وتملي الشروط ، وتغلو في المطالب ، واستخدمت نفوذها في المولايات المتحدة لتهديد الانجليز بالعزلة في ميادين القتال ، فإن لم يستجيبوا لها في كل ما تطلب أثارت عليهم الدعاية في الولايات المتحدة في أحرج الأوقات ، وحاولت جهدها ـ وهو جهد غير قليل ـ أن تبقى الدولة الامريكية بعيدة من الميدان ، وأن تحرم الانجليز من معونتها المالية والحربية ، او تؤخرها الى ما بعد الأوان .

بهذا التهديد نجحت الصهيونية فحصلت على وعد بلفور بالوطن اليهودي في فلسطين ، وكل ما يقال عن تعليل الحصول عليه بقصة وايزمان ، واختراعه الكيماوي النافع في صناعة المتفجرات ، فهو من خرافات العجائز

ولحاديث الأطفال ، إذ ليس بالمعقول أن تتحمل بريطانيا أعباء الوطن اليهودي لتكافىء مخترعاً يعمل في مصانعها وجامعاتها ، ولا يستطيع أن يمنعها حق الانتفاع بذلك الاختراع! فما كان الاختراع إلا علالة قصد بها التمويه لاخفاء الأسباب الحقيقية لهذا الوعد .

إنما نجح الصهيونيون في انتزاع وعد بلفور لانهم جعلـوه ثمنـاً للدعـاية الأهريكية .

ثم أرادوا أن ينجحوا مثل هذا النجاح في الحرب العالمية الثانية فأخطأهم التوفيق ، لأن الصهيونية لا تستطيع أن تعزل بريطانيا في حرب مع هتلر والنازية ، وإن فعلت ذلك فإنما تدور الدائرة عليها .

إلا أن هزيمة هتلر قد أطلقت أيدي الصهيونيين في التهديد وإملاء الشروط على الدولة البريطانية ، فاستكانت لهم هذه الدولة استكانة لم تقبلها من أحد ، وطغى الأذلاء الذين صبروا على مظالم الطغاة مئات السنين ، فأنفوا أن يعاقب الانجليز مذنباً منهم تثبت عليه جريمة الفتك والعدوان ، وقبضوا ملى جند الحكومة ليقتصوا منهم بالجلد والقتل إذا نفذ العقاب في الصهيوني المحكوم عليه ، فأذعن الحاكمون إذعاناً مخجلا لهذه الغطرسة من هؤلاء الأذلاء . ولولا خوف الدولة البريطانية من دعاية الصهيونية بين الأمريكيين لأتت على تل أبيب نسفاً وهدماً في لمحة عين .

وتغير الموقف الآن كل التغيير من وجهة السياسة الدولية . فليس في مقدور الصهيونية أن تعزل بريطانيا العظمى لأن قيادة المعسكر الغربي انتقلت إلى الولايات المتحدة ، وليس في مقدورهم أن يعزلوا الولايات المتحدة ، لأن سياسة العزلة ذهبت في خبر كان . ولو حاول الصهيونيون محاولة من هذا القبيل في إبان حرب من الحروب لكانت هي القاضية عليهم في تلك البلاد .

وتم التغيير في الموقف الدولي بعد أن أصبحت للصهيونيين دويلة تسمى إسرائيل .

إن الصهيونيين كانوا يلعبون بالسياسة الدولية ويملكون وقت اللعب فلا

يخسرون أو لا يصبرون طويلا على الخسارة .

كانوا يلعبون بالسياسة الدولية فأصبحوا في بعض المواقف على الأقل لعبة للسياسة الدولية ، وأصبحوا هدفاً ظاهراً لمن يهددهم بالانتقام ، فما عليه إلا أن يضرب إسرائيل فإذا بالصهيونية كلها مضروبة من وراء إسرائيل .

إن التغيير الذي طرأ على السياسة الدولية لا يجري مع المآرب الصهيونية في مجرى واحد ، وهذا التغيير في السياسة الدولية سبب من الأسباب التي تولى غداً بالصهيونية العالمية وتنذرها بما تستحق من مصير .

١٧ ـ مصير الصهيونية العالمية ونفوذها المهدد

من الحكمة ألا يستصغر المرء قوة عدوه .

ومثله في الحكمة ألا يستعظم قوة عدوه وألا يبالغ في استعظامها من باب أولى . لأنه إذا استعظمها ضيع في الحذر منها جهوداً يضره أن تضيع ،
 وينتفع العدو بضياعها عليه .

والصهيونية العالمية قوة كبيرة ، تملك وسائلها التي تؤذي بها خصومها وتنفع أعوانها وأذنابها ، ولكننا نعدو بها طورها ونجاوز بها حدها إذا قلنا مع القائلين : إنها تخلق الشورات وتدبر الانقلابات وتشل العروش وتهدم الممالك . فإنها لأهون شأناً من ذلك كما قدمنا في بعض الفصول الماضية ، وإنما شأنها أن تنتفع بالأسرار التي تعلمها وتغتنم الفرصة في حينها .

والحق أن الصهيونية العالمية أضعف مما ينبغي لمثلها ، وأنها كانت خليقة أن تفعل أضعاف ما فعلته لخدمة مآربها وإنجاح دسائسها ، بالقياس إلى قده عهدها وانتشار طوابيرها الخامسة في أجزاء المعمورة ، مع غفلة الغافلين عنها وتواطؤ أعداء الاسلام على مساعدتها . ولكنها تفقد الشيء الكثير بحماقتها واندفاعها مع هوس العصبية الطائفية ، فإن الصهيونيين - ولا ننسى وصف القرآن الكريم لهم - قوم لا يعقلون .

ومن المعلوم ان التنظيم والاتفاق في الغرض يجعلان العشرة أقوى من المائة ويجعلان المائة أقوى من الآلاف .

والصهيونية العالمية قوة منظمة في الولايات المتجدة ، ويسمى الساخرون مدينة نيويورك من أجل ذلك بمدينة « جيويورك » Jew York . . أي :

« مدينة اليهود » لأنهم يزيدون فيها على المليون ويتعاونون قصداً وعلى غير قصد في ترويج مصالحهم والنكأية بأعدائهم . . ويتصلون بمشل الشبكة الممحكمة بالملايين الثلاثة الأخرى الموزعين في أنحاء البلاد الأمريكية ، ولكنهم ـ على كثرة العدد واتفاق الغرض ـ لم يبلغ من نفوذهم أن يصنعوا ما صنعته جماعة منع المسكرات في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن أعضاء هذه الجماعة يزيدون على بضعة آلاف يؤيدهم أناس من رجال الدين . وكانوا يفرضون على الشعب قانوناً لا يريده ، ويحاربون مصالح المعامل التي تصنع الخمور والشركات التي تبيعها ، ويعرضون تعديلا للدستور هو التعديل الذي اشتهر باسم التعديل الثاني عشر ، وتسنى لهم بفضل التنظيم والمثابرة على غرض واحد أن يعدلوا الدستور ، وأن يصدر وا قانون تحريم المسكرات من مجلس الشيوخ ، ثم من مجلس النواب ، وأن يتغلبوا على الرئيس ويلسون الذي رفض القانون بحق النقض ، فأعادوه إليه وعبأوا الرأي العام في وجهه ، فأمضاه مضطراً حسب نصوص الدستور .

هذه الجماعة « جماعة منع المسكرات » لا تذكر إلى جانب الصهيونية العالمية التي تستعين بكثرة العدد وقوة المال وتغلغل الأعوان والأذناب في كل مكان ، وقد كانت الصهيونية نفسها تقاوم هذا القانون في الولايات المتحدة فانهزمت مع المنهزمين أمام « جماعة منع المسكرات ».

ومما لا نشك فيه أن جماعة منظمة تكافح الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة تستطيع أن تقهرها وتمحو أثرها ولو لم تبلغ مليوناً واحداً يحاربون خمسة ملايين . لأن الحقيقة المفهومة أن الصهيونية بغيضة جداً إلى جمهرة الأمريكيين ، وأنهم صبروا عليها طويلا ، واستعدت نفوسهم للتمرد على سلطانها الخبيث ، لو وجدت الجماعة التي تتولى تنظيم المكافحة وتحصرها في غرض واحد لا تتشعب عليه المطالب والجهود .

ولقد وجدت الجهاعة التي تكافح الصهيونية فعلا اثناء الحرب العالمية الاولى - وهي الجهاعة التي اطلقت على نفسها اسم «كوكلكس كلان KuKlux Klane وعاشت بضع سنوات فوصل عدد الاعضاء فيها على تقدير الخبير الاحصائي ستانلي فروست Stanly Frost اربعنة ملايين ونصف مليون.

إلا أن هذه الجماعة القوية وسعت حملتها وشنت الغارة على أعداء أربعة بدلا من عدو واحد . فجعلت في همها محاربة الزنوج ، ومحاربة التابعين للكنيسة الرومانية ، ومحاربة الاشتراكيين والشيوعيين ، ومحاربة اليهود ، وافتضحت لها أمور معيبة مكنت خصومها من إحباطها وتفريق شملها وتتبع العورات التي تنسب اليها ، ولو أنها قصرت محاربتها على الصهيونية لقضت عليها عنوة في سنوات معدودات .

لقد كان حظ الصهيونية أن « الكوكلكس كلان » أخطأت هذا الخطأ ، وانفضحت تلك الفضيحة ، ولكن حماقة الصهيونية توازن حظها الحسن وتربى عليه ، ومن حماقتها أنها تتهوس الآن في الدعاية لاسرائيل ، وتزج بالدولة الأمريكية في مآزق لا تؤمن عقباها من ورطة بعد ورطة ، واقحام بعد إقحام ، وأنها لتوغر الصدور عليها كرها بالصلف الذي لا يطاق ، ولا بد أن يغضب عليها من تستغضبهم ولا تبالي عاقبة غضبهم ، فينفضوا عن كواهلهم . فلك العبء الثقيل الذي يسخرهم كل هذا التسخير لصهيون اسرائيل .

ومن بوادر الانقلاب على النفوذ الصهيوني في البولايات المتحدة أن الصهيونيين يخافونه ويدركون خطره ، وأن الخطر يذهلهم عن الصواب ويخرجهم عن السداد ، فيحشدون اليوم جماعات الارهاب للايقاع بالخصوم والمعارضين ، ويعملون بأيديهم على مقابلة الارهاب بمثله ، فلا تعود لهم جماعة « الكوكلكس كلان » هذه المرة بالحملة الموزعة عليهم ، وعلى الزنوج ، والاشتراكيين ، وأتباع الكنيسة الرومانية ، ولا تكسبهم الأنصار من هؤلاء الشركاء في النقمة والبغضاء ، بل تعود لهم ومعها أنصار متألبون ممن تجمع بينهم عداوة الساميين .

إن الأمم قد تصبر على التسخير الذي تجهله ولا تعرف اضراره ، ولكنها لا تصبر على التسخير المكشوف الذي يلج به التحدي والغرور ، فيركب رأسه غير حافل بما يثيره من السخط والنفور . وقد أوشكت الصهيونية أن تواجه الشعب الأمريكي بمثل هذا الصلف في قضية إسرائيل ، وفي قضايا السياسة الدولية ، وأوشك هذا الصلف أن يستدعي المقاومة المنظمة لمقابلة الارهاب بالارهاب ، وتعددت فضائح الصهيونيين في مسائل الجاسوسية

وأسرار القذائف الذرية ، فلن يطول الأمد على مثل هذه الحالة حتى تتكشف العداوة الصراح ، ولن يفعل الصهيونيون يومئذ إلا ما يضرم النار ويفسد الجوار .

وفي الولايات المتحدة اليوم أكثر من مائة ألف عربي ومسلم ، ومنهم في نيويورك نحو خمسة آلاف مسلم . بين بولونيين وشراكسة وهنود ويمانيين ومصريين ، ومنهم في دترويت Detroit نحو عشرين ألفاً بين لبنانيين وسوريين وألبانيين ، وكل من في الولات المتحدة من المسلمين أو العرب المسيحيين ذوو همة ودأب وغيرة على القضية العربية ، ولا يطلب من مائة ألف أن يقاوموا خمسة ملايين متأصلين في البلاد ، متشعبين في ميادين الأعمال ، ولكنهم عدد لا يهمل في حساب الفريقين ، والاستماع لهم أيسر من الاستماع لأناس يفرضون لهم سيادة على البلد ، ويسومون الدولة كل يوم أن تزج بنفسها ـ لحسابهم ـ في مأزق بعد مأزق على غير جدوى وإلى غير نهاية . وهكذا يفعل الصهيونيون في الولايات المتحدة ، ويعلم الايقاظ من أبناء البلاد أنهم يفعلون .

قلت في فصل مضى إن الصهيونية العالمية قوة مولية في ميادين السياسة الدولية ، ولم نسمع من صهيوني متفائل مبالغ في خداع نفسه أنه يطمئن إلى مصير النفوذ الصهيوني بين الأمر يكيين ، فقد برح الخفاء ، وتكشفت الدسائس ، وعرف العامة ما لم يكن يعرف إلا الخواص والأخصاء الممقربون ، فإذا جرى الصهيونيون على عاداتهم من صلف الذليل ، ورعونة المغرور ، فتذرعوا ذرائع الارهاب لاستبقاء النفوذ المهدد بالزوال فتلك علامة أخرى من علامات الادبار ، وما من إقبال يرجى لمدرع بالليل إذا طلع النهار .

١٨ _ مصير الصهيونية العالمية

وبنيتها المتناقضة

من علامات الفناء في الصهيونية أنها بنية متناقضة ، يصلحها من ناحية ما يفسدها من ناحية أخرى ، ولا مفر لها من النقيضين ، وليس من اليسير عليها أن تجمع بينهما ، ولا أن تطمئن معهما إلى طول البقاء .

وأكبر جراثيم الفناء في هذه البنية أن الخلاف شديد بين الصهيونيين على عقيدة الصهيونية .

فما هذه العقيدة في أساسها ؟

إنها في أساسها عقيدة دينية تقوم على الأمل في ظهور ملك من بيت داد ، يبني عرشه بمعجزاته وكراماته في بيت المقدس ، وينشىء فيها مملكة أورشليم التي بها اختص إله إسرائيل شعبه دون سائر الشعوب ، وليست هذه المملكة من عمل الشعب اليهودي ، ولا من عمل أحد من الناس ، ولكنها العمل الذي يتولاه رب إسرائيل بعد تكفير الشعب عن خطاياه : بالتشريد ، واحتمال العذاب والاضطهاد .

هذا هو أصل العقيدة الدينية التي آمن بها الصهيونيون إلى القرن السابع عشر . ثم تحررت العقول وظهرت بين اليهود حركات عقلية في القرن الثامن عشر ترتاب في هذه العقيدة ، وتعددت المذاهب التي تناقضها بين جماعة الهاسقالا Haskala ، وجماعة الأحرار ، وجماعة العصريين المحدثين ، وغيرهم من الجماعات ، وتخلصت هذه الحركات أخيراً في دعوة إسحاق ماير وايز Issac Mayer Wise الذي عقد مؤتمر فلادليفيا سنة دماك ، وأعلن بالقول الصريح ان رسالة اليهودية لا ترمي إلى تجديد ملك

إسرائيل على يد ملك من ذرية داود ، وأنها لا تعني أن يعبود اليهبود إلى انفصال جديد بينهم وبين أمم العالم ، ولكنها ترمي إلى قيادة الأمم الانسانية في طريق المخلاص على سنة الاخاء ، وتكوين عالم جديد يضم جميع الشعوب بهداية روح إسرائيل ، وهو العالم الذي يشتمل يومئذ على مملكة أورشليم الموعودة التي تبقى إلى آخر الزمان .

وظهرت مع هذه الحركة المجددة حركة أخرى تخالفها في أسلوب التجديد وهي الحركة التي تأثرت بالهيئات القومية في القارة الأوروبية ، فقام زعماؤها يقلدون دعاة الوطنية وينادون بقومية صهيونية ، تعمل لانشاء وطن قومي يؤسسه اليهود بمجهوداتهم العالمية ولا ينتظرون الملك السماوي الموعود من بيت داود ، لتأسيس الوطن المنشود بمعجزات السماء .

ونشطت هذه الحركة بزعامة هيس Hess الألماني وسمولنسكن Smolenskin اللتواني ، وكان هيس من دعاة الاشتراكية : يزعم أنه يريد وطناً يهودياً في فلسطين ، ليجعله نموذجاً للمجتمع الاشتراكي الذي تقتدي به مجتمعات العالم ، وتلك في رأيه هي رسالة إسرائيل .

هذان مذهبان منشقان في الحقيقة عن العقيدة الصهيونية الدينية ، أحدهما يلغي الفواصل بين اليهود وبين أمم العالم خلافاً لعقيدة الشعب المختار ، والآخر يجعل الصهيونية وطناً قائماً بغير العرش الموعود في بيت داود .

فلما صدر وعد بلفور وتغلبت الفكرة القومية على الفكرة الدينية وعلى الفكرة العالمية ، برز الدعاة القوميون في الميدان وأسكتوا من عداهم من أصحاب المذاهب بين البهود ، وانتصروا على المعارضين ولا يزالون منتصرين عليهم بقوة النجاح الموقوت .

ولكنه نجاح لا يدوم .

بل هو في الواقع نجاح مشؤوم .

فاليهود الذين أوشكوا أن يحطموا الحواجز بينهم وبين أمم العالم قد عادوا بفعل ذلك النجاح المشؤوم إلى عزلة جديدة تنقلب مع الزمن شراً عليهم من عزلتهم الأولى . وهؤلاء الذين نجحوا اليوم بإنشاء دويلة إسرائيل قد أثاروا في نفوس أبناء دينهم عصبية لا طاقة لهم باشباعها ، ولا طاقة لهم بالاستغناء عنها ، ولا مناص لها من الاصطدام بالواقع في زمن غير قريب .

هل في وسع إسرائيل أن تصبح وطناً لجميع اليهود المتفرقين في أنحاء العالم ؟

هل في وسع اليهود أن يعيشوا في أنحاء العالم بعصبية قومية سافـرة بين الأوطان التي يدينون لها بالولاء ؟

إذا كانت العزلة قد جرت عليهم عداوة الأمم في الماضي فهي لا تنجيهم من تلك العداوة بعد شيوع أمرها ، وانتباه الناس لمؤامرتها ودسائسها .

وإذا كان نجاح الصهيونيين في إنشاء الوطن القومي بفلسطين ـ قد نصرهم على معارضيهم من أبناء دينهم ، فلا غنى لهم عن دوام هذا النجاح لدوام هذا الانتصار ..

ومن نقائض الدويلة الصهيونية أنها لا تنجح مع اضطهاد اليهود في العالم ولا تنجح إذا انتهى ذلك الاضطهاد وسلم اليهود من بلواه .

فالوطن الفلسطيني لا يتسع للهاربين من الاضطهاد جميعاً ، ولا يستطيع أن يغلق الأبواب في وجوههم كما تغلقها الأوطان الغربية ، وإلا سقطت كل دعواه .

أما إذا زال الاضطهاد فقد زالت الدعوى من جذورها ، وخمدت النار التي يلهبون بها الغيرة في صدور أبناء دينهم ، ويثيرون بها العطف عليهم في صدور الغرباء .

إن هذه الحركة القومية لا بد أن تعيش لكي تتغلب في المستقبل على العقيدة الدينية ، وعلى مذاهب الاصلاح العالمية ، كما تغلبت عليها في هذه السنوات .

وقد تعيش سنوات معدودات من المعونة الخارجية التي يجود بها الاستعمار ، أو يجود أبناء دينهم مؤمنين مقتنعين ، أو متورطين خاضعين.

للتهديد .

ولكنها لن تعيش على المعونة الخارجية مدى السنين ، ولن تعيش طويلا إلا إذا قامت على قدميها واستقلت بمواردها ، وهذه هي النقيضة الكبسرى التي تصير بها من نقيض إلى نقيض .

لن تعيش إسرائيل الا بصناعة ، ولن تعيش صناعتها إلا بخامات وأسواق ، والبضاعة الناشئة تحتاج إلى القصد الكبير في النفقات والتكاليف ، ولا سبيل إلى القصد الكبير في نفقاتها وتكاليفها مع الأجور العالية التي تفرضها أحزاب الصناع ، ولا تبالي أن تزيد بها على أجور المهندسين والأطباء وغيرهم من الفنين الممتازين .

وتحتاج الصناعة الناشئة إلى الخامات الرخيصة وإلى الأسواق التي لا مزاحمة فيها .

فإذا لجأت إسرائيل إلى شراء الخامات من بلاد بعيدة زَادت خسارتها على أرباحها ، وإذا أرسلت مصنوعاتها الى الأسواق البعيدة لم تجد من يشتريها بأثمانها الغالية ، مع اشتداد المزاحمة في تلك الأسواق .

لهذا تتهافت إسرائيل على مصالحة الأمم العربية ، وفك الحصار الذي تضربه تلك الأمم عليها ، ولا يكفيها أن ترغم الأمم العربية على مصالحتها وفتح أسواها لمصنوعاتها ، بل يلزمها أشد اللزوم أن ترغم العرب جميعاً على البقاء ـ مدى السنين ـ بغير صناعة تنافس الصناعة الصهيونية ، وتستأثر بالخامات لمعاملها وأبنائها ، وهذه هي النقيضة التي تضاف إلى غيرها من النقائض ولا تختمها على كثرتها .

ان نجاح اسرائيل نكبة على الصهيونية لانه نجاح مشؤ وم ونجاح لا يدوم .

كان اليهود يشفقون من عزلتهم بين أمم العالم ، ويفكرون في تحطيم حواجزها ، وتقريب الفوارق بينهم وبين الأمم الانسانية على سنة الاخاء والروابط الوطنية في كل أمة ينتمون إليها .

فلما نجحت إسرائيل ، وأقامت لها وطناً قومياً في فلسطن ـ لم يكن

لنجاحها غير معنى واحد لا تسلم من جريرته ، وذلك هو العزلة الدائمة ، والعصبية التي تخضع العالم كله لدسائسها ومؤامراتها أبداً ، أو تخضع للعالم كله في النهاية خضوع المقهور .

وإن الصهيونية لتسير مع الزمن إذا كان الزمن يؤيدها في الانفصال الدائم من أمم العالم ، والسيادة الدائمة عليها ، والغفلة الدائمة في هذا العالم الذي تسوده وتتحداه .

خاذا ابى عليها الزمن ذلك ـ وسيأباه لا محالة ـ فنصيبها من أمسها الذي تفر منه أهون من نصيبها عند الغد المجهول ، بل الغد المعلوم .

١٩ _ الصهيونية العالمية

مصيرهم في أعينهم

من المفيد _ ونحن ننظر إلى مصير الصهيونية العالمية _ أن نلم بأمثلة من نظرات الصهيونيين وأعوانهم إلى ذلك المصير .

ومن الأمور ذات المغزى أن البحث في هذا المصير متعاقب متواتر بعد الحرب العالمية الثانية ، فهم من صهيونيين وأعوان للصهيونيين متفقون على أن الوطن اليهودي في فلسطين لا يحل مشكلة الصهيونية ، وليس هو على اليقين بالحل الأخير .

وهؤلاء الصهيونيون عصابة عاملة لا يعوزها النشاط في نشر الدعوة ، واستدراج الأعوان والأنصار الى المشاركة فيها ، وهم على كثرة نشراتهم منذ الحرب العالمية لم يغيروا شيئاً في جملة الآراء التي يرونها في مصيرهم : يبدئون فيها ثم يعيدون ، كرة بعد كرة ، منذ الحرب العالمية الثانية ، الى إعلان قيام الدويلة الاسرائيلية ، إلى هذه الأيام التي يعلقون فيها أكبر الأمال على مصيرهم مع جيران فلسطين .

فتارة يؤلفون فيه الكتب ، وتارة ينشرون فيه الكراسات والفصول ، وتارة يستكتبون فيه المقالات من اليهود وغير اليهود ، ليوسعوا العناية به جهدهم ، ويجتذبوا إليه القراء الذين لا يقبلون على دعاية ينفرد بها دعاة صهيون .

إحدى هذه المجاميع اشتملت على ستة عشر رأياً بعنوان « مستقبل اليهود » واشترك فيها طائفة من المؤرخين والصحفيين وأساتذة الجامعات وأعضاء المجالس النيابية ، بعضهم من اليهود وبعضهم من المسيحيين ، ومنهم الألمان والانجليز والروسيون والبلجيكيون .

ولا يخفى أن أصحاب هذه الآراء من غير اليهود. قد استجابوا للرجماء والالحاح ، أو استجابوا لداعي المنفعة والهوى ممن يعنيهم جمع الآراء في هذا الموضوع .

وهذه أمثلة من نظرات الصهيونيين إلى مصيرهم نبدأ بها في هذا الفصل ، ونتبعها بفصل آخر عن آراء الأعوان والمجاملين من غير الصهيونيين .

أحد المساهمين في هذه المجموعة أستاذ روسي يسمى شتينبرج Steinberg عمل في تدريس الفلسفة بجامعة لنينجراد ، واشترك في تأليف الموسوعة اليهودية الكبرى التي تصدر في باريس ، ورأيه أن العداوة السامية لم تختف من روسيا بعد اختفاء القياصرة ، وأن الجيل الجديد من الناشئة الشيوعية يضمر الكراهية لليهود كما كان يضمرها آباؤهم المتدينون ، وأن الكاتب الروسي مكسيم جوركي قد يئس من إزالة هذه العداوة بتدبير الحكومة وسلطان الشريعة ، وأشار باصطناع الصبر في علاجها حتى تزول بالتربية والايحاء في برامج التعليم ، فإن السلاح القديم قد تثلم ولكنه لم ينكسر ، ولا يزال حاضراً في أيدي حامليه ، والقول الفصل عند شتينبرج في مصير اليهود : « إن الشعب اليهودي في أصل تكوينه هيئة عالمية أو دولية ، وأن ستالين قد أصاب حين استبعد حل المشكلة اليهودية في وطن واحد ، ولا غنى لها عن عدة أوطان » .

ومن كتاب هذه المجموعة ريجنالد سورنسن Sorensen عضو مجلس النواب الانجليزي عن دائرة ليتون الغربية ، ورأيه أنه « من الصواب أن تخصص أقاليم منعزلة في القارة الأوربية لاقامة اليهود فيها ، وأن هذه التجربة لم تفلح في روسيا ، وقد تخفق في غيرها . ولكنها جديرة بالتكرار حتى تنتظم شؤون الوصاية على الأقليات ، على نحو يضمن السلامة للأقليات اليهودية » .

ومن كتاب هذه المجموعة هايمان ليفي Hymen Levy أستاذ الرياضيات بجامعة لندن وغيرها من الجامعات البريطانية ، ورأيه أن فلسطين برمتها لا تعدو أن تكون أقلية صغيرة في قلب العالم العربي الكبير ، وأنه من الخطأ أن يتوهم أحد أن الوطن اليهودي في فلسطين ـ وهـ و لا يضم إلا القليل من

الشعب اليهودي كله ـ يحل المشكلة ويختتم البحث فيها ، ويستطرد فيقول : « ما من أحد ـ إلا أن يكون أعمى البصيرة ـ يخفى عليه أن الدور المقبل من أدوار التاريخ الانساني منتقل بالنظام الاقتصادي في الدنيا بأسرها إلى الاشتراكية الأممية ، وفي مثل هذا النظام تمحى القضية اليهودية كما يمحى الكابوس الثقيل . . وليس العقل السليم وحده بالذي يوحي إلى اليهود أن ينخرطوا في حركة التقدم الانساني الشامل ، بل يوحيه إليهم طلب السلامة والحرص على البقاء » .

ويبحث غير واحد من كتاب المجموعة في حل المشكلة برجعة اليهود المهاجرين من ألمانيا إلى أوطانهم الأولى بعد انهزام النازية ، ومن هؤلاء الباحثين « أوتوليهمان روسفلدت Otto Lehman Russfueldt المولود في المانيا والعضو في الجماعة التي تألفت فيها باسم « عصبة الحريات المدنية » . . وفحوى كلامه أن الرجعة إلى الوطن الألماني مستحبة بعد اتخاذ الحيطة لحماية اليهود من خطر الاضطهاد ، وتخويف الأمة الألمانية بالقصاص إذا تكرر ذلك الخطر على أيدي الحكومات التي تخلف حكومة النازيين قال : « إنني ـ وأنا ألماني ووطني عالمي ـ أنظر إلى الأثر الأدبي الذي نجم من عمل اليهود في الاسكندرية ايام الدولة الرومانية ، والأثر الأدبي الأدبي الذي نجم بعد ذلك من عملهم في أسبانيا وهولندة ، وعلى مثال الأدبي الذي نجم بعد ذلك من عملهم في أسبانيا وهولندة ، وعلى مثال اليهود المنتمين إلى الوطن العالمي من هذا الطراز إذا وجدوا سبيلهم إلى اليهود المنتمين إلى الوطن العالمي من هذا الطراز إذا وجدوا سبيلهم إلى الديار الألمانية » .

والمصير كله معلق على مركز اليهودي بين الأمم في رأي الدكتور ليفي زلمانوفتز Levy Zelmanovitz ، أكبر زعماء الصهيونيين في بلاد التشك ، وسكرتير الحزب اليهودي في بلده ، ثم رئيس المجلس اليهودي في العاصمة الانكليزية منذ نشوب الحرب العالمية الثانية . فهذا الزعيم الصهيوني يقترح لحل مشكلة اليهيد في اوروبا ان يتساوى اليهودي وغيره في جميع الحقوق السياسية ، وان تعتبر الطائفة اليهودية حيث كانت « اقلية » قومية تحميها منظمة الأمم المتحدة ، ويحق لها بطبيعة الحال أن ترجع الى تلك المنظمة لتحكم بينها وبين « الأكثرية » في وطنها كلما شجر بينهما خلاف على تطبيق

الحقوق .

ومتى تقرر لليهودي حق مساو لكل حق مفروض لغيره من أبناء الوطن الواحد ، وتقرر للطائفة اليهودية حق في تكوين الاقليات تحميه الـدول الكبرى ، فقد هانت مشكلة اليهود في العالم ، وأصبحت قابلة للرقابة والاشراف .

وخلاصة هذا الحل أن شعوب العالم مطالبة بالغاء كل فارق بينها وبين اليهود ، ولكن اليهودي غير مطالب بإلغاء الفارق الذي يقيمه بينه وبين شعوب العالم ، وغير مطالب بالنزول عن عقيدة الشعب المختار الذي ميزه بها « يهوه » على شعوب العالمين أجمعين ، وأن دول العالم الكبرى التي تدير منظمات الأمم المتحدة مطالبة بالتدخل في شؤون الأوطان الداخلية لتمكن اليهود من الاحتفاظ بعزلتهم وامتيازهم في نظر أنفسهم ، وتحقيق الشكايات التي تدعيها « الأقليات » اليهودية ، وتنتظر الانصاف فيها من الدول الكبرى ، ووراء هذه الدول نفوذ الصهيونية العالمية كما هو معلوم .

ولم يكتم المؤلف الذي جمع هذه الأراء طبيعة المشكلة المعروضة على ذوي الأراء لحلها والنظر إلى مصيرها ، بل قال في المقدمة : « إن مسألة مصير اليهود عولجت في هذه الصفحات على القاعدة التي توجب إشراك اليهود إشراكاً تاماً في أوطان الشعوب المتحضرة وحلفاء الأمم المتحدة ، وهي لا تنحصر في عرض قضية الوطن القومي ، بل تجاوزه إلى احتمال إنشاء أوطان قومية أخرى غير فلسطين .

ثم قال في ختام المقدمة: « وسواء تعلق الأمل بأرض الموعد فلسطين أو بهيئة عالمية تتمثل فيها حقوق اليهود ويتقرر بها مركزهم فمستقبل اليهود بعيد من أن ينظر إليه كأنه مصير مبشر مأمول ».

والخلاصة في كلمتين أن هؤلاء القوم الذين وصفهم القرآن بأنهم لا يعقلون _ لم يصنعوا بالوطن القومي في فلسطين إلا أنهم جروا بأيديهم عداوة حامية كانوا مستريحين منها ، وخلقوا للدول الكبرى مشكلة كانت في غنى عنها ، وعادوا مرة أخرى يبحثون عن أوطان ، ويحارون فيما ينتظرهم من مصير » .

۲ - مصير الصهيونية العالمية نی أعین اصدقائهم

لخصنا في الفصل الماضي أمثلة من نظرات الصهيونيين إلى مصيرهم كما بدا لهم منذ الحرب العالمية الثانية ، ومؤداها جميعاً أن مشكلة اليهود في العالم لا تحل باقامة الوطن القومي في فلسطين ، وأنهم ينظرون إلى أوطان أخرى في القارة الأوربية ، وإلى حلول أخرى لمشكلة اليهود الفردية في كل بلد من بلدان الحضارة .

ونلخص في هذا الحديث أمثلة من نظرات الأصدقاء المجاملين ، وهم رجال ونساء مشتغلون بالمسائل العامة ، سألهم الصهيونيون أن يصرحوا بآرائهم في مسألتهم ، فصرحوا بها على مناهج شتى : من مجاملة النفاق ، أو مجاملة التحفظ والاعتدال .

فمنهم من كان كالمعزّي الذي أراد أن يسبق أهل الميت في العويل والصياح ، فكان في آماله لأصدقائه صهيونياً أكثر من الصهيونيين .

ومنهم من تذكر أمانة الفكر وتبعة النصيحة العامة ، فقال ما لا يغضب الحقيقة .

ومنهم من لجأ إلى روغان كروغان الساسة ، فجاء بكلام لا يربط قائله ، ولا يمنعه أن يفسره بما يشاء .

فمن المجاملين الذين سبقوا أهل الميت في العويل والصياح كاميل هويسمان Camille Huysmans الفلمنكي ، الذي كان أستاذاً بجامعة بروكسل ، ووزيراً للعلوم والفنون ، ورئيساً لمجلس النواب ، فهذا المجامل الذي جاوز حدود دوره على المسرح حماسة وغيرة _ يقول : إن

حل قضية العرب لا يتوقف على العرب ، بل يتوقف على البريطان والأمريكيين ، وعلى اليهود . ويخيل إليه أنه يقسم الأرزاق للشعوب باسم هؤلاء الذين يتوقف عليهم مصير العرب ، فيقول : إن العرب على كل حال لا يحق لهم الشكوى من نصيبهم في الدنيا . . لأنه على وفاق هذا الرأي نصيب قد ارتضاه لهم البريطان والأمريكيون واليهود ويمضي فيقول : إن الصهيونية تستند إلى الضرورة ، وإلى السلطان النافذ ، وإلى المنطق ، ويؤيدها نصير أوربي من غير أهلها أراد أن ينفذ إلى لبابها ، وقد نظرت إلى الصهيونية بعين وطني فلمنكي يعيش في بلاد البلجيك وربما استطعت من اجل هذا أن أفهمها بهذه السهولة ، وقد اضطر البلجيكيون أيضاً إلى النضال الخلق دولتهم وتقرير مركزها ، وثابروا على النضال عدة قرون إلى سنة للاعتراف بحقوقهم الثقافية ، فبلغوا به الغاية الموفقة من تجاوز العنصرين واللغتين .

وعند هذا المؤرخ العلامة أن قضية العرب واليهود في فلسطين تشبه قضية البلجيكيين والفلمنكيين ، وأن إقامة دولة يهودية في محيط الكمنولث البريطاني ضمان لسلم الصهيونية ، وسلم القارة الأوربية ، وحاجز أمان الى جوار قناة السويس .

ومن المجاملين المعتدلين كاتب من محبي السلام ، منحته لجنة نوبل جائزتها سنة ١٩٣٣ ، وهو نورمان أنجل Angell صاحب كتاب « الوهم الأعظم » المشهور بالدعوة إلى الاخاء ، واحترام الحياة الروحية التي أوشكت أن تفقد احترامها في العصر الحديث .

فهذا الكاتب يترك مسألة الوطن القومي في فلسطين جانباً ، ويوجه التفاته كله إلى مسألة الهجرة ، وتيسيرها للمضطهدين من اليهود ومن الشعوب الأخرى التي تضيق بها أوطانها بين الكثرة المتغلبة عليها ، ويشير الكاتب إلى المستعمرات البريطانية التي تتقبل الوافدين إليها من الخارج ، ولكنها تقيد الهجرة بقيود ثقيلة تكاد أن تمنعها ، فيقول : إن المستعمرات حكومات مستقلة بشؤ ونها الداخلية ، ولكننا في انجلترا نستطيع أن نتقدمها بالقدوة

الصالحة ، فتعدل عن بعض تلك القيود ، ولا تقدم على العدول إذا استفادت من جهود المهاجرين إليها .

وتوماس مان كاتب آخر من حملة جائزة نوبل ، ومن المتصدرين بين جماعات الدعوة إلى السلام والاجتماع على التسليم ، وأصل من سلالـة يهودية ألمانية ، ولكنه يتجنب الاندفاع في التعصب لقومه ، ويحاول أن يصبغ عليهم صبغة العطف على الضعفاء المضطهدين من كل ملة . ومقالته في هذه المجموعة تخلو من ذكر الوطن القومي في فلسطين ، وتدور بالأمل كله في مدار الهجرة الميسرة ، والتسوية بين اليهودي وغيره في حقوق الوطن والوظائف السياسية ، وإذا تعرض لبقاء الصهيونية قال إنها ستبقى في المستقبل لا كما بقيت في الماضي ، وإن مصائب التشريد والاضطهاد لا تدوم على حالة واحدة ثم يختم كلامه عن الهجرة بملاحظة عملية يحث بها الأمم الديمقراطية على تقدير الظروف الاستثنائية في تطبيق قوانين الهجرة ، لأن هذه القوانين لا تقدر في الوقت الحاضر أحوال الاضطهاد التي تسوق المئات والألوف إلى مغادرة أوطانهم في آونة واحدة . ثم يقول : عسى أن يفيض المعنيون بمصير اليهود بموجات من العطف والغضب والثبات على المعونة تبلغ إلى السفاحين الذين يزهقون الحقوق والفضائل الانسانية فيخيفهم ، ويكون لها فوق ذلك أثرها الفعال في حث القادرين على المساعدة وتخفيف الآلام.

ومن الذين كتبوا بلغة السياسة في هذه المسألة سيدة انجليزية اشتهرت في حركة المطالبة بحق المرأة في الانتخاب والنيابة ، وهي السيدة كوربت آشبي Corbett Ashby التي نابت عن بريطانيا العظمى بين سنتي ١٩٣١ و١٩٣٥ في مؤتمر نزع السلاح ، وقد أيدت الدعوة الصهيونية كل التأييد كأنها ملاذ «احتياطي » لمن يضطرون إلى الهجرة من أوطانهم ، وأتبعت ذلك بالتحفظ السياسي الذي تؤكد فيه ضرورة إنصاف العرب إذا أريد منهم أن يتقبلوا الوطن الصهيوني طواعية بحسن نية وبغير إكراه أو مخادعة ، وأن ينال العربي جميع الحقوق التي ينالها اليهودي في الدولة الصهيونية .

ويشبه السيدة أشبي في لهجتها السياسية إدوارد هلتـون Hulton مؤسس

البكشربوست Picture Post وغيرها من الصحف العصرية ، وهو لا يدين بمذهب حزب من الأحزاب ولا يتقيد بخطة معينة في السياسة البريطانية ، وقد ذكر في مقدمة كلامه أن المسلمين تسامحوا في معاملة اليهود خلال الترون الوسطى ، وأن اليهود يتعرضون للنفور والجفاء لعزلتهم الدينية والقومية ، وأن عداوة الساميين موجودة اليوم في البلاد الانجليزية ، وتزداد بعد الحرب العالمية ، ولكنها قد تهدأ بعد هزيمة النازيين ، وتبطل الفائدة منها كلما استغنى الحكام المستبدون عن هدف يحولون إليه حماسة الجماهير ، ويثيرون به شعور البغضاء الذي يعتمدون عليه في التقرب إلى موجودون في فلسطين ، وأنها واقعة لا تبطل بالجدل والمناقشة ، ومن موجودون في فلسطين ، وأنها واقعة لا تبطل بالجدل والمناقشة ، ومن المشكوك فيه أن يتحقق انصاف قوم باغتصاب آخرين ولا سيمنا القوم الذين هم طرف ثالث في المشكلة ، ولا ذنب لهم فيما وقع على اليهود من إجحاف .

* * *

هذه أمثلة من نظرات الأصدقاء المجاملين الى مصير الصهيونية ، تكاد في جملتها أن تنتهي بنا إلى نتيجة واضحة لا تختلف باختلاف الباحثين ما داموا من الباحثين المسؤولين الذين يدركون تبعاتهم ، ويحاسبون أنفسهم على آرائهم . فما لم يكن الكاتب مأجوراً رخيص الضمير فهو شديد التحفظ في مؤازرة الصهيونية ، ومجاراتها على شهوات العصبية التي تزين لها الهيام الأحمق باغتصاب فلسطين ، واعتبار المقام فيها باسم الوطن القومي - حلا لمشكلة اليهود ، يحسم المشكلة ، ويريح الأمم والحكومات من هوس الصهيونيين وأخطارهم التي يجرونها على أنفسهم وعلى سائر الشعوب .

وإذا كانت الدويلة الصهيونية تأتي بنكبات جديدة ، ولا تدفع نكبة واحدة ـ فالمشكلة باقية ما بقيت الصهيونية العالمية ، وسلامة العالم أن تقلع الصهيونية العالمية عن هوسها ، وأن يقلع المؤيدون لها عن تشجيع ذلك الهوس الوبيل ، فإنه لا دوام له مع انقطاع التشجيع والتأييد ، وانكشاف السر « العالمي » في عصر لا تحتجب فيه هذه الأسرار .

٢١ _ مصير الصهيونية العالمية

ومقاطعة العرب

إذا كان هناك شيء يتفق عليه العرب والصهيونيون ، ويتفق عليه من يكتبون لمصلحة الصهيونية _ فذلك هو يكتبون لمصلحة الصهيونية _ فذلك هو الحقيقة التي تبدو لأول نظرة ثم تبدو مؤكدة مرددة بعد مائة نظرة: أن اسرائيل لا تحتمل البقاء مع مقاطعة العرب لها ، فإذا قاطعها العرب وثابروا على مقاطعتها فليس في الأرض قوة تنصرها عليهم ، وليس بالعرب من حاجة إلى سلاح يدفعون به خطرها أمضى من هذا السلاح .

إن الحقائق البينة التي يجترىء الصهيونيون على إنكارها كثيرة لا تحصى إلا هذه الحقيقة التي لا تقبل المرا والمغالطة ، فإنهم يسلمونها ويعلنونها ، ويسلمها معهم أناس يبحثون قضية فلسطين بحث العالم المجرد عن الهوى ، وأناس لا يفوهون بحرف في هذه القضية إلا لخدمة إسرائيل أو خدمة صهيون .

نشرت مجلة الشرق الأدنى في عدد الخريف سنة ١٩٥٤ بحثاً مفصلا بعنوان « اقتصاد إسرائيل المشوه » ذكرت فيه العوائق التي تشوه هذا الاقتصاد أو تمزقه فقالت: (أولا) مقاطعة العرب، ومنها إغلاق قناة السويس، فإنها تحرمها مورداً رخيصاً من موارد الخامات وسوقاً سهلة لتصريف البضائع المصنوعة، و(ثانياً) اضطرارها إلى إبقاء جيش قائم وإلى تقرير التجنيد العام مما يكلفها نصف موارد الميزانية العادية، و(ثالثاً) قطع أنابيب البترول من العراق إلى حيفا، وهو أمر لا يقصر عمل المصنع الخاص بالتكرير على خمس طاقته وكفى، بل يضطر إسرائيل إلى دفع عملة أجنبية بمناً للبترول بلغت في سنة ١٩٥٣ نحو خمسة وأربعين مليون ريال، وكان

في ميسورها ـ لولا المقاطعة ـ أن تشتريه بالعملة الوطنية .

وكتب خبير عسكري في الديلي تلغراف .. هو الجنرال ه. . ج مارتن H. G. Martin فقال : « إن إسرائيل مضطرة إلى الاستعداد ببار ودها الجاف في كل وقت » وهو تعبير يراد به الاستعداد لتجريد السلاح بغير إمهال ، فإن حدودها تبلغ ستمائة ميل ، وليس لها عمق كبير لانها تضيق حتى تنقص عن سبعة أميال ، وتتسع فلا تزيد على عشرين ميلا .

ولهذا تنوء بأعباء التجنيد العمام ، وتفرض الجندية سواء على الرجمال والنساء من سن مبكرة ، تبتدىء في فرق الشباب في الرابعة عشرة ، ونظامها الزراعي نفسه قائم على هذه الضرورة الحربية ، لأن الخلايا الزراعية الموزعة على الحدود ، أو بجوارها ـ لا بد أن تقوم في الوقت نفسه بأعمال الاستطلاع وأعمال الطلائع كأنها في الميدان .

وفي حديث جرى بين مندوب نيوزويك Neusweek الأمريكية في شهر مايو سنة ١٩٥٤ صرح وزراء إسرائيل بالخسائر التي توقعها بهم مقاطعة العرب ، وقالوا: إنهم يضطرون إلى جلب البترول من فنزويلا في أمريكا ، وإن خسارة البترول وحدها تكلفهم أربعين مليون ريال ، وهو مقدار يساوي الاعانة التي حصلوا عليها هذه السنة من الولايات المتحدة . . . ومضت الصحيفة فقالت : « إن مقاطعة العرب قد تعرض إسرائيل لنكبة جديدة غير نكباتها الماضية ، فربما تدفق على أرضها نحو خمسمائة ألف من يه ود مراكش والجزائر وتونس الذين يحسون بوطأة المقاطعة العربية في تلك البلاد . » .

· فالحقيقة التي تواجه الصهيونية في مقاطعة العرب أشد عليهم وأوضح أمامهم وأمام غيرهم من أن يكتموها وأن يغالطوا أنفسهم فيها .

ولكن العلة الأصيلة في إسرائيل أنها مخلوق متناقض ، يعتمد في بقائه على النقيضين ، فهو يعادي العرب ، ويقتحم عليهم ديارهم ، ويستغل مواردهم . . ثم يطمع منهم في المعونة التي يقدمونها بأيديهم لتمكينهم من الاقتحام والاستغلال .

وقد تبلغ القحة والصفاقة بهم وبأنصارهم أن يصرحوا بالأمرين في وقت واحد . فمن أعجب ما قرأناه ، بل من أعجب ما يروى على طول الزمن ، أن يقول قائل منهم : إن إسرائيل حربة طاعنة في جنب العالم الاسلامي ، ثم يعود قيقول : إن الأمل معقود بأن تعيش إسرائيل بين العرب معيشة الجيران والعشراء .

قبل عامين أوفدت « السنداي تيمس » مندوباً يسمى تريفور روبر T.Roper ليدرس أحوال إسرائيل ، ويكتب لها عن موقفها ومصيرها كما يشير إليه ذلك الموقف ، فقال في عدد الرابع من شهر أبريل : « إن إسرائيل واغلة في قلب العالم الاسلامي وإنها تلوح لهذا العالم الاسلامي كرأس الحربة الممتدة من حضارة أجنبية مهددة ، وقد تكون فاتحة متوسعة » ، ثم يقول : « إن الفاتحين السابقين قد فرضوا على العرب طبقة حاكمة موقوتة ، أما اليهود فانهم بهجرتهم جماعات جماعات قد أصبحوا مجتمعاً كاملا لا يبقى إلى جانبه موضعاً لسكان آخرين ».

يقول هذا في عدد الرابع من أبريل ، ثم يقول في العدد الذي يليه .. أي عدد الحادي عشر من أبريل .. إن هذه الحربة في جنب العالم الاسلامي قد تعيش في جوفه معيشة الجيران فتقوى على البقاء والتعمير .

وقال: « إنه لا مناص لاسرائيل مع مقاطعة العرب في الوقت الحاضر من البحث عن أسواق بعيدة ، تبيع فيها حاصلاتها ومصنوعاتها . ولكن هذه المقاطعة إذا انتهت وقبلت الحكومات العربية حكومة إسرائيل لتعيش إلى جانبها معيشة الجيران ـ فيومئذ تنظر فترى إسرائيل كأنها بلجيكا أخرى أو كأنها ألستر أخرى في المشرق . .» .

وعلينا نحن العرب الطيبين الذين يقبلون الحربة جاراً مقيما في أبدانهم ، أن نفهم ماذا يعني هذا الصهيوني الأريب بالمثل الذي ضربه عن بلجيكا أو عن ألستر دون غيرهما من البلدان .

فبلجيكا حربة في جنب ألمانيا ، وألستر حربة في جنب أيرلندة ، وكلتاهما تقيم في مكانها لأن العدو ملاصق لحدودها .

ومن العدو هنا غير الأمم العربية ؟ ومن المطلوب منه أن يثبت هذه الحربة في جنبه غير الأمم العربية ؟ ومن الذي يقبل هذه الغفلة في ظن هذا الصهيوني وأمثاله غير الأمم العربية ؟

إن غفلة الأمم العربية وخيانتها لنفسها مطلوبتان لراحة إسرائيل وتخفيف متاعبها . فلم لا تتغفل الأمم العربية نفسها باختيارها أو على الرغم منها ؟ ولم لا تخون قضيتها وتبيع حاضرها ومستقبلها إذا كان ذلك لازماً لراحة إسرائيل ، وتخفيف المتاعب عن إسرائيل ؟ عجب لا مثيل له في العجب .

وأقوال تقال ولا يدري قائلوها أن العربي لن يعقل منها غير معنى واحد أوضح امامه من الشمس في ضحاها ، فلولا عداوة جهنمية ـ والعياذ بالله ـ لهذه الأمم العربية لما خطر لهؤلاء الناس أن اللفظ الذي يهذرون به كلام يقال ويجوز على العقول .

إن الأمم العربية يطلب منها أن تعجز باختيارها عن مقاومة إسرائيل في ميدان المعاملات ، ويطلب منها أن تنظر إلى الخنجر في يد صهيون فتفتح له صدرها ، أو تأخذه من يدها لتغمده في تلك الصدور الخاوية .

وكل هذه الأعاجيب التي لا تخطر على البال لو لم تنظر بالأعين وتسمع بالأذان ، إنما هي في الواقع من أعاجيب هذا المخلوق المشوه المتناقض المسمى إسرائيل ، فإن بقاء ه يتوقف على النقيضين ، ولا بقاء لمخلوق يقوم على نقيضين ، ولا بقاء لمخلوق يقوم على نقيضين ، ولا حيلة للعرب في الأمر لأنهم مخيرون بين مقاطعة هذا العدو ، وبين إحيائه بالوسيلة التي لا حياة لها بغيرها ، وهي استغلال البلاد العربية وتوطينها النفس على البقاء إلى الأبد رهينة بذلك الاستغلال ، فإنها لا يكفي منها لابقاء إسرائيل أن ترفع الحصار عنها ، بل يجب على كل أمة عربية بعد ذلك أن تظل مفتقرة إلى الصناعة لتشتري من إسرائيل ولا تشترى من صناعتها ، وأن تظل رخيصة الخامات لتأخذ منها إسرائيل ما تأخذه بالثمن البخس الذي تجود به عليها ، ونكاد نقول : إن العرب لو أرادوا ذلك لما استطاعوا ، ولهذا ينكشف المصير المحتوم أمام الصهيونية في إسرائيل ، مصير يتوقف على المستحيل .

٢٢ _ الاستعمار الصهيوني

حديثنا هنا عن الصهيونية المستعمرة .

واليهودية كلها لم تقم لها دولة في العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرنا ، فلم تكن قطفي عداد المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها ، وإنما كان عملها في الاستعمار أنها تستتر وراءه ، وتمهد له ، وتعتمد عليه في الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب .

ولكنها دخلت في عداد المستعمرين منذ ابتليت فلسطين بتلك العصابة التي تسمى دولة إسرائيل ، فلا وجود لها - ولا يتأتى أن تبقى في الوجود - إلا إذا عاشت على استغلال الشعوب من حولها ،، وليس من حولها شعوب تطمع في استغلالها غير الشعوب العربية .

إننا نسمع عن التوازن بين إسرائيل والعرب ، ونعلم أن هذا التوازن يقضي بحرمان العرب من كل قوة حربية تزيد على قوة إسرائيل ، أي يقضي بحرمان خمسين مليونا أن تزيد قوتهم على قوة مليونين اثنين على أكبر تقدير .

وإذا تساوى العرب وإسرائيل في القوة الحربية _ فمعنى ذلك أن إسرائيل أقوى من العرب جميعاً . لأنها تتصرف في قوة واحدة بارادة واحدة ، ولها بذلك فرصة أسرع على الأقل من فرص العرب مجتمعين .

لكن الواقع أن الموازنة الحربية ليست كل ما هنالك ، وأن الموازنة الحربية لا تهم إسرائيل بمقدار ما تهمها القوة الصناعية والاقتصادية ، وهي التي تجعلها قوة مستعمرة أخطر من جميع المستعمرين ، لأنها لا تعيش بغير الاستعمار ، ولا تجد لها مجالا للاستعمار غير البلاد العربية .

إن الموازنة الحربية لا تهم إسرائيل ، ولا تعتقد هي أن بقاءها متوقف عليها . لأن في العالم أمما كثيرة لم تعتمد على الأسلحة الحربية في البقاء ، وإسرائيل بضفة خاصة تعتقد أن الذين خلقوها سيبادرون إلى نصرتها ومعونتها إذا تعرضت للهزيمة في ميدان القتال ، وقد تعرضت لها قبل بضع سنوات فلم تنج من الهزيمة بفضل سلاحها وجندها ، بل بفضل الدولة المتألبة لحمايتها وخذلان العرب في ميدان القتال ، وفي ميدان السياسة .

فالموازنة الحربية بين إسرائيل والعرب معناها رجحان إسرائيل على العرب مجتمعين _ ولكنها _ أي الموازنة الحربية _ مع ذلك لا تهم إسرائيل كما تهمها قوة الصناعة والاقتصاد ، لأنها تعيش بغير موازنة في السلاح ، ولن تعيش بمواردها زمنا طويلا إلا إذا تفوقت على العرب في ميادين الصناعة والاقتصاد .

إن إسرائيل لن تعيش الا بوسيلة من وسيلتين : فإما أن تظل عالـة علـى التبرعات والمعونة الخارجية بغير انقطاع ، ولا تستطيع دولة أن تعتمد على هذا المورد في تدبير وسائل البقاء الطويل .

والوسيلة الاخرى أن تعيش بمواردها في صناعتها ومرافقها التجارية والاقتصادية ، وليس في استطاعتها ان تعيش بمواردها الصناعية وثروتها الاقتصادية حين يتقدم العرب في الصناعة ، وحين تصبح لهم تجارة تناسب هذا التقدم في إخراج المصنوعات .

إذا عاشت إسرائيل فلا بد لها من الحصول على مواد الخامات بأثمان رخيصة ، وهي لا تحضل على هذه المواد بالثمن الذي تقدر عليه حين تتقدم الصناعة في البلاد العربية ، وحين تصبح مساوية للصناعة الكبرى أو الصناعة الصغرى في إسرائيل . فإن الأمة العربية التي تتقدم في صناعتها تستفيد بخاماتها ، ولا تفرط فيها ليأخذها المنافسون لها في إخراج المصنوعات وبيع السلع ورخص الأثمان .

وإذا أرادت إسرائيل أن تعيش بمصنوعاتها فلا غنى لها عن بيعها في الأسواق القريبة منها .

وإنها إذا أرسلتها ألى الأسواق البعيدة تضاعف ثمنها وعجزت عن منافسة الصناعة الأوربية والأمريكية .

إما إذا أرسلتها إلى الأسواق القريبة فهي أسواق البلاد العربية ، وهي لن تضمن الرواج في هذه الأسواق إلا إذا كانت تلك البلاد العربية بغير صناعة وبغير مصنوعات.

فتعجيز البلاد العربية _ إلى الأبد _ شرط لازم لبقاء إسرائيل معتمدة على مواردها ، غير معتمدة إلى غير نهاية على صدقات المتبرعين ومعونة الحماة والنصراء من الدول الاجنبية .

ينبغي أن تظل البلاد العربية عاجزة عن التقدم الصناعي ، فريسة للمستغلين من الصهيونيين ، لتعيش إسرائيل بثروتها وموارد صناعتها .

ينبغي أن يضرب الحجر الأبدي على بلاد العرب ، فلا تكون لها قوة تزيد على قوة إسرائيل في ميدان القتال ، ولا تكون لها صناعة تعول عليها وتستغني بها عن الصناعة الصهيونية في أيام السلام .

ولا حاجة إلى كشف الأسرار ولا هدم الجدار للنفاذ إلى ما وراءه من الأغراض والأوطار .

فالمسألة بديهية ملموسة لا يختلف فيها قولان ، ولا تقبل التصديق إن اختلف فيها المكابرون والمغالطون .

إذا كان رجحان الصهيونيين في عدة الحرب واجباً متفقاً عليه ، وخطة مقررة في عرف حماة الصهيونية ـ فليس من المعقول أن يسمح للعرب بالرجحان في عدة الصناعة وموارد الشروة والمال ، ولا حاجة إلى قراءة الضمائر الخفية للعلم بالمقاصد المبيتة لبلاد العرب جمعاء ، فلن تقف تلك المقاصد دون تعجيز العرب في ميدان الحياة العصرية ، وتقييد نهضاتهم المقاصد دون تعجيز العرب في ميدان الحياة العصرية ، وتقييد نهضاتهم وبرامج الاصلاح في اوطانهم ـ كلما عملوا على تدبير ثروتهم ، وتوفير مصنوعاتهم ، والانتفاع بخاماتهم ، والاستغناء بها عن السادة المتحكمين ، والسادة المستغلين في امرائيل .

وهذه هي الصهيونية المستعمرة .

وهذا هو الاستعمار الصهيوني الذي لا يدانيه في الخطر استعمار قديم ولا حديث ، لأنه يوصد طريق التقدم ـ من جميع جهاته ـ أمام خمسين مليونا ليستغلهم مليونان ، ولا ينتهي هذا الاستغلال بعد حين قصير أو طويل ، بل يزداد ويتفاقم مع الزمن ، وتتواطأ عليه القوى البارزة والمستترة ، ممن يسمون هذا المسخ الأبدي توازناً في الاستعداد والعدة بين العالم العربي وعصابة صهيون .

ومن خفي عليه الأمر في مبدئه ، فقد برح الخفاء أمام عينيه عاماً بعد عام ، فلا عذر له إن لم يفهم معنى وجود إسرائيل ، وعاقبة وجودها بين العرب على تعاقب الأعوام .

إنها لم توجد لتعيش بمواردها .

إنها لم توجد لتعتمد على نفسها .

ولكنها وجدت لتخنق الحياة العربية من حولها ، وتتقدم وحدها بصناعتها بين بلاد لا صناعة لها ، ولا فائدة لها في العالم الانساني غير امتصاص دمها لإحياء بنية طفيلية شاذة ، تعطيها من فضلات الرزق ما تجود به عليها ، كي تستبقي في عروقها بقية من الدم تمتصه وتعيش عليه .

موازنة في السلاح . .

كلا ! لا موازنة في السلاح إذا تساوت إسرائيل وبلاد العرب في القوة الحربية ، لأن إسرائيل تملك فرصتها منفردة بمشيئتها ، وليست قوة في يد واحدة كقوة موزعة بين الأيدي ، وإن تكن على أتم وفاق .

إلا أن الخطب هين في هذه الموازنة بالقياس إلى موازنة أخرى أهم وألزم لاسرائيل من موازنة السلاح .

إن تعجيز العرب أجمعين عن مجاراة إسرائيل وحدها في ميدان الصناعة والتقدم أفدح خطوب الاستعمار منذ وجد الاستعمار . وهذا هو استعمار الصهيونية الذي يراد ، ولا يستتر فيه المراد . وإن ربك لبالمرصاد .

٢٣ _ الصهيونية والمستقبل

تترجح دويلة إسرائيل بين الكفتين: كفة التمكن والبقاء وكفة التداعي والفناء. وفي كل من الكفتين عواملها وأسبابها. ولكن عاملا واحداً إذا بقي في كفة التداعي والفناء كانت له الغلبة في النهاية لا محالة، وهو عامل المقاومة العربية. أول عوامل التمكن والبقاء هو العامل الطبيعي الذي يسيطر على كل حي في هذا العالم وهو حب البقاء. فالدويلة الصهيونية تحب أن تبقى وتتوسل إلى البقاء بكل وسيلة في مقدورها وميسورها، ومنها وسائل العلم والصناعة ونشر الدعوة في العالم الخارجي، ومنها الدول الكبرى بالمال والسلاح. وفي سبيل البقاء تعمل هذه الدويلة على ري صحراء النقب، ونشر المحلات الزراعية التي ظاهرها حرث وغرث وحصاد، وباطنها حصون ومعاقل استطلاع. وفي سبيل البقاء تستعد بقوة وحصاد، وباطنها حصون ومعاقل استطلاع. وفي سبيل البقاء تستعد بقوة عسكرية أكبر من كل قوة في الأمم الأخرى بالنسبة إلى عدد سكانها، ولكن عشره العوامل كلها تقابلها على الكفة الأخرى عوامل مثلها وأشد منها، وهي عوامل طبيعية غير مصطنعة كمعظم العوامل التي تساعد على بقاء إسرائيل.

إن ثروة إسرائيل مثقلة بالتفاوت الكبير بين صادراتها ووارداتها . . فوارداتها خمسة أضعاف صادراتها ، وما دامت المقاومة العربية محيطة بها من جميع جوانبها فهي مضطرة إلى جلب الخامات من بلاد بعيدة ، وارسال المصنوعات إلى أسواق بعيدة لا تستطيع المزاحمة بتكاليف صناعتها الغالية . وينما عف هذه التكاليف الصناعية أن جماعة « هستدروت » تصر على رفع الأجور ، حتى بلغ أجر العامل في إسرائيل ضعف اجره في البلاد الانجليزية ، ونجمت من ذلك مشكلة داخلية بين العمال المتفسرنجين والعمال الشرقيين اللذين يقنعون بالأجور المعتدلة ، فإن جماعة

«هسندروت» تسعى إلى تقييد الهجرة إلى إسرائيل من البلاد الشرقية منعاً لهذه المزاحمة ، وقد أصبح العمل في الدويلة الصهيونية شبه احتكار للمتفرنجين المترفعين عن إخوانهم في الدين ، وهم يزدادون تشبشاً باحتكارهم كلما أحسوا بانفرادهم في الميدان ، لأن عدد المهاجرين من إسرائيل إلى خارجها يكاد يساوي في الوقت الحاضر عدد المهاجرين من خارج إسرائيل إليها . وقد كانت الزراعة فيما مضى معهودة إلى طوائف الكبوتيين ، وهي طوائف اشتراكية تملك الأرض وتزرعها بالاشتراك بينها في العمل والمعيشة ، فلما فترت الدفعة الأولى من دفعات الحماسة والعصبية قل الاقبال على الملكية المشتركة ، وغلبت عليها طوائف الموشوية ، او طوائف الملكية الفردية ، وبين الفريقين اليوم من التنافس والتناظر ما ينذر الزراعة بأزمة الصناعة ، أو أعسر وأبقى .

ولا ننس الباعث النفساني الذي كان يسوق اليهود إلى فلسطين عقب الحرب العالمية الأولى ، فقد كان باعثاً فعالا يغذيه الأمل من جهة ، ويغذيه الاضطهاد من جهة أخرى ، فلما فتر الأمل وزال اضطهاد النازية والفاشية ـ ضعف الباعث النفساني الذي كان يوماً من الأيام (رأس مال) الحركة كلها ، وأصبح الصهيونيون يستغيثون بأبناء ملتهم ليعودوا إلى تلك الحماسة ، ويتساندوا على التضحية في سبيل القضية العظمى ، فلا يسمعـون لهـذه الاستغاثة صداها الذي تعودوه ، لأن الحماسة المصطنعة لن تغني غناء الحماسة المطبوعة بغير كلفة او تدبير . وقد تقدم أن الاستعداد الحربي في إسرائيل أقوى من كل استعداد في الأمم الأخرى بالنسبة إلى عدد سكانها ، وهذه ضرورة لا محيد لها عنها ، وعبء فادح لا يتأتى لها أن تخفف منه ما دامت البلاد العربية تقاومها وتقاطعها ، فإن حدودها البرية تزيد عن ستمائة ميل لا بد لها من الحراسة الدائمة وخطوط الدفاع المستمرة ، ومهما تصنع من ضروب الحيطة فالأعباء أكبر من الطاقة ، وهي اليوم أعباء تكلفها الكثير وتلجئها إلى نظام من التجنيد ثقيل الوطأة على مواردها البشرية والاقتصادية . فمن الرابعة عشرة ينتظم الذكور في فرقة الشباب إلى الثامنة عشرة ثم يدعى الذكور والاناث في الثامنة عشرة إلى التجنيد للخدمة العامة ، ومنها الخدمة في الطيران ، ويظل النساء بعد انتهاء الخدمة العامة أربع عشرة سنة رديفاً

تحت الطلب ، وتتضاعف هذه المدة بالنسبة للذكور ، فيدعون خلالها شهراً كل سنة للتدريب .

هذا الاستعداد فيه من عوامل الضعف بمقدار ما فيه من عوامل القوة ، وإذا انهزم جيش كهذا في القتال فهي هزيمة الأمة كلها وفناؤها بالعدد والعدة ، وهي نكبة لا يتعرض العرب لمثلها ، لأنهم يزيدون على أربعين مليونا .

ويستطيعون أن يخصصوا للتجنيد جيشاً في عدة إسرائيل كلها برجالها ونسائها وأطفالها ، ثم يخلفوه بغيره وبغيره دون أن يستنفدوا ما عندهم من وسائل المقاومة والثبات .

إن التناقض يضرب بمعوله في كيان إسرائيل من أساسه ، فإنها قد أنشئت لتكون وطناً قومياً لليهود ، فهل هي كذلك الآن ؟ وكيف يمكن أن تكون وطنا قوميا لهم بأي معنى من معانى الوطنية ؟

إنها لا تسع يهود العالم ، ولا يهود العالم يرغبون جميعاً في الانتقال اليها . قد صدف عنها من رحلوا إليها ، وتبين للكثيرين منهم أن مقامهم في الديار الأجنبية أنفع لهم من محاولتهم العقيمة في البلاد التي يزعمون أنها وطنهم المختار . وإذا طال بإسرائيل عمرها وجاء اليوم الذي يتكرر فيه اضطهاد النازية والفاشية فليس من البعيد ان تصد اسرائيل سيول الهجرة اليها كها تصدها الامم الاخرى ، لانها لا تستطيع ان تؤويهم ، بل لا تريد إيواءهم باختيارها ، سواء قصدوا اليها للاقامة الدائمة او للاقامة الموقوتة .

ومع هذا التناقض صعوبات أخرى ، لم يتغلب عليها اليهود قطولن يتغلبوا عليها ، وهي الصعوبات التي تخلقها بينهم شكاستهم المعهودة منذ كانوا قبل أربعة آلاف سنة في جزيرة العرب ، إلى أن أخرجتهم شكاستهم منها ، ثم أخرجتهم من العراق ، ثم أخرجتهم من كنعان ، ثم أخرجتهم من مصر ، ثم أخرجتهم من فلسطين ، ثم عرضتهم للعدوان والبغضاء في كل وطن ثم أخرجتهم من فلسطين ، ثم عرضتهم للعدوان والبغضاء في كل وطن وبين كل أمة . ولولا أن الخطب في المرحلة الأخيرة أكبر من طاقتهم لظهرت شكاستهم هذه على عادتها بين طوائفهم المختلفة التي برزت حتى الآن في الدويلة الصغيرة ، وعندهم منها حزب الرجعة وحزب الفرنجة ، وعندهم منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعندهم منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعندهم منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعندهم منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعنده منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعنده منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعنده منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعنده منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم وعنده منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم ومنها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم ومنها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم والمناون والغربيون ، وليونه وليونه والغربيون ، وليونه وليونه والغربيون ، وليونه والغرب والغربيون ، وليونه والغربيون ، والشروعيون ، والشروعيون ، والشروعيون ، والشروعيون والغربيون ، وليونه والغربيون ، والشروعيون ، ول

على الرغم منهم . أن يخلقوا للشكاسة أسبابا لا تخطر على بالهم ولا على بال أحد . فلن يزالوا كما وصفهم القرآن الكريم مع حلفائهم « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » لأنهم لا يعقلون .

وتعود بنا صفتهم بأنهم لا يعتلون إلى وهم شاع عنهم بين من يعتقدون أنهم شعب ممتاز بالذكاء والنبوغ ، وقد عرضنا لهذا الوهم مرة ، ورجعنا إلى حقيقته فكانت الحقيقة أنهم عالة على ثقافات الأمم . فإن فضل كل أمة راجع إلى ثقافاتها التي أنشأتها ، ولكنهم هم يعيشون بين كل أمة ويأخذون من كل ثقافة ، وإذا نظرنا إلى النجاح في عالم المال فلا امتياز فيه لليهود على طائفة أخرى تنتفع بالفرصة التي ينتفعون بها ، وشاهدنا على ذلك عدد الأثرياء في مصر بين طوائف الأرمن والاغريق وأمثالهم من أمم البحر الأبيض المتوسط . فانهم قد يزيدون على أثرياء اليهود او يساوونهم في العدد وقديزيدون عليهمكذلك أو يساوونهم في مقدار الثراء وتنوع مصادر الاثراء ، وقلما يرجع نجاح الاغريقي أو الأرمني إلى تضامن بينه وبين أبناء جلدته كما يتضامن يهود العالم .

وعلينا - بعد - أن نقدرهم ونسبر غورهم ، ولكن بالمقياس الضحيح الذي لا مبالغة فيه من ناحية القوة ، ولا من ناحية الضعف ، ولنذكر أسباب بقائهم في دويلتهم كما نذكر أسباب تداعيهم وانحلالهم ، ولا ننس أن الدول الكبرى تعينهم تعصباً على الاسلام والعرب وإن لم يكن تعصباً لهم ، ولكن البنية لا تستمد الحياة من معونة غيرها إن لم يكن فيها قوام الحياة ، ولن تحيا إسرائيل إذا بفيت مقاومة العرب راصدة لها في كفة انحلالها وفنائها ولو دامت لها معونة الثقلين ، وهي لا تدوم . .

٢٤ ـ الصهيونية العالميةفي الختام

شركة تبحث عن رأس مالها القديم ، فتعلم أن الكثير منه قد تبدد ، وأن ما بقي منه يوشك أن يضيع .

تلك هي الصهيونية في العصر الحاضر ، أو في المرحلة المتوسطة بين ماض عاشت فيه على استغلال الاضطهاد واللعب بأعمال الصيرفة والمضاربات وتسخير الطوابير الخامسة في المؤامرات الخفية ، وبين مستقبل يجور على كل حصة من هذه الحصص التي تجمع منها رأس مالها ، ويوشك أن يكشف حسابها جميعاً ، إن لم يأت على بقية منها بعد بقية ، وعلى رصيد منها بعد رصيد .

فكل ما بحثوا فيه من أمر المصير وأشرنا إليه في الفصول انسابقة . .

وكل ما يعلنونه أو يسرونه اليوم من الشكايات الحقة أو الشكايات المفتعلة ، فإنما هو بحث عن رأس المال المهدد بالضياع .

قيل إن الصهيونيين الانجليز اتصلوا بالوفد الروسي المسيحي ، في العاصمة الانجليزية ، وبحثوا معه في أحوال اليهود المقيمين بالبلاد الروسية .

وقيل إن عمال اليهود الأمريكيين طلبوا من الرئيس أيزنهاور أن يفاتح مندوبي الروس إلى مؤتمر « جنيف » في أمر السماح لليهود الروسيين بالهجرة إلى إسرائيل .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان أصحاب هذه المباحث وهذه المطالب

يقصدون إلى الدعاية ، ولا يقصدون إلى الجد فيما يذيعونه من شكايات اليهود الروسيين واقناع الحكومة الروسية بالترخيص لهم في الهجرة إلى إسرائيل .

فليس من اليسير أن تعترف حكومة « الكرملين » على نفسها باضطهاد رعاياها وهي تذهب إلى جنيف لاعلان مناياها الحكومية ورعايتها لحقوق المحكومين .

وليس من اليسير إذا اعترفت حكومة الكرملين باضطهاد اليهود أن ينتقل خمسهم ولا عشرهم إلى إسرائيل ، وعدة اليهود في روسيا تزيد على خمسة ملايين .

وليس من اليسير أن تستوعبهم إسرائيل وهي تضيق بمن فيها وتتوالى الأنباء بعزم الكثيرين منهم على العودة من حيث أتوا ، وتردد الكثيرين منهم في التحول من جنسيتهم إلى جنسية إسرائيل .

وإنما هي بضاعة الاضطهاد يشعرون بالحاجة إلى استغلالها في الآونة الحاضرة ، لأن رصيدهم القديم منها يقارب النفاد .

كانوا يستغلون اضطهاد النازيين اليهود في البلاد الالمانية ، وكان لهم مكتب في برلين يتواطأ مع النازيين على تنظيم الاضطهاد وتنظيم الهجرة من جرائه إلى إسرائيل ، وكان لهم رئيسان معروفان يديران ذلك المكتب لحساب الصهيونية العالمية ، وهما ـ كما ذكر في فصل سابق ـ رئيس يدعي بينو ورئيس يدعى بارجلعاد .

ولا يعنينا هنا أن الاضطهاد يقع أو لا يقع ، ولا يعنينا أنه يروى على حقيقته أو يروى مبالغاً فيه ، ولكن الواقع في جميع الأحوال انه بضاعة نفسية تستغلها الصهيونية العالمية ، وتمزج فيها بين استغلال العطف الانسانبي واستغلال الخوف من الأعداء .

فالنازية كانت العدو المخيف لأمم الغرب قبل منتصف القرن العشرين ، فمن الأرباح النافعة التي تستفيدها الصهيونية العالمية أن تثير العطف على ضحاياهنا وأن تثير البغضاء على العدو المخيف ، وأن تكون ضحية

الاعداء الألداء التي تستحق العون من الساخطين على النازية ، والمتوجسين من مطامع النازيين .

والشيوعية اليوم هي العدو المخيف لأمم الغرب التي كانت بالأمس تحارب النازية في ميدان السياسة وميدان القتال .

فالصهيونيون إذن هم ضحايا الاضطهاد في بلاد الشيوعية ، ومن الواجب أن تثار الدعاية حول هذا الاضطهاد في هذه الآونة على التخصيص ، لأن فضائح الجاسوسية في الولايات المتحدة قد كشفت عن علاقة وثيقة بين اللجواسيس الصهيونيين وبين الدولة الحمراء ، وقد ذكرت الأمريكيين بأن الشيوعية كلها قامت قبل أربعين سنة على أيدي العشرات من دعاة صهيون .

رأس مال يتجدد لأنه قارب على النفاد ، ودليل جديد على أن الصهيونية العالمية تعيش اليوم على رأس مال مهدد بالضياع .

ويصيح سفير إسرائيل في الولايات المتحدة محتجا على تفتيش السفن التي تعبر قناة السويس إلى إسرائيل ، ومتعجباً من إصرار العرب على مقاطعة الدويلة التي محسب أنها شوكة في جنوب الأمم العربية ، ومنكراً على هذه الأمم أنها - كما يزعم - تبني الآمال الكبار على خذلان أمريكا للصهيونيين ، ومؤكداً أن الحوادث العارضة لن تكدر صفو العلاقة الأمريكية الصهيونية ، وأن آيات الصداقة والحب لا تنقطع في الوقت الحاضر ولا في وقت من الأوقات .

رأس مال آخر مهدد بالضياع .

وكلام لا تثبت منه إلا حقيقة واحدة ، وهي أن إسرائيل محرومة من عوامل البقاء بغير المعونة الأمريكية ، وأن الأمم العربية تعرف ذلك كما يعرف الصهيونيون .

فالمطلوب على هذا من الأمم العربية أن تعدل عن المقاطعة ، لأن معونة أمريكا لاسرائيل باقية ، ومقاطعة العرب في هذه الحالة لا تفيد .

وينسى السياسي الصهيوني أن هذه الصفحة يمكن أن تقلب عليه أو أنها قد

تقرأ من اليمين إلى الشمال كما تقرأ من الشمال إلى اليمين.

قد يقال مثلا: إن أمريكا ستعلم أن مقاطعة العرب دائمة ، وأن معونتها لاسرائيل في هذه الحالة لا تفيد .

وقد يقال مثلا إن عداوة العرب والعالم الاسلامي كله مشكلة خطيرة في السياسة الدولية ، وأن عداوة الصهيونية لأمريكا لن تكون مشكلة خطيرة يحفل بها الشعب الأمريكي أو الدولة الأمريكية . لأن الصهيونية عالة على القوم لا قبل لها بمحاربهم كما كانت تحارب البريطان والألمان .

والمسألة في جوهرها أكبر من مسألة الخلاف الحاضر بين العرب وإسرائيل .

فإنما هي مسألة الموازنة بين نتيجتين لا معدى عن إحداهما على تعاقب الأيام .

فإما أن تذهب إسرائيل من حيث أتت ، وإما أن تبقى الأمم العربية فريسة لاسرائيل تأكل من لحمها ودمها وتحول بينها وبين التقدم ، لكي تأمن مزاحمتها اليوم وغداً وإلى آخر الزمان في ميدان الصناعة والتجارة والارتقاء على الاجمال .

وذهاب إسرائيل من حيث أتت أهون النتيجتين وأدناهما إلى المعقول . وذهابها من حيث أتت نتيجة محتومة في مصير صهيون .

إن صهيون عاشت من قبل على طوابيرها الخامسة في جميع الأقطار، وليس من طبيعة الطوابير الخامسة أن تعمر طويلا إذا تفتحت عليها الأنظار.

إن صهيون عاشت من قبل على اللعب من وراء الستار بأعمال الصيرفة وأسواق المضاربات ، وليس في مقدورها اليوم أن تعيش بهذا اللعب المكشوف ، لأن شؤون الثروة ترتبط في العصر الحاضر بأطوار الاجتماع وثورات الأمم وحقوق الطوائف والطبقات ، ولا يسهل العبث بها وراء الأبواب وبين الجدران .

إن صهيون قد عاشت من قبل بالبضاعة التي تسميها « الاضطهاد » وتتجر

بها بين اليهود وغير اليهود ، فإذا وقع الاضطهاد في العصر الحاضر فهو مشكلة لدويلة إسرائيل قبل أن يكون مشكلة للدول التي تضطهد اليهود ، أو تحاول إنقاذهم من الاضطهاد .

فإذا هي فتحت أبوابها للمضطهدين فهي مختنقة بالزحام ، عاجزة عن إيواء المزدحمين على الأبواب .

وإذا هي أغلقت بابا من تلك الأبواب فقد هدمت دعواها بيديها ، وبذرت بذور الفتنة بين رعاياها وبين اللاجئين إليها والمقيمين في غير بلادها .

وسيأتي اليوم الذي يعلم فيه الصهيونيون ـ كما يعلم غير الصهيونيين ـ أن قيام إسرائيل نكبة عليهم ونكسة بهم إلى عزلتهم الأولى وعصبيتهم الباطلة التي يعاديهم الناس من أجلها ويعادون من أجلها كل إنسان لا يحسبونه من خلق الله المرضى عنهم ولا يدخلونه في عداد « شعب الله المختار ».

ومتى وقفت صهيون في جانب من عزلتها وعصبيتها ، ووقف العالم كله على سعته في جانب الحذر منها ـ فذلك هو المصير الذي لا مراء فيه ، وذلك هو الختام .*

عباس محمود العقاد

تعقيب

برتوكولات حكماء صهيون

يشاء الله أن نلتقي في « تعقيب » بعد الفراغ من قراءة فصول « الصهيونية العالمية » لأستاذنا العقاد كما التقينا في « بداءة » قبلها ، وهذا فضل آخر يسديه الينا الأستاذ الجليل ، وإنا لنتلقى فضله بما هو أهله من الغبطة والشكر .

وقد رثي أن يكون « التعقيب » تلخيص كتاب خطير أشار إليه الأستاذ العقاد في مستهل الفصل الرابع هنا ، وما هو بغريب عن « الصهيونية العالمية » موضوع هذه الفصول ولا هو بضعيف القرابة منها ، بل هو من صميم موضوعها ، وإنه ليتناولها من الوجهة التي تتناولها منها هذه الفصول ، فالكتاب يتضمن مجموعة من الوثائق السرية كتبت في أخريات القرن الماضي ، وطبعت لأول مرة في روسيا سنة ٢٠١١ ، ثم انتشرت ترجماتها في سائر الأقطار الاوربية بلغات عدة ، ولوحظ كما أشار الأستاذ - « أنها لا تظهر في لغة من اللغات الا اختفت على أثر ذلك ، وأنها تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد » وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور ، لأنه يفضح مؤامرة من مؤامرات « الصهيونية العالمية » .

ونضيف اليها ملاحظة اخرى للمؤرخ المعاصر الاستاذ دجلاس ريد Douglas Reed في كتابه فن الحركات السرية في العصر الحاضر ، هي انه لم يجرؤ طابع ولا ناشر في أوربا وأمريكا على طبع هذه الوثائق منذ سنة يملى 19۲۱ ، وذلك أمر بالغ في دلالته على سعة نفوذ « الصهيونية العالمية » على

وسائل الطبع والنشر هناك ، لأن هذه الوثائق تفضح مؤامرة اليهود لغز و العالم والتسلط على حكمه وخيراته ، وهم حريصون على ان تبقى مؤامرتهم نافذة دون أن يفطن إليها احد غيرهم ، بل دون أن يلمحها أحد بينهم عدا أكابر زعمائهم الذين يشاركون في تدبيرها وتنفيذها في الخفاء ، فهكذا قدر واللوثائق ، وهكذا يصادر ونها في كل مكان .

1- عنوان الوثائسة « بروتوكولات حكماء صهيون Protocols of Ther المحاء صهيون المخلفة المخلوبة عنوان اخر Learned Elders of Zion وقد اضيف اليه في الترجمة الانجليزية عنوان اخر تستحقه هو « الخطر اليهودي » Jewish Peril وجهذين العنوانين معاً سمينا ترجمتنا ، وهي اول ترجمة كاملة لها بالعربية ، والعنوان الاول هو الاشهر في مختلف اللغات .

Y - معنى بروتوكولات هنا محاضر جلسات ، وهذه التسمية لا تطابق محتويات الوثائق تماماً ، فإنها ليست بالضبط محاضر جلسات بل تقريراً مسهباً وضعه زعيم قوي النفوذ في مؤتمر يهودي سري فحاز الموافقة ، وقد قسمه أقساماً لا تطرد اطراداً منطقياً على الدوام ، ورسم فيه خطط مؤامرة يهوديه جهنمية تنتظم جميع العالم وتمتد إلى مختلف نواحي نشاطه ، وتسعى إلى تنغيص أمنه ورغده ، حتى يتم اخضاعه لليهود ، وقراءة البروتوكولات تشعرنا بأنها جزء من مؤامرة أخرى أخطر وأوسع ، وإذا كانت هذه المؤامرة الأخرى لم تنكشف حتى اليوم فإنها تعبر عن نفسها في هذا الجزء تعبيراً قوياً .

٣-وإذا تأملنا محتوياتها بدت كأنها حقائق مسلمة مألوفة كثيراً أو قليلا ، وإن عبر عنها بحدة وبغضاء لا تصاحبان في العادة الحقائق المألوفة ، فبين سطورها تتأجج بغضاء دينية عنصرية متغطرسة عميقة الجذور ، قد خبئت بنجاح أمداً طويلا ، وإن كانت في الواقع لتجيش وتفيض من إناء طافح بالنقمة والسخط ، مدرك تمام الادراك أن نصره النهائي أقرب .

٤ - تسعى المؤامرة لزعزعة كل مقومات المجتمع الحاضر ونظمه ، وتركز طليعة ضرباتها وأعنفها على الأمم المسيحية ، لأن المسيحيين أوسع الأديان انتشاراً ، وأممها أقوى الأمم وأوسعها نفوذاً ، ولها الزعامة والتوجيه

العالمي ، وإذا أمكن القضاء عليها كانت هزيمة بقية الأمم والأديان أيسر وأسرع ، ولا تبقى حينئذ الا الديانة والقومية اليهودية ، ولا بد لذلك من تسلط اليهود على الأمميين أو الجوييم .

٥ ـ هدف المؤامرة تمكين اليهود من الاستئثار بحكم العالم وثمراته ، لأنهم شعب الله المختار لزعامة الجنس البشري ، فما خلق العالم إلا ليكونوا هم سادته وأوصياءه ، ومن حقهم وحدهم استعباده وستخيره بكل الوسائل ، واحتكار كل سلطة ومنفعة فيه ، وليس لمن عداهم من الأمم إلا السمع والطاعة ، واحتمال الخسف والهوان ، والرضا بأحط الأعمال ، والقناعة بما يجود به اليهود من فضلات الرزق .

٣- تتحقق سيادة اليهود على الأمميين بأقامة مملكة يهودية استبدادية تحكم العالم كله ، يكون مقرها أورشليم (القدس) أولا ، ثم تستقر في رومة الى الأبد ، ويتعاقب على عرشها حكام من ذرية ملكهم ومسيحهم داود ، وكل حاكم من هؤلاء يربى تربية خاصة على أيدي زمرة مختارة من حكماء صهيون ، ولا يصل إلى العرش إلا إذا اجتمعت له كفايات خاصة ، فإذا توج كانت ذاته مقدسة لا تمس .

لأنه سيكون بطريرك العالم وملكه معاً ، وسيكون مستشاره طائفة من أعظم الساسة الموهوبين ، ولا يجوز له ان يملك شيئاً خاصاً به ، لأنه وحده يملك كل شيء في العالم ويتصرف فيه كما يشاء .

٧- ترى المؤامرة ان جميع نظم الحكم الحاضرة فاسدة ، ومن واجبها زيادة افسادها في تدرج حتى تسقط في الوقت المناسب لقيام المملكة اليهودية العالمية لا قبله ولا بعده ، وان الأخيار بين الناس قلة نادرة ، وسائرهم أشرار ، فالقوة وحدها هي الوسيلة الناجحة في السياسة ، وأن حقوق الشعوب افكار لخداعها لا حقائق تقبل التنفيذ ، وأن السياسة ليست من عمل الشعوب ولا عمل العباقرة الذين لم يخلقوا لها من الأمميين ، وإنما السياسة أو الحكم صناعة سرية سامية مقدسة لا يحسنها الا نخبة ممتبازة موهوبة من اليهود ، دربوا عليها تدريباً تقليدياً ، وكشفت لهم أسرارها التي

⁽١) يسمي اليهود من عداهم (الجويسم) ومعناها الكفرة والانجاس والوثنيين والبهائم .

 ⁽ ۲) بلاحظ انها عاصمة الرومان قديماً والكثلكة حديثاً .

استنبطها حكماء صهيون من تجارب التاريخ وعبره خلال قرون طويلة ، وهم يتناقلونها في الخفاء ، وعليها يربون ملوكهم ومن يحيطون بهم من المستشارين .

٨- ترى أنه ينبغي أن يساس الناس كما تساس قطعان البهائم بل الوحوش أي بالعنف : وأن كل الأمميين حتى الزعماء الممتازين فيهم إنما هم قطع شطرنج في أيدي اليهود ، ومن اليسير إغراؤهم وتسخيرهم بالارهاب أو الرشوة . . . ، وان قيام حكومتهم العالمية يجب أن يسبقه تمزيق الأوطان والقوميات ، وهدم الأديان ولا سيما المسيحية ، وافساد أنظمة الحكم في كل الأقطار وإزالة الحكومات ولا سيما الملكية ، وأن يتوسل لذلك بشتى الوسائل المناسبة : ومنها إغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب ، وإغراء الشعوب بالتمرد على سلطة الحكام والقوانين والعرف والتقاليد ، وذلك بنشر مبادىء الحرية والمساواة ونحوها مع تفسيرها تفسيراً خاصاً يؤذي وذلك بنشر مبادىء الحرية والمساواة ونحوها مع تفسيرها تفسيراً خاصاً يؤذي مستمر للأخرى . وتوجس وخوف دائم منها . . ومن هذه الوسائل إفساد حكام الشعوب وزعمائها . والتسلط عليهم ، ومحاربة كل نبوغ يظهر بين حنووها . بل القتل في الخفاء إذا لم تنجح وسيلة غيره .

9 ـ ترى أنه ينبغي لها إثارة حروب عالمية وأهلية بالقاء بذور الخلاف والبغضاء بين الأمم عن طريق الجماعات والأندية السرية والعلنية من كل لون . ومنها السياسية والدينية والفنية الثقافية والرياضية . . والمحافل الماسونية وغيرها ونقل الدول من حالة التسامح إلى التطرف الديني و السياسي فالاشتراكية فالاباحية فالفوضوية ، مع استحالة تطبيق مبادىء الحرية والمساراة ، وكل هذا مع المحافظة على وحدة الأمة اليهودية ، وحمايتها من كل التعاليم والاتجاهات الضارة . ويلاحظ في الحروب أن تكون ضارة بالغالب والمغلوب ، وألا تعقب تغييرات اقليمية حتى يستمر النزاع الاقتصادى بين المعسكرات المتناحرة ، ولا يستفيد من ذلك إلا اليهود الذين يتاجرون مع المعسكرات جميعاً ، ويساعدونها على الاستمرار في الحروب حتى تخر لاهثة منزوفة الغوة .

1. ينبغي لليهود - لأنهم المحتكرون للذهب - أن يسيطروا على كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والمعاهد الثقافية والمسارح وشركات السينما ودورها ، وعلى العلوم والقوانين والمضاربات وغيرها في كل أقطار العالم ، وإن الذهب الذي يحتكرونه هو أمضى الأسلحة لاثارة الرأي العام والاضر ابات والانقلابات وافساد الشبان ، والقضاء على الأحلاق وفضح مساوىء الأديان والقوميات ونظام الأسرة وسائر القيم الانسانية ، وإغراء الناس بالشهوات واشاعة الخلاعة والانحلال حتى تستنزف قوى الامميين فلا يجدوا مفراً من أن يركعوا تحت أقدام اليهود ، ويجب أن يكون لهم وكلاء وأنصار بين كل الهيئات والطبقات من أكبر الملوك والزعماء والبرلمانيين في قمة القيادة إلى أحط المربيات والخدم في البيوت والأندية للتجسس على الأسرار ومعاونة اليهود على تنفيذ ما يريدون ، ويختار الوكلاء من ذوي المخازي التي لا يعرفها الا اليهود ، فيظلون خاضعين لسلطان الخوف من المتشهر .

11 - ترى أنه ينبغي وضع أسس الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود ، لا على اساس قوة العمل والثرو ات الأخرى ، مع إحداث الأزمات العالمية على الدوام ، عن طريق استطلاع أسرار الحكومات والهيئات المالية والمضاربات في المصافق حتى يحيط الخراب بالجماعات والأمم ، فتضطر إلى الاستعانة باليهود لانقاذها من عثراتها ، وترضى بسلطانهم العالمي صاغرة مغتبطة .

17 ـ نشر الاشاعات المتناقضة ، وترويج المذاهب والنظريات المبهرجة المتضاربة عن طريق الصحافة والكتيبات واستغلال الأسماء الضخمة ، في كل مجالات النشاط الانساني ولا سيما المجالات الفكرية ، حتى تسلط الفوضى على العقول ، وتختلط عليها الأفكار ، فلا تميز خطأ من صواب ، وتغرق في بحران من البلبلة والاضطرابات ، وتعمى عليها الاتجاهات فتصاب بالمسخ والعقم ، فإما أن تشل ارادتها فتصوت ، وإما أن تطلب الخلاص من محنتها ، ولن تجده إلا في الخضوع المطلق للاستبداد اليهودي العالمي ، وإذا شعرت أمة بالدوار فعلى اليهود خنقها قبل أن تستعيد أنفاسها ، ثم استعبادها الى الأبد بأعنف الوسائل .

17 ـ اليهود شعب الله المختار مشتتون في كل أقطار العالم ، وهذا التشتيت ضعف في ظاهره ، ولكنه في الحق مصدر قوتهم العظمى ، وهو الذي وصل بهم إلى أعتاب السلطة العالمية ، فمن خلال تشتتهم تمكنوا من أن يتسللوا الى كل جهاز في كيان الأمم ، ويمتصوا دماءها ، ويتعاونوا متفرقين على تسخيرها واستنزاف قواها ، ولن تتمكن أمة من التخلص منهم مهما قاست من شرورهم إلا بالقضاء على كيانها كله في الوقت نفسه ، وهذا ما يجعل الأمم حريصة على رضاهم طوعاً وكرهاً .

١٤ ـ ينبغي لليهود توطيد سلطانهم في أوربا اولا . فإذا تمردت عليهم فلهم أن يؤدبوها بأمريكا أو الصين واليابان . ولهذا يجب أن يكون نفوذهم في هذه البلاد قويا مرهوباً .

هذه بعض مضامين البروتوكولات ولا أدعي انها خلاصة لها ، وإذا كان هناك موجب للاعتذار عمن اختارني لهذا التلخيص فبعض معاذيره أني كنت المترجم الوحيد للبروتوكولات كاملة إلى العربية ، وأعترف بأني هممت أن أعتذر عن التعقيب بتلخيصها مع معرفتي بفضله وتقديري إياه قدره ، ولكني لم أفعل ، ولعله خير ، ومما جعلني أهم بالاعتذار أني أضيق بكل خلاصة لا تغني عن أصلها ، والبروتوكولات من هذا الطراز ، وحسبنا هنا الاشارة إلى أنني حين ترجمتها قد اضطررت كي أقربها إلى أذهان قرائها بالعربية إلى أن أضيف إليها مقدمة وهوامش عدة في معظم الصفحات ، فجاءت الاضافة أطول من النص كله ، وهذا مع الحرص على تجنب الفضول محافظة على أماسكها مسلسلة .

وآفة الخلاصات أنها تغل العقل ، وتمنعه الاستقلال والاجتهاد ، وتحرمه متعة الجهد ومنفعته ، والجهد في رأيي اساس الاجتهاد لغة وعملا ، فمن لم يجهد لم يجتهد ، ومن حرم الاجتهاد حرم فرديته وخسر نفسه . وقد أصل هذه العادة في نفسي كثرة قراءاتي وتنوعها بين المطولات وخلاصاتها بأمهر الأقلام . حتى صرت لا أكتفي بأمهر الخلاصات لأي تأليف ما اتسع عقلي ومالي ووقتي لاستيعاب الأصل بكل دقائقه ، وقد دلتني تجاربي على أني كنت الأربح في كل حال ، وزاد هذه العادة تأصلا في أغوار نفسي كثرة

تجاربي وتنوعها خلال اشتغالى الطويل بالتعليم ولا سيما تعليم الأدب وأطيافه من جوهر كالنور. غاية في المخفاء والظهور فقد تكون الدقائق أعون على الفهم من الجلائل حتى صرت اعتند أنه لا سبيل بغير الالمام بالدفائق في كل ما له اتصال بالنفس الانسانية _ الى تصور حقيقة أو ظاهرة نفسية ، وفهمها وتذوقها والحكم عليها حكماً صواباً أو فريباً من الصواب. إلا أن يكون الأمر رمية من غير رام ، وقد يصيب غير الرماة ويخطىء الرماة ولكن هذا ليس بحجة على تعلم الرمي بل هو من موجباته . وإني لأومن إيمانا راسخاً عميقاً بأن أطول المسافات في المعرفة وقراءة الكتب المحكمة هي أقصر المسافات وهذا نقيض ما يبدو للنظرة العاجلة أو السطحية ، وأرى أن العقاد كان حكيماً ملهماً يقرر حقيقة علمية واقعية ، لا شاعراً يفيض خياله بصورة شعرية فحسب _ حين قال :

ليست خلاصة كل شيء غنية

عنه ، وإن كانت خلاصة ماهر

فالشهد _ وهو خلاصة الأزهار لا

يغنى العيون عن الربيع الزاهر

وبهذا الاعتذار الذي لم أجد مناصاً من الاستطراد اليه في هذه « الرسالة الأخوية » مصارحاً إياك بما أصارح به نفسي كما تقضي الأخوة ـ استودعك الله متمنياً لك خير ما يتمنى خلصاء الأخوة من البدء إلى الختام .

محمد خليفة التونسي

عناسخنه

النازية وَالأديات

دارالكتاباللبناني ـ بيروت

النازية والاديان

هذه سلسلة من ثلاث محاضرات اذاعها من محطة الاذاعة المصرية الكاتب الكبير والنائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد ، وقال في مستهلها ان الذي اوحى اليه باذاعتها قراءته رسالة لطيفة الحجم عنوانها « الاسلام والنازية » للدكتور فؤ اد حسنين على مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية .

والاستاذ العقاد اذا تناول موضوعا قتله بحثا واستقصاء وألم به جملة وتفصيلا ، ودعم رأيه باسانيد قوية تحمل القارىء على قبولها في غير تردد . والاستاذ موفق دائما من هذه الناحية اكبر التوفيق . وفي المحاضرات الثلاث التي تطالع القارىء في هذه الكراسة الصغيرة الحجم ، مثل رائع على المام الاستاذ العقاد بالموضوع الذي يتناوله بالبحث المام المدقق الخبير ، وعلى وضوحه في بيان ما يقصد الى بيانه للناس ، وعلى قوة تدليله وسلامة منطقة .

خص الاستاذ العقاد المحاضرة الآولى بالكلام في نظرة النازي الى الأديان عموما فكان قوى الحجة فيا بين من أن القوم يعالجون الدين كما يعالجون قوة سياسية تحول بينهم وبين اغراضهم فالمسألة عندهم « ليست مسألة فلسفة ولا بحث عن الحقائق العليا في الوجود وليست مسألة آراء تثبت على التمحيص والاستقرار كما يريدون أن يوهموا اتباعهم المخدوعين »

وكان أول دليل قدمه الاستاذ العقاد على هذه الحقيقة هو من عمل هتلر نفسه ، فهو عندما كان يرى أن نجاحه السياسي متوقف على التزلف للاديان تزلف اللاديان ، ذلك أن انصار هتلر كانوا يرشحونه منافسا في زعامة الحركة النازية للقائد الكبير لدندورف وكان هذا القائد مكروها لدى رجال الدين لما اشتهر به من التطرف في الالحاد ، لهذا لم يتردد هتلر في ان يقول في كتابه «كفاحي » ان الحركة النازية لا ترمي الى القيام بدعوة اصلاح أو انقلاب في الدين ، ولكنها

ترمي الى اعادة تنظيم شعبنا من الوجهة السياسية وتنظر الى المذهبين الدينيين معا . (البر وتستانية والكاثوليكية) نظرتها الى ركنين قيمين ينبنى عليهما وجود شعبنا . ومن ثم تشهر الحرب على جميع تلك الاحزاب التي تغض من شأن هذا الاساس الذي تستقر عليه أخلاق الشعب وعقائده .

هذا ما كان يقوله هتلر قبل ان تقبض النازية على عنان الدولة فلما قبضوا عليه اصبح الاساس الذي كانوا يقولون ان اخلاق الامة وعقائدها قائمة عليه خطرا شديدا ينبغي ان يزول .

والواقع ان القوم بعد أن زال الخطر الذي كانوا يخشونه على زعيمهم من منافسه القوى ، بدأوا يتوقعون الخطر الشديد يجيئهم من ناحية العقائد المدينية التي تتناقض التناقض التام مع تعاليم النازية القائمة على القوة الوحشية والتجرد من جميع العواطف الانسانية .

بمثل هذا التدليل القوى الرزين يقدم الاستاذ العقاد آراءه الى الناس فلا تلبث ان تدخل الى عقولهم في غير استئذان .

وتكلم الاستاذ العقاد في المحاضرة الثانية على النازية والمسيحية فبين بطريقته المنطقية و الواضحة العوامل التي يلاحظها النازي في كره المسيحية فحصرها في ثلاث نقط: موقفهم من صاحب الرسالة المسيحية وموقفهم من الآداب التي جاء بها الدين المسيحي ومن الأخلاق التي بشر بها السيد المسيح وتابعوه الى هذا الزمان.

وبين الاستاذ ان سبب بغض النازية السيد المسيح انه منسوب الى السلالة السامية وهم يشهرون بالساميين ويجردونهم من جميع الفضائل ، فلا يستقيم في المنطق ان يشهروا بالسامية وان يدينوا بدين جاء به رسول من سلالة الساميين . وقد أشار الاستاذ الى ان بعض الكتاب الذين لم يعيبوا المسيحة ذهبوا في تبرير موقفهم الى الزعم بان السيد المسيح من سلالة آرية .

وعلل الاستاذكره النازيين الكنيسة بانهم يريدون ان يخضعوها لنفوذهم واطهاعهم وهي تأبى عليهم ذلك لآن لها اتباعا من الأمم الأخرى ولا ضهان لديها على بقاء النازية . ولو ان الكنيسة خضعت للنازية ونفذت اغراضها لما اعلنت عليها الحرب ولاستعملت اداة للطغيان كغيرها من الادوات.

وعلل الاستاذ العقاد كراهة النازيين الآداب التي جاء بها السيد المسيح والاخلاق التي أوصى بها بان اخص هذه الاخلاق هي الرحمة والحكم النازي قائم على القسوة والوحشية . ولا يطيق النازيون الرحمة لانهم يأمرون ناشئتهم وزعانفهم بقتل الخصوم جزافا بغير حساب

ومن الادلة القوية التي برهن بها الاستاذ العقاد على هذه الحقيقة انه لما كان سير نيفل هندرسون سفيرا لبريطانيا في برلين القى خطابا في الجهاعة الجرمانية الانجليزية التي انشئت اذ ذاك لتحسين العلاقات السياسية بين الدولتين ، فنشرت الصحف الالمانية خطابه برمته في اليوم الثاني الا مقطوعة واحدة من قصيدة اميركية راجت ايام المعركة الانتخابية التي حمى وطيسها في أيام الرئيس ولسون وهي المقطوعة التي يقول فيها الشاعر على لسان احدى الأمهات :

« من ذا الذي يضع البندقية على كتف وليدي ليقتل بها عزيز ام غيري ؟ » فقد حذف الرقيب هذه القطعة ، وظهر من أسباب حذفها أن النازيين يخشون الرحمة خشيتهم العدو المبين .

اليس هذه دليلا قاطعا حقا على أن النازيين قوم وحشية قلوبهم وانهم أعمداء الرحمة الالداء .

وبمثل هذا التدليل المستقيم دلل الاستاذ العقاد في محاضرته الثالثة على العوامل التي تدفع النازيين لكره الاسلام ومقته اشد المقت . اذ الاسلام عندهم لا يعدو ان يكون ثمرة من ثمرات السلالة السامية التي يشهرون بها وينكرون فضائلها ، واذا كانوا قد انكروا المسيحية التي هي دين وطنهم ـ لانهم نسبوها الى المصادر السامية ـ فالاسلام اولى بانكارهم لهذا السبب قبل غيره من الاسباب .

وفي الجملة قد حوت هذه المحاضرات الثلاث من الادلة على كره النازية الاديان ما لا سبيل الى التشكيك فيه . فهي على صغر حجمها رسالة وافية بالغرض الذي وضعت له . كفيلة بانارة الطريق امام اعين هؤ لاء الذين تخدعهم الدعاوة النازية باكاذيبها ووسائل تضليلها ، حتى اذا خدرت اعصابهم وحملتهم على الاستكانة اليها ، سطت عليهم فافترستهم افتراس الذئاب الجائعة .

فليقرأ الناس هذه الرسالة وليعوا ما حوت من براهين منطقية واضحمة ومسن حجج دامغة تقطع الشك باليقين .

النازية والاديان للنائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد - \ -

حضرات السامية بالجامعة المصرية ـ رسالة لطيفة الحجم عنوانها « الاسلام والنازية » يرد بها على الداعية الألماني فون رولف بيك Von Rolf Bekh الذي أوسع الأسلام والمسلمين طعنا وثلبا في مقالته عن الاسلام ، وهي احدى مقالات يعني باذاعتها هؤ لاء المبشرون بما يسمونه « العقيدة الجرمانية الجديدة » . كأنما العقائد في عرف هؤ لاء القوم شيء يرتبط بالحدود الجغرافية والهيئات الدولية ، ويتلون بألوان الخرائط ورسوم البلدان .

ففي رسالة هذا الداعية الألماني أن الاسلام دين ذلة وخنوع ، وأنه ثمرة من ثمرات العقل السامي الذي يحتقره النازيون ويلصقون به أقبح العيوب ، وأنه قد ضلل العالم منذ قرون ، ولا يزال خطرا على العالم في مقبل الآيام ، إذا لم تبادره العقيدة الجرامانية الآرية بما يصده ويكف أذاه .

وهذا الذي يقوله النازيون عن الاسلام مثل من الحملات المتوالية التي يحملونها على الآديان كافة ، ولا سيا المسيحية واليهودية ، فها أيضا دينان ساميان ، الا فيا يزعمه بعضهم عن أصل المسيح وبولس الرسول ، وأنها من غير السلالة السامية كسائر العظهاء الذين نبغوا في أرجاء العالم كله ، وان ولدوا في الشرق أو الجنوب .

ويسأل السائل: لماذا هذه الكراهية للاديان عند النازيين؟ ولماذا هذه الحملة على الاسلام وغير الاسلام؟

فيجب أن نذكر دائها أن المسألة عند هؤ لاء القوم ليست مسألة فلسفة ولا بحث

عن الحقائق العليا في الوجود ، وأنها ليست مسألة آراء تثبت على التمحيص والاستقرار كها يريدون أن يوهموا أتباعهم المخدوعين . ولكنهم في الحقيقة يعاملون الأديان معاملتهم لقوة سياسية تحول بينهم وبين أغراضهم السياسية ، وطريقتهم في معاملتها طريقة المناورات الحزبية أو طريقة المراوغة والهجوم بين الخصوم والخصوم فيكتبون عن الاسلام والمسيحية كها يكتبون عن فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا والولايات المتحدة ، ويتبعون في مجاملتهم للدين أو ممليهم عليه أساليهم في الدعوة الى مسألة دانويج أو مسألة المستعمرات ، وأساليهم في بلاغات التكذيب أو بلاغات التوكيد .

فلهذا تختلف كتابتهم عن الدين بين زمن وزمن على حسب اختلاف مركزهم من النفوذ والسطوة والأمل في كسب الأنصار وفرصة النكاية بالخصوم .

فيقول هتلر في كتابه «كفاحي » ان الحركة النازية لا ترمي الى القيام بدعوة اصلاح أو أنقلاب في الدين ، ولكنها ترمي الى اعادة تنظيم شعبنا من الوجهة السياسية ، وتنظر الى المذهبين الدينيين معا نظرتها الى ركنين قيمين ينبنى عليها وجود شعبنا . ومن ثم تشهر الحرب على جميع تلك الاحزاب التي تغض من شأن هذا الأساس الذي تستقر عليه أخلاق الشعب وعقائده . .

كان هتلر وأصحابه يقولون هذا يوم كانوا ضعافا يطمعون في كسب الأنصار من رجال الكنيستين الكاثوليكية والبر وتستانية ، ويوم كانوا على الخصوص يرشحون هتلر منافسا في زعامة الحركة النازية للقائد الكبير لدندورف ، لان هذا القائد الكبير كان مكروها بين رجال الدين لما اشتهر به من التطرف في الالحاد .

فلما قبض النازيون على عنان الدولة أصبح الأساس الذي كانوا يقولون أن أخلاق الأمة وعقائدها قائمة عليه ، خطرا شديدا ينبغي أن يزول ، وراح زعاؤهم من أمثال أمرلاهن Ammrelahn وليوالد Lewald وجروس وسحق الأديان والاكتفاء بما يسمونه عقيدة الجرمان ، ولم يزل هتلر بعد هذا على طريقة المداورة وانتهاز الفرص ومعاملة الدين معاملته لدولة من الدول أو لقوة من قوى الخصوم السياسيين ، فقال في حديثه مع راوشنسج او لقوة من جميع الأديان سواء كائنا ما كان الاسم الذي تنتحله لنفسها ، وكلها لا مستقبل لها ولا سيا بين الجرمان خاصة على التحقيق . ورجا لجأت

الفاشية الايطالية الى مصالحة الكنيسة اذا طاب لها ذلك ، وهكذا أفعل أنا لامراء . ولم لا ؟ مصالحة الكنيسة لن تمنعني ان استأصل المسيحية جذورا وفروعا والقضاء عليها في البلاد الالمانية » .

تلك هي الحقيقة الكبرى في موقف النازيين من الأديان كافة ، ولا اكتراث لما وراء ذلك من عناوين الفلسفات والمذاهب والبحوث ، فها كان شيء من ذلك ليوجد أو لتسمح به السيطرة النازية لوكانت العقائد الدينية مؤ اتية لاغراضهم السياسية التي يفرضونها على الأمة ، فانما هي فرص ومناورات يدورون فيها كها يدورون بين الدول والأحزاب .

وليست العقيدة الجرامانية الآرية التي يلغطون بها الا مسألة فرص ومناورات من هذا القبيل ، فالبلاد التي يصبغونها بالصبغة الآرية هي البلاد التي فيها الحديد والموارد الصناعية والزراعية التي يحتاجون اليها ، مضافا الى ذلك مواقع الحرب وخطط الهجوم والدفاع وهكذا اشتملت الآرية الجرمانية على السويد والنرويج والدغرك والبلجيك وهولنده وفرنسا الشهالية والدولة النمسوية القديمة ، وتجاوزت ذلك مع مناجم الحديد والمعادن الأخرى في بلاد النشك والبولونيين والاكرانيين وليسوا بالآريين . ولكنهم ينفعونهم بما عندهم من الخيرات والموارد الطبيعية ، ووجب من أجل ذلك أن يكون الآريون سادة العالم ليأخذوا الأقطار الآريه باسم القرابه ويأخذوا الأقطار الاخرى بحجه السيادة ويصبح الدين الجديد دين حق ودين فلسفة معقولة ، وما هو في لبابه الا دين المصلحة والمطامع التي تجمع بين السطوة والثروة في برنامج واحد .

وقد اخترع النازيون الدين الجديد لانهم لا يستطيعون أن يعملوا عملهم الا اذا تركوا ضهائر الناس في أيد غير أيديهم ، وتركوا عقائد الناس توافقهم تارة وتخالفهم تارة أخرى، فلا غنى لهم عن شعب يطيعهم في سره وجهره وفي تفكيره وهواجس ضميره . وليس أدل على سوء عمل النازيين من حاجتهم الى تكبيل ضهائر الشعب وتخسيرها لهم فيا يسوقونها اليه . فهم يريدون سفك الدماء وسلب الأمم والفتك بالخصوم واستباحة الأرواح والحقوق ، فلا بد لهم من دين غير هذه الأديان القائمة جميعا ، لانها على اختلافها ، لا تختلف بينها في تحريم هذه الاوزار واستنكار هذا العدوان . ومن هنا أصبح الدين الجديد كانما هو ديوان من دواوين

الدولة أو جزء من أموال خزانتها وأسلحة دفاعها ومعجومها أو أصبح كما أسلفنا مساحة من الأرض يمكن أن تصبغ على الخرائط بلون من الألوان .

وقد كان ذلك شأن الاستبداد البروسي من أقدم عصوره الى احدثها في أبان الثورة الفرنسية وما بعدها ، فكان المستبدون البروسيون حريصين في كل عصر من العصور على تكبيل الضهائر واتخاذ عقيدة الاستبداد عقيدة للجسم والروح على السواء ، وغاية الفرق بينهم وبين النازيين أن آل هوهنز لرن لم يكن في استطاعتهم أن يهدموا الكنيسة لان نظام الدولة ونظام المجتمع معها كانا قائمين على أساسها . فلما شاعت الافكار الحديثة بين المثقفين والمتعلمين أرادوا أن يكبلوها ويستغلوها من طريق الفلسفة والتاريخ ، بعد أن أعياهم تكبيلها واستغلالها من طريق الكنيسة . فظهرت في رعايتهم وتحت اكنافهم مذاهب الفلاسفة الذين يقدسون الدولة ويجعلونها قوام الحق والخلق السليم ، وراجت على أيديهم ديانة فكرية يوشك أن تقيم الحكام في مقام الأرباب المعصومين .

فهي شنشنة قديمة في المستبدين البروسيين ، وليس الدين النازي الجديد الا الطبعة العصرية من فلسفة آل هوهنزلرن او فلسفة الدعاة الذين ظفروا منهم بالحظوة دون سائر الدعاة من الباحثين والأدباء .

وربما سأل سائل . . لماذا لم يصنع النازيون ما قد صنعه المستبدون الأقدمون ؟ لماذا لم يعقدوا بينهم وبين رجال الدين محالفة تجري على تباذل المنافع وتبادل التأييد والتمكين كها فعل بعض الطغاة في عصور الظلام ؟

وجواب ذلك أن النازيين لا يتسنى لهم ذلك « أولا » لآن المعارف الحديثة والعلوم التجريبية تأبى على العقول أن يحتكرها رجال الدين في تفسير مشيئة الله وما هو من إرادته في أسرار خلقه وقوانين وجوده . « وثانياً »لآن الأديان بطبيعتها عامة بين الأمم الانسانية والنازيون يعملون لعصبية وطنية خاصة لا تشترك فيها شعوب أخرى . وقد صرح بهذه العلة بعض دعاتهم النابهين فقال رينولدكروس شعوب أخرى . وقد صرح بهذه العلة بعض دعاتهم النابهين فقال رينولدكروس اعترافك بالريخ الثالث وقولك إن طاعة الله مقدمة على طاعة الانسان .

وهو يعني بذلك أن الجرماني الذي يعترف بالريخ الثالث ينبغي أن يطيع هتلر

ولا يطيع الله إذا تعارضت الارادتان .

ولست اخال أن أحدا يعسر عليه تعليل هذا الولع الشديد من المستبدين بتكبيل الضهائر أو بمحاربة الأديان اذا حالت بينهم وبين تكبيلها على ما يجبون ، فان المستبد الذي لا يطاع ليس بمستبد ولا قادر على الاستبداد ، والرعايا الذين يسمعون وحي العقيدة يعصون من يامرهم بغيرها . فلا اتفاق ولا مصلحة بين الاستبداد وبين استقلال الضمير .

وفي هذه الخلة يتناقض الاستبداد والديموقسراطية كها يتنساقض القطبان المتقابلان . فمن مصلحة الاستبداد أن يموت الضمير ، ومن مصلحة الديموقراطية أن يبلغ أقصى مداه من الحياة والاستقلال . ولا خسارة على الديموقراطية في اطلاق الضهائر وتخويلها من الحرية ما ترضاه حتى في أوقات الهول والفزع وأزمات الفتن والحروب . فقد بلغ من حرمة الضمير في انجلترا أن يبيح صاحبه الامتناع عن القتال ، ولم تكن هذه الحرمة المقدسة حائلا بين الأمة وبين تمام الآهبة في أحرج الأوقات .

وجملة القول أن النازيين ينكرون الأديان لسبب واحد . . وهو أنهم يريدون تكبيل الضمير وتسخير الشعب الألماني فيا يأباه كل دين وتعاف كل عقيدة . وتلك علة موقفهم من الأديان على اختلافها ما دامت لهم مآرب لا تلائم مصالح الانسانية قاطبة ، وفي الحديثين التاليين نعرض للكلام عن موقفهم من الاسلام والمسيحية بشيء من التفصيل .

حضرًات السادة والسيدات : حديثنا الليلة عن النازية والمسيحية من سلسلة الأحاديث الثلاثة عن النازية والأديان .

وقد قلنا في الحديث السابق أن موقف النازية من الأديان عامة هو موقف المناورات الحزبية والاجراءات الحكومية وانهم لا يعارضون الدين من الأديان أو يحملون عليه وعلى رجاله لانهم يبحثون عن الحقائق العليا والاسرار الحونية ، ولكنهم يعارضون كل دين بمقدار ما يعرقل مطامعهم السياسية ، كأنهم يعارضون دولة من الدول أو حزبا من الأحزاب ، أو كأنهم يعالجون مسألة من مسائل السياسة التي يتناولها السفراء والوزراء .

هذا هو موقفهم من المسيحية والاسرائيلية ، وهـذا هو موقفهـم من الاســلام عقيدة وأمة . ولن يكون لهم موقف غيره مع دين من الأديان .

أما المسيحية _ وهـي موضـوع حديثنا الليلـة _ فهـم يلاحظـون في كراهتهـا ومقاومتها ثلاثة امور :_

الاول ـ موقفهم من صاحب الرسالة المسيحية عليه السلام .

والثاني ـ موقفهم من الكنيسة وهيئاتها .

والثالث موقفهم من الآداب التي جاء بها الدين المسيحي ، ومن الاخلاق التي بشر بها السيد المسيح وتابعوه الى هذا الزمان .

وهذه المواقف الثلاثة تقتضيهم أن يحاربوا المسيحية كما يحاربون خصومهم

فهم اذا نظروا الى شخص السيد المسيح وجدوا أمامهــم رســولا منسولــأ

السلالة السامية التي يشهرون بها ويجردونها من الفضائل العالية ، فلا يسعهم أن يجمعوا بين التشهير بالساميين وتعظيم السيد المسيح وما جاء به من الاجب والرسالة ، ولا يستقيم لهم أن يدينوا بالعقيدة المسيحية وينكروا كل ما صدر عن الامم السامية من العقائد والثقافات والافكار .

لهذا يعيبون المسيحية من أصلها ومعدنها . ومن لم يعبها من كتابهم ودعاتهم ذهب في نسبة السيد المسيح مذهبا أعجب وأشد ايغالا في الانكار والجحود . فزعم أن السيد المسيح من سلالة الآريين ، وان الاوصاف التي وصف بها وجهه وشعره ولون بشرته تدل على انه من بعض الجرمانيين الذين نقلتهم الدولة الرومانية الى فلسطين . وكلا القولين لا يرضى المؤمنين .

أما موقفهم من الكنيسة فهو موقف الذي يريد أن يخضعها لنفوذه ويسخرها لأطهاعه . فأما والكنيسة مضطرة الى رفض الخضوع للنازيين لأنها غير متوقفة عليهم ، ولها اتباع من الأمم الأخرى ، وليس لديها ضهان بدوام النازية في بلادها - فالنازيون اذن يعلنونها الحرب كها يعلنون الحرب على العقيدة التي تستمد منها الكنيسة سلطانها وحجتها في الولاية الدينية .

وشأنهم مع الكنيسة الكاثوليكية التي هي خارج بلادهم ، كشأنهم مع الكنيسة الانجيلية التي تقوم بين ظهرانيهم : ـ تسخير في المطامع السياسية والمناورات الحكومية ، أو حرب وعداء في الجهر والخفاء .

وقد عارضهم كثير من القسيسين الانجيليين الذين لا ينتمون الى كنيسة روما ولا الى مرجع في البلاد الخارجية . لأنهم رفضوا ان يجعلوا الزعامة الهتلرية عنصرا من عناصر الايمان وركنا من أركان الحياة الرومية .

وقضية القس نيمولرNiemoeller لا تزال عالقة بالاذهان ، فقد أهانوه وحاكموه لأنه أبى أن يكره ضميره وضائر اتباعه على الأيمان بما يملونه عليهم الملاءهم للأوامر العسكرية ، وكانت لقضيته ضجة في العالم وفي المانيا نفسها أثارت أناسا من كبار القواد والسراة حتى بين المشايعين للمطامح الجرمانية .

وربمًا خيل الى بعض الناس أن نيمولر هذا ناسك من النساك المتبتلين الذين يعارضون الحكومات لأنهم يعكفون على الروحانيات فينسون في سبيلهما

مقتضيات الحكم وخفايا السياسة .

فمن تخيل هذا فليعلم أن نيمولر قس على الطريقة الجرمانية التي قلما نرى لها مثيلا في الامم الأخرى .

فانه كان قائداً لغواصة في الحرب العظمى الماضية ، وبلغ من نخوته الوطنية أن قواد السفن الحربية الألمانية قبلوا تسليم سفنهم للانجليز وذهبوا بها الى وسكابافلو ، لايداعها هناك في انتظار الفصل في مصيرها ولكنه هو رفض أن يذهب بغواصته لتسليمها واصر على رفضه وانتهى باعتزال الخدمة في الأسطول . ثم اشتغل بأعمال المصارف وما اليها ، حتى اتجهت نيته الى دراسة العلوم الدينية فدرسها وخرج من الكلية اللاهوتية قساً لضاحية داهلم Dahelm في برلين .

فالرجل لم يعارض النازيين لأنه جاهل بشؤ ون الدولة أو لأنه ضعيف النخوة الوطنية ، فانه في الحقيقة أصدق نخوة وطنية من هتلر وجوبلز وجورنج الذين يتخذونها تجارة ويعبثون بالوطن كها يعبثون بالدين ولكنه عارض النازيين لأنهم يفرضون على الضهائر ما ليس يقبله رجل له ضمير ، ويحسبون كل فضيلة انسانية أو عقيدة نفسية العوبة في أيدي الحكام ومناورة من مناورات الاحزاب .

تلك هي علة موقفهم من السيد المسيح ومن الكنيسة المسيحية سواء منها الأجنبية والوطنية ، والكاثوليكية أو الانجيلية .

أما موقفهم من الآدابِ التي جاء بها السيد المسيح والاخلاق التي أوصى بهما الناس فذلك هو الأساس الذي تبنى عليه كراهتهم لدينه ، وكراهتهم لكل دين يأمر بالعدل والاحسان .

فالرحمة هي أخص الأخلاق التي اشتهر بها عيسى عليه السلام واوصى بها مريديه وأتباعه . والرحمة هي الحائل الأول بين النازيين وبين ما يريدون من الفتك والغيلة واستباحة الدماء والحرمات .

وكيف يطيقون الرحمة وهم يريدون ان يأمروا ناشئتهم وزعانفهم بقتل الخصوم جزافا بغير حساب ، اوكيف يطيقون الرحمة وهم يدبرون الخطط لاذلال الضعفاء وسلب الأوطان ؟ أوكيف يطيقون الرحمة وهم لا يعترفون بحق الحياة

لمن يقف لهم في طريق .

فأكبر ذنب للأدب المسيحي عندهم أنه يوصى بالرحمة والاحسان وفي زعمهم أن « الشرف » هو الفضيلة التي يعارضون بها الرحمة كأنها نقيضان لا يتفقان . مع أن الرحمة زينة الرجل الشريف ، وليس من شرف أرفع من شرف الرجل الذي ينهاه شرفه أن يدوس الضعفاء ويستبيح من ليس له نصير .

وليس معنى مناداتهم بالشرف أنهم شرفاء ، ولكن مناداتهم بانكار الرحمة معناها انهم غلاظ القلوب ، وأنهم لجأوا الى كلمة الشرف ليقولوا أنهم بذا وا فضيلة بفضيلة ولم يأتوا بدينهم الجرماني الجديد خلوا من جميع فضائل الانسان .

حدث لما كان السير نيفيل هندرسون ـ المعروف بين المصريين ـ سفيراً لانجلترا في برلين أنه ألقى خطابا في الجهاعة الجرمانية الانجليزية التي أنشئت يومئذ لتحسين العلاقات السياسية بين الدولتين ، فنشرت الصحف الألمانية خطابه برمته في اليوم التالي تحية له ومجاملة لقومه ، إلا مقطوعة واحدة من قصيدة أمريكية راجت أيام المعركة الانتخابية التي حمى وطيسها في أيام الرئيس ولسن . وهي المقطوعة التي يقول فيها الشاعر على لسان احدى الامهات : من هذا الذي يضع البندقية على كتف وليدي ليقتل بها عزيز ام غيري ؟

فقد حذف الرقيب هذه المقطوعة التي استشهد بها السفير لاستالة قلوب الأمهات والنساء عامة الى الدعوة السلبية ، وظهر من أسباب حذفها أن النازيين يخشون الرحمة خشيتهم للعدو المبين وأنهم يستكثرون حتى على الامهات أن يرحمن أعزاء الامهات .

ومثل هذه المقطوعة قد راج بين الناطقين بالانجليزية فلم يخشوا منها خطرا على شجاعة أبنائهم ولا على حمية الجند الاميركيين والانجليز في حماية الذمار ، فان الرحمة لاتمنع الانفة ولكنها تمنع العدوان والحيلة التي يريدها النازيون .

انما ينكر النازيون أدب الرحمة والاحسان . لانهم قد بيتوا النية على الفظاظة والاجرام ، ولم يكفهم أن يجعلوا النازية حزبا سياسياً فجعلوها عقيدة جديدة تكفل لهم غاية ما يشتهونه من الغدر والقسوة وانقياد الاتباع بغير ندم ولا تبكيت

صمير ، لانها عقيدة تصيب الضهائر بالشلل فلا تقوى على المخالفة والأباء .

قال بول شنابل Paul Schnabel أحد أساتذتهم في جامعة هال Halle إن النازية ضرب من الدين لانها لا تنتظر من أتباعها أن يقتنعوا بها بل تطلب منهم أن يعتقدوها » .

وقال الدكتور فرانك Frank أحد وزراء العدل النازيين « ان هتلر متفرد . كذلك الله . فهتلر والله شبيهان » . وقال الواز سبانيل Alois Spunill زعيم النازيين في وادي السار . . « إن هتلر مسيح جديد . . أعظم وأقدر من عيسى بن مريم ! » . وقال كرل kerrl القس المسخر للنازية . . أدولف هو روح القدس الصحيح » .

وهذه أمثلة من مئات الاقوال التي تفيض بها الكتب والخطب والمقالات الصحفية بين النازيين ، وهي أمثلة نفهم منها لماذا احتاجوا الى محاربة الاديان . فليس بين هذه الاديان دين يمهد لهم طريق البغي الذي سلكوه ، ولولا ذلك لتركوها وشأنها وساروا في طريقهم سياسيين وطنيين غير محتاجين الى اختلاق دين جديد .

فحملتهم على المسيحية أشبه شيء باحتيال اللصوص على اخلاء الطريق أولا من الحراس والرقباء ، ثم الانقضاض على الفريسة في أمان !! وليست نظرتهم الى الاسلام بأسلم من نظرتهم الى المسيحية فكلتاهم نظرة احتيال وتدبير اغتيال ، وموعدنا ببيان ذلك حديث تال » .

حضرات السادة والسيدات : في حديثنا الاول عن النازية والأديان قلنا ما فحواه أن مسألة الأديان عند النازيين مسألة مناورات سياسية وليست مسألة بحث عن الحقائق الكونية .

وفي حديثنا الثاني وصفنا موقفهم من الدين المسيحي: سواء في نظرتهم الى صاحب الرسالة المسيحية او الى الكنيسة ورجال الدين عامة أو الى الأداب والأخلاق التي بشربها السيد المسيح، وخلاصة هذا الموقف من جميع جهتاته أنهم يحاربون المسيحية كما يحاربون عقبة من العقبات الدولية، أو خطة من خطط الأحزاب.

وفي حديثنا الليلة نتكلم عن موقفهم من الاسلام، وهو في لبابه لا يختلف مما تقدم ، مناورات وفرص وأحوال تتحول على حسب المطامع والنزوات .

ولموقفهم من هذا الدين وأصحابه ثلاثة جوانب تتلاقى في الاساس والغاية ،ونريد بها الى جانب النظر الى الاسلام من حيث هو عقيدة نفسية وقرائن اجتاعية ، وجانب النظر الى المسلمين من حيث هم شعوب وحكومات يعاملها النازيون أو يرجون أن يعاملوها . ثم جانب النظر الى الاسلام والمسلمين كما يمثلونه في بلادهم للأمة الالمانية عامة او للطائفة النازية على التخصيص .

فالاسلام من حيث هو عقيدة نفسية ليس بالتنزيل الآلهي في رأى النـــازيين ، والا لأمنوا وأوجبوا على أنفسهم أحكامه وعباداته .

فهو اذن عندهم ثمره من ثمرات السلالة السامية التي يشهرون بها وينكرون فضائلها . وحكمها عندهم كحكم كل عقيدة صادرة من بلاد الساميين بلا استثناء واذا كانوا قد أنكروا المسيحية ـ التي هي دين وطنهم ـ لانهم نسبوها الى المصادر السامية، فالاسلام أولى بانكارهم لهذا السبب قبل غيره من الاسباب . بل هم قد استطاعوا أن يرجعوا بنسب السيد المسيح الى الجرمان على عادتهم في نسبة كل عمل عظيم الى الآريين ، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحملوا مثل هذه الاوهام في نسب محمد عليه السلام لأنه نسب عربي صريح من أبويه ، لا موضع فيه لتشكيك أو التباس .

فالاسلام على هذا ما أن يكون تنزيلا سهاويا في رأي النازيين ، وهم يكذبون اذا وصفوه بهذه الصفة وهم لا يؤ منون به ولا يوجبون أحكامه وعباداته .

واما أن يكون عملا من أعمال البشر ، وحينئذ ينعتونه بكل ما نعتوا به الافكار السامية وكل ما أنكروه على جميع الساميين .

قال هتلر في الفصل الحادي عشر من كتابه «كفاحي » بعنوان السلالة والشعب: الآرى وحده هو صاحب المرتبة الاولى من بني الانسان اذا قسمناهم الى ثلاث مراتب: مرتبة الذين ينشئون الثقافة ، ومرتبة الذين ينقلونها ، ومرتبة الذين يهدمونها . فهو دون غيره الذي أقام الاسس ورفع الجدران لكل بناء من أبنية الثقافة الانسانية ، وانما مظهر البناء وطلاؤه هو كل ما يعزى الى مختلف الشعوب الاخرى .

ثم لاح له أن نهضة اليابان القوية قد تناقض ما يقرره من هذا الرأي الشامل فقال . . وليس بحق كما يبدو لبعض الناس ـ ان اليابانيين قد أخذوا الاداء الفني من أوربا فأضافوه الى ثقافتهم الاصلية ولكن الحق أن الصناعة الاوربية والثقافة الاوربية معا قد صبغنا هناك بصبغة الحضارة اليابانية . وليس أساس المعيشة اليومية في اليابان الحديثة تراثا وطنيا على ما يتراءى من الملامح الخارجية التي تبده أنظار الاوربيين لما بينها وبيننا من التباعد . انحا أساس معيشتهم اليومية ، أي جهود الأربين فاذا اتفق من اليوم أن انقطع أشر الاربين في حياة اليابان ، أو فرضنا انهيار كل من أوربا وأمريكا ، فقد يلبث التقدم الصناعي والعلمي في اليابان فترة اخرى ، بيد أن المعين سينضب في خلال عشرات قلائل من السنين » . .

وهذا حكم الزعيم النازي الأكبر على كفاءة العقل الياباني لأنه يخالف العقول

الآرية . فليس للساميين نصيب أكرم من هذا النصيب بين النازيين ، وهم كما تعلم لا يبلغون من القوة السياسية والنهضة العلمية في العصر الحاضر مبلغ أهل اليابان .

والعبرة في حكم هتلر على أهل اليابان عبرتان : احداهما هذا الرياء الذي لا يمنع هتلر ان يعامل الأمم كل يوم بميزان ، وتستوي في ذلك جميع الآجناس .

والعبرة الأخرى أنه يحصر المزايا الانسانية والحقوق الأدبية في سلالة الآريين ، ويجرد من عداها من أشرف المزايا والحقوق . فلا أمل لأمة في الكرامة الانسانية على يديه .

* * *

أما الجانب الذي ينظر فيه النازيون الى المسلمين فهم خادعون فيه لا محالة . وأخدع ما يكونون حين يظهرون الاشفاق على المسلمين من الظلم والسيطرة الأجنبية • لأن النازيين يحرمون الشعب الالماني من الحرية السياسية فكيف يسمحون بها للمسلمين الساميين ؟ ولأن النازيين يستكثرون على أقطار أوربا التي يحكمونها أن تكون لها صناعات كبرى وثروات مستقلة ، فاذا حكموا الشرق فكيف يبذلون له ما يضنون به على القارة الأوربية ؟؟

هذا خداع لا نطيل في تنفيده وتبيين خفاياه . فكل اطالة في هذا الصدد سوء ظن بالعقول .

على أن سوابق هتلر والنازيين عامة تجيز لنا أن نقول . . أن قضية فلسطين كانت أوفر القضايا الشرقية حظا من لغط النازيين ومن دعواهم الغيرة على المسلمين ، ومع هذا لا نستبعد على النازيين إن كتب لهم النصر أن يصالحوا اليهود على الخروج من المانيا لاحتلال فلسطين وما جاورها فليس هذا باعجب من مصالحتهم الشيوعيين بعد أن وسموهم بأنهم حثالة المجرمين ، ولا بأعجب من مشاركتهم اليابان في بناء النظام العالمي الجديد بعد أن قال فيهم الزعيم النازي انهم عالة على حضارة الأوربين والامريكيين ولا بأعجب من اثارته اليابان اليوم على الولايات المتحدة وهي دعامة الثقافة الانسانية التي تقتبسها الاجناس على الولايات المتحدة وهي دعامة الثقافة الانسانية التي تقتبسها الاجناس

وبينا ينادي النازيون المسلمين أنهم في خطر ، وأنهم قادمون اليهم لانقاذهم من جميع الأخطار ، اذا بهم يتحدثون بينهم عن المسلمين فيقولون انهم هم الخطر على الحضارة الأوربية ، وأن اليقظة الاسلامية يجب أن تقبر في مهدها قبسل ان يستفحل امرها ويتفاقم شرها ، وقبل أن يتسنى للمصلحين في تركيا وايران ومصر والبلاد العربية أن ينفضوا غبار الركود عن ذلك الدين القديم !

وتلك هي خلاصة الرسالة التي ادرنا على موضوعها هذه الاحاديث الثلاثة ، هي رسالةالداهية النازي « رولف بك » عن الاسلام .

ومن المعقول أن يكون للنازيين كلامان ـ لا كلام واحد ـ عن المسلمين والاسلام .

فالكلام الذي يقولونه للمسلمين هو كلام تعليق وخداع واستغفال وفيه شيء من معتى الثناء أو توخي الرضاء .

أما الكلام الذي يقولونه لأتباعهم وتلامذتهم عن المسلمين ، فينبغي أن يكون على نقيض ذلك . . ينبغي أن يكون قلحا في آداب المسلمين لانهم بغير ذلك لا يفنعون أتباعهم وتلامذتهم أن بلاد الاسلام غنيمة مباحة للآريين ، وان فتح الآريين اياها نعمة على الشرقيين والغربيين ، وان تركها في أيدي أبنائها خطر على العالم الأوربي في المستقبل كالخطر الذي استهدف له فيا مضى ، وان ابناء تلك البلاد لا يستحقون ما يفيض فيها من الخيرات . فانها خيرات ضائعة او معكوسة ما لم يتداركها ابناء الشال وهي لهم مال حلال !

* * *

وعبث أن نناقش الآراء التي في رسالة « رولف بك » مناقشة النقد والاستدلال بالحجة والبرهان . فهذه الرسائل وأمثالها لا تكتب في المانيا لتمحيص رأي أو للبحث عن حقيقة . وغاية ما يقصدونه بها غرض موقوت يتقلب مع الاحوال .

الا اننا نتخذ منها مثلا من الأمثلة للدلالة على مبلغ السخف في أساليب هؤ لاء النازيين الفكريه ، او على قدرتهم احيانا على تضليل أنفسهم في فهم اخلاق الشعوب ، وقد يتوقف على فهمها الصحيح نجاحهم في ميادين الحرب والسياسة .

فرسالة « رولف بك » مفتتحة بصورة بدوي ساجد على الرمال الى جانب جمله في الصحراء وهي عنده مثل الذل والضراعة وتمريغ الكرامة الادمية في العبادة ، ومن أجل ذلك لا يستغرب المؤلف ان يمرغ المسلم وجهه بين يدي الأجنبي المستعمر كما يمرغه في سجدة الصلاة .

وهنا السخف كله في استنباط الأمور والفياس عليها . اذ الواقع ان هذه المسافة الشاسعة بين الخالق و هي التي تجعل المسلم عزوفا عن افناء نفسه في طاعة مخلوق مثله ، وعلى نقيض ذلك دين الآرية الجديدة ـ دين النازيين ـ الذي يسول لابنائه عبادة هتلر وعبادة كل زعيم فمن دان بعبادة الانسان فمن السهل ان يعبد انسانا من صميم الجرمان .

وعلى هذا يقاس سائر ما في مثيلاتها من السخف والزيغ والاستخفاف بالحق والعقل والضمير . بل يقاس على مواقفهم في شؤن السياسة . فان الذين يسخرون المقدسات اختراعاً لن يقولوا في السياسة قولا يسلم من الغرض المتقلب ويحسن الاطمئنان اليه .

عَابِينَ فَيْنَ الْمُ

هِتُ لُوفِ الْمِثِ الْمِثْ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُولِ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُونِ الْمُثْلُونِ الْمُثَالِ الْمُثَالِ الْمُثَالِقِ الْمُثْلُونِ الْمُثَالِ الْمُثَالِقِ الْمُثَالِقِ لِلْمُعِلِي الْمُثَالِقِ الْمُثَالِقِ لِلْمُعِلِي الْمُثَالِقِ الْمُعِلِي الْمِنْ الْمُعِيلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمِنْ الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي مِلْمِلْ الْمُعِلِي الْمِلْمِي الْمُعِلِي الْمِنْ الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمِنْ الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلْمِي الْمِيلِي الْمُعِلْمِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمِنْ الْمُعِلِي الْمِنْ الْمِنْ الْمُعِلِي الْمِنْ الْمُعِلِي الْمِلْمِيلُولِي الْمُعِلِي الْمِنْلُولِي الْمُعِلْمِي الْمِلْمِيِ

دار الكتاب اللبناني ـ بيروت



هتار يوضح نفسه

و المالية

في هذا الكتاب ما أنا بقاض ، ولا يسرني أن أكونه

لأننى لا أحسن التسوية بين الخصمين فى قضية الطفيان والحرية الانسانية . وأحمد الله أننى خصم قديم فيها منذ نيف وثلاثين سنة ، أى فى السن التى يراع فيها بمض الناس بمظاهر السطوة والاقتحام ، والتى يخيل إليهم فيها أن الشجاعة والبغى شىء واحد ، وأن العزة هى إذلال الآخرين ، وأن بعد الذكر هو حسب الانسان من الحجد ، ولو كان ذكراً بالفتك والشر والايذا .

فنذ نيف وثلاثين سنة كان لى شرف الخصومة فى هذه القضية الخالدة ، وكنت أبحث فى أعماق نفسى فلا أحس فيها غير المقت والازدراء لأولئك الذين سموهم عظاء التاريخ لأنهم طلبوا المجد والشهرة من طريق الغزوات والفتوح ، وقاسوا عظمتهم بمقدار احتقارهم « للانسان » .

وقد صدرت في مصركتب وعجالات أشاد أصحابها يومئذ بتمجيد هؤلا. العظاء وفي طليعتهم نابليون الأول ، فكتبت (١) أقول :

« . . . يعظم مثل نابليون في عيون الهمل بقدر استهانته بأرواح الناس ، وتكبر قيمة حياته بمقدار استصغاره لحياتهم ، وليس هو من قبيل أولئك العظاء النين يكبرون وزان ما لهم من المقدرة على تهذيب الناس واصلاح شئونهم ، وليس في طاقة العامى أن يتصور كيف أن رجلا يميت الألوف لا يكون أهلا للاجلال والتبحيل

⁽١) الجريدة في السابع من شهر يوليو سنة ١٩١٢

« . . . نابليون رجل من مجانين المطامع ، أولئك الذين تملك عليهم الأثرة عقولهم فلا تدع فيها موضعاً لفير أطاعهم وشهواتهم . لا يدور بخلدهم إحساس لفيرهم أو أمل غير أملهم ، فلا يحسبون أن في الوجود أرواحاً تجب صيانتها غير أرواحهم ، أو أن لسواهم أملا يحرص عليه كما أن لهم أماني وآمالا

« لقد جعلوا نابليون مثالا لقوة الارادة ، و يظهر أنها أقل صفات نابليون قبولا للمنازعة في رأى الناس . على أنى لا أظن رجلا يأتى مثل هذه الأعمال مطلق الارادة أو مختاراً بأتم معنى الاختيار

« فالارادة عند جماعة السيكولوجيين قوتان : قوة دافعة تغرى صاحبها بالاقدام وتهون عليه العوائق ، وتكون هذه القوة على نهايتها عند المحنون الذى لايكاديهم بأمر إلا فعله ، ولا يتضح له نهج إلا سلكه ، غير متدبر في العواقب ولا حاسب حساب العوائق

« وقوة مانعة تقعد بالنفس عن كل ماتهم به فلا يكاد صاحبها يقدم على أمر لفرط توجسه وكثرة ما يمثل له وسواسه من أسباب الفشل والخيبة ، وهي عند الممرورين الموسوسين على أشد ما تكون

« والأرادة الصادقة هي الموازنة بين هاتين القوتين ، والمداورة بينهما آناً إلى هذه وآناً إلى تلك ، كما تقضى به الحال ، وأتم أشكالها حسن الترجيح بين الدواعي والموانع ، وتقديم عامل الاقدام في موطن الاقدام ، أو عامل الاحجام في موضع الاحجام .

«وما كان نابليون قوى الارادة بهذا المهنى ، ولكنه كان رجلا قوي طموح الأمل شديد الدفاع المطامع ، حتى لقد ينسى وهو ناهض إلى أمله ما لاينبغى أن ينساه الحجرب الحكيم ، ولولا ذلك ما صرعته مطامعه صرعات ، آخرها تلك الصرعة التي أوقعته في يد هدسن لو »

ثم ختمت ذلك الفصل قائلا:

« إن من طبع المرأة الضعيفة والولد الصغير أن يستكينا إلى القوة حيث كانت وهما اللذان يعجبان بالقوي ولا يطيقان أن ينظرا أثر قوته فى نفع النوع الانسانى والاضرار به . أما الناقد الاجتماعى فيجب أن يكون أبعد من ذلك نظراً وأصدق حكما .

« وما أشبه أخلاق الجمهور باخلاق المرأة والطفل. فانه لينتظر من يتأله عليه فيعبده ، وقد كان ذلك شأنه مع نابليون

« كان هـذا الرجل يسبح فى لجة من الدم والناس تنظر إليه فلا يعنيهم من أمره إلا أن يشاهدوا براعته فى السباحة .

«كان يهدم المدن ويدمر الأقاليم ويدك المالك وهم ينظرون من كل ذلك إلى خبرته بصف المربعات العسكرية ، ودر بته على تنظيم المواقع واطلاق النيران « لقد مضى زمان تلك العظمة . وحق على الكتاب في هذا العصر أن يعودوا الناس إكبار العظمة التي يجمل بهم اكبارها . . »

* * *

هذا ونابليون هو نابليون .

والفرق بينه و بين طغلة الحرب الحاضرة كالفرق بين المارد والأقزام .

والخطر منه وهو فى حوزة التاريخ ممتنع كل الامتناع ، إلا أن يكون خطر القدوة والابحاء .

فاليوم والخطر قريب ، والعالم قد مضى عليه مائة ونيف وعشرون سنة بسد حروب نابليون ، والناس يحق لهم أن يربحوا ولا يخسروا من تجارب هذه السنين ، لا يطيب لى أن أقضى اليوم حيث خاصمت بالأمس ، ولا أرى من واجب الكاتب أن يحكم و يقول : هذه أسباب الحكم ، بل أرى واجبه الذى لاواجب

له غيره أن يخاصم ويقول: هـذه أسباب الخصومة ، وأن يتحرى الصدق فى خصومته والاستقراء الصحيح فى بيائه ، لأن الخصم الصادق فى قضية الطغيان والحرية الانسانية أعدل من القاضى الذى لا يميل هنا أو هناك فى هـذه القضية والخصومة الصادقة هي التى أعد بها القارىء فى هذه الصفحات ،

الفصل الأوّل

مخلوق الظروف والمصادفات

كثيرا ما يكون النظر فى حركة عالمية أو حرب عالمية ، بمثابة النظر فى حياة رجل واحد هو الرجل الذى ابتعث تلك الحرب أو اقترنت باسمه تلك الحركة ، كما هى الحال فى اقتران اسم هتار بالحرب العالمية الحاضرة

وهنا الصمو بة الأولى !

ف هو القياس الذي ترجع اليه في تقدير رجلٍ من رجال الحوادث أو رجال التاريخ ؟

تختلف المقاييس هنا أشد اختلاف ، ولكن مامنخلاف قط في أن المقياس الذي يعتمد عليه الدهماء من الناس - هو أبعد المقاييس قاطبة عن الصواب وعن الانصاف

لأنهم يعظمون الرجل بمقدار السيطرة التي في يديه ، أو بمقدار الضجة التي يثيرها من حوله

والخطأ ظاهر فى كلا المقياسين

إذ الوصول إلى السيطرة بما يتاح ، فى أيام القلاقل خاصة ، لأناس لاخطر لهم فى سائر الآيام ، وليست لهم قيمة انسانية رفيمة إذا وزنوا بمسيزان الأخلاق والفضائل التى يمتز بها « بنو الانسان »

وقد وصل « باحيى سقا » وهو ابن سقاء قاطع طريق إلى كرسى الامارة فى بلاد الأفقان ، ووصل قاطع طريق آخر يجهل القراءة والسكتابة إلى رئاسة الدولة فى بلاد المسكسيك وهو فرانسيسكو بانشو (١٨٧٧ – ١٩٢٣) الذى اشتهر باسم فيفافيلا (١) وشغل العالم الجديد فى أيامه عن كل بطل وكل كوكب من كواكب الشهرة السياسية أو الفنية

وعلينا أن نذكر أن الكفاءة الضرورية للوصول إلى السيطرة لاتقاس بحجم الدولة التى يسيطر عليها الرجل. فالروسيا، مشلا، عدمها وعدة البلاد الخاضمة لها زهاء مائة وثمانين مليونا من النفوس الآدمية، ولا يازم مع هذا أن. يكون ستالين أقدر من مصطفى كال بضع عشرة مرة . . . لأن الترك أقل عددا من الروس مهذا المقدار

بل يتفق كثيرا أن يكون الوصول إلى السيطرة فى البلاد الصغيرة أصعب من الوصول اليها فى الدول الضخام ، كما يتفق كثيرا أن تكون قيادة الزورق الصغير أصعب من قيادة السفن « الراسيات فى البحر كالأعلام »

ومتى وصل الرجل إلى السيطرة فى دولة كبيرة فما أسهل مايشغل العالم ويثير الضجيج و يملأ الاسماع ؛ وما أعسر التغلب عليه واجلاء، عن مقعد الحسكم ومرجم التصريف والتدبير !

ان الذي يجار به يومئذ ليحارب الدولة بأسرها ، وانه ليحتاج إلى ثورة جأعة لاتندفع اليها الشعوب في كل لحظة ، ولا تجازف بها إلا في حالة القنوط. وربما بلغت الشعوب حد القنوط بعد أن يكون حا كمها المسيطر عليها قدفارق الحياة فلا ضخامه الحوادث إذن ولا ضخامة الدولة ولا انساع مدى السلطان بالمتياس الصحيح لكفاءات الرجال

⁽¹⁾ Francisco Pancho, Viva Villa

وأنما المقياس الصحيح أن نفصل بين فعل الرجل وفعل الظروف التى لافضل له فى خلقهاولا يد له فى توجيهها ، وان ننقله من ظروفه لندرف ماهو مستطيع أن يعمل وهو بعيد عنها

أو المقياس الصحيح هو أن نقيس ظل الرجل بعد نزوله من رأس القمة التي هو واقف عليها . فلعله لو وقف على الأرض ولم يقف على رأس تلك القمة لماألقى من الظل بعض مايلقيه سائر الناس

وما نمرف أحدا من الحاكمين بأمرهم فى عصرنا هذا قد أفادته «الظروف» مثل ماأفادت أدولف هتار زعيم النازيين على التخصيص

فهو بحق مخلوق « الغلروف » والمصادفات : لو انتقل من بيئته أو من زمانه أو من جيله لما تخيلت له شأنا كهذا الشأن الذي انتهى اليه

مخلوق الظروف والمصادفات

فلو رجمنا إلى موازين الدهماء لما كان مصطفى كال شيئا إلى جانب أدولف هتلر. قياساً إلى الفارق العظيم بين مايقدر عليه حاكم الألمان ومايقدر عليه حاكم الألمان ومايقدر عليه حاكم الترك في مجال السياسة العالمية

لكن الواقع أن القياس ممكوس ، وأننا نجحف أبلغ الاجحاف إذ نسوي بين الزعيم التركى والزعيم الألمانى فضلا عن ترجيح هذا على ذاك ، لأننا فى هذه الحالة نسوي بين من يعارض التيار ومن يحمله التيار ، وننسى أن مصطفى كالا مجح والدنيا كلها عقبات وسدود فى وجهه ، وان أدولف هتلر نجح والطرق كلها مفتوحة بين مدمه

فما من طائفة ولا حادثة وقمت فى ألمانيا خلال الجيل المَاضى إِلا أفادت هتار على عمد أو على غير عمد

وما من شيء كان عائماً له الاكان في الوقت نفسة عائمًا لألوف من ذوى الجاه والسلطان يسمون لرفعه عن الطريق ، ويستفيد هو من سميهم. بغير مجهود كان الألمان جميما يطلبون تبديل الحال التي كانوا عليها بعد الحرب المظمى وكانوا في ذلك فريقين :

فريقاً يريد تبديل الحال للمود إلى ألمانيا القديمة : المسانيا التى تسيطر على الدنيا وتقاهب للغارة السكبرى كرة أخرى ، وهم أصحاب المصانع والضياع والقادة والضباط ولا سيا الصغار منهم الذين ضاعت وظائفهم بضياع الجيش الألماني كما

ضاعت عليهم أحلام المجد والخيلاء

وفريقاً يريد تبديل الحال لبناء الدولة الألمانية على أساس جديد ، وهمالفقراء والأوساط والعمال ، ودعاة الحرية وأعداء العهد القديم

وكلا هذين الفريقين كان يضرب بمموله فىأساس النظام القائم ، ويفتح من وراء كل ضربة يضربها ثفرة فى السد الذى كان يصد النازيين ويحمى عليهم مدارج الصعود

كان المحافظون من الأغنياء حانقين ، لأنهم فقدوا ما كان لهم من الجاه فى الدولة القديمة ، وأصبحوا على خطر من الشيوعية والاشتراكية وسائر المذاهب الحراء .

وكان الأحرار من أوساط الناس حانقين ، لأن هبوط أسعار النقد ضيّع ما العلم ما يكسبون من رزق ضئيل

وكان العمال حانقين ، لأنهم لايجدون عملا وقد بلغ عاطلوهم فى بعض السنوات سبعة ملايين .

وكان المظنون — أو كان الواجب — أن يحارب الشيوعيون هتار وأشياعه كما يحاربون ألد الخصوم

غير أنهم جروا على حماقتهم المهودة فى ايثار الديمقراطيين والاشتراكيين المعتدلين بالمداء قبل كل عداء ، لأنهم يخشون من دعوتهم أن تنزع منهم جميع أنصارهم . ولا يخشون كما اعتقدوا ، فى ذلك الحين ، أن يهجزهم أنصارهم ليلحقوا بالنازيين والمتشددين من أحزاب المين

واتفق من غرائب المصادفات فى الوقت الذى ظهر فيه هتار أن رجعت كفة ستالين فى الروسيا على كفة تروتسكى المبشر بتعميم الدعوة الحراء فى انحاء العالم ، فقررت حكومة « السوفييت » أن تنفض يدها من الشيوعيين فى البلاد الخارجية

غلا تمدهم بالمال والمونة ولا تساعدهم بالدساتس ونشر الدعوة ، فما هي إلا أسابيع معدودات حتى نفدت أموال الشيوعيين الألمان بيحزت صناديقهم عن اطعام العال العاطلين وعن بذل الاجور والمرتبات للوكلين بشئون الحزب والداعين إلى نشر مبادئه حيث يقدرون لها الرواج والاقناع . فتحولوا الوفا الوفا إلى معسكرات الذازيين : إلى المعسكرات التي كان ملوك الصناعة في تلك الآونة يترعون صناديقها بالاتاوات والامداد ، ويهيئون لها شراء المعدات والأجساد بالاطعمة والأزواد! وأعجب من هذا أن تجيء المونة بعد المهونة لمتار وأشياعه من موظني الدواوين وهم أيدى الحكومة وعيونها والمفروض فيهم أنهم أنصارها وأعوانها على أعدائها . ولسكنهم كانوا - إلا قليلا - جنود العهد القديم وتلاميذ الاستبداد ، فبذلوا لمتار وأشياعه قصارى ما استطاعوا أن يبذلوه ، وما هو بقليل

فلما قضى القضاء على هتار بالسجن خمس سنوات (١٩٢٣) لأنه شهر السلاح في وجه الدولة وأقدم على العصيان _ لم تمض عليه نسمة شهور في السجن حتى عنى عنه خلافاً لأحكام القانون التي تحرم المفو عن كل مجرم عائد سومح قبل ذلك في المقوبة ولم يتبعن مقارفة الاجرام ، وكان هتلر قد حوكم وحكم عليه قبل ذلك بالحبس ثلاثة « أشهر موقوفة التنفيذ» .. فلم تحل هذه السابقة دون المفو عنه من أخرى . بعد شهور قضاها فيا يشبه معيشة القصور . بل لم يقبل المحلفون توقيع

منذ رزملاوه في السجن ﴿ للاحظ هذيه الزهر الني كانع أمامه إ

الحـكم إلا بعد أن أكد لهم رئيس المحكمة أن العفو صادر لامحالة ، فلا ضرورة لاظهار القضاء بمظهر المخالف لنص القانون الصريح

ولما تبين أن « الجنسية الألمانية » لا تشمله لأنه رعية الحكومة المحسوية احتالت وزارة برنسويك على الأمر بثمينه فى وظيفة « شرفية » تسمى وظيفة الاستشارة فى تلك الحكومة Regierungsrat ليصبح المانى الجنس محكم التوظيف ، وفاقاً لدستور فيار الذى يشمل بالجنسية الألمانية كل أجنبى يشغل وظيفة فى حكومات الولايات ، أو حكومة الريخ المكبرى

و يبدو من هذا وأشباهه مبلغ الاغضاء والاملاء الذي حف بهتلر وأشياعه وهم ينشرون دعوتهم و يهددون خصومهم و يستكثرون من أذنابهم ، آمنين مطمئنين لايجازفون ولا ييأسون من المونة عند الحاجة اليها . لأن دستور فيار قد الفي حكم الاعدام فلا خوف منه . . ثم لا خوف من السجن الذي يعقبه العفو بعد قليل

* *

ثم أنمت الدسائس في حاشية المارشال هندنبرج مابدأته الحوادث والازمات ،. فانتقلت بهتار من شغب الطريق إلى دىوان الاستشارة

وكان المارشال المحبير قد وهن واستسلم ، وثقلت عليه وطأة السنين ، فأصبح أرجوجة تتردد بين رجلين من دهاة زمانه : أحدهما أمين سره القديم الجنرال فون شليخر الذي قيل فيه أنه أحق بقيادة البحر « لبراعته في ارسال القذائف تحت الماء » . . وثانيهما فون ياين الذي كان يساكن الرئيس هندبرج في قصر واحد ، وقيل فيه أن قدرته على خداع المحترسين منه المارفين مخداعه أكبر من قدرته على خداع المطمئنين اليه إ

کلا الرجلین کان یرید ان یضرب منافسه و یقضی علی نفوذه وأن نیستخدم ۲۳۸_



جربجور شتراسر مؤسس والنازى p ق المانيا الشيالية وأحد ضحايا هتلر في المذبحة المشهورة

النازيين في مأر به لأنه لم يكن يستطيع أن يستخدم الديمةراطيين والاشتراكيين وسأتر أحزاب الوسط والشمال

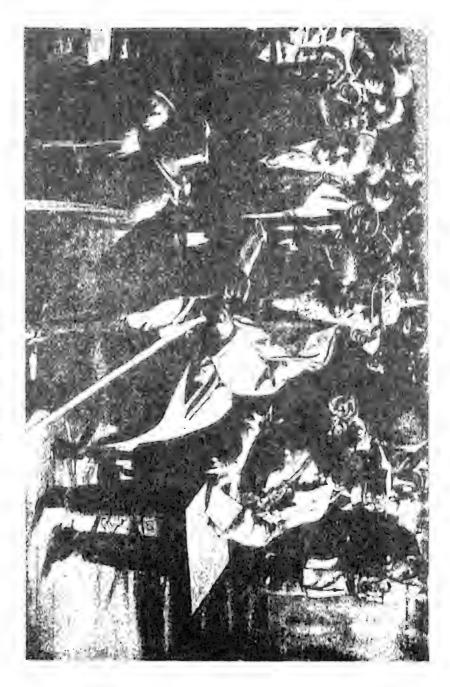
وكلاها كان يريد السوء بالنازيين ويضمر لهم الغدر وأن يشطرهم شطرين بمد ارتقائهم مناصب الاحكام ،ثم يضرب أحدهما بصاحبه متى سنحت له سانحة قريبة وكثيراً ما كانت تسنح في تلك الأيام

لكنهما كانا مختلفين في الأسلوب وان اتفقا في نية الفدر والوقيمة ، فكان فون شايخر ينوى أن يرشح نفسه للاستشارة ويندب زعياً من كبار زعماء النازيين لوكالة الاستشارة ، ثم يتقدم إلى الريشستاج فيقسم النازيين عاجلا أو آجلا بين هتلر و بين الزعيم النازى الآخر (وقد وقع الاختيار على جريجور شتراسر منشىء حزب النازى في المانيا الشالية) ... فينحل الريشستاج و يعاد الانتخاب و يخرج النازيون فريقين ضعيفين يزيدها هو ضمناً بسلطان الحكومة الذي يقبض عليه بكاتا يديه ، وهو مستشار الدولة

وكان فون پاپن يريد أن يكرر ما حدث في انجابرا من ترشيح المستر رمنى ما كدونالد لرئاسة الوزارة رجاء أن يضعف حزب النازى كا ضعف حزب العمال في البلاد الانجليزية ، فاقترح على المارشال الهرم أن يدعو هتار إلى تأليف الوزارة مع اثنين أو ثلاثة من انصاره الذين يرضاهم المارشال ، وقنع هو بوكالة الاستشارة معتقداً أنه يملك زمام الأمور بسيطرته على المارشال وتألبه مع سائر الوزرا،

ولما طال التنافس بين الخصمين فسكر فون شليخر فى الانتقاض وائتمر بالمارشال مع بعض القوادالعسكريين وبعض رؤساء العال الساخطين على النازيين وأحزاب اليمين، فاتفقوا على تدبير إضراب عام يجتمع فيه العال وحامية بوتسدام ويزحفون على برلين فينخذون من ذلك ذر يعةالحجر على الرئيس الشيخ و إعلان





« حالة الطوارى • » والقبض على دفة الحكومة باسم الضرورة القصوى التي تقتضما الصلحة الوطنية

ونمى الخبر الى فون بان الساهر على حركات خصمه فأبلغه الى المارشال وأقنمه بوجوب الاسراع الى دعوة هتلر و إقامته على رأس الوزارة ، ولم ينس خطتة الأولى التى أراد بها أن يحتفظ بأعنة الأمور فى يديه ، فاشترط أن تكون له وكالة الاستشارة وأن يكتفى فى مجلس الوزراء بعضوين اثنين من النازيين وهما الدكتور ولهلم فريك والكابتن هرمان جو رنج

وقد كان له ما أراد ١

إلا أن الحوادث قد خالفت ما قصد من تدبيره ، فجرت الانتخابات الجديدة باشراف المستشار هتلر على الطريقة النازية المهودة ، وصدرت المراسيم بحل جماعات الشيوعيين ، واشتد المرض بالماريشال الهرم فاصبح لا يمي ما يقول ولا ما يقال بلسانه ، ثم مات وتبوأ هتلر مكانه باسم زعيم الأمة ومستشار الدولة ، وأفلتت الأعنة من يدى فون يابن فانقاد لسائقيه

على أن الدسائس ، من شليخر أو پاپن ، لم تـكن هي جماع البواعث التي أكرهت هندنبرج على قبول هتار في رئاسة الوزارة ، وعلى إبقائه فيها بعد ذلك الى أن كان منه ما كان . فقد أكرهه على قبوله باعثان آخران ، قد يصح أن يقال أنهما باعثان شخصيان

أهم هذين الباعثين أن هندنبرج كان يحذر المفالين من المحافظين أحزاب اليمين ، لأنه كان يعلم أنهم يكيدون للنظام القائم و يسعون الى إعادة الملك سيرته الاولى في سلالة هوهنزلون ، وكان هندنبرج _ على نفو ره الفطرى من هدم نظام يقوم هو على رأسه _ لا يحب في تلك الآونة أن يواجه العالم بالتحدى والمناجزة وما يتبعهما لا محالة من تضافر الدول على ألمانيا وذهاب كل أمل في تخفيف قيودها

واحسان الظن بمقاصدها . فاذا لم يكن بد من الخيار بين الملكيين أو الشيوعين أو النازيين الذين الذين لايرحبون برجمة آل هوهنزلرن - فهولاء النازيون أولى بالتجر بة اولا سيما اذا تكفل بكبحهم زملاؤهم فى الوزارة من أصدقاء الظاهر أعداء السريرة

والباعث الشانى هو فضيحة الضياع الشرقية كاكانوا يسمونها فى تلك الايام، وخلاصتها أن الحسكومة خسرت أموالا كثيرة من خزانة الدولة أبذلت جزافا لاناس من أصحاب الضياع الواسعة فى بروسيا الشرقية معظمهم أصدقاء أو أقرباء أو جيران للرئيس، وتهامس بعض النواب بهذه الفضيحة ثم لغطوا بها وطلبوا التحقيق فيها، وثارت الثوائر حولها لوفرة المأز ومين والمفلوكين والمتطلمين إلى قليل المال محرمونه وهم يسمعون بالحكومة تنكيله جزافا لكبار الزراع وأصحاب الضياع

فغضب الرئيس على شليخر لأنه لم يفلح فى اسكات تلك الأصوات ومداراة تلك الفضيحة ، وبدا له ان الحكم على طريقة النازيين بالقمع والارهاب وقطع الألسنة وكم الأفواه خليق أن يربحه من لفط اللاغطين وزعم من زعموا أنه قد أخذ لنفسه بعض ما قيل انه أعطاه الجيران والأصدقاء ، وهو زعم ظالم تكرر على ألسنة الشيوعيين ولم يثبت قط بالقول الوثيق .

ويرى بعض المطلمين ان هندنبرج ما كان ليطلق أيدى النازيين في قمع الشيوعيين وحل أحزاب المعارضين لولا انزعاجه الدائم من فضيحة بروسيا الشرقية وأقاويل أحزاب الشمال.

فهذا وذاك وغير هذا وذاك من دسائس الحاشية وطوارىء الزمن وقد مهدت كلها الطريق لهتلر ووضعت السلم تحت قدميه حيث يريد وحيث لا يريد . فاذا قلنا ان زعيا كمصطفى كال قد هجم على التيار اللجّى قشقه بالمزيمة الثى تروضه والأيد الذي لا يباليه فإذا صنع أدولف هتار في تياره ! لبس فيه عوا مة النجاة ، ولم يدفع موجة واحدة من أمواجه ، بل ذهب مع الموج إلى مدى وثبتين من الساحل ، ثم وثب إلى الساحل في أمان .

* * *

أفكاره وأفكار غيره:

وكا حملت الحوادث هتلر على اثباجها إلى ذروة الحريم حملته كذلك الأفكار السياسية التى نشأت فى قومه على عهده وقبل عهده نجيل أو جيلين : فلم يبتكر قط فكرة واخدة من تلك الأفكار التى شاعت بين الشعوب الجرمانية وكان لها شأن فى توجيه هذه الشعوب وجهتها الأخيرة ، ولم ترجع اليه صيغة واحدة من الصيغ التى دارت على الألسنة وكان لها شأن فى اذ كاء النخوة القومية واقناع من الصيغ التى دارت على الألسنة وكان لها شأن فى اذ كاء النخوة القومية واقناع السواد . وما أسهل ما يقنع «عقل » السواد ؟! أنه ليبحث عمن يقنعه ، بل يبحث عمن يخدعه ، ولا يهرب إلا عمن يفتحون عينيه و يرشدونه إلى الحق الصراح .

فالجامعة الجرمانية (۱) التى تغنى بها هتلر قد ظهرت فى موطنه خاصة وقبل مولده بنحوثمانين سنة ، ودعا اليها الفيلسوفان هزدر Herder وفيخته Fichte أوائل القرن التاسع عشر فأطنبا ما أطنبا فى مزايا الجنس الجرمانى وفضله على سائر الأجناس البشرية وانه هو دون غيره شعب الله المختار المهيأ بالفطرة لمناجاة الأرباب ومكاشفة الأسرار ، وان لفته دون غيرها هى لفة الحكمة والفلسفة والعلم بحقائق الأشياء ، وان حكومته دون غيرها هى الحكومة التى قدرتها عناية الله لقيادة الأمم قهراً أو بالارشاد والاغراء ، وما من كلة تغنى بها هتلر فى هذا المعنى إلا ومرجعها إلى محاضرات فيخته الأربع عشرة التى ألقاها (سنة ١٨٠٧)

⁽¹⁾ Alldeutachtum

ووضع بها — من الوجة الفلسفية — أساس تلك الدعوى التي يدعيها الجرمان .
ثم ظهرت دعوة هر كلاس Her Class قبل الحرب الماضية وتجاوبت أصداؤها في صميم البلد الذي نشأفيه هتلر ونهني به لنز Linz من الأقاليم النمسوية وافترنت بهده الدعوة دعوة مشابهة عُرفت باسم أور با الوسطى تارة (۱) و وباسم الزحف على الشرق تارة أخرى (۲) وشرحت شرحا وافيا في كتاب فردريش نومان Friedrich Naumann الذي كان يزعم كا زعم هتلر من بعده أن التهام أور با الوسطى قديتاً في بمجرد الارهاب والاستعداد من غير حاجة إلى قتال. أما قداسة الجنس الآرى فقد بشر بها الكونت دى جو بينو الفرنسي في أما قداسة الجنس الآرى فقد بشر بها الكونت دى جو بينو الفرنسي في متلر بنحوأر بعين سنة ، وتبعه الانجليزي هوستون ستيوارت شبرلين Houston هتلر بنحوأر بعين سنة ، وتبعه الانجليزي هوستون ستيوارت شبرلين السيقي السكبير وألف كتابه أساس القرن التاسع عشر مشيدا فيه بالعبقرية الجرمانية راداً فيه كل حضارة وكل عظمة انسانية إلى ذلك الينبوع الذي لاينبوع غيره — في رأيه — حضارة وكل عظمة انسانية إلى ذلك الينبوع الذي لاينبوع غيره — في رأيه — طاحفارات والمبقريات

والحركة النازية نفسها بجملتها وتفصيلها ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر على يد رجل يشبه هتلر من وجوه كثيرة وهو Vater Jahn الخطيب المتهوس الذى نظم فى المانيافرق القمصان الرمادية والأندية الرياضية ، وبلغ من جنونه أنه أشار باقامة السدود بين ألمانيا وفرنسا وبغرس الآجام التى تملأها الضياغم والسباع على حدود الأمتين صيانة للدم الجرمانى الطهور من التلوث باوشاب الأمم الاجنبية أوكانت الدعوة « التيوتونية » على لسانه تقابل الدعوة الآرية على لسان هتلر ، ف كان يوصى أتباعه الشبان أن يتجسبوا على آبائهم فى البيوت

⁽¹⁾ Mittleurope (2) Drag Nach osten

وعلى أجهل هذا الرجل وفراغ عقله لم تتورع جامعات المانيا أن تهدى اليه ألقاب الشرف العلمية والفلسفيه ، ولم يتورع الأدباء والشمراء أن يهدوا اليه الدواوين والمصنفات ، تمجيداً له واعترافا بسداد آرائه !! مما يدل على خليقة مستقرة في دخيلة النفس الجرمانية أن تهتز لأمثال هذه الصيحة ، وأن تلبى أمثال هذه الدعوة ، ولا سما بعد الهزائم والازمات .

و يقول فيلسوفهم ترتيشكه Treitschke في تعليل ذلك: « إن هذه الحركة المعامية ذات جذو ر متأصلة في قرارة الخليقة الجرمانية ، فان قومنا طالما حنوا الى معيشة الفطرة الأولى ، فكاما جاش في عروقهم الدم تبيغت تفوسهم بدفعة العنف الطاغية 1 »

كذلك عداوة اليهود لم يكن هتلر أول دعاتها والنافحين في نارها ، بل كانت مذابح اليهود في أور با الوسطى وأور با الشرقية أقدم من مولده بمئات السنين ، وكثيراً ما افترنت تلك المذابح بأيام الضنك والمجاعة وشح الأموال . لأنها أيام تثور فيها الحفائظ و يضطرب فيها الحكم وتؤمن عواقب العبث والاغتيال .

كذلك الصليب المقوف «شارة النازية» لم يخترعه هنار بل اقتبسه من الجنود الألمان الذين عادوا به « من فنلندة » بعد ان حاربوا فيها الجيش الأحمر ، ولم يتغير منه إلا لونه الأزرق فقد سوده النازيون .

على ان حركة القمصان في ألمانيا الحديثة إن هي إلا نسخة مستعارة من حركة القمصان في ايطاليا الحديثة باشاراتها وشاراتها . مع فارق واحد في تحييتها ـ

وهو أن السلام الرومايي في روما معقول . أما في جرمانيا فهو حركة يد بغير مدلول

ولم تكن الفلسفة النازية من مبتكرات العصر الحديث ولا سيافي حملتها على الديمقراطية ووصفها الحاكم الجدير بأمانة الولاية . وأعما هي حكاية أو محاكاة للحكم التيموقزاطي Timocracy الذي ذكره افلاطون وقال أنه نظام بسند الدولة إلى من لهم عزم وحماسة ولا يسندها إلى ذوى الرأى أو ذوى السيادة وأثه يقوم على « الارادة » ولا يقوم على الرغد الذي تتوخاه حكومات الشعب أو على الرشاد الذي تتوخاه حكومات العلية والسروات

وصفة الرجل « التيموقراطى » كما لخصها أفلاطون « أن يكون غليظا فى معاملة العبيد خلافاً للرجل المهذب الذى يترفع عن هذا الخلق ، وأن يخضع للسلطة ويحب القوة والحجادة ، وألا يتذرع إلى طلب الحسكم بالفصاحة وما اليها بل يطلبه لأنه مقاتل تفوق فى أعمال الفروسية واجالة السلاح . وهو كذلك محب للرياضة والطراد »

* * *

وأعب مما تقدم أن هتلر لم ينشىء الحزب الذى أصبح رئيساً له بعد ذلك بل. أنشأه دركسلر Drexler و بضعة من رفاقه ، وأنه لم ينشىء فرقة واحدة من فرق الجيوش الأهلية التى راجت بعد الحرب الماضية لأحزاب اليمين وأحزاب اليسار ، كفرقة القمصان البنية أو فرقة الحرس السوداء أو غيرها من جيوش. اليسار ، كفرقة القمصان البنية أو فرقة الحرس السوداء أو غيرها من جيوش. اليمين ، بل انشأها ارنست روهم Ernest Roehem وفرائز سلدت Seldte

وكان اسم الحزب الذي رأسه هتار حزب العمال الألمانيين ، فندب من قبل الحسكومة للتجسس عليه كما قال في كتابه ،ثم اقترح على أثر انضمامه اليه أن



هتلر وأصحابه قبل زهو النجاح

يسمى الحزب الاشتراكى الثورى ، محاكاة للاشتراكيين انثوريين فى روسيا الحراء . فنفر زملاؤه من هذه التسمية ووقع اختيارهم بعد البحث والمشاورة على اسم « الوطنيين الاشتراكيين » ليتوسلوا باسم « الوطنيين » إلى اجتذاب أنصار اليمين ، و باسم الاشتراكيين إلى اجتذاب أنصار الشمال ، وليصبح الحزب بهذه التسمية قابلا لاستغراق الألمان جيعاً في يوم من الأيام

فمن أى وجه نظرت إلى الرجل لم يسمك أن تحسبه زعياً لألمانيا لأنه خلاق

حوادث أو خلاق أفكار ، ولم يسعك أن تحسبه زعيا لأنه أقدر من فيها وآشرف من فيها ، وغاية ما يسمك أن تقوله على التحقيق أنه تقلد زعامتها لأنه « أنسب » من غيره لظروفها ، وفرق عظيم بين الأقدر والانسب ، لأن المرء قد يناسب الظروف لنقص فيه كما يناسبها لخصلة من خصال الكال والاقتدار

لا عطی د

أشاعت الدعاية النازية بعد احتلال وادى الرين والنمسا أن زعيمهم لايخطى و لا يتردد ، فاذا حان الموعد المقدور فلا يستأخر ساعة ولا يستقدم : كل شى ف أوان وكل شى و بحساب

فلننظر الآن ماهو ذلك الحساب: هل هو حساب عويص بعيد عن التقدير أو هو داخل في تقدير من يريد ؟

كل ماحسبه هتلر « أولا » أنه يستطيع أن يهزم النمسا وأمثالها إذا أراد فتح بلادها و « ثانياً » أن الدول الاوربية الكبرى لاتقدم على حرب عالمية فى كل لحظة . فهل هذه معضلة وهل هذا حساب ؟

من البديهيات أن ثمانين مليونا يهزمون سبعة ملايين ، ومن البديهيات كذلك أن دول العالم لا تهجم على الحرب العالمية في كل ليلة ونهار

فأين هو الحساب ؟ وأين هي السياسة ؟

أنما الحساب الصحيح أن يمضى هتلر في سياسته دون أن يوقظ خصومه ودون أن يلجئهم إلى عز عمة الحرب التي ترددوا فيها .

أما أن يضرب النمسا في سنة ١٩٣٨ وتقع الحرب في سنة ١٩٣٩ فليس بشيء يعجز عقول الساسة المدبرين ، وليس هو بسياسة ، وأنما هو فعل سلاح

فان كان قد فعل ما فعل وهو يمتقد أن الحرب لن تسكون ، وأن الدول لن تقدم عليها فذلك تقيض الواقع ، وذلك أفشل الحساب وما من وزير في الدنيا يدخل في تقديره أن يحارب وأن يتورط في الحرب المالمية وألا يبالى عواقب هذه الورطة ثم يمييه أن يفعل كما فعل هتلر في النمسا وبوهيميا وغيرها

وأفشل الحاسبين يستطيع أن يفعل كما فعل هتلر إذا كان كل حسابه أن يؤخر الحربسنة واحدة . ثم تأتى لامحالة !

من الذي يعجز عن مثل هذا النجاح ?

من الذي يعجز بُمانين مليونا أن يهزم سبعة ملايين 1

كل المسألة إذن هي : هل يؤدى هذا الهجوم إلى الحرب أو لايؤدى اليها وهاهو ذا قد أدى إلى الحرب عياناً لامن باب الظن والترجيح ، فأين هو الاعجاز في التقدير والتدبير ؟

هذا هو العجز بعينه في عمل السياسة ، وهذا هو سوء الحساب وايس هو باتقان الحساب

* * *

ولننظر مرة أخرى فى تقديرات هتلر وأصحابه قبل الحرب لنرى هل هى مثال السداد والانقان ، أو هى خطل ومجازفة من وجهة النظر النازية فضلا عن وجهات النظر الأخرى

فلماذا لم يضرب دانزيج بدلا من ضرب النشك قبل مؤتمر ميونيخ ؟ لم يكن لبولونيا ضمان من دفاع فرنسا و بر يطانيا المظمى فى تلك الآونة ، ولم تكن على استعداد للقتال وحدها كما ظهر بعد ذلك فى الحرب الحاضرة

فاذا ضرب دانزیج واتفقت الدول علی خطة مثل خطة میونیخ فانه لقابض اذن علی زمام بولونیا و بلاد التشك وجاراتها جیعاً فی مرافق التجارة والصناعة والاقتصاد، فلا تقوی إحداهن علی رد كلة ولا علی رفض اقتراح

ثم لمــاذا لم يقبل ما اقترحه الرئيس روزفلت وارتضاه ساسة الحلفاء من عقد المؤتمر الدولى الذي يفصل في جميع مسائل الخلاف ؟

ألا يجوز أن تختلف الدول فى ذلك المؤتمر فيواجهها مختلفات بدلا من مواجهها متفقات ؟ ألا يجوز أن ينتزع من أنصار التسليح فى الدول الديمقراطية حجهم الكبرى التى أقاموها على رفضه التحكيم فلا سبيل إلى معاملته اذن بغير التسليح ؟ ألا يجوز أن يعذره الرأى العام فى الدنيا بأسرها إذا لجأ إلى الحرب لأنه قد أكره عليها اكراها بعد أن جرب وسائل الاقتاع فلم يبلغ بها ما أراد ؟

كل اولئك كان جائزا ، وكان خيرا مما اختار

وكل ما هنالك من اعتراض على هذا الرأى أن إطالة الزمن في المؤتمرات ربما مكنت الدول الديمقراطية من زيادة الاستعداد

فماذا صنع هو الآن ؟ هل منع ذلك الاستعداد ؟ وهل استفاد شيئًا من المبادرة بالحرب قبل تمامه ؟

كلا . بل خسر أشياء كثيرة ؛ خسر الوقت الذي كان يزداد فيه استمدادا بالتموين والتخزين

وخسر الفرصة التي كان يوقع فيها الخلاف بين أنصار التسليح والدعاة الى نزع السلاح ، فلا يجمعون كما أجموا — منجراء خطته الهوجاء — على ضرورة التسليح جهدالمستطاع

وخسر البلاد التي اضطر الى تركها للروسيا في أوروبا الشرقية وشواطىء البحر البلطى ، وقد كان طامعا فيها لامهاء

ور بما قيل أنه لايبالى عواقب ذلك لأنه على يقين من خراب الروسيا بمد موت ستالين ، أو بمد الثوره الداخلية التي يتوقعها كثيرون

فان قيل هذا فقد كان أحرى أن ينتظر ذلك اليوم فيستريح من الحرب

الحق أننا لانمسرف في الحاكمين بأمرهم رجلا أفشل حسابا من هتلر في هجومه كل مرة على خطأ واحد يدفعه من ورائه اني أخطاء

ولقد كان ذلك دأبه قبل ولاية الحسكم و بمد ولاية الحسكم ، ولا يزال دأبه الى الآن

فقبل الحكم أخطأ الحساب حين ظن أن القسرصة سانحة لقهر خصومه يوم عيد العمال (مايو ١٩٢٣) فاختلس السلاحمن مخازن جيش الهجوم ليضرب به العمال المتظاهرين، ثم عاد الى تسليمه مذعنا لتهديد الضابط لوسو Lossow معترفا معه بما في هذه الحاقة من العجلة والحجازفة

وأخطأ الحساب من نوفمبر فى تلك السنة حين ظن أن الفرصة سانحة لقلب الحسكومة فجمع جنوده وأزمع أن يقتحم ديوان الدولة بميونيخ ، وهو يعلل نفسه بولاء الحراس الحكوميين و يعتقد أنهم من يطلقوا النار على المقتحمين ... ثم خاب ظنه فكان أول الهار بين عند الطلاق النار ، ولبث بعد هذه الحجازفة الأخرى عشر سنوات يستميد ما أضاع من ثقة ومن أنصار

وأما بعد الحكم نقد يكون فى تفاصيل عمله خطأ وصواب . لحكن الاساس الذى قام عليه العمل كله خطأ لاشك فيه ، وهو اعتماده هنا كما اعتمد فى ميونييخ . على أن خصومه لايطلقون النار . . فقد ظن أنه يراوغ ويراوغ الى غير انتهاء ، وأن الدول الديمة واطيه تقبل التخدير بعد التخدير الى غير يقظة . فلم يصدق حسابه هنا ولا هناك

وقبل أن نسأل: لمــاذا اختار وه ؟ ينبغي أن نسأل: من الذي اختـــاره ؟ وما معنى اختيارهم إياه ؟

هل معناه أن ثمانين مليونا من الألمان اجتمعوا قبل نيف وعشرين سنة فسجموا أعواد رجالهم فردا فردا فلم يجدوا بينهم أحدا أصلح من هتار الزعامة الالمانية ؟

هل ممناه أن مؤسسى حزب النبازى كانوا يملكون السبيطرة على الأمة الألمانية بأسرها فيختار ون من يشاءون ثم لا يقدر أحد على أن يرفض لهم أمرا ولا يسمه إلا أن يفرغ للزعامة التي ندبوه لها وهو يجهل مصيره ومصيرها ؟

هل ممناه أن مؤسس حزب النازى أصحاب ميزان لا يختل ولا يخطى، في وزن الرجال فمن اختار وه لازعامة وجب أن يكون أفضل قومه بغير جدال ؟

كلا بالبداهة 1 . . لاهذا ولا هذا ولا ذاك

فليس مدى اختياره قبل عشرين سنة أن الأمة الألمانية اختارته ، أو أن المؤسسين لحزب النازى فرضوه على تلك الأمة ، أو أنهم و رَبُوا الرجال جميعاً فلم يخطئوا الميزان

وإنما ممناه الواقعأن خسة أو ستة من المشتغلين بالسياسة نظروا فى متناول أيديهم فوجدوا هتار موافقا لهم وموافقا للشروط التى يطابونها

ومتى عرفنا تلك الشروط عرفنا قيمة ذلك الاختيار ، وعرفنا أن معظمها « سلبى » يستلزم النفى أكثر من استلزامه الاثبات ، أو يستلزم فى الزعيم المطلوب تجرداً من صفات معلومة ، ثم يأتى بعد ذلك دور المزايا التى ينبغى أن يتحلى بها و يرجح بها على رفقائه

فالشرط الأول ألا يكون من طبقة النبلاء والأسرياء ، لأن نوبة السخط على هـذه الطبقة قد بلغت أشدها بعد الحرب العظمى ، فهرب أمراء الولايات وقامت فى دسوت الحكومة جهرة من الصناع والمتوسطين ، وأصبحت كل حركة سياسية يتولاها زعيم من النبلاء والأسرياء متهمة بالرجعة الى القديم المكروه

وظل هذا الشعور غالبا على نفوس الألمان زمنا طويلا بين أحزاب الشمال وأحزاب المين على السواء . فكتب الكابتن روهم صديق هتلر يقول: «لا ارتداد إلى العهد البائد . لارجعة . لامعونة لنا تنتظر من أصحاب السعادات الدائرين ، وإنما رجال عمل من جميع الطبقات ، وشبان قبل شيء . . . »

وهتلر كان فقيرا من طبقة أبناء الموظفين الصغار ، وكان فى ذلك الحين لايكاد يمدو الثلاثين ، وكان من صف الجند فوق رتبة الجندى بقليل

والشرط الثانى أن يكون خالياً من الروابط الاجتماعية والأواصر البيتية التى تقيده بنزعة من النزعات ، أو تحول بينه و بين التفرغ لحياة المظاهرات وخطب الأرصفة والميادين

وهتلر لم يكن يخسر شيئاً بالتفرغ لهذه « الصناعة » التي هي خير من البطالة والفراغ، ولم يكن ينقطع عن واجب بيتي أو واجب أبوى أو بنوى ، لفر بته وجفاء أهله وعجزه عن الزواج ، فهو يربح كثيراً من صناعة السياسة ولا ينقد الكثير ولا القليل .

والشرط الثالث أن يكون موافقاً للبيئة البافارية وهي بيئة محافظة قريبة إلى أحزاب اليمين ، لأن البافاريين تابعون للكنيسة المكاثوليكية ونفوذ الكنيسة بينهم عظيم . و بلادهم أصلح من غيرها لنشوء الحركات المادية لأحزاب الشمال ، ثم هي بميدة عن عاصمة الدولة الكبرى التي فيها سلطانها وهيلها وهيلمانها ، فلا يسهل تهديد النظام القائم في برلين كما يسهل في ميونيخ

وهتلركان كائوليكيا فى نشأته وإن لم يكن من المتعبدين ، وكان مجنداً فى جيش بافاريا ورائدا من رواد ميونيخ التى كانت تعد فى حيمها عاصمة المصورين والموسيقيين ، وقد كان هتلركما نعلم يتعاطى حرفة التصوير

* * *

والشرط الرابع أن يكون « مهاودا » لزملائه أولا يكون من أصحاب « الشخصيات الخيفة المهيبة المرهو بة » التي يخشون اجتياحها وطغيامها

وقد كان هذا الشرط متوافراً كل التوافر فى هتلر أيام نشأة الحركة النازية .. فيجب أن ننسى هتلر الذى يصول الآن بقوة الدولة وقوة الزعامة التى لامنازع لها ولا نجاة لمن يعصيها ، ثم نذكر هتلر الذى كان قبل عشرين سنة محتاجا إلى كل شىء من مطالب المعيشة ومطالب السياسة ، وكان مشهوراً بالدهان والملق لمن فوقه ولمن يملكون أسباب نجاحه

وليس معنى هذا أن هتلر محروم من العزيمة والارادة فهو فى الحقيقة صاحب عزيمة وصاحب ارادة . ولكنها من نوع غير ذلك النوع الكاسر الذي يروع الناس لاول نظرة ، ولمل عزيمته أشبه ما تكون بعزيمة الرأة الدؤب الملحاح التي تصل بالدأب والالحاح والعناد إلى ما تريد ، فهى لا تصدم من يراها أول مرة كالمسدمه المردة القهارون من أصحاب « الشخصية » الغالبة ، بل لمل الناظر يلحظ عليها التردد والجنوح إلى اللف والمراوغة ، فيحسبها طوع يديه حين تحزب الأمور

وقد أشار هتلر نفسه إلى شهرته بالتردد حين وقف فى الريشستاج على أثر مذبحة روهم ورفقائه لتسويغ ما فعله فقال إن المتآمرين قد غرهم به ما زعموه من « عجزه عن البت السريع عجزاً لا يشفيه إلا أن يضعوه أمام الأمر الواقع » وهذا ظن المشراء به وقد تسم الذروة التى يستوى عليها الآن . فكيف بما كان عليه أيام الابتداء أيام الشك والترقب والافتقار إلى الأعوان

إن تاريح الزعامات السياسية لحافل بامثال هؤلاء الذين يختارهم زملاؤهم لأنهم أسلم جانباً وآمن شراً وأطوع قياداً ، ثم تتبدل الأحوال دفعة وأحدة يوم يستقرون فينقلبون ذمًا إلاً على من حسبوهم نعاجا لا تفتك ولا تخيف

* * *

تلك خلاصة الشروط «السلبية» التي كانت ترشح الرجل لزعامة النازيين، وهي الشروط التي تستلزم صفات مفقودة وقلما تستلزم صفات موجودة

أما الشروط التي تدخل في باب « المزايا » الموجودة فهي الخطابة والحماسة والذكاء والاهتمام بالسياسة والالمام بالمعارف العامة ، وكانت موفورة في هتار لأنه خطيب جهوري الصوت شديد الايمان بالعصبية الجرمانية عظيم اللدد في الخصومة الحزبيه ، ذكي اللب ملم عباديء الأحزاب المختلفة منذصباه ونشأته في النمسا التي كانت كأنها « برج بابل » من الدعوات السياسية ، تتعالى فيه الصيحات بين المحافظين أنصار البلاط والأسر العريقة ، و بين الأحرار طلاب الاستقلال في الاقطار المختلفة الى كانت خاضعة لآل هابسبرج ، و بين أشياع الكنيسة ومعارضيها ، و بين الاشتراكيين على اختلاف المذاهب والألوان ، و بين أعداء الساميين وأعضاء المحافل الماسونية والأندية السرية ، فكان حسب الرجل الذكي أن يفتح أذنيه و يفقه ما يسمع ليجتمع له من المعارف العامة والحجج المتقابلة والدعايات المتناقضة ما يكفي لسلوك الطريق في حركات الجماهير

وكان اجتماع هدف الشروط معالشروط الأولى من أندر الأشياء ، ولاسيا في متناول النازيين وهم مبتدئون مستضعفون لم يبلغوا بعد مبلغ الهيمنة على عقول السواد ولا مبلغ الزلفى عند العلية وذوى الجاه والمال ، فلما التتى هتلر بالافراد القلائل الذين كان يعرفهم وكانوا يعرفونه لم يكن عجبا أن يرحبوا باختياره واجتماع ما اجتمع فيه من شروط الزعامة الحزبية ، فهوطلبتهم فها يستطيعون بين تلك القيود.

ولم يكبر الحزب قليلاحتي شمعر رجاله أن زعيمهم في حاجة الى كثير من التشذيب و « التنجير » كما يقول السامة ، فأشار زميله فيدر Feder بتعيين مرافق له من الضباط العسكريين يدر به على تنظيم أوقاته وتقسيم ساعاته ، ونصحه آخر ون بالاقامة في برلين فترة من الزمن لأصلاح لهجته الريفية بالمعاشرة والتردد على معاهد فن الالقاء، وتقدم شيئا فشيئا فوكل به شاخت معلما يلقنه أصول الاقتصاد وانتقى له الدكتور والترفنك Walther Funk الذي خلف شاخت ف مركزه بعــد وصول هتلر الى رئاسة الدولة . واتخــذت مسألة تحضيره جانباً فكاهياً يشبه تحضيرالمثل لدوره المرسوم...ولم يكن هذا مجازاً أو استعارة بل كان وصفاً حرفياً لما تعهدوه به من التدريب والتهذيب . فقد كان معلمه الاكبر في بداية الحركة رجلا مشغولا بالاخراج المسرحي والرواية التمثيلية ، وهو الـكاتب الألمى البراق ديتريش اكارت Dietrich Eckart الذي كاناسمه آخر كلمة خطها هتلر في كتابه «كفاحي » على سبيل التحية والتمجيد ، والذي اشتهر بالنزعة الآرية وبغض اليهود واتقان الهجاء اللاذع فما يكتب وينظم . وقــد نزداد علما بمنى اختيار هتار للزعامة إذا علمنا الشروط التي كان أكارت ينشدها فى زعيمه وهى « ألا يكون ضابطا لأن الناس أعرضوا عن الضباط ، وأفضل من ذاك ضائم في كسوة جندي صيفير، وليس من اللازم اللازب أن يكون ذا رأس كبير، لأن السياسة أسخف شغل في الدنيا ، وكل بائمة من نساء السوق فى ميونيخ تمى مقدار ماوعاه السادة فى فيار ، ولخير من ذاك أن يكون الزعيم غبياً مزهواً يحسن الرد على الجماعة الحر (الشيوعيين) ولا يجرى من كل رجل كرسى ترتفع لضربه . . . وتمام الوصف المنشود أن يكون أعزب غير ذى أسرة فنحتذب الينا النساء » (١)

ويقول الذين عارضوا أساوب هتار فى كتابه وفى خطبه بأساوب اكارت هذا أن هتلر قد اقتبس منه عبارات بحر وفها وكانت نموذجية من الفاظه التى طالما رددها فى صيفته ورسالاته ، وأنه اقتدى به فى الكتابة والخطابة ، واحتذى حذوه فى الرأى والطريقة

على أن الدكتور جورج شوت Dr Georg Schott أقدم المثقفين معرفة بهتلر يقول في وصف « إنه نقيض رجل الدماغ . إنما هو رجل القلب ، رجل الدم ، مذياع الأحلام »

وللدكتور شوت هذا كان هتلر يقول : « ليس كل منا نحن جميماً إلا يوحناً صنير . . . إنني اترقب المسيح »

وطالما قال هتلر القائد « لودندرف » إنه لا يريد الرئاسة ، وحسبه أن يصبح نافخ البوق . . . لأنه أحبى أن القائد الكبير أحرى أن يتبوأ مكان هندنبرج ، وأنه هو حسبه أن يتبوأ معه مقعد للستشار . وقد استقال هتلر فعلا من زعامة النازى بعد سجنه ، وتولاه فى تلك الآونة يأس عظيم فأزمع أن يصوم فى السجن صيام ما كسوينى ليسلك نفسه مع الشهداء . . ولولا أن الحركة نامت فى حينها تومة طويلة ولم يدع الأمر إلى انتخاب رئيس آخر لكان من الجائز أن تنظوى صفحة هتلر وهو مسجون

فزعامة هتلر على النازيين هذا معناها:

⁽۱) من كتاب ترجمه مثلر لمؤلفه كونراد هيدن Heiden

معناها أنه وافق المطلوب في حدود الطاقة ، وأنه لما استقر في الزعامة لم يسهل اجلاؤه عنها ، ووجب أن يرأس الوزارة حين وجب أن يدعى حزبه إلى الديوان

* * *

ومالنا بعد هذا وذاك لانختصر مسألة الزعامية الألمانية كلها بكلمات ؟ . . . لقد تأتى للمدعو « هاوسر » Hausser في ابان تلك الفترة أن يظفر بستين ألف صوت في انتخاب رئيس الجهورية ، وأن يطبع صحيفة تبييع مائة ألف نسخة ، وأن يكون له اشياع ومريدون يعدون بالألوف .

ومن هاوسر؟

هو رجل لاتدرى أمجنون هو أم عاقل ؟ ودجال هو أم درويش ؟ فقد كان يسمى نفسه المهدى المنتظر ، ورئيس الولايات المتحدة الأوربية ، وينادى بأنه هو الحتى وهو السبيل وهو الحياة

ومن يدرى ؟ فلعله لو اتفقت له مصادفات كمصادفات هتار ، وكان للدراويش نصيب من السياسة العصرية لفاز بلقب الفوهرر وسبق هتار اليه ، لأنه هو أيضا كان يدعيه و يطلب من هتار مبايعته عليه . . . وكم فى الأيام من مصحكات ا . . .

* * *

إن ورقة النصيب لاتساوى عشر مليم ، ولكن كرات ثلاثا أوأربما تتفق في دولاب الأرقام كافية لاعطائها قيمة الالوف من الجنبهات

وكذلك تتفق أربع صفات أو خمس صفات متفرقات فيصبح الفرد من الافراد في قوة عشرات الملايين

وليس حمّا من أجل هذا أن يعد هتلر فردا كسائر الافراد و إنما الذي نقصده أن ننبه المدهوشين المستعظمين حين يسألون : أجندي لم يرتق إلى صفوف الضباط يرتقي آخر المطاف إلى ذلك المكان الرفيع؟
إذ ليس لهذا الاستعظام موضع صبح . لأن الرتبة الصغيرة لم تكن هي العقبة
التي كان عليه تذليلها ، بل كانت هي المزية التي ذللت أمامه جميع العقبات ، وهي
الصخرة التي قام عليها جميع ذلك البناء

من الأوهام الشائمة أن ألمانيا لم تنجح فى ضم السار والرين والممسا و بلاد السوديت ، ولم تحطم ماحطمت من قيود معاهدة فرساي ، إلا بفضل القوة القاهرة الني أضفاها علمها هتار فى مدة حكمه .

وهذا خلاف الواقع المؤيد بالأسانيد

فان هتار قد احتل وادى السار بعد الاستفتاء المتفق عليه ولما يمض على العلانه التجنيد الاجبارى غير ثلاثة أشهر ، ولم يكن خط سيجفريد مبنياً فى ذلك الحين .

ومضطفى كال لم ينفق جزءاً من ألف من ربوات اللايين التي أنفقها هتلر على التسليح ، واستطاع مع ذلك أن يفتح الآستانة فتحاً ثانياً وفيها جيوش الحلفاء ، وأن يعيد اليها الحصون التي منعت اقامتها بعد هزيمة الحزب العظمى ، وأن يلغى الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التي سبقت المانيا الحديثة ونشأت من أيام سليان الكبير

ولما أغار هتلر على النمسا كانت غارته هده تضارب السياسة الايطالية والسياسة الروسية كا كانت تضارب السياسة الفرنسية والسياسة الانجليزية، ولم تكن دولة واحدة فى أوربا الشرقية أو أو روبا الوسطى تستريح إلى وقوع النمسه فى قبضة السيادة النازية، فهل يقول عاقل أن هتلر قد نجح فى غارته بقوة تفوق هؤلاء جيماً فى ميدان القتال؟

كلا . ليست المسألة إذن مسألة القوة والاستعداد ، ولم ينجح مصطفى كال ولا هتلر فيا صنعاه لانهما أقوى من الدول التي كانت تأبى ماصنعاه ، و إنما سر المسألة كله صعوبة الاقدام على حرب عالمية سواء كان القدم عليها من الحكام الدستوريين أو من الحكام المستبدين

فالذى صنعه هتلر إذن هوأنه غير هذه الحالة بسياسته الخرقاء، وجعل الصعب سهلا على الدول في مدى ثلاث سنوات . . . وما ثلاث سنوات في تواريخ الامم وحوادث الدنيا ؟ ؟

فهتار لم یکن قویا یوم أحجمت الدول عن حربه ، ولم یکن ضعیفا یوم نفضت عنها الاحجام ولم تجد بین یدیها مناصا من الاقدام . بل کان أضعف ما کان وهی مقدمه علیه

فليست القوة اذن هي التي أكرهت الدول على تركه وشأنه يفعل في السار والرين والنمسا والسوديت مايريد

> و إنما كانت هناك حالة إغضاء فغيرها هتار محالة المقاومة والعداء فان كان هذا ماأراده فقد مجح

لكنه يكون في هذه الحالة أخرق من عرفت الدنيا من ساسة الأقوام ، لأن أحداً من الساسة الراشدين لا يعمل بيديه ولا يبذل كل ما يملك لتأليب أعدائه عليه ، ولو كان على يتين من الظفر الأخير ، فكيف والظفر مجهول ؟ وكيف وهو بعد تحقيقه لا يضمن لصاحبه النجاح فضلا عن دوام النجاح ؟

كلا اليست سياسة هتلر هي التي أتاحت له أن يفعل ما يشاء ، بل سياسة هتلر هي التي جمعت الخصوم على منعه ، وأقنعت الأمم - قويها وضعيفها - أن كل مسلك مع هذا الرجل غير المقاومة والصادمة لا يفيد

وليس بصحيح أن ألمانيا انتظرت مكتوفة اليدين حتى أراحها هتار من أثقال المفارم والقيود التي فرضتها المعاهدات

فقد أعلنت الحكومة الالمانية في سنة ١٩٣١ أنها لا تدفع شيئا من المغارم والتعويضات ثم جاء مؤتمر لوزان فأعفاها منها كل الاعفاء.

وقد تمت فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ قواعد الاتفاق الخاسى على التسوية بين المانيا والولايات المتحدة وأنجلترا وفرنسا وايطاليا فى شروط التسليح والضمان

واستظاع المستشار هنريش بروننج Heinrich Bruning أن يتفق مع مندو بى انجلترا والولايات المتحدة وايطانيا على إباحة توريد السلاح وتحصين الحدود وزيادة الجيش الى ثلمائة ألف فى وقت السلم ، وإجازة تدريب الجنود المرابطين الى جانب الجيش القائم ، ومد الحدمة المسكرية الى خس سنوات . . ولم تبق إلا موافقة السفير الفرنسي لابرام الاتفاق . فما الذي حال دون ابرامه قبل استقالة بروننج من استشارة الريخ ؟

العجيب أن الذي عطل هذا الاتفاق هو فون پاپن وأصحابه الذين كانوا يعملون لاسقاط بروننج ودعوة هتلر الى الوزارة أ. . فانهم اجتمعوا بسفير فرنسا وأبلغوه أن بروننج ذاهب لا محالة فلا فائدة ترجى من تضييع تلك الهبات على وزير يوشك أن يستقيل ، وأن « أناسا متطرفين » يوشك أن ينهجوا في المانيا سياسة العداء والتحدى فلا يحسن التعجيل بتلك الهبات قبل جلاء الحال (١)

و كا تما أحس هؤلاء الساسة أن نجاح بروننج يقضى على آمالهـم ويفض الشعب عنهـم و يجنح بألمانيا الى طريق غير طريقهم فأفسدوا عليه وعلى أمتهـم

⁽۱) كتاب فرانز فون يابن تأليف Blood Ryan

الامر ، وأحبطوا عمله ليقنعوا الشعب بضرورة التحدى والعمداء

وصفوة القول أن استنزاف الثروات والجهود والتسليح والتهديد لم يكن لازما لقضاء مطلب من المطالب النافعة ، وأنه على فرض نفعه لم يكن مضمون المواقب مأمون المصير

فليس من المحقق أن مصالح المانيا أو مصالح العالم تستلزم تلك الأعمال المنيفة التي لايسلوها هتلر ورفقاؤه . ولسكن من المحقق الذي لاشك فيه أن تلك الأعمال جيماً توافق طبائع اناس مفطورين على العجرفة والقسوة والغدر وتمرد الذي يرضيه أن يهدد ويتوعد ، ولو لم تسكن ثمة ضرورة للتهديد والوعيد

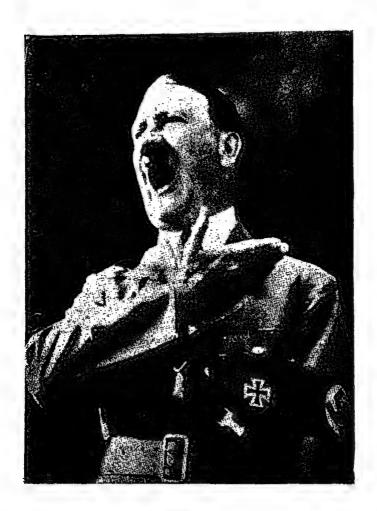
وكل عمل من أعمال هتلر ورفقائه نستطيع أن نفهمه إذا فهمنا الحاجة إلى المعجرفة والقسوة والغدر والتمرد وسائر تلك الصفات ، فليس في عمل منها إذن قليل ولاكثير من الفموض

لكننا لانستطيع أن نفهمه إذا قيل أنه لازم للمصالح العالمية والمطالب القومية كائنة ما كانت . لأن لزومها مشكوك فيه ، ونجاحها كذلك مشكوك فيه

و إذا كان التفسير الجامع المانع للاعمال المتفرقة المتعددة هو التفسير الصحيح القريب إلى المعقول ، ففيا تقدم بيان طقيقة البواعث الباطنة التي تستفز أولئك الناس إلى الجرائم التي يقترفونها ثم يزعمونها من مصالح العالم أو مصالح الالمان

وإنك لتسأل : لماذا اعتدى هتلر على الضعفاء وقتل الخصوم والاصدقاء واختار الارهاب والارغام دون الاقداع والارضاء ؟ ؟ فاذا أجبت : انه فعل خلك لانه عجرم النفس لم تجد عملا من تلك الاعمال يناقض هذا السبب في بدايته أو منتهاه

ولكنك واجد مئات النقائض إذا قيل لك أنه قد فعل مافعل لمجد ألمانيا أو لمجد الآريين ، أو لأشباه هذه التعلات ، ولا ينني هذا أن أعماله ليست كلها جرائم وفظاعات ، فان المجرمين يعملون في حياتهم أشياء كثيرة غير الاجرام ، ولا يتنفسون الاجرام شهيقاً وزفيراً في اليقظة والمنام



هنار بخطب

الفَصِلُ ٱلِثَّانِيٰ

مطالب ألماني وشكايتها

مطالب أكمانيا وشكاياتها :

إلا اننا نبحث مطالب المانيا وشكاياتها بحثاً منفرداً عن الاعتبارات السابقة لنرى مقدار ما تنطوى عليه من الحقيقة ، ومقدار ما تثيره من السخط المقول فى نفوس الألمان ، وأولها الشكاية الـكبرى بل الشكاية الجامعة لـكل الشكايات ، وهى معاهدة فرساي .

لقد أكثر الألمانيون عامة والنازيون خاصة من تمديد مساوى، فرساى ومظالم فرساى وجرائر فرساى حتى خيل إلى الناس ان هذه المعاهدة كان ينبغى أن تكتب لمصلحة المغالب لا مصلحة الغالب ، ولسلامة المانيا لا سلامة خصومها . ولم يقتصر نقد فرساى على الألمان والنازيين ، بل تعداهم إلى الانجليز والفرنسيين والامريكيين ، ومن وقنوا فى الحرب الماضية موقف الحيدة بين المعسكرين ، وقد كان هؤلاء الناقدون بمن يعتقدون حقاً أن معاهدات السلام اشتمات على جميع تلك المساوى، التي أحالوها عليها ، أو بمن يعارضون حكوماتهم وينصحون بسياسة غير سياستها ، فيحبون أن يلقوا على عواتقها تبعات الحوادث والمشكلات العالمية و عنون الشعوب مستقبلا خيراً من الماضى الذى يسألون عنه تلك الحكومات . هذا أو يكون الناقدون لمعاهدات السلام بمن يسخرون أقلامهم والمقترحات . وليس وجود هؤلاء المأجورين بالغريب إذا ذكرنا الملايين التى كان النازيون وأمثالهم يبذرونها فى جميع الأقطار .

ومعاهدة فرساى قد اشتملت ولا شك على اخطاء كثيرة وعيوب كبيرة ، أكبرها فيما نعتمد خطأ المغارم والتعويضات التى فرضتها على الألمان . فان هذه المغارم والتعويضات خطأ من الوجهة الاقتصادية الفنية و إن كانت عدلا من وجهة الجزاء والحساب ، لأن الألمان اذا حاولوا أن يؤدوها نقدا لم يجدوا المال بغير تجارة خارجية ، واذا أغرقوا الأسواق الخارجية بمصنوعاتهم و بضائعهم كانت خسارة الظافرين من جراء هذه المنافسة أعظم من خسارتهم بفقد التعويضات ، واذا أرادوا أن يؤدوها عيناً و بضاعة كسد ماعنسد الظافرين من عين مماثلة و بضاعة مشابهة للبضاعة الالمانية

ومثل هذا الخطأ وشيك أن يظهر ، وقد ظهر . فابتدأ الظافر ون باصلاحه على طريقة داوس Dawes ثم على طريقة يونج Young وكلتاهما ترمى للى التقسيط والاعفاء والتأجيل ، ثم عدلوا بتة عن المطالبة بالفر وع والاصول واكتفوا بما أخذوه ، وهو تحو الثمن من المطلوب مما أعانهم على تعمير الخرائب وتجديد المعالم بضع سنوات ، وانتهت هذه المسألة في مؤتمر لوزان (سنة ١٩٣٢)

فسألة التعويضات كانت خطأ ولم تمكن ظلما ولا عنتا من الظافرين ، اذ ليس بالمعقول أن يغرم هؤلاء الظافرون ماغرموا من تمكاليف الحرب ومن تخريب الأرض وتدمير المناجم ودور الصناعة ثم يعمروا هذا الخراب بأموالهم وجهود أبنائهم والالمان المهزومون ناجون في ديارهم لم تخرب لهم مدينة ولم يتعطل لهم مرفق أو صناعة ... ولو جاز هذا لمكانت الهزيمة في الحروب خيرا من الانتصار

444

كذلك أخطأت معاهدات السلام فى تقسميم بعض البلاد وترسميم بعض

الحدود ، ولـكنه لم يكن بالخطأ الذى لايفتفر ولا بالخطأ الذى يسهل اجتنابه فى مثل ذلك العمل الجسيم

فقد كانت أمام المؤتمرين مسائل متراه كة لا تخلص من ناحية إلا اشتبكت من نواحي شتى : ان خلصت من ناحية اللغة والجنس اشتبكت من الناحية المغرافية ، وان خلصت من هذه جميعاً اشتبكت من ناحية التجارة والثروة ، وان خلصت من هذه وتلك اشتبكت من ناحية الخطط الدفاعية والمواقع المسكرية ، وان خلصت من نواحي اللغة والجنس والتجارة والدفاع اشتبكت من ناحية النزاع بين الدول الكبرى على مناطق النفوذ أو على مرامي السياسة العالمية او على الاحقاد التاريخية أو ماشا كل ذلك من المقد المؤرزة التي لا تحصى . فاذا أخطأت المعاهدات فهو خطأ مفهوم ليس في وسع أحد — حتى هذه الساعة — أن يدل الدنيا على صواب في موضعه يقنع جميع الشاكين و ينصف جميع المظاومين و يبطل جميع المنازعات

وقد رأينا أمثله مما فرضه الالمان الفالبون على روسيا فى معاهدة « برست ليتوفسك » وعلى رومانيا فى معاهدة بوخارست وعلى المفلو بين الآخرين الذين لم يبرموا معهم صلحا ولا سلاما فاذا الرحمة كل الرحمة فيا فرضته فرساى وأنفذه الحلفاء من الشروط ، واذا الالمان يقولون ويفعلون دا عما كما قال غليوم الثانى فى معداً الحر بالماضية : ويل للمغلوب !

ولو أننا نظرنا الى فرساى من حيث الأثر الواقع فى المانيا لوجدنا أن فرساى هذه كانت خيرا للالمان من فرساى التى خرجوا منها منتصرين فى حرب السبعين فقد كان قصارى ما بلغه الألمان فى حرب السبعين أن خرجوا منها أمارات متفرقات على كل امارة منها عرش وتاج وفى كل منها حكومة ودستور فأصبحوا بعد فرساى الحديثة دولة واحدة لا فوارق فيها بين الامارات

وقد لبث الآلمان المنتصرون أربعا وأربعين سنة حتى استعدوا للحرب الماضية ولم يلبث الألمان بعد فرساى الحديثة عشرين سنة حتى أصبحوا على أهبة القتال في عدة سابغة لم تـكن عملكها دولة منتصرة في الحرب الماضية

سأل « الجدرال » جور نج سفير بريطانيا العظمى السير نيفل هندرسون عند ذهابه لأول مرة إلى نورمبرج (١٩٣٧) : من من الدول كان أعظم ر بحا فى الحرب العظمى ؟

فأجاب السفير: إنها هي إيطاليا لأنهاضمت اليها حدودها الجغرافية والعسكرية شم الامم الصقلبية بعد ايطاليا

فقال جورنج: « كلا. بل هي المانيا . إذ هي لولا تلك الحربولولا الهزيمة فيها الكانت وحدتها ضربا من الحال »

وهذد هى الحقيقة التي لايجهلها زعماء النازيين ولا ينبغى أن يجهلها أحد ممن يعرضون بالنقد لمعاهدة فرساى الأخيرة

على أننا نقارن بين فرساى الاولى وفرساى الثانية فيخطر لناسؤالان لافكاك منهما وهما: لماذا انهزمت فرنسا فى فرساى الاولى فانتهت من الهزيمة إلى تحطيم الاستبداد وتمزيز الحرية والحكومة الديمقراطية ? ولماذا الهزمت المانيا فى فرساى الثانية فانتهت إلى هدم الديمقراطية وتمكين صرح الاستبداد ؟

للأم سر غير فرساى وكل ما انطوت عليه معاهدات السلام ?

للأمر سر مكشوف هو طبيعة الاستبداد ومطامع المستبدين فى البلاد الالمانية ولا سيا البلاد العروسية

فقبل فرساى كانت المطالب التى تطلبها المانيا الآن محققة بأجمها ولم يكن لمظالم فرساى ولا لمعاهدة فرساى أثر

كانت معها دانزيج ، وكان معها مجاز دانزيج ، وكانت معها المستعمرات ،

وكانت ممها شواطى. البحر البلطى، وكانت ممها الالزاس واللورين ، وكانت ممها عواطف الشعوب التي انقلبت إلى الشك فيها بعد قيام الحركة النازية

فياذا أغنى عنها كل ذلك ؟

لم يغن شيئا ولم يمنعها أن تنادى بالسيطرة العالمية ، وأن تعمل لبسط هسذه السيطرة على الأصدقاء والأعداء

فني سنة ١٩١١ لم تمكن هنالك مظلمة من مظالم فرساى ولاهزيمة كاذبة أو صحيحة، ولكن الجنرال فردريش فون برنهاردى Friedrich Von Bernhardi الف يومئذ كتابا عن « المانيا والحرب القادمة » أوجب فيه الحرب على قومه وعقد منه فصلا عنوانه « السيطرة العالمية أو السقوط »

وكان مكسميليان هاردن Harden كاتب عيفة دى ركونفت Die Zukunft يقول قبل ذلك بسنة في محيفته (١) «نحن خلقناللحرب. فلنصنع الحرب صنعاً قبل فوات الأوان »

وكان الدكتور كلاس رئيس العصبة الجرمانية يقول قبل الحرب الماضية بسنة : (إن قوة ألمانيا العسكرية تستخدم حيثًا نتعرض نحن أو يتعرض جيراننا المنافسة من ذوى النيات السيئة ، وان شعبنا الذى يسرع فى عوه يجب أن يقرر حقه فى الوجود وأن يبسط يده على أرض جديدة فى أور با الشرقيم الجنوبية على الخصوص)

وكان كارل بيترز Karl Peters مدير الاستعار السابق يقول حوالى ذلك التاريخ : (ماذا كان بسارك صانعاً لوكان معنا الآن ؟ لقد كان داْءاً على استعداد

⁽۱) ۷ أكتوبر سنة ١٩٩٠

للمغامرة بإضرام الحرب العالمية فى سبيل تحقيق مراميه ، ولا مناص لألمانيا من أن تكون على استمداد لمثل ذلك فى كل حين »

وكانت صحيفة الجامعة الألمانية دى بوست Die Post تنذر بريطانيا العظمى (فى سنة ١٩١٢) أن تترك للألمان الحرية المطلقة فى السياسة الأوربية وتقرهم على كل تضخم لقوتهم فى القارة — أى أو ربا — سواء نشأ هذا التضخم من محالفات مع دول أو ربا الوسطى أو من الاغارة على فرنسا، وألا تعارض سطامع المانيا الاقتصادية فى البلقان أو آسيا الصغرى » (١)

وكانت صيحة « من برلين إلى بغــداد » تملأ الآذان قبــل أن يتعلم هـتلر معنى التوسع والامتداد

وكان هتلر يحلم فى صباه — كما قال فى كتابه — بسطوة الجرمان وسيطرة الدولة الجرمانية دون أن يكون باعثه إلى ذلك غيظه المحتدم من فرساى ومظالمها الصحيحة أو الفتراة

وثقافة الألمان فضلا عن صحافتهم وأقوال ساستهم فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طافحة كلها بهذه النعرة التى لاينكرها القوم ولا يسمهم أن ينكروها: القوة ! ومعنى القوة الغطرسة ! ومعنى الغطرسة السيادة والعدوان . فهم ظلموا معاهدة فرساى ولم تظلمهم معاهدة فرساى ، وامل الحلفاء قد بالنوا فى الثقة بالمانيا ولم يبالغوا فى الحذر منها والتشديد عليها ، فلو وفهوا عنها بمض الترفيه لعجل ذلك بالحرب الحاضرة ولم يؤجلها ، ولحسبته ألمانيا غفلة من الظافرين ولم تحسبه لهم فى سجل الحسنات

⁽۱) تراجع هذه الشواهد وكثير من أمثالها في كتاب ﴿ وثبة المانيا ﴾ لمؤلفه ارنست هامبلوش Germany Rampant by Ernest Hambloch

نظرة أخرى فى المطالب الالمائية

ونستقصى الوضوع من جانبه الذى تمثله الدعوة النازية فنفرض أن المطالب الألمانية لم تكن مطلوبة قبل معاهدة فرساى ، وننظر إلى الذرائع التى يتذرع بها النازيون فى يومنا هذا إلى تحقيق تلك المطالب . فهل هى ذرائع صادقة ؟ وهل هى مما يؤخذ على ظاهره ؟ أو يمكن أن يجاب والعالم مطمئن إلى عقباه ؟

أهم المطالب التي سبقت الحرب الحساضرة هي ما يسمونه فسحة العيش Le bensraume والمستعمرات القديمة ، ثم دانزيج ومجازها

* * *

فسمة العيشن

ويريدون بفسحة الديش أرض الزراعة « اللازمة » لمعيشة الألمانيين في القارة الأوربية ، وهي مسألة يقول هتلر في كتابه أنها لا يحل بالمستعمرات ولا تعالج في المكرون! ولا محيص فيها من النظر إلى التخوم الأوربية التي يقطنها الفلاح الألماني وقد ضاق به وطنه ، وشح عليمه قَطَنه ، ووجب أن يتوسع أو يموت

فهل تشكو المانيا كثرة السكان وازدحامهم في الحقيقة ؟ وهل حالها في ذلك أسوأ من أحوال الأمم الأوربية الأخرى ؟

كل ما يصنعه النازيون يدل على أنهم يشكون قلة السكان ولا يشكون كثرتهم وازدحامهم في المدن ولا في الريف

فهم يشجعون النسل ويبذلون معونة الزواج ، ويقيدون الهجرة من بلادهم ويسعون فى طلب الأيدى العاملة من إيطاليا والحجر و بوهيميا ومورافيا و بولونيا وغيرها ، ويعلنون أن پروسيا الشرقية تتسع لمليونين من الألمان النازحين من الاقاليم البلطية بعد التسليم فيها للروسيين

وقد نشرممهد العمل الألماني تقريره قبل الفارة على بوهيميا ومورافيافقال انه « على الرغم من وفرة العاطلين الذي وجدوا العمل في سنة ١٩٣٨ بشق النفس لا يزال نقص الأيذي العاملة شديدا ، واننا إذا قدرنا النقص في أوائل سنة١٩٣٨ بخمسائة ألف من الصناع والمستخدمين فهو على تقدير الوزير سيروب Syrup المسنة المقبلة لايقل عن مليون »

وفى الوصية الأولى من الوصايا العشر التى نشروها فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ وسموها وصايا غزوة الانتاج « ان ألمانيا فقيرة فى مساحـة الأرض ولـكنها غنية بسكانها غنية بجميع الموارد التى تـكفل لهـا اطعام أبنائها فى هذه المساحة المحدودة ، واخراج الخامات الصناعية عقادير عظيمة »

* * *

واذا قارنا بين نسبة السكان على حسب المساحة والتعداد فمساحة ألمانيا . . . / ٢٦٨ ميل مربع ونسبة السكان فيها على هذا نحو ٣٩٦ في الميل ومساحة بلجيكا ٧٠٥ / ١١ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٧٠٧ في الميل ومساحة فرنسا ٢٥٩ / ٢١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ١٩٧ في الميل ومساحة هولندة ٢٩٨ / ٢١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٢٧٤ في الميل

ومساحة بريطانيا المظمى . . . / ٩٨ ميسل مربع ونسبة السكان فيها ٤٨٨ في الميل

فألمانيا اذن أوسع مساحة من بلجيكا وهولندة و بريطانيا العظمى ، (1) ولو أضفنا إلى مساحة بلادهن مساحة مستعمراتهن لما تغير وجه المسألة بهذه الإضافة ؛ لأن أبناء هذه الأم القاطنين بالمستعمرات بضعة ألوف لاتقدم ولاتؤخر فى الحساب وقد اثبتت الاحصاءات عن سنة ١٩٣٧ ان القادمين إلى تلك الدول أكثر من النازحين عنها ماعدا هولندة وايطاليا . ولم يكن المهاجرون الالمان فى جميع المستعمرات الألمانية يتجاوزون عشرين ألفا على أكبر تقدير : أى نحوالعدد الذى كان يعيش فى باريس او لندن من الألمانيين

فالصيحة بما يسمونه « فسحة العيش » أن هي إلا صيحة مصطنعة تخفي وراءها بواطن مكتومة غير ظواهرها المكشوفة

وحقيقة الأمر هي أن النازيين يريدون زيادة السكان ليتمكنوا من فتح الأرض وانتزاعها من أبنائها ، ولايحتاجون إلى الأرض كايزعون لأنهم يشكون ازدحام السكان .

أوكما قال هتار: « اننا الآن نعد ثمانين مليونا من الجرمان في القارة الأوربية ، ولكن صواب سياستنا ألخارجية هذه لايتقرر ولايثبت حتى نصبح في مدى قرن واحد مائتين وخسين مليونا يقيمون في هذه القارة ولايقيمون فيها معصورين كأنهم الارقاء في خدمة العالم ه

وَكَأَنَّمَا مَشَكَلَةً لا الفسحة » المزعومة هي في أدمغــة هؤلاء الناس: كيف

⁽١) الحرب البتراء تأليف أريك مور ريتشي

The Unfinished War by Eric Moore Ritchie

نعتدي ؟ وكيف نبلغ العدد الذي يتيح لنا الاعتداء ؟ وليست هي مشكلة الزحام أو التماون بين الأمم على تذليل العقبات وفض المشكلات

وسبب الاعتداء حاضر على كل حال . ومن الضرورى أن تموت اليوم كل أمة يطمع النازيون فى أرضها ، لأنهم ينتظرون بعد مائة عام من يصلون إلى الدنيا من مواليد الغيب الجهولين 1 . . . وهم بالقياس إلى ما كان عليه آباؤهم قبل مائة عام لن يزيدوا عند حلول الأجل المقدور على مائة مليون

* * 4

ولو كان النازيون صادقين في شكوى الزحام لكان قبيحا بهم أن يعتبروا قتل جيرانهم حقا مشروعا لا يعارضهم فيه معارض ، وان يعتبروه الحق الوحيد الذي يحق للمالم أن يلتفت اليه ، أو الحل الوحيد الذي لا يفكرون ولا يفكر العالم في غديره . فكيف والصيحة كا رأينا كاذبة ؟ وكيف وهم لا يشعرون بالضيق من كثرة السكان بل يشعرون بالضيق من قلتهم واحتياجهم الى المزيد ؟

المستعمرات :

أما المستعمرات فتراد للاغراض التالية وهي : تصريف السكان ، أو تصريف السلم والمصنوعات ، أو جلب الخامات ، أو الما رب العسكرية والخطط الحربية .

فأما تصريف السكان فقد رأينا قلة غناء المستعمرات جميعا فيه . ولا سيا المستعمرات الألمانية القديمة التي لم يكن منها مايصلح لسكني البيض غير إفريقية الجنوبية الغربية

فكل من رحل الى المستعمرات الألمانية من أهل المانيا لم يتجاوزوا عشرين ألفاً يسكن مثلهم كما قدمنا في عاصمتي فرنسا وانجلترا

وليست الولايات المتحدة ولا الأقاليم الجنوبية من أمريكا مستعمرات نازية أو مستعمرات لدولة أوربية ، ولكنها قد اتسعت لعدة ملايين من الألمانيين يميشون فيها على حال لا يستبدلون بها المعيشة فى أحسن المستعمرات

وأما تصريف السلع والمصنوعات فسلا يعقل عاقل أن الهمج الافريقيين يستنفذون من السلع والمصنوعات مايساوى نفقات يوم واحد من الحروب الحديثة وأما الخامات فليس منها فى المستعمرات التي كانت تطالب بها ألمانيا غيير قليل من المطاط والنحاس ونزر من الأطعمة ومادة الفذاء. وقد دلت الاحصاءات الالمانية نفسها على أن الحدالاقصى الذى بلغته الواردات من المستعمرات إلى ألمانيا لم يتجاوز نصفا فى المائة من جملة وارداتها

ولنضرب المثل بمستعمرة واحدة لتوضيح هذه الحقائق المحصورة بالأرقام ، أو لتوضيح دخائل النيات التي يخفيها النازيون وراء دعوى المطالبة بالمستعمرات

فستعمرة الكامرون يسكنها مائتان وواحد وثمانون من البيض الأوربيين : منهم مائة وستة وسبعون ألمانيا ، وواحد وستون بريطانيا معظمهم موظفون ، وأربعة وأربعون من أجناس أخرى معظمهم قسس ومبشرون

وقد عرضت مزارع المسكمرون للمبيع (١٩٢٥) فاشتراها الألمان الذين. كانوا يميشون في المستعمرة قبل الحرب الماضية وأوشكت أن تنحصر في أيديهم تجارتها صادرة وواردة كما جاء في احصاء سنة ١٩٣٧

فأصدر الألمان ما قيمته ٩٤٦ ر٤١٩ جنيها انجليزيا من جملة صادرات تساوى ٥٥٥ و٢٦٥ جنيها . ولم تزد قيمة الصادرات إلى الجزر البريطانية عن ٣٣٧٧٠٠ جنيه

واستورد الألمان من بلادهم ماقیمته ۷۷۱ ر۱۵۹ جنیها من جملة واردات تساوی ۸۶۳ ر۲۲۸ جنیها . ولم ترد الواردات من الجزر البریطانیـــة عن ۲۹۰ ر۳۹ جنیهات

ولا ننس أن خامات المستعمرات جميعا قلما تبلغ جزءا من ثلاثين جزءا من خامات البلاد الحرة ، وان أيما كثيرة اصغر من أن تكره منافسا أو تقتحم سوقا تتجر فى العالم وليس لهامستعمرات كالسويد والنرويج وسويسرة ، وان الولايات المتحدة لأتملك كندا ولسكنها مع هذا تصدر اليها ثلاثة أضعاف الصادرات الأنجليزية ، وان رؤس الأموال البريطانية فى الارجنتين أكر من نظائرها فى جميم البلاد التابعة لبريطانيا العظمى

فالساسة المتوجسون من خفيايا النيات التي يواريها النيازيون في اطواء

مسألة المستعمرات معذورون إذا أيقنوا أن الفرض المطلوب إذن هو العدوان المسكرى والترصد للحروب والغارات

وحسب القدارى ، أن يلتى نظرة على مواقع المستعمرات الألمانية القديمة ومواقع حلفائها ليعلم ما يهدد العالم من أخطارها . فليس أسهل من ايصاد مسالك الحيط الأطلسي والمحيط المندى والبحر الأحمر على من يملك مكامن النواصات والألفام في تلك المستعمرات ، أو يملك مراكز الطيران على جميس الشواطى الافريقية ، و بعض الشواطى ، في المحيط الهادى وما يليه

وليس أسهل من تهديد القارة الافريقية برمتها سواء فى منابع النيل أو فى جوف الصحراء إذا أعيدت هذه المستعمرات إلى الأيدى النازية ، وثبت القبائل الافريقية التى تفهم المحسوسات ولا تشغل بالها عما عداها — أن النازيين هم المغالبون وانهم يأخذون كل ما يريدون

عندئذ لايأمن أحد في افريقية أو في العالم بأسره تهديد النازيين . ومن الذي يقول ان النازيين لايهددون وهم قادر ون على التهديد ! . . . الذي يقول ذلك لا يؤتمن على مصائر شعوب

ومن العبث أن نصيع الوقت فى تفنيد مايزعم النازيون إذ يقولون انهم يطالبون بالمستعمرات لأنهم يأنفون أن تعزى اليهم جريمة الحرب وان تضيع مستعمراتهم عقو بة لهم على تلك الجريمة . . . كأن النازيين يخجلون من الحرب وهم يتعبدون بها و يؤلمونها و يقدسونها فى جميع ما يكتبون ، أو كأ عا كان هتلر ينسى هذه القصة يوم كتب «كفاحه» وقال فيه ان المخاطرة فى سبيل المستعمرات من أسخف الحاقات ، أو كأن فتح النسا وهى بلاد أوربية لا يعدل فى هذا للمنى سيطرة ألمائيا على المجاهل الافريقية ، أو كأن استيلاء اليابان على بعض

المستعمرات الألمانية لا يضيرها كما تضيرها المستعمرات التي في أيدى الأوربيين (الآربين أو أشبساه الآربين !)

فهذه تعلات تقال ولا يصدق أحد أن الساسة يقصدونها حقا حين يغررون بها جاهير الشعوب ، أو انهم يجازفون بخراب العالم من أجلها ويصرون على هذه الجازفة سنينا بعد سنين ، ولو صدقوا فى ذلك لكانت وصمتهم بالصدق فيه أشد وأقبح من كل وصمة يفتريها عليهم ألد الأعداء

أما مسألة دانزيج — وهى سبب الحرب المباشر إذا أخذنا بأقوال اللسان — فكل مايذ كره النازيون أنها كانت ألمانية و يجب أن تمود إلى حكومتها الأولى . ثم ينسون ماعدا ذلك من الدعاوى والمصالح والتواريخ القريبة والبعيدة ينسون مثلا أنها لبثت من منتصف القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثانمن عشر مدينة حرة فى ظل السيادة البولونية ، وانها ضمت إلى بروسيا بعد هزيمة نابليون الأول على خلاف مشيئة أهلهما ، وان حياة بولونيا تتوقف على دانزيج ولكن حياة ألمانيا لاتتوقف عليها ولو عزلت عنها كل المزلة ، وهى حقيقة عرفها الساسه الألمان من قديم الزمن وعبر عنها ملك بروسيا فردريك الثانى أحسن تمبير حين قال « ان القابض على مصب نهر الفستولا لهو أقوى فى بولونيا من الملك البولوي الجالس على عرش فرسوفيا »

ولم تكن سيطرة ألمانيا على دانزيج ضعيفة فى نظامها الحديث الذى قررته المهاهدات بعد الحرب الماضية ، فقد كان الأمر فيها لمجلس الشيوخ وللحكومة المسؤلة أمامه ومعظم أعضائهما المانيون ، ولم يكن لبولونيا من الأمرفيها إلا القسط الكافى لضان صادراتها ووارداتها و بريدها ، ثم لا ولاية لها عليها . بل الولاية لعصبة الأمم التى تندب حاكم المدينة وترجع اليه فى العلم بأحوالها

ولم يحدث قط أن تمرضت بولونيا للمواصلات الألمانية في المجاز البولوني المشهور الا لمراقبة المهربات التي قد تحمل الى بلادها ، ولم يطلب النازيون استفتاء الشعب في ذلك المجاز لمعرفة رأيه فيمن يحكمه الا على شريطة أن يحكموه سنة شم

يجرى الاستفتاء المطاوب! ومعنى ذلك أنهم يحتاجون الى سنة فى الحكم النازى المهود ليضمنوا جلاء من فى المجاز من البولونيين واستدعاء من يخضعهم من النازيين . . . ثم لا يضمنون هذه النتيجة الاأن يكون الحكم فى أيديهم ساعة الاستفتاء ، وأن يكون كل مقم فى المجاز عارفا ما سيصيبه إذا اختار بولونيا ، وهو برى بمينه أن اختياره إياها لا يفيد

فليست « دائز يج » هي بيت القصيد

إنما بيت القصيد هو خنق بولونيا ومن يجاورها من أمم أوربا الوسطى . فلا تجد تلك البلاد منفذا لتجارتها فى غير الأرض الألمانية من الشمال أو الجنوب: فنى الشمال دائريج ونى الجنوب النمسا ، ولن يدخل الى تلك البلاد أو يخرج منها شىء الا باذن النازيين !

ومتى استُمبدت أور با الوسطى للنازيين هذا الاستمباد فمصير أور باالشرقية وما وراءها معروف ، فهى خطط تجتمع في خطة واحدة ، وهى استعباد كل من يبتلى لهم بجوار ، أو يقف لهم فى طريق وعلى الرغم من هذا جميعه لم تكن الحرب ضرورة قاسرة ولا ضرورة غير قاسرة ، لأن أنصار السلام من ساسة الامم فى أوربا وأمريكا تعبوا وهم يقترحون حلول المفاوضة والتوفيق ، قتيل لهم أن الحل الوحيد هو قبول مايريده النازيون ولوكان فى قبوله الفناء

ولمن شاء أن يأخل الطالب النازية على ظاهرها ، أو يأخل ها على باطنها الذي قلما يستره حجاب

فهى على ظاهرها لا تلجى. الى الحرب ولا يحكون المقدم على الحرب من أجلها الا مجرما يجازف يسلام أمته وسلام العالم لفير ضرورة

وهي على باطنها سمى حثيث للسيطرة على العالم وتهديدمن فيه من الأقوياء

والضعفاء على السواء . فهل لابد من هذه السيطرة ؟

وهل الحرب طريقها التي لامحيد عنها ؟

هل هي طريق السيطرة على العالم حتى لو انتهت بالانتضار ؟

نفرض أن السيطرة على العالم غاية لا محيص منها فهل الحرب وسيلة لامناص منها ؟ وهل هي وسيلة مضمونة ؟

وماذا لو فشلت الحرب ؟ وماذا لو امتدت وطالت ولم تفشل؟ أكل هذا لايدخل فى الحساب ثم يقال أن السياسى الذى يهجم على هـــــذا كله يحسب ولا يخطىء الحساب؟

أن الرجل الذي لا يمرف له سياسة غير هذه السياسة لا يمرف أن يسوس لأن الأمم إنما تحتاج إلى السياسة لاحتياجها إلى اجتناب هـذه الشرور أما إذا كانت لا تحتاج إلى اجتنابها فما أغناها عن السياسة والسواس!

و إذا كانت سياسة هتار قد اضطرته إلى ورود هذا المورد الو بيل فبئس ما فعل ، وساء نصيبه من السياسة

أما إذا كان مختارا يملك الحرب والسلم ثم لا يبالى أن يخوض الحرب و يعرض عن السلم فالمصيبة أعظم : المصيبة خطل و إجرام وهوس مجتمعات

مهلة ألمانية

ذ كرنا طرفا من الأسباب التي هيأت النجاح لهتلر وجماعة النازيين في الأمة الألمانية ، فنضيف الآن أن هذه الأسباب على كثرتها وقوتها لاتسكفي لبلوغه النجاح الذي بلغه لولا السبب الأكبر الشامل المحيط بها جميعا ، ونعني به خلة راسخة في الأمة الألمانية تفتح آذانها واذهانها لقبول الدعوات التي من قبيل الدعوة الهتلرية

ففى اعتقادنا أن هتار لم يكن لينجح ذلك النجاح فى تطويع أمته لو كانت هذه الأمة غير الألمانيين . لأن الأمة الالمانية العظيمة بمن نبغ فيها من فطاحل الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء والخترعين ليست بالأمة العظيمة فى كل شىء . بل لعلها مصابة بقصور شديد سلمت منه أمم دونها فى عدد النوابغ الافذاذ ، وهو قصورها فى ائتربية السياسية وضعف ايمانها بالحرية

ولا يخفى أن التربية السياسية تحتاج إلى شيء غير نبوغ الافذاذ وانجاب العبقريين، لأنها مسألة مرانة متسلسلة فى بنية الشعب بجميع طبقاته وعناصره ، ينتقل فيها خطوة بعد خطوة ودرجة بعد درجة ، بالتدريب العملى والحوادث الفعالة فى تركيبه وتأليفه . فلا تبلغ منه التربيدة السياسية مبلغ العادة إلا إذا تدودها . ولا يجيء التعود بالأقوال والعظات ، وأن و عجد القائلون والواعظون ، فكيف وهم لا يوجدون ؟

و يرجع قصور الألمــان في تربيتهم السياسية إلى أصول تاريخية بعضها قديم و بعضها حديث أو قريب من العصر الحديث

فقى العصور الغابرة كانوا قبائل غازية لاتعرف الاستقزار وآداب العار. وإذا لجأت إلى الاستقرار فأعاتستقر بالتناوب سنة للقتال وسنة للرعى والزراعة: فيقاتل في هذه السنة من كانوا يزرعون ويرعون في السنة السابقة ، ثم يذهب الزارعون والرعاة إلى القتال ولما يطل عهدهم بالسلم بضمة شهور . وقد وصفهم يوليوس قيصر في حالتهم تلك فقال : « أنهم قلما يبالون الزراعة لأنهم يعيشون أكثر مايعيشون على اللبن والجبن واللحوم ، وليس لرجل منهم أرض يملكها ولا حدود تفصل مابينه وبين غيره » وقال : « أنهم يحسبون من شرف الدولة أن تقفر الديار من حولها دليلا عندهم على الشجاعة التي تقصى جيرانهم فلا يجسرون على الاقتراب منهم » « وأن اللصوصية لاعيب فيها إذا قورفت بعيداً عن ديارهم ، بل ربما حسبوها نافعة لتدريب الناشئة ومنع الاخلاد إلى الكسل والراحة »

ووصفهم المؤرخ تاسيتوس فقال : « انهم إذا هدأوا واستراحوا تطوع كثير من نبلائهم للقتال في صفوف القبائل التي تشن غارة من الغارات ، وأنهم لا يقدرون بغير العدوان والحرب أن يمونوا اتباعهم وحاشيتهم الكثيرة ، و يعتمد هؤلاء الاتباع على كرم رؤسائهم فيا يركبون من خيل أو يشهرون من رماح ، ولاينالون أجرا غير ما دب الطعام الغليظ وان لم يكن بالقليل . فالحرب والغنيمة فخر أولئك الرؤساء ، وليس من السهل أن تقنعهم بالحرث وانتظار الغلة كا تتنعهم بالهجوم والمبارزة ، بل من دلائل الوهن عندهم أن تطلب بعرق الجبين ماأنث قادر على أخذه بالدم المراق . . . » ووصفهم المؤرخ جان فرواسات Froissart في أواخر القرن الرابع عشر فقال « إنهم شعب جشع يجنح أبدا إلى العنف والتهديد والاعتداء ،

لارحمة عندهم إذا غلبوا ومعاملتهم لاسراهم سيئة قاسية »

وهذه خلة كانت شائعة فى كثير من الأمم وهى على حالة البداوة والهمجية بيد أن الألمان قد انتقلوا منها إلى حالة تشبهها ولم ينتقلوا إلى حالة الحم المسؤل والشورى الدستورية كما انتقل بعض الأمم الأخرى رحلة بعد رحلة . فخرجوا من همجية البداوة الأولى إلى نظام الاقطاع الذى لايعرف علاقة بين الحاكم والمحكوم غير علاقة الآمر بالمأمور ، ولا يعرف علاقة بين الولاية والولاية غير علاقة القاهر بالمقهور ، أو علاقة الحرب والتربص والانتقام .

وكانت ولاياتهم تتمدد وتتكاثر كلما نشبت الحروب وانقطعت الوشائج والارحام . فزادت في نهماية القرون الوسطى على ثلثائة ولاية لاتضع السلاح وما خيفة جيرانها وأبناء جنسها أو خيفة الجيوش الجارفة التي كانت تشق أو ربا من الشرق إلى الغرب أو من الفرب إلى الشرق أو من الشال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال . فان موقع الألمان في الرقعة الوسطى من قارة أو ربا من الجنوب إلى الشمال . فان موقع الألمان في الرقعة الوسطى من قارة أو ربا توكهم عرضة لكل مفير وجعلهم متوثبين أبداً للاغارة على من حولهم من الفافلين أو الستضعفين ، فعاشوا في ساحة حرب لا رأى فيها للرعيمة إلا كرأى الجندى المطيع ، ولا عهد فهما بين ولاية وولاية إلا كهمد المفاوب للغالب أو الغالب المفاهى .

وظلوا على هذه الحالة الى ماقبل حرب السبهين ، فلم تنقص ولاياتهم عن مائة وسبهين في أيام الثورة الفرنسية ، نم انتظموا في علاقة تشبه الوحدة بالقياس إلى ما كانوا عليه من التفرق والصراع . ولكنهم لسوء حظهم وقعوا في زعامة هي شر الزعامات ، فسلموا زمام الدولة لامارة لم تكن لهما مزية على سائر الامارات غير وفرة العدد ووفرة السلاح ، وهي بروسيا آخر القبائل الجزمانية حضارة وأقلها نصيبا من الأدب والمروءة . فسارت بهم على سنتها و باعدت مابينهم

وبين «التطور» في سبيل الشورى ومعاملات السلم والمودة ، وتركتهم في سياستهم لا يعقلون إلا «وجهة نظر واحدة» هي وجهة النظر التي يأمر بها السيد المطاع، ولا يعرفون حق المعارضة لفرد من أفراد الرعية لأن المعارضة منه عصيان ، ولا لدولة من الدول الأجنبية لأن المعارضة منها عداء وقتال

ولبثوا كذلك إلى مابعد الحرب الماضية التى خرجوا منها دولة واحدة قليلة الفواصل والحدود . فلم تنقض عليهم عشر سنوات حتى انكفأوا إلى نظام المسكر وأدب الغارة والاغتيال

وازن بين تربية كهذه لامحل فيها لرأى الأمة في سياسة داخلية أو خارجية ولا أدب لمن يتربى عليها غير الطاعة أو العدوان ، وبين التربية السياسية التي فرضتها على خصوم الألمان مواقع الجغرافية ووقائع التاريخ

فالانجايز مثلا أبناء جزيرة مستقرة قريرة

فهم لهذا آمنون ، وهم لهذا نجار . ومن هنا بطل فيهم طغيان العسكرية ونشأت فيهم خلائق الشورى والتفاهم والأخذ والعطاء

وهم أقوياء ولكنهم يبيمون ويشترون ، فلا مناص لهم من السمعة ومن الثقة ومن الارضاء ، إذ التاجر لن تنسيه قوته أن يرضى عميله وشريكه ، ولن يستغنى — وان استغنى — عن التفاهم والقبول

وقل ماشئت عن أسرار الحرب الحاضرة وأسباب الحوادث القريبة على تناقض الروايات والتعليلات ، فمالا شك فيه أن تربية الألمان القديمة هى التى جعلتهم يأنفون من مفاوضة الأمم الصغيرة ، ويستحبرون أن يجلسوا مع بولونيا أومع غيرها إلى مائدة واحدة لفض الشكلات وتبادل الآراء ، لأنهم ينظرون إلى المفاوضة نظرة العسكرى الذى لايعرف المفاوضة إلا لاملاء الشروط أو الخضوع لمن يمليها . ومما لاشكك فيه أن تربية الإيجليز القديمة هى التى جماتهم يفاوضون

الـكبير والصغير، وعو دتهمأن يروا لمفاوضهم حق الشارى على البائع وحق البائع على الشارى، في مجال الأخذ والمطاء

تلك الخلة الألمانية معلومة لكبار الأدباء الألمان سواء منهم الآريون وغير الآريين ، فأديبهم الكبير « جيتى » يقول

« ان امام أبناء وطننا بضمة قرون أخرى تنصرم قبــل أن يترقوا إلى منزلة من الحضارة تجعل الناس يقولون انهم كانوا برابرة منذ عهد بعيد »

وشیار زمیل جیتی یقول « أیها الجرمان ، عزیز علیكم أن تصبحوا أمة ، فكونوا رجالاً فذلك میسور »

وهينى أشهر شعرائهم الفنائيين يقول: «يوم يتبددرمز المسيحية الوديع يفور مرة أخرى جنون الفزاة الأقدمين الذي يطنب في التغنى به شعراء الشمال، وتهب الأرباب الصخرية من مراقدها في الآكام المهجورة نافضة عن اهدابها غبار ألف عام. ويهب معها اله الرعد والبرق ثور يحمل مطرقته الهائلة ليهوى بها على محاريب الآلة المسيحى: يومئذ تسمع جهنم من الضوضاء لم يسمع لها مثيل قط في تاريخ العالم كله، ويومئذ تملم أن الرعد الجرماني قد تمادى إلى مداه، وان الصيحة يومئذ لتسقطن النسر ميتاني علاه، ولتسمعنها الأسود الناكصة في أقصى الآجام الأفريقية فتختبى في كهوفها، ولتشهدن ألمانيا في ذلك الموعد مشهدا تحسب الثورة الفرنسية عنده موقف غزل وغرام، وليتطلمن المالم كأنه على سلالم عرينة الصراع لينظر إلى مشهد هذا المراك الجنوني في ساحة ألمانيا . . . »

قالها هيني قبل مائة سنة فصدقته الأيام ، ولو قالها اليوم لقالوا نبوءة شاعر كذاب من سلالة اسرائيل 1

ونيتشه نبى القوة عندهم يقول : «الجرمان كالنساء . لايسبر غورهم لأنهم بلا غور . . . وهذا كل ماهناك . فلا يقال عنهم أنهم ضحل لهذا السبب عينه . اماما يسمى العمق فى ألمانيا فهو فى لبابه نقص فى اخلاص المرء لنفسه ، أو هو بمثابة أمة تأبى أن تقف من طبيعتها موقف الوضوح والصراحة . ألا يحسن أن نضع كلة الجرمانية ومزا متفقا عليه للدلالة على هذه الآفة النفسية ؟ »

وطالما ألم جيتى ألمـاً شديداً للنظر في أمور هــذه الأمة التي تتقن التفاصيل وتنسى الشمول والتي « يبدو فيها أفراد أجلاء وتبدو هي أمة زرية »

إلا أن الاختلاف الذي لاحظه لايمد من الشذوذ ولا الخروج على القياس المعقول. لأن البربرية وقوة المقل والطبع لاتتناقضان ، فيجوز أن ينشأ الأفراد المفتدرون في غمرة البداوة كما ينشأون في أوج الحضارة ، وأن تعلو الصفات الفردية، وتهبط الصفات القومية . أما النقيضان المستغربان فهما أن تصمد الأمة على حكم الأستبداد وأن تتقدم في أطوار البربية السياسية وخلائق الحرية التي تواتيها في تصريف تبعات الحكم ومشاركاته ، وهذا هو جانب القصور في تربية الالمان

ومن الشاهدات التي لاتستغرب بعد ماتقدم أن الالمان على كثرة ما أفادوا العالم في أبواب العلم والفن والصناعة لم يغيدوه شيئا في باب العلم السياسي والاصول الدستورية ، فلاهم في أطوارهم الشعبية تقدموا وراء القيادة العسكرية وأنظمة الميدان ، ولاهم في كتابات فقهائهم ودارسيهم ساهموا بقسط قيم من التفكير في هذا الباب ، وغاية ما ساهموا به أنهم قدسوا الدولة وأقاموها على أساس «القوة الحاصلة » وجعلوا مخالفتها أشبه بالكفر والشيطنة منها بالجريمة التي ياقبهاالقانون فألدولة عند فيلسوفهم الكبير هيجل هي مساك الحق وخلاصة التاريخ وصورة المشيئة الالهية . . . وماشا كل ذلك من نعوت تلحق الدولة بعالم الغيب في عرف المتصوفة

والقانون عنب د فتهائهم هو « سر العنصر » أو لمباب الروح القومي

Volksgeist وليس هو بالعدل الطاق الذي يعم جميع الأقوام ولو في المبدأ والقاعدة فبيها كانت الدول تعلن في الحرب الماضية أن محاكم الغنائم فيها تطبق قانون الامم وشريعة المنطق الانساني كانت المانيا تعلن أنها لاتطبق إلا الشريعة الألمانية التي تستمدها من الدولة الالمانية ، وبينها كانت الشعوب المختلفة تبنى اعتزالها العصبة الأمم على أسباب المصلحة أو على خشية الاخفاق والاصطدام بالوقائع المنظورة كان الالمان مخلطون بذلك سببا فلسفيا يقسوم على فكرة العنصر والقوم ، فلاعدل في اجتماع عصسبة الامم لانها مجموعة أجناس المشرق والمغرب وسلالات البيض والصقر والسور والسود ، وانما العمدل أن تقوم على جنس واحد أو أجناس متقاربات ، وأن تعترف بالتفاوت بين السادة والمسودين والاقوياء والضعفاء أى أن تبطل معنى العدل فتجعله اعترافا بجواز الظلم لمن يقدر عايه وتحريمه على من يعجز عنه ليس إلا ... وما أبعد الفرق بين قولك أن الطالم هو العدل. والانصاف وقولك أن العمدل مطلوب محبوب ولكنه متعذر التحقيق ، ولابد من رياضة الطباع عليه

وهذا التفاوت بين اقدار الشعوب يسرى على الرعايا الالمان فينقسمون الى آر بين وغير آر بين وينقسم الأر يون الى عريقين فى الآرية يحملون جواز العراقة Gross Ahnenass ومحدثين فى الآرية لا يثبتون من النسب فيها اكثر من جد واحد ولا يحملون الآجواز المحدثين Ahnenspiegel وهو لا يسمح لهم بالإنتظام فى الحزب ولا فى جماعاته المختارة (١)

وكان أناس يخالون أن حذلقة الالمان فى تفضيل أنفسهم على العالمين قد بلغت قصاراها خلال الفترة التالية لعهد بسمارك وحرب السبعين، فاذا بالنازيين يدخرون

⁽۱) كتاب الحق والقوة لمؤلفه الفقيه الالماني الدكنور فردريش رويتر Firedreick Roetter

من هذا المني مالم يكن يخطر على بال .

فليس التفاوت باديا باقيا بين القوم الجرمان وسائر الاقوام الآدمية وكفى ... كلا . بل هناك تفاوت بين حيوان آرى وحيوان أجنبى وبين فاكهة عريقة وفاكهة هجينه ، و بين بذور رفيعة تنبت فى تربة الشمال و بذور خسيسة تنبت فى تربة الجنوب ، فمن المحقق كما يقول الجنرال لدندورف (١) أن الأرنب ليس بحيوان آرى ، وحسبك سببا جبنه الاليم . وحماداه أنهمها جر يحظى بحفاوة الضيف . أما الحيوان الذى لا شبهة فى ملامحه الجرمانية فهو الأسد ، وهو من أجل ذلك المانى فى دار غربة »

بل التفاوت بين السلالة الآرية والسلالات الأخرى تفاوت في تركيب الجسد ووظائف الأعضاء وخصائص المترة البشرية .

« فنير الآريين لهم أسنان وفكوك عليا تشبه فى ضيقها ومنظرها خراطيم الحيوان ، وحركة الفكين بين أهل الشهال تسمح بمضغ الطمام والفم مقفل على خلاف الأجناس الأخرى التى تُسمع لمضغها أصوات كأصوات المجماوات . والفم الشهالى عدا هذا فضائل شتى يمتاز بها كامتياز اللون الأحمر باثارة الشعور ، فان لونه المتوهج القابى يغرى بالقبلات ، وفم الشهاليين من أجل هذا مركب صالح فى تركيبه للتقبيل . أما غير الشهاليين فهم عراض الشفاه غلاظها ينمون بذلك و بفتحات المنخرين على الشهوة وعلى التعبير الهازى والمضافن وعلى حركة الارتشاف التى تنبى والانغماس فى المتعة الراضية ، وهم يفرطون فى التحدث بمساعدة الأيدى والأرجل مما لايرى فى حديث أهل الشمال الذين يتكامون أخيانًا وأيديهم فى الجيوب . ولن تبصر فى غير المرأة الشمالية ذلك النهد الكاعب المكين المستدير الذى يبرز للنظر حتى حين تلقى بذراعيها إلى الجنبين . وخلاصة المكين المستدير الذى يبرز للنظر حتى حين تلقى بذراعيها إلى الجنبين . وخلاصة

⁽١) في 'Am Qelle Deutscher kraft أي من منبع القوة الجرمانية

القول ان غير الشهاليين ينزلون فى مرتبة بين طبقة الانسان الشهالى وطبقة الحيوان من فصيلة فوق فصائل القردة العليا . فليسوا هم باناسى يقابلون الصفات الحيوانية بالصفات الانسانية ، ولكنهم حلقة وسطى فى الطريق أحرى بهم أن يسموا شبه بشر » « و إذا سأل سائل ما بال غير الشهاليين وهم أقرب رحماً إلى القردة يتناسلون من الشهاليين ولا يتناسلون من القردة ؟ فالجواب ان الدليل لم يقم بعد على ائهم وفصائل القردة لا يتناسلون ! » (1) .

* * *

أمة تروج فيها هذه الدعوات حيثا ظهرت ليس بعجيب أن يعلوها أضراب هتار وجو باز وهيس وجورينج متى أيدتهم المصادفات واندفع بهم تيار الحوادث والأزمات، وليس بعجيب أن تكذب تلك الأمة على عقولها وهى تكذب على أعينها فتصدق أن هؤلاء صفوة الآريين وهم على نقيض الشائل التي يزعمونها لأبناء الشال ، فالرجل الشالي في زعمهم «أصهب رائع المنظر فارع الطول بين الرجولة رشيق وسيم » . . . وهتلر انثوى جنوبي السحنة لا روعة لمرآه ، وجو باز أعرج دميم عموخ الوجه والقامة ، وهيس أسمر من مواليد الأسكندرية ، وجور ينح ضخم بدين جدته فرنسية . . . ولكنهم يهتفون للألمان بما يعجبهم وجور ينح ضخم بدين جدته فرنسية . . . ولكنهم يهتفون للألمان بما يعجبهم

⁽١) كتاب الأصول الحديثة لبحث الآجناس تأليف هرمان جوش اقتباس مجلة الناشيون في ٦ فبراير ١٩٣٥ .

The New Bases of Racisl Research by Hermann Gauch

فهم مصدقون ولو كذبتهم العيون!

لقد أكبر بمض السكتاب الأوربيين من هتار أنه « صنع المعجزة » وأعاد إلى الألمان الثقة بأنفسهم وقد شارفوا على الذلة والانحلال .

فهل جاء هتدر قومه برسالة الثقة بالنفس أو رسالة الاستخفاف بالآخرين ؟ ان الواثق بنفسه لايلغى حقوقه فى الحرية ولا يبنى حياته على التسليم والأذعان ولا يصيح على الابراج والشواهق أنه واثق وأنه يقسم أنه لواثق !

كلا . إنما يفعل ذلك من لا ثقة له بنفسه ولاقدرة له على تمييز رأيه ، وليس. الاعتداء على الآخرين من صفات الواثقين ، ولكنه من صفات من لا يعرفون. الحقوق ولا يدرون معنى الحرمات .

وهتلر قد علم شبان قومه خلائق معلومة لا صعوبة فى تعليمها ، بل الصعوبة فى اقتلاعها وتبديلها لأنها من نوازع الهمجية وخلائق القطمان .

قال لهم البسوا الكساوى والشارات التي تحبونها ، واخرجوا في الشوارع صفوفاً صفوفاً تزعقون وتتوعدون ، واضر بوا اليهود واضر بوا الشيوعيين واضر بوا الديمقراطيين واضر بوا النازيين المخالفين اضر بوا اضر بوا اضر بوا ولسكم المجد والفخار وعلى فرائسكم المسبة والعار .

ولقد عاش أبناء آدم مائة قرن يعاقبون من يضرب ويقيدون يديه ويعيبونه بالشر والرذيلة ولا يزال الضرب مغريا يهون فيه المقاب والتأنيب.

فاذا جاء هتلر وجعله شرفا يبوء المعتدى بفخره و يبوء المعتدى عليه بوصمته ونكره فأين هي المعجزة وأين هي الخليقة الكريمة التي تكتسب بالمشقة والرياضة وهدانة الزعماء؟

هذا الدفاع مع التيار وليس وقوفا في وجه التيار ، وتلك هي النكسة

والامحدار وليست هي الوثبة والاقتدار ، وما في هذه الزعامة الرخيصة مسحة من العظمة ولا لحجة من الابتكار .

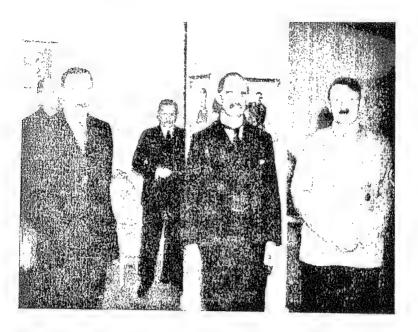
ألغوا وجودهم من ناحية وألغوا وجود الآخرين من ناحية أخرى !

كبحوا حريتهم العالية على الأحرار ثم أشبعوا نفوسهم المكبوحة بشهوة العدوان على حرية الناس ، فكانوا خاسرين في الصفقتين ، غادرين بحرماتهم وحرمات من يعتدون عليهم ، و بئس التعليم ان كان هذا الصنيع في حاجة إلى تعليم ، إغا المعجزة أن تعلم المرء الكرامة فلا يهدر حقوقه ولا يهدر حقوق غيره ، وإغا الرجل الكريم كا قلنا في كتابنا عن سعد زغلول من « يسوءه أن يتعرض الآخرون لفضاضة مهيئة كا يسوءه أن يتعرض هولتلك الفضاضة ، و يعاف الذل حيث كان ولو لم يمسسه في كبريائه ، وذلك هو الفرق بين الكرامة المحمودة والفطرسة الذميمة . فإن الفطرسة الذميمة هي التي تستريح إلى اذلال الآخرين ولا تفار على كرامة إنسان ، وهي التي لا تميز بين الكربياء بحق والكبرياء ولا تفار على كرامة إنسان ، وهي التي لا تميز بين الكربياء بحق والكبرياء بباطل ، ولا تلوم الناس لأنهم اعتدوا عليها مبطلين بل تلومهم لأنهم عرفوا لأنفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى صواب . ولهذا يستخذى المتفطرس حين تصدمه القوة من سواه ، ولا يزداد الكريم إلا انتصاراً لكرامته حين يمسها من يتطاول عليه » .

وهكذا «معجزات» هتار فى شتى مراميها لاتستمد قوتها من رفيع الصفات كا تستمدها من وضيع الغرائز والشهوات ، ولا تعتمد على الاقتحام كا تعتمد على الاتباع والانسياق ، ولا تروعك بالبطولة كما تروعك بالمداورة والاستغلال ، ولا تروض الظروف بل تركبها وهى ريضة ذلول ، ولا يرتفع بواحدة منها إلى مرتبة النوادر الأعلين بل يظل حيث كان فى زمرة الأواسط وأبناء المصادفات



هتلر مع شامبرلين ودلادييه وموسوليني



هتلر مع شامير لن وهندرسون السفير البريطاني

الفصيلُ اليّالِثُ

نفر هي الم

صرفنا معظم الكلام فى الفصل السابق إلى بيان «الظروف » التى هيأت له له ما ما من النجاح فى قومه ، لنعزل بين أعماله وضجتها الخارجية ، ونعلم ماهو حقه وما هو حق الحوادث ، ونوازن بين ما هو من فضل الكفاءة وما هو من فضل المكان الذى ارتفع اليه ، ومخلص من ثمة إلى سبر أغواره وأغوار أعماله فن مسلكه الصحيح ونقيمه حيث ينبغى أن يقوم

وسنصرف الكلام فى هذا الفصل إلى دراسة طبائمه وأخلاقه و بواعث تفكيره وهواه ، فيكون سؤالنا فى هذا الفصل : لماذا اختار هذا الطريق ؟ وقد كان سؤالنا فى الفصل السابق : كيف تمهد له هذا الطريق ؟

وفى هذا العصر الذى شاع فيه علم النفس واتصل فيه طب العقول وطب الأجسام يندر أن يشتهر انسان بما يثير النفوس دون أن توضع نفسه هو موضع الفحص الطبى والدراسة العقلية ، ليتبين الباحثون دلالة أعماله ويتدرفوا نصيبها من الصحة والاستقامة أو نصيبها من المرض والشذوذ

وهتلر فى رأى بعض الأطباء مصاب بآفة نفسية يسمونها «شيزوفرينيا» Schizophrenia أو ما بُعبر عنه فى العرف الدارج بازدواج الشخصية ، وهى آفة تنشأ من الورائة القديمة والحديثة ومن فرط النشاط فى الغدة الدرقية على نحو يغلب فى النساء المريضات ، واليه يرجع اهتياج الشعور عندهن وطغيان الحس على أفكارهن

وقد لوحظ على هتلر كثير من عوارض هذه الأنوثة المريضة لأنه يبكى ويمرح حين يشاء ، ويغضب ويصخب لأتفه الأشياء ، ويغير شعور سامعيه أبداً ثم لا يزودهم يوما بزاد من الفكر المقنع والروية الهادئة فى غير سخط واهتياج ، ويشبه المرأة فى تركيب جسمه لضيق كتفيه وضخامة ردفيه ، وقلة العضل فى تكوين أعضائه مع عنايته بتصفيف طرته وتنميق أظافره ، وندرة ما يبدو عليه من دلائل الرجولة فى اتصاله بالجنس اللطيف ، وكثرة ما يعهد من كيده وولعه بالايقاع و إثارة الشحناء والغيرة بين المحيطين به على نحو ما تصنع المرأة المتبوعة بين المحيطين بها ، وهذا إلى صبره الطويل على كل ألم فى سبيل الظهور والزينة والمتعة بالتفاف الأنظار ، كوقوفه خمس ساعات ممدود الذراع أمام المواكب التى تحييه وتومى اليه ، وهو نوع من الصبر يعهد كثيراً فى النساء المواكب التى تحييه وتومى اليه ، وهو نوع من الصبر يعهد كثيراً فى النساء ولا يعهد فى الرجال .

وصاحب الشخصية المزدوجة يتناقض في تفكيره وشعوره كأنما تصدر أفكاره وأحاسيسه من مصدر بن أو من شخصين مختلفين : فهو حيناً سديد الرأى وحيناً شديد الخطل ، وهو تارة وديع لين وتارة شرس عنيد ، وساعة يحجم ويتعسف ، وقد يعالج الأمور علاج الحالم المؤمن ثم لا يلبث أن يعالجها علاج المتشكك الذي لا يقنع بغير الواقع الملموس .

ونشرت مجلة المبضع الطبية Lancet في أوائل السنة الحاضرة بحثًا عن الهستيريا النفسية عدد فيه الكاتب عوارضها وعلامات هذه العوارض في نفس هتلر وأعماله ، فقال ان المريض المصاب بالهستيريا ذكي متعدد الشواغل و إن كان لا يتعمق في واحدة منها ، مولع بالأسرار لبق في التسلل إلى مكامن الأهواء ، قادر على تجديد الصور في خياله وحدسه وربط الشتيت من الأفكار بروابط غريبة وسطحية لا تنفذ إلى اللباب ، وأنه مستعد بالفطرة للتفاضي عما لا يوافقه

ولا يرضى لباناته ، وانه جامح النفس فى حبه و بغضه ، متقلب فى أطواره وميوله تدور خواطره كلها على محور واحد هو نفسه وما يتقزز به حسه ، و يفتأ من أجل هذا متشوفا إلى الثناء متعلقاً بدواعى الغرور . منهوما بما يلفت الأنظار و يخلب الأفكار ، وتساعده على ذلك قدرة على الايحاء إلى من حوله والايماء الباطنى إلى صحبه ، فيحظى بينهم حظوة قلما ينالها من عروا من قدرة الايحاء والايماء . وتتعطل فيه مراكز الحس فيصاب بضرب من البلادة و يكل أحياناً عن الاحساس بالجوع والتعب والسهاد ، وهو ما يلوح للناس فى هيأة الجلّد والدّوب والثبات .

ويشفع الـكاتب كل صفة من هـذه الصفات بما يدل عليها من كلام هتلر أو من عاداته المعروفة وحركاته المشهورة ، فيحكم عليه بالمرض الهستيرى وزيغ التـكوين.

أما الطبيب الذي امتحن هتلر في السجن - وهو الدكتور برنشتينر Brinsteiner - فقد نني عنه المرض العقلي و بوادر الجنون وقال: « ان النظر في حالته النفسية وطريقة سلوكه أظهرلنا انه لم يصب بضرر من جراء نشأته وتعليمه وحياته الأولى ، وان الانقلاب الذي حاوله في الثامن من شهر نوفجر سنة ١٩٢٣ وطالما قيل فيه انه حماقة وجنون قد يسهل رده إلى اختلال العقل واضطراب ميزان التفكير . ولكنك إذا سمت من هتلر نفسه بواعث الانقلاب وتعليلاته انتهائها ، وانه لا محل فيها لاختلال التفكير مع احمال النقص والخطأ في الباعث المتحدد » .

وعلىخلاف هذا الرأى الدكتور ماكس فون جروبر Max von grober الأستاذ في جامعة ميونبخ ، فانه يقول ان تمبير وجهـــه لا يدل على رجل يملك

زمام شعوره ، بل فيه دلالة على اضطراب واهتياج » .

وللطب العقلى مدرسة أخرى غير مدرسة المباضع والعقاقير ومستشفى المجاذيب على طراز البيارستان القديم ، وهى مدرسة التحليل النفسانى على مذهب فر ويد ومذاهب تلاميذه الذين اقتبسوا منه أساس الفكرة وان ناقشوه فى أجزائها أو اختطوا لأنفسهم بعد ذلك خطة جديدة

فلهذه المدرسة أيضا كلتها بل كلاتهافى مزاج هتلر وتركيب عقله وسريرة أخلاقه فمنهم من يقول أنه رجل مكبوت الغرائز الجنسية لعلة فى تكوينة يدل عليها أنه لم يتزوج ولم تعرف له صلة مألوفة بالنساء، فهو من ثمة يرى فى حب السطوة والقسوة منطلقا لغرائزه للكبوتة ينفس به عن ذلك الكبت الاليم

ومنهم من يقول أنه كان طفلا مدللا ألف التدايل من أمه والشدة من أبيه ، فنشأ مضطرب الاهواء ، يغلب عليه التدليل حينا فلا يطيق المعارضة ولا يزال ينتظر من الدنيا التمليق والموافقة كانها مطالبة باشباع نهمته من هذه المادة ، ويغلب عليه الامتماض تارة أخرى فيحب التمرد والانتقاض والثأر لنفسه مما أصابه في طفولته وصباه

ومنهم من يقول هذا وذاك ويزيد عايه أن محنة الفقر والتشرد في الشباب الباكر قطعت مابينه وبين الناس من رحم ومحبة وعودته سوء الظن وضعف الثقة بالمباودة والوفاء، فأصبح غير صالح لمبادلة الأفراد عطفا بعطف واخاء باخاء، وانحصرت علاقاته ببني الانسان في صورة الجاهير والجاعات ؛ فأما ان يحيا في الحركات السياسية التي تقوم على الجاهير والجاعات و إلا فليست له حياة ! واما أن يستيئس في طلب الحركة السياسية و إلا فليس في بيئته الفردية متسع للعطف والشعور، وكل ما تتسع له تلك البيئه الفرديه بموزل عن السياسة فانما هو والخيبة والنضوب

ومنهم من برجع الى الوراثة من والديه ، ومن جهة أبيه خاصة ؛ لانه كان رجلا مز واجا تموتله الزوجة فلا تنقضى أشهر حتى ينساهاوينني بغيرها ، وكانت أم هتلر ثالثة زوجاته بنى بها وهى فى نحو السابعة عشرة وهو فى نحو الاربعبن ، وولدت هتلر وهى فى التاسسة والمشرين وهو فى الثانية والخسين . وقد مات بضرية فالج ، وقيل أنه مات وهو يتعاطى الخر فى حانة

و يلاحظ هؤلاء النفسانيون أن هتلر ـ على افاضته فى بعض أخبار صباه ـ يقتضب الـكلام اقتضابا عن أبيه وأهله ، ولا يبدو عليه الارتياح الى هذه السيرة فيما يكتبه أو يتحدث به لتابعيه وخاصة رفقائه . فنى الأمر لاشك سر مجهول غير ماهو معلوم مما تقدم ، وفيه الـكفاية للدلالة على الحراف الصفات الموروثة .

و ير بط بعضهم بين هذا السر المجهول في نشأة هتلر و بين تكرار الكلام في حكتابه عن الامراض السرية و « سوط عـذابها » المنصب على أبناء زمانه ، و يتساءلون ولا سبيل عندهم الى اليةين : ألا يجوز أن يكون اختلال الغريزة الجنسية واهتياج الدماغ عند هتلر متصلين بسر من تلك الأسرار ؟

* * *

هذه الدراسات النفسانية والطبية كثيرة مستفيضة فى جميع اللغات الأوربية لاضرورة لحصرها ولا للاستشهاد بأكثر من النماذج التى استشهدنا بها للالمام عايقال فى سبيلها

ولسنا ْريد أن نمول عليها وحدها دون التعويل على مايزكيها من الوقائع الواضحة التي لاتحوجنا إلى مشرحة الطبيب أو معجم المصطلحات الفنية

ففى اعتقادنا أن أصدق الأوصاف العلمية فى دراسات النفوس هى تلك الأوصاف التى تستغنى عن المصطلحات وعن لغية المعامل والشرحات ، لأن الأخلاق الانسانية لم توضع فى مجمع على ولم تتقرر بعد الكشف الطبي على من

وضعوها فى الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة. فقد كان فى ملايين الملايين الذين وضعوها أناس يجوزون ا متحان الأطباء وأناس لا يجوزونه ولا يحسبون من الأقوياء ولا الأصحاء. وانما وُضعت أخسلاق بنى الأنسان بتجاوب الشعور وتجاوب الأحقاب والأعقاب، فملاكها ولا شسك هو النفس العاطفة القادرة على عجاوبة من حولها وما حولها مجاوبة متصلة مستقيمة فيا تؤديه وفيا تتلقاه

فاذا امتحن الأطباء رجلا فلم يجدوا عيبا فى وظائف جسده ولا فى مجس أعصابه وعضلاته ثم ظهر أن هـذا الرجل يحس بالفضب ولا يحس بالرضا، أو يشمر بما يؤلمه ولا يشعر بما يؤلم غـيره، أو يقـدر على ادراك عاطفة و يعجز عن ادراك عاطفة مثلها، فالوصف الصادق لهـذا الرجل أنه ناقص وإن قال الأطباء انه لانقص فيه

ثم هو ناقص وإن لم ينجم عن نقصه ضرر ، كا نحمكم بالنقص على الجهاز الكهر بأبى الذى يسممنا الأحاديث فى وقت ولا يسممنا فى وقت آخر ، ولو لم تمكن هنالك فأثدة من السماع أو ضرر من عدم السماع

فلاك الأخلاق الصالحة نفس صالحة للشعور قادرة على التلقى والأداء، وقد تنفعنا البحوث الطبية في التعليل والتفسير إذا عرض لنا ما يحوجنا إلى تعليل وتفسير أما إذا كانت الأخلاق الماثلة أمامنا غنية عن تعليلها وتفسيرها فهى إذن مفهومة مدروسة بغير حاجة إلى معمل أو امتحان

وسنتوخى هذه السُّنَّة دون غيرها في دراسة نفس هتلر وتقــــويم عمله وكلامه: نتوخاها لوزن الرجل لا لترجمة حياته ، فان وقائع التراجم تتشابه وتتكرر في الوف السير، وتتشابه وتتكرر في سيرة الرجل الواحد، ولا تميزه إلا طائفة محدودة من وقائمه وأقواله

التربية والنشأة:

كان أبو هتلر المسمى ألواز (Alois) ثمرة « غير شرعية » من بنت فلاحة ورجل مجهول .

وكان يحمل اسم أمه شيكلجروبر Schicklgruber إلى أن بلغ الأربعين من عره ، فقيدً في السادس من شهر يناير (سنة ١٨٣٤) باسم الرجل الذي ظُن أنه أبوه وهو جوهان جورج هيدلر ، وقد صُحف هذا الاسم على الألسنة فأصبح هتلر كما ينطق الآن .

وتزوج ألواز بثالثة نسائه « كلارا » أم هتلر وهو في نحو الأر بعين وهي لم تتجاوز بضع عشرة سنة كما تقدم ، وكانت خادمة لزوجته الأولى ثم فرت إلى « فيينا » وهي صبية صغيرة ، وعادت إلى موطنها بعد فترة مجهولة الأخبار ، فطبها أبوه .

وتربية هتلر من مولده إلى شبابه تربية صالحة لتفسير حياة رجل جامع النزعات متناقض الأحوال ، لأنها لم تجر على استواء واحد بين تدليل الأم وصرامة الأب ، وهي صرامة كانت تشتد وتمنف كلالمح من ابنه رغبة في احتراف التصوير والعيث في معيشة الاباق والتشرد ، وهو يعده لوظائف الحكومة ويرشحه لمستقبل رتيب .

وكانت أمه أصفر كثيراً من أبيه كما تقدم ، ولكنها على صغر سنها كانت متوعكة شاكية كما قال هتلر في كتابه ، ولم تكن قوية العزيمة لأنها كانت تضعف عن تأديب ولدها والاشتداد عليه ، وقد ماتت في نحوالسابعة والأربعين ، وهي سن لا تدل الوفاة فيها على صحة وافية .



أبو هتلر وأمه

ولم ينكن أبوه متين البنية ولا كان قدوة فى الوفاء وضبط النفس و براءة النشأة . بل كان عرضة لنو بات الفالج تمتريه من حين إلى حين ، وكان سريع الزواج بمد وفاة زوجاته ، وكانت ولادته كماتقدم فى غير مهد الزفاف المشروع .



فهل ورث هتلر ما يورث من هذين المزاجين؟ لقد كانت أمه تقول له في طفولتـــه أنه صريع القمر Mondsuchtig وهي كلمة تقارب عندنا كلمة « المجذوب » (۱)

والذين عاشروه مجمعون على بزقه وسرعة بكائه وكثرة هياجه وتقلب أطواره، ويقول روشننج Rauschning

هتلر الطفل

(۱) كتاب البيت الدى بناه هتلر لمؤلفه الدكتور ستيفن روبر برتس Stephen H. Roberts رئيس مجلس الشيوخ السابق في دائزيج أنه يتخبط و يتشنج و يستيقظ من نومه وهو صائح مدّعور كأنما بهرب من أعداء ، والشائع عنه الآن أنه لا ينام ليلة بغير دواء مرقد إلا إذا كان مبيته في برختسجادن حيث يهدأ بعض الهدوء (١) فاذا أضيف إلى الأثر الوراثى في الجسد أنه نشأ وهو يعلم مولد أبيه في غير مهد الزواج لم يكن من شأن ذلك أن يعزز فيه ضوابط الأخلاق أو يدعم فيه الثقة بنزاهة الآداب.

ومات أبوه وهو يناهز الثانية عشرة فأصبح عالة على أمه الأرملة بضع سنوات ، ينتظم في الدراسة فترة و ينقطع عنها فترات، وسرعان ماأصيب في معيشة الطواف والتشرد بمرض صدري أعفاه من الدرس ومن التجنيد ، فتحت له بغيته من ترك الدراسة واجتناب الامتحان .

وحاول أن يلتحق بمدرسة الفنون في عاصمة النمسا فلم يقبله الأسانذة لأنهم لم يلمحوا في صوره مسحة من ماكة المصور الصناع

وكثيرا ماظلمت مدارس الفن نابغا في صباه ثم أنصفته الدنيا وعُرف قدره بعد حين . إلا أننا لانعتقد أن أساتذة فينا ظلموا هتلر حيين ردوا صوره ويئسوا من فلاحه ، إذ ليس أدل على صواب رأيهم من اعراضه الباكر عن الفن واستغراقه في السياسة ، وهو مالم محدث قط في تاريخ فنان عظيم مفطور على الخلق والابداع في عالم الفنون

فلما ردته مدرسة فينا قنع بالنقش والتخطيط و بدا له فى بعض هواجسه أنه على مثال «ميكال انجلو» بناء ومثّال وليس بمصور لوحات وناقش ألوان ، وساوره من المرارة والضفن مايلحق بالغرور المصدوم ، فامتلاً ت جواْمحه بالسخط والانكار

⁽۲) راجع كتاب (اننى أعرف هؤلاء الدكناتوريين ، لمؤلفه وارد پرايس Ward Price

ثم ماتت أمه وهو في نحوالثامنة عشرة عاجز عن كسب رزقه بسعيه واحتياله . فأوى إلى بيوت الصدقة ومد يده بالسؤال ، واجتهد في جمع قوته بنسخ الصور ونقش تذاكر البريد ، فلم يظفر من هذه الصناعة بطائل ، ولجأ أحيانا إلى جرف الثلج في الشتاء وحمل الحجارة في العمارات ، وهو الرجل الذي كان يعتقد أنه خليفة ميكال أنجاو على هندسة البناء

وتقضت شبيبتة وليس فيها أثر من رحم القرابة أوأنس الصداقة، فمضى عليه في الحرب العظمى أربع سنوات لم يكتب رسالة ولم ترد اليه رسالة ، ولاحظ زملاؤه أنه كان يرقب توزيع الرسائل والهدايا بشيء من الحرد والتمرمر ، فيأبي أن يأكل معهم من أزوادهم حردا وتمرمرا في الحقيقة لاأنفة وعزة ، لأنه لم يأنفأن يأكل خبز الصدقة وأن يبسط اليد بالسؤال

وكانت علاقتـه بالنساء ولانزال محفوفة بالنرابة والغموض . فلم يتزوج ولم يعاشر معاشرة أزواج . وقيـل انه لا يزيد على لمس زنود الحسان والجلوس إلى جانبهن ، وانه لايتعلق بعاطفة من قبيل الألفة والحجبة

والحادث الوحيد الذي يذكر في ترجمته من قبيل المحبة الغرامية قد يزيد الغرابة والغموض ولا يجلوهما ، ونعنى به حادث انتحار الآنســـة جريت روبال Grete Raubal بنت أخته التي كانت تعبش معه في مسكنه . فكيفما كانت العلاقة بينهما فليس شغف الرجل ببنت أخته وانتهاء هذا الشغف بالانتحار مما ينفى الزيغ والنشوز ، بل هما خليقان ان يثبتاهما أيما اثبات

وجملة مايفهم من هذه الأحوال أنها أحوال رجل زائغ الطبيعة، ناضب العاطفة منقطع الصلة « الشخصية » بينه و بين أبناء جنسه ، مستعد للبغضاء وليس بمستعد للمودة والوفاء



« موقف هثلر مع فتاة »

كتب هتلر إلى صديقه وزميله روهم فى ذكرى الثورة النازية الأولى خطابًا يقول فيسه : «يهز نفسى فى هذه الذكرى الأولى — ياعزيزى ارنست روهم — ٢٦٠٣-

أن أشكر لك خدماتك التي لا تفنى النحركة الوطنية الاشتراكية والأمة الجرمانية جماء، وأن أؤكد لك مبلغ حمدى المناية الاللّية التي أتاحت لى أن أدعو رجلا مثلك صديق وزميلي ».

و بعد أشهر قليلة قتل هتار هذا الصديق والزميل ومئات من رجاله شر قتلة ، ووصمه بكل رذيلة من الرذائل التي كان يملمها و يعتذر عنها بين أصحابه ، ولأعمعه أن يفخر بالصداقة والزمالة للعزيز اراست روهم . ولم يتقدم هتلر بوثيقة واحسدة تسوّغ تلك المجزرة الجائحة فيما بين يوم وليلة ، مع استيلائه على أزمة البحث والتحقيق في البلاد الألمانية بأسرها .

وكان هتلر يقول عن القائدةون بلومبرج انه هو الصديق « الذي لو تركني لقذفت بنفسي من النافذة » ثم ترك هو فون بلومبرج لسبب يدعو إلى التساؤل الكثير : وهو أنه تزوج من فتاة قيل عنها أنها سهلة الاخلاق تعمل فى خدمة هيمار رئيس الجواسيس للشهور .

وموضع التساؤل الكثير هو أن هتلر وجور بح حضرا الرفاف بل كانا شاهديه الوحيدين . فهل يعلم هيمار بحقيقة الفتاة ولا يخبر رئيسه قبل الرفاف وهو الرجل الذي يتتبع خطواته و يتأثر حركاته في ذهابه و إيابه ؟ وهل يغتفر هتار هذه الزلة لرئيس الجواسيس ولا يغتفرها للزوج المخدوع ؟ وهل كان القضاء على مستقبل بلومبرج هو حل السألة الوحيد ؟

أياكان ذنب روهم وبلومبرج وعشرات الأصدقاء الذين انقلب عليهم هتار مثل هذا الانقلاب فهناك أمثلة أمامنا على هوان الصدافة عند الرجل وليس، هناك مثل واحد على صداقة واحدة بينه و بين انسان من الناس غيرصداقة المتا مرين المشتركين . في مكيدة واحدة .

ولم تؤثر في سيرته من طنولته إلى أيامه هذه مأثرة واحدة من ماكثر اللطف

والنبل وكرم السجية ، وليس في كلامه ولاعمله إلا المداء و «التعاون» على الانتقام والايذاه . ولم يمهد فيه قط آنه غلب قظهر منه العفو والرحمة بمفلو بيه من الأفراد والأمم ، وكل مافى نشأته الأولى يدل على ان خلق الفدر فيه ليس بغريب روى بعضهم آنه يحب الكلاب والمصافير والأطفال ، و يحمل صورة أمه حيث سار



هنار مع كلبه

والكلاب التي شوهدت معه أكثرها كلاب حراسة ، فهي أحرى أن تدل على حبه لنفسه وحذره من أبناء جنسه .

ركب الله له جناحين لذرع الفضاء وهو محبوس فى شبرين ، أمر لا يحتاج إلى خيال كبير.

على انه لا حب الكلاب والعصافير ، ولا حب الأطفال والحنين إلى ذكرى الأم- ، بالملامة على العطف السليم ما لم يقترن بقرائن النبل ومكارم الخلق وفضائل السماحة .

فكثير من « الهستيريين » يألفون الحيوان ويتعهدونه بالتربية ، ما نفع وما ضر وما كرم وما خبث ، حتى الأفاعى والثعابين . ولا يُعُوّل لهم فيما وراء ذلك على مودة وشعور وثيق .

فان لم تكن ألفة الحيوان مقرونة بشواهد الرحمة حيث وجبت الرحمة فهى دليل على فقر الشعور لا على وفرته وغناه ونبل مغزاه . لأنها دليل العجز عن كسب المودة عجمود عظيم . فلماذا غابت أدلة البر كلها ولم يبق لها من دليل فى نفس هتلر إلا البر بذكرى أمه ؟ و إلا ما يقال من مودته للطفل والكلب والعصفور وهى الحلائق التى يشترى مودتها ولا تكلفه من جانبه مودة انسانية كبيرة ؟ ؟ سبب واحد يفسر ذلك أوضح تفسيروأصدق تفسير ، وهو أن للودة الانسانية فى نفسه ضعيفة ، وانه لم يكسب إلا مودة الأم التى تحب ابنها لغير فضيلة فيه ، ومودة الأطفال والعصافير والكلاب التى تمنح مودتها بقير جهد عظيم .

فالتعلق بالأم وبالطفل وبالعصفور وبالخيوان الأليف علامة نبل النفس وغزارة الماطفة إذا كانت علامة من علامات كثيرة ، أى إذا عمت شواهدها وفاضت ينابيعها حيثًا جرى مجراها . أما إذا انحصر الأمر في هذه العلامة الواحدة فهو على نقيض ذلك دليل الأنانية وشح النفس والمساومة الرخيصة على كسب العطف والولاء بأرخص الأثمان ، فضلا عما يكون له من الطبيعة الهستيرية التي لاتستغرب منها أشباه هذه البدوات .

أين المدو الذي عفا عنه هتلر ؟ أين الصديق الذي يدخر له بقية من الخير بعد انقلابه عليه ؟ أين الأمة التي غلبها فأظهر لها دخيلة من دخائل نفسه غير القسوة والغطرسة والتنكيل ؟ أين هو الشاهد الواحمد الذي يرينا انه يقسو مضطراً ولا يبحث عن القسوة حيبًا أتيحت له للذنه وجنوحه اليها ؟

إذا رأينا هـذا ورأينا معه ألفته للمصافير والكلاب فهنا عاطفة سليمة وهنا شعور نبيل . أما إذا بحثنا عن العاطفة وعن الشعور فلم تر لهما أثراً في غير العصافير والكلاب فتلك هي وساوس الهستيريا وعوارض الأنانية ، ونقص التركيب . يلبس هتلرنوطاً واحداً على صدره هو نوط الصليب الحديدي « الذي يقول بعضهم أنه من الطبقة الثانية »

ويروى أتباعه أنه استحقه بعمل من أعمال الشجاعة النادرة فى الحسرب العظمى ، وهو أنه هبط مع زميل له على اثنى عشر جنديا فرنسيافى خندق قريب من الخطوط الألمانية فساقهم الى الاسر جميعاً بسلاح واحد : وهو الرامية التى محملها الجنود

والرواية لم تثبت قط في سجل من سجلات الحرب الألمانية ، ولانخالها قابلة للاثبات ، فهي أقرب الى الهزل منها الى الجد الرصين

وتما يلفت النظر فى أم هذا النوط الذى يعتر به هتلر اليوم أنه لم يذكره قط فى كتابه الذى ذكر فيه ما هو أهون وأصغر من هذا الشرف البارز، وأنه لم يترق قط الى رتب الضباط مع افتقار الجيش الألمانى الى الضباط المترقين من صفوف الجند المتعلمين فى مراحل الحرب الأخيرة

وقد وقع الاختيار على هتلر للمراسلة في مكتب الفرقة المتطوعة فلم يكن من الذين يحضر ون حرب الخنادق في جميع الملاحم. وثبت أن الاصابة التي انتقل من جرائها الى المستشفى قبيل انتهاء الحرب كانت أهون كثيرا من الاخطار المتي تمرض لها غيره. لأنها كانت إصابة بالفازات المدمعة Lachrymatory gas



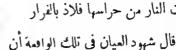
هتار مع زمیلین

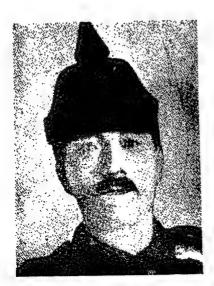
التي لاتستلزم الالتحام في الهجوم ، ولو أنه أصيب باقوى من هذه الغازات لما سلم نظره ولا زالت آثاره كل الزوال كما ثبت من امتحان عينيه

ور بما كان فى قصص هتار عن الحرب العظمى أكاذيب كثيرة لاأكذو بة واحدة أو أكذو بتان . فانه يكذب فى الأمور التى لاخطر لها كقولة مثلا أنهم

كانوا يتغنون فى الفرقة المتطوعة أثناء معركة الايهر بنشيد « المانيا . ألمانيا فوق الجميع » مجاراة لمن كتبوا عن الحرب من بعيد . وقد حقق الدكتور فريدواين سولدر Fridolin Solleder مؤرخ الفرقة أنها كانت تتغنى بنشيد آخر عنوانه الحراسة على الرين Die Wacht am Rhine

على أن الحرب العظمى شيء بعيد، والحديث عنها عرضة للنسيان والمناقضة والادعاء، وفي تاريخ هتلر واقعة مؤيدة في الحجا كم والسجلات بشهادة الشهود والحاضرين، وهي واقعة ميونيخ التي حاول بها إسقاط الحكومة ثم صدمته طلقات النار من حراسها فلاذ بالفرار





متلر كما كان في الحرب الماضية

لدندورف وجورنج صمدا لطلقات النار، فأسر لدندورف وجرح جورنج ثم نجا بنفسه الى ماوراء الحدود. أما هتار فسرعان ما سمع الطلقة الأولى حتى طرح نفسه على الأرض فجأة بغير احتراس، فانخامت كتفه لشدة الوقعة وتقرر ذلك فى السكشف الطبى الذى أجرى عند اعتقاله، وكأنما كان يُحسب حساب الفرار قبل الهجوم فأوصى سسيارة أن تلحق به وركبها وحده دون أن ينتظر فيها انقاذ أحد من زملائه فى تلك الخاطرة

وقد كان فرار همتلر حقيقة لاتقبل الجدل ولا الاعتذار ، فلما أكثر خصومه تعييره وتبكيته خطر له بمد بضع سنوات ان يرحض عنه مسبّتها و يقطع جريرتها ، فصعد يوما على منبر الخطابة والى جانبه غلام ناشى، قدمه الى السامه ين وقص عليهم أسطورة له لا تقبل التصديق: خلاصتها أنه كان قد وجد الفلام فى الطريق — وكان طفلا يوم هجمة ميونيخ — فأشفق أن تصيبه النار وحمله مهر ولا لينقذه من الموت، ونسى هتلر أنه كان مخلوع الكتف فى ذلك اليوم، وأن العظام المخلوعة لا تطيق الله س الرقيق فضلا عن حمل الأطفال والعدو بهم عدة أمتار، ونسى أن قصة الغلام كانت مجهولة كل الجهل لا يشير اليها أحد من المدافعين عنه في الفترة بين يوم الهجوم و يوم الخطاب!

وقصارى القول أن شجاعة هتار لم تثبت قط ثبوت اليةين ، ولم تمل قط على مظنة الشك والانكار ، ولم نعرف لها مؤيدا من مسلكه الطويل فى قيادة الامة الالمانية ، وهو يحيط نفسه بالحراس والجواسيس ويوشك أن يتحصن من أقرب المقربين ، مما لم يعهدله نظير فى سراديب أجبن القياصرة والخواقين .

مبلغ صدقد :

ولاملم بمبلغ الصدق فى خلق الرجال السياسيين لا يصح أن نسـأل : هل كذبوا أولم يكذبوا ؟ فان الرجل السياسىقد يكذب وطبعه صادق ، وقد يلجأ إلى الكذب حـين يلجأ اليه وهو مغصوص مفصوب كما يفعل الانسان وهو يتجرع الدواء العلقمي ، لضر و رة من ضر و رات الداء

وانما يكون السؤال: ماذا يكلفه الـكذب؟ هل يكذب وهو مستريح أو يكذب وهو مستريح أو يكذب وهو مكره متبرم ؟ وهل يسترسل في كذبه أو يقتصد فيه اقتصادا على قدر المصلحة الموقوتة ؟ وهل يتجاوز الحد في اختـلاقه أو يكتفى بكتمان الحقيقة وتلوينها بقير لونها ؟

فالسياسة كالحرب خدعة ، وليس كل كلام يقوله السياسيون صادقا جد الصدق في حرفه ومعناه . فيجب ألا تحكم على السياسي بكذب كلامه بل الواجب أن تحكم عليه بحالته وهو يكذب ، فان هذه الحالة لهي التي تبين لنا هل هو رجل صادق يشذ في كذبه أو هو رجل كاذب يطرد في قياس عاداته حين يختلق من الأكاذب والأراجيف

فاذا رجمنا إلى هذا القياس مع هتلر فكيف تجده فى كذبه ? انه لم يكذب قط كا يتجرع المره الدواء البكرية ، ولم يكتفقط من الهكذب بمقدار معقول ، ولم يكنه يكذب كمن يكرع من شراب لذيذ يمب منه عبا و يخشى أن تنزع كأسه من يديه . . . !

فانظر مثلا إلى قوله عن الروسيا: « ان دولة واحدة فقط هي الدولة التي المسترّر من الاتصال بها أية صلة على الاطلاق. تلك الدولة هي روسيا الشيوعية » ١٣ سيتمبر سنة ١٩٣٧

أو قوله عنها: « سنمضى عهود المسالمة مع جميع أم العالم ما عومانا معاسلة الانصاف . إلا فى الشرق فلن ندخل فى عهود من هذا القبيل ، إذ أن الجرمان لن ينافحوا عن البلاشفة ، ولن يخطوا خطوة واحدة فى مشل هذا الكفاح . ولخير لى أن أشنق نفسى من أن أطأ بقدمى هذا الطريق الوبيل » مايو ١٩٣٥

وانظر إلى قوله عن الماهدات « ان المانيا لن تسلك سبيلا غير السبيل التي رسمتها الماهدات ، وستبحث الحكومة الألمانية جميع المسائل الاقتصادية والسياسية في نطاق الماهدات وعلى حسب مقتضاها وليس في الألمان من يفكر في غز و أمة من الأمم » ٢٧ مايو سنة ١٩٣٣

وانظر إلى قوله: «ان زعم الزاعين أن الريخ الألماني يدبر الخطط لا كراه الحكومة النمسوية لهو زعم سخيف لا برهان عليه . . . وابى لأدفع بكل قوة ذلك الادعاء الذي تدعيه الحكومة المسوية عن تدبير غارة أو شروع في غارة على الادها . وما فتى الريخ الألماني على استعداد لبسط يد المودة والتفاهم الصحيح فيا يكفل حرية الألمان النسويين ، وهو على أتم استعداد — وقد انهت مسألة السار — لرعاية ميثاق لوكارنو حرفا ومهني غير قانع برعايته من حيث المهني وكفي ! » ١٩ يناير ١٩٣٤

وانظر إلى قوله: « ان عهد المفاجآت قد انتهى اليوم » أو إلى قوله عقيب ضم السوديت أن ألمانيا لاتطلب بعد الآن أرضا فى القارة الأوربية ١.
أو انظر إلى عشرات من أمثال هذه التصريحات التي لايقتصد فيها أقل

اقتصاد ولا يمني بها الا نقيض معناها كمهوده لأصحابه وعهوده لجاراته من أمثال الدغرك و بلجيكا وهولندة وغيرها . فهل هي كلام رجل يكذب مكرها مقتصدا أوهي كلام رجل يكذب بغير حساب ولا يبالى أن ينقض فعسله أقوى توكيداته وأقسامه ؟

وليس هذا شأنه في وعوده « الخارجية » وحدها ، بل هو شأنه في جميع الوعود والتوكيدات

فقد أكد لمدير الشرطة ووزير الداخلية في ميونيخ أنه لايعمد إلى انقلاب ما عاش، فلم تمض أيام حتى عمد إلى انقلابه المشهور

وأكد للرئيس هندنبرج أنه يؤيد الوزارة القائمة بعد الانتخاب فنقض توكيده فى اليوم التالى لظهور النتيجة الانتخابية

وأكد للأمة الألمانية أنه فى غنى عن تكرير مذابح برتلماوس اكتفاءً بأحكام القضاء ثم أدار الذبح فى أنصاره وخصومه بغير تحقيق ولا محاكمة ولا اعلان أسباب

ولا موجب فى الواقع لاحصاء أكاذيبه وتسجيل نقائضه بعد أن أعلن بلسانه شريعة الكذب فى انجيل دعوته حين قال: « ان الألمانى لا يدرك على الاطلاق أن الأمة لابد أن تخدع وتضالً للظفر باخلاص الدهاء من من دواعى تصديق الأكذو بة مبلغ ضخامتها ، فان الدهماء فى سذاجتهم ليقعون فريسة للأكذو بة الكبيرة قبل الأكذو بة الصغيرة »

ولقد نفى المذيعون الألمان روايات روشننج التى نقلها عن هتلر ونسوا ان الرجل لم يقل إلا بعض ماتقوله أفعال الزعيم وأحاديثه وعاداته فى نقض وعوده . فمن هذا الذى نقله روشننج أن هتلر قال له بعد توكيد من توكيداته المشهورة : « اننى على استعداد لتوقيع كل اتفاق وضان كل حد وتأمين كل من شاء بميثاق

من المواثيق ، فان التحرج من استغلال هذه الأمور لهو فكرة بابها ، . . . ته فهل كذب روشننج في الرواية ؟ ليكن . . . فهو مع هذا لم يزد مثقال ذرة على ماعلم الناس من أفعال هتار وعاداته التي يعلنها للملاً في بلاده وغير بلاده ، ولا يفضى بها سرا لصفوة الزملاء وراء الجدران

فهو رجل يستمرى، الكذب غير مقتصد فيه وغير مبال بعقباه، وليس الحذب عنده جرعة دوا، مكروه، ولكنه شراب سائغ يعب فيه ظآن



هتلر فی نوبة سوداء

غدابة الالموار:

براد الانسان على بعض الأشياء

ويريد هو بعض الاشياء

والاشياء التي يراد عليها و يساق اليها ليست هي التي تكشف لنا دخيــلة نفسه وحقيقة أطواره ، لأنها صادرة من غيره

وانمــا تنكشف لنا دخائله وأطواره من الأشيــاء التي يريدها هو حسب مشيئته و وفق مناه ، وبخاصة ما كان منها في معيشته البيتية التي يخلو فيها لنفسه و يتصرف فيها بوحى هواه

رهنا تبدو غرابة هتار فى كل شىء: فى مسكنه ومطعمه وفرجته وسلواه. فيبدو لنا عقل نصفه فى النورونصفه فى الظلام، أو نصفه فى ضحوة الواقع ونصفه فى غياهب الأحلام والأوهام: انسان يهرب النسان يلوذ بالفرار . . . ومن ثم يبدو لنا أيضا أنه فيما يرتمى اليه من ضجة السياسة ودوي الحركة ومواكب الجيوش ومظاهر السطوة أعا هو إنسان هارب، لائذ بالفرار

قال السفير الفرنسى فى برلين - مسيو فرانسوا بونسيه - من خطاب كتبه إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ العشرين من اكتوبر (١٩٣٨) « لما طلب المستشار ، الألماني فى السابع عشر من أكتوبر أن اذهب اليه بأسرع ما أستطيع ، وضع رهن مشيئتي طيارة من طياراته الخصوصية ، فركبتها فى اليوم التالى إلى برختمجادن يصحبنى الكابتن ستهان ، ووصلت اليها حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ومنها أخذتنى سيارة لم تذهب بى إلى (أو بر سالز برج) حيث يسكن الفوهر ، بل ذهبت بى إلى مكان عجيب يحب أن يقضى فيه أيامه عندما يروق الهواء

« والمسكان يلوح على البعد كا به مرصد فلسكى أو صومعة صغيرة محطوطة فوق أعلى القمم هناك على ارتفاع ستة آلاف قدم ، وتلتف الطريق اليها مسافة تسعة أميال مقدودة فى الصخور ، تشهد الجرأة فى نحتها بمهارة مهندسها طود كا تشهد بمجهود العال الذين فرغوا من هذا العمل الضخم فى مدى سنوات ثلاث

« وتنتهى الطريق أمام سرداب يفضى إلى الجبال وينغلق عليه باب مضاعف من الشبهان ، ويؤدى فى طرفه الآخر إلى مصد عريض مصفح بالنحاس يرتقى رأسا إلى ثلاثمائة وثلاثين قدما حيث يقيم المستشار . وهنا نبلغ من الأعجو بة غايتها القصوى 1! فيرى الزائر أمامه بناء ضخا متينا يشتمل على رواق عدان رومانية ، وعلى بهو مستدير تحيط به النوافذ والمطلات ويبرز فيه موقد كبير تشتمل فيه الأحطاب الضخام ، وأمامه مائدة يحدق بها نحو ثلاثين كرسيا ، وتنفتح على الجوانب أبواب حجرات شتى مؤثثة بالمقاعد المرتحة الوثيرة

« و يطل الزائر من كل جانب كما بطل من الطيارة المحلقة على مشهد متلاحق من الأطواد ، وتتراءى له على البعد و راء منظركاً نه المدرج الرحيب بلدة صالز برج والقرى التي نحف بها ، بشرف فوقها على مد البصر أفق من القم والشواهق والمروج والآجام كأنها تتشبث بالسفوح

« وفى الجيرة الملاصقة بالمكان حائط ينبثق أمام العين انبثاقا مفاجئا يخيـــل
 البيك أنه قائم فى الفضاء بغير عمد ولا أساس

وكل أوائك يبدهك وهو مغاور في شفق الخريف كأنه شيء آبد
 مفخم يقرب من البحران . فيعجب الناظر و يتساءل : أنى يقظة هو أم في منام إ

و يود لويدرى هل ذاك حصن مونسلفات الذى يأوى اليه فرسان الآنية المقدسة ؟ أو هو صومعة جديدة فى جبل آ ثوس تخبى، ناسكا يتهجد و يسترسل فى التفكير والعبادة ؟ أو هو قصر انتينيا برتفع فى قلب الجبال الأطلسية! أو هو تجسيد لبعض تلك الرسوم الخارقة التى كان فكتور هوجو يخطط بها هوامش روايته عن حكام الجرمان ؟ أو هو خيال مليونى لايدرى مايصنع بأمواله ؟ أو مباءة عصابة يركنون البها و يجمعون فيها الذخائر والكنوز! هل هو خاطر عقل سليم أو هو خاطر انسان معذب بجنون العظمة وهواجس الشوق إلى التفرد والسيادة ؟ أو ليس هو الا خاطر أنسان ملكته المخاوف والظنون! »

« على أن هناك مسألة واحدة لا يُغضَى عنها ولا تقل عن المسائل الاخريات قيمة عند من يدرسون هتار من الوجهة النفسية ، وهي أن مداخل البيت وخباياه ومنافذه كلها تحميها الجنود ومكامن المدافع الرشاشة »

قال السفير: « واستقبلني المستشار بحفاوة ومودة ، وكان يبدو متعبا شاحب السحنة ، ولحكنه لم يكن في يوم من أيامه الهائجة ، ولعله كان في فترة هدوء واسترخاء ، فأخذ في توا الى إحدى توافذ البهو الحبير ، وأراني المنظر واستراح لما شاهده على من سمات الاعجاب التي لم أحاول اخفاءها ، وتبادلنا بعض التحيات والحجاملات ، ثم جيء بالشاى في إحدى الحجرات القريبة ، و بدأ الحديث على أثر خروح الحدم و إغلاق الأبواب بيننا نحن الثلاثة ، وأعنى بالثالث هر فون رو بنتروب الذي لم يشترك في الحديث إلا في مناسبات قليلة لم يكن يزيد فيها على توكيد ملاحظات القوهر ر

« و كان ادواف هتار مستاء من ذيول الاتفاق في ميونيخ ، فقد كان يمتقد أن اجتماع الاربعة الذي أزال شبح الحرب وشيك أن يفتتح عهدا من عهود

المسالمة والعلاقات المتحسنة بين الامم ، ولكنه لا يستطيع أن يرى شيئا من ذلك قد حدث . . .

«ان غيوم الأزمة لم تنقشع، ويوشك ان لم تتحسن الامور أن تندو شراً بما كانت فى مدى فترة قصيرة ، لأن بريطانيا العظمى تصل صليلها بالانذار والدعوة الى السلاح ، وتلك مناسبة انتهزها الفوهرر للانطلاق فى حملة من الحلات السكلامية المهودة فى خطبه شنها على تلك الدولة وعلى أثرتها وإعانها الصبيانى بتفوقها و رجحان حقوقها على حقوق غيرها . ثم سكنت جائشة الفوهر ر بعسد قليل . . . »

* * *

هذه البدوات التي وصفها السفير الفرنسي ليس فيها مبالغة ولا اختراع ؛ لان عش الفوهر ر معروف مشهود مكرر الوصف في أقوال الكتاب، لاخفاء به ولامثيل له بين مساكن المقلاء ، وقد بلغت تكاليف بنائه وتأثيثه وتعبيد طرقه الملايين من أرزاق شعب يشكون باسمه الضنك والفاقة ، فهو وليد التفكير المتسلسل الدائم وليس بالنزوة التي لاتلبث أن تطرأ حتى تزول

ومثل هذا الولع بالاغراب في المسكن والاستكانة إلى المناظر السحورة لايعهد في غير من أدمنوا المخدرات أو شوهدت عليهم أعراض الحبل والانتكاس .

فنى تاريخ بافاريا الحديث ملك من هذا القبيل كان يزين الأشجار بالمصابيح المستورة و يحف الغرف والمنازه بالسراديب المسحورة . ثم طبق عليه الجنون فمات في إحدى نوباته وقيل انهم قتلوه .

وفى تواريخ الملوك الهمجيين أو انصاف الهمجيين « قلمة » كهده القلمة المتلرية بناها الملك الزنجى خريستوف الذى استقل زمناً فى أوائل القرن التاسع عشر بالسيطرة المطلقة على جانب من جزيرة « سان دومينيجو » ... فقد عن له

أن ينفرد بقصر لا نظير له فى قصور الماوك ، فأمر بيناء قلعته الشهورة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ، ولبث المهندسون يعملون فيها خمس عشرة سنة ولاء ورفعوا جدرانها من ثمانين إلى مائة وثلاثين قدما وعرضوها من عشرين إلى ثلاثين ، وأحاطوها بثلثائة وخمسة وستين مدفعا من الشبهان على عداد أيام السنة : كل يوم مدفع لا يتكرر فى سائر الأيام !! ثم شل هذا الطاغية فأيقن بزوال ملكه واقتراب يوم هلاكه ، فأعد لنفسه قذيفة من الذهب أطلقها على صدره من مسدسه يوم هجم الثوار عليه .

يا للقدر من ساخر قدير 1 فهذا القدوةالصالحة لزعيم الآريين وصفوة الجنس الأشقر زنجي أسود منتكس الخليقة ، وليته زنجي سليم ا

ولا شك ان النزعات « المسحورة » التي من قبيل بزغات هتلر لا تنشأ بين يوم وليلة . فهي داء قديم قد لازمه في شبابه و كمن في طوية نفسه وامتزج بأفكاره وآماله . وقد روى هانيش Hanisch زميله في صباه وشريكه في بيع تذاكر البريد: ان هتلر شهد يوما وهو في الحادية والعشرين شريطاً من شرط الصور المتحركة عنوانه «النفق» يخطب فيه رجل يلقي خطبته في نفق و يصبح بعد ذلك زعيا البلاده . فالنهب هتلر شوقا إلى محاكاة ذلك الزعيم وخطر له أنه يفتتح زعامته بفاتحة فخمة لو تسنى له أن ينشئها بخطبة يلقيها في نفق من الأنفاق . وتحدث بهذه الأمنية الساحرة إلى زملائه فضحكوا منه وأثقلوا عليه المزاح (١) .

وهناك اليوم قصور تبنى ثم تهدم فى برلين ، وشوارع توسّع جوانبها على الرغم من جدة المبانى التى تشرف عليها ثم لا يكون لتوسيعها من سبب إلا أن تصبح أوسع مثيلاتها فى أور با وأمريكا ، ومكاتب يباهون بجلب الخشب لها من عمانى

⁽۱) سندای بکتوریال فی ۱۹ ابریل ۱۹۳۹ مندای بکتوریال فی ۱۹۳۹

عشرة مملكة ، ومظاهر شتى من مظاهر السموق والروعة لا يضنون بالمال عليها وكلما في نظن وليدة الطبع المنتكس وترجمة ذلك « الخطاب في النفق » الذي لا يزال أيترجَم في عالم السياسة كما ترجم في عالم البناء .

نهم لا يزال ^ميترجم في عالم السياسة ليوقع العالم في مجاهيل لا حد لهــا من جواء هوسة غالبة .

و إلا فا هو «صرح الدولة الجرمانية التي تسود العالم بأسره» إن لم يكن نسخة في عالم السياسة من قصور ألف ليلة أو من صومعة الجبل التي وصفها السفير؟

أنه لصرح يهرب به العقل المصروع من عالم الصواب والرشاد إلى عالم الجنون والبذخ والتهاويل .

انه ناطحة سحابأو مخبأ في سرداب، أو حجابلا يسترما وراءمن التبليل والاضطراب .

وشأن هتار فى الطمام كشأنه فى السكن من الولع بالغريب والجرى على سنة الاخراج المسرحى ، والتعاظم بأمثال الاشاعات التى تشاع عن كواكب الصور المتحركة فما يأكلون ولا يأكلون ، وفعا يلبسون و يخلمون .

تارة يقال أنه صائم عن اللحوم ، وتارة يقال أنه لايستنزل الوحى إلا بأصناف الجوز والبذور ، ويوماً يقال أنه ترخص فأباح نفسه البيض وحساء الدجاج ، ويوم ينقضى على هـذا فيقال أنه عاد فحرم على نفسه ما أباح . وهكذا دأبه فى التبغ والجمة وسائر المرطبات .

اخراج مسرحي لا أكثر ولا أقل

فان كان وراء الاخراج المسرحي حقيقة فهي شيء تافه لاغرابة فيه ولاموجب فيه لكل هذه الأقاويل . رجل يصاب فى صدره فتيًّا فيدرج على كراهة التدخين ، ورجل لا ينام أحيانًا من أثر الهستيريا والاجهاد فيهجر القهوة حيناً ليستدرج النوم، ويشربها حيناً لأنها لن تضيره مع السهاد .

ورجل يرث بنية الفالج والنوبات ويقضى السنوات وهو لا يدرك الوجبة الواحدة فى اليوم أو الأيام التوالية : فيعتريه عسر الهضم ويتقلب فى اختيار الله كولات ، ويعى بكأس من الشراب الشديد .

وكل هذا مألوف لا غرابة فيه ، ولكن كيف يتفق هتلر والمألوف؟ وكيف يخيل إلى الناس ان هتلر يأكل كسائر الناس؟

إذن تنقلب المألوفات فاذا هي رياضة ونسك وانصال بمالم الغيب وترقّع عن ضعف الآدميين أبناء الفناء .

و إذا أنالته البساطة ماتنيله الفخفخة من التهويل واللفط والاستفراب فلا ضير إذن من البساطة المسرحية على شريطة أن تكون شيئاً يطاق : كسوة تخلع ثم تلبس بعد ساعات ، وليست كوخا يسكنه ما عاش ، أو مكتباً يشاهد فيه أيان ذهب إلى الديوان .

وان الناس إذ يشهدون هتلر فى كساء بسيط ليقولون : انظروا وانظروا واعجبوا اعجبوا ... أكثر بما يقولون انظروا أو اعجبوا لهتلر فى الطيالس والفراء .

لهذا تأخد. البساطة نصيبها من مظاهر هتلر ، و يكون فيها أجن ً بالفخفخة والاغراب ثما يكون في الحلل والحلى المسوَّمات.

ونظرة خفية إلى نقائض النفس الانسانيـــة ترينا ان بساطة هتلر فى الكساء وغرابة هتلر فى البناء هما عنوانان لصفة واحدة ، أوهما فرعان لجذع واحد: هو الغرور والادعاء .

فهتار البسيط في كسائه لا يتشبه بعلية النبلاء في لباسهم الفاخر لأنه يعلم أبهم

يترفعون عنه ويعتزون عليه بالحسب والعراقة فيتحداهم ويأبى أن يعترف لهم بأنه نسى أصله ايثاراً لأصولهم ، أوبأنه دونهم فى القدر لأنه يتشبه بهم ويود لو نشأ على غرارهم .

ولكنه لا يصنع هـذا الصنيع فى بناء الصوامع والقصور ، فلماذا يتفخم هنا و يتبسط هناك ؟ ولماذا يختلف فعله فى كسائه من فعله فى مأواه ؟

لأنه خليفة «ميكال انجلو» في عبقرية النحت والعمارة ! فالناس لا يقولون إذا رأوه في الصرح المشيد : « ذاك هو المحدّث الذي يتشبه بالمعرقين ! » بل يقولون : « ذاك هو الفن العبقرى ! وتلك هي القريحة النادرة التي تتجسم للميان باعجاز بارثها القدير ! » .

وكلاهما غرور ، وكلاهمأ ادعاء!

فالرجل ناشز فى تبسطه واغرابه ، هارب من الواقع فيها يدعيه ولا يدعيه ، متملق بالقصور المسحورة والأبراج الخرافية سواء بنى فى عالم السياسة أو بنى فى عالم المعمار .

والشهور عن زعماء السياسة أنهم لا يعملون كل ماينسب اليهم ، ولا يكتبون كل ما يكتب بأسائهم ، وهتار ليس بالاستثناء من هذه القاعدة

فقى برلين مكتب برئاسة سبير Speer أســـتاذ العارة « ينفّذ » ما يوحى به الزعيم من الخواطر والرسوم فى إقامة المعاهد وفتح الطرق والميادين

وقد يختلف الختلفون فيا هو لهتار وما هو لمكتب التنفيذ من تلك الخواطر والرسوم . فكثيرا ما يكون الفضل كله للمكتب في ابتداع الرسم وانجازه ثم يقال أنه من عمل الزعيم أو الرئيس ، وكثيرا مايعرب الزعيم أو الرئيس عن رغبته بكلمة واحدة ثم تأتى التفصيلات بعد ذلك على يد أعوانه ، وهو لا يدرى بها إلا عند انجازها والاحتفال بايرازها

هذه أمور شائمة لا يجهلها المطلعون عليها في الدواوين. إلا أن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مراء هي أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليمقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائنا ما كان نصيبه منها ، لأن الهبة الفنية كالوظيفة المضوية التي لا تقبل الاهال ، ولا تزال في الحاحها على صاحبها كالهيام القلبي في الحاحه على الماشق الممتلىء بالحياة ، فلاهو يغفل عنها ولا هي عمله الى زمن طويل وهذه الحقيقة وحدها - بنجوة عن جميع الأقاويل وجميع الاسانيد - وهذه الحكم الحاسم في كفاءة همتلر الفنية ، أو فيا يدعيه من مواهب التصوير والبناء . فهي لن تعدو الطبقة الوسطى بحال ، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع والبناء . فهي لن تعدو الطبقة الوسطى بحال ، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع

بين مصطنعي النقد والموازنة في الفنون؛ حتى لو اسندنا اليه جميع الرسوم التي تحمل اجمه في متحف العارة بمدينة ميونيخ

ومن خصائص هتلر أنك لا تجد فيه صفة واحدة « خالصة » للمظمة وصخو المقل والطبيعة . فكل صفاته النفسية والفنية ملتبسات بين الاضطراب والسلامة ، و بين الهبوط والرجحان

مثال ذلك أنه يعجب بالموسيقي السكبير « فاجنر »

وفاجر هوالموسيقى الذى يمجببه الجانين والمقلاء... فقد كان راعيه الاكبر الملك لدفيج البافارى مخبولا مات فى خبله ، وتتفق الآراء بعد ذلك على أن فاجر هو موسيقى المردة والغيلان « والشخصيات » المنتفخة التى تقرب من التشويه ومن المسخ الكريه: يسمعه العاقل فيعجب لحسن تمثيله هذه « الشخصيات » المعيبة وحسن تمبيره عنها بالاصداء والألحان ، ويسمعه المجنون فيلمس من سريرته موضع التشويه والانحراف ، ويرى نفسه مفهوما على نحو من الانحاء

وهتلر ينكر « موسيقى الجاز بند » وما شابهها من فنون النحت والتصوير الحديث التي يتزعمها يعقوب ابشتين Jacob Epstien

ول كنه ينكر كل شيء حسن أو قبيح مصدره من الزبوج كتلك الموسيقي، أو كفن النحت والتصوير الذي تزعه أبشتين واخوانه في الطريقة... فان أبشتين له عند هتلر سيئتان لاسيئة واحدة . لأنه اسرائيلي فهذه هي السيئة الاولى . . . ولأن تماثيله قريبة في طريقتها من طريقة الأصنام الافريقية! فهذه هي السيئة الثانية وقد أبي هتلر أن يصافح الاوائل السابقين من الزبوج في الالعاب الرياضية المالمية وهي ضيوف بلاده . فاذا كانت العابهم لاترضيه وهي ألعاب الرياضيين في جميع الأمم البيضاء أو السمراء فهل ترضيه موسيقاهم وهي شيء يجوز أن يختص بالزنوج دون سائر الشعوب ؟

وعلى هذا البمط يصحو ذهن هتلر وصحوه مقسّم بين الدوج والاستقامة ، وبين العلة والعافية ، فلن يفهم أبدا على وجه الصحة وحدها فى حال من الأحوال

وما يقال عن التصوير والموسيقى يقال من ياب أولى عن الكتابة والتأليف . . . فان أحدا من أتباع هتار لا يدعى له ملكة الكتابة الموهوبه ، ولا يثنى على أسلوبه ثناءه على أسلوب بارع أو جميل ، وإن حسبوا كتابه «كفاحى » أنجيلا للنازيين

والشائع — حتى في أمر هذا الكتاب — أن تفكيره مستمد من الجنرال كارل هوشوفر Karl Haushofer صاحب مذهب السياسة الجغرافية أو «سياسة الجغرافية » التى تعد من مبتكراته ، والتى يتولى إدارة معهدها الأعلى بمدينة ميونيح Geopolitics

و إن هس Hess كاتب هتار الخاص قد اشترك فى تأليف كتابه وتنقيحه ، وأصبحت له حصة فيه يمطاها كل عام ، وقيل الها لاتقلءن خمسة آلاف جنيه لكن الطابع الهتارى معهذا موجود متكرر فيا ينسب الى هتار من خطب أو رسائل أو أحاديث

فليس هو عالة على أعوانه ومساعديه ، وليست اللهجة الغالبة في كتاباته لهجتهم المتفرقة بل لهجته هو التي تتكرر على وتيرتها المهودة ، في كل خطبة وكل رسالة وكل حديث

وفى اعتقادنا أن الرجل لا يخلو من عبقرية، وهبة ذهنية لكننا خلقاء أن نحترس فى فهم معنى العبقرية هنا لنفهم منها مانريد فى هذا السياق

فمند جهرة الناس أن المبقرية هي أعلى مراتب الذهن وأرفع طبقات التفكير

فأنما المبقرية حالة تصاحب كثيرا من المراتب الذهنية ، وتشاهد في كثير من الصناعات : فهناك القيلسوف المبقرى والنجار المبقرى ، وهناك القائد المبقرى والخادم المبقرى ، وهناك عبقريات عبقريات المباية لها في أرفع الصفات وفي أوضع الصفات ، كأنما هي حالة الاتقاد التي تشترك فيها جميع الأجسام على درجات مختلفة من الحرارة

ولا يلزم أن تكون الفكرة العبقرية « احسن » فكرة من قبيلها ، بل. كل مايلزم أن تكون الصبغة العبقرية بادية عليها

وهذه الصبغة ثما يصعب تعيينه وتوضيحه ، ولكننا نقربها بعض التقريب ونوضح مانعنيه بها جهد المستطاع

فالمبقرية أقرب إلى الغريزة والبداهة منها إلى التفكير السبب والقياس المدروس

ولها خاصة الحماسة والتوهج والرغبة ، فلا يباشرها الانسان وهو كاره أو طامع في الجزاء ، بل يباشرها كأنه مقبل على رياضة شائقة ومتاع محبوب

والمبقرية تضلل من يراقبها أشد التضليل ، لأنها تفاجئه بالمتناقضات وماهى في باطن الأمر بالمتناقضات ، إذا نحن نظرنا إلى بواعثها ولم ننظر إلى عوارضها وأشكالها

فالمبقربة شخصية

والمبقرية طلاقة من القيود

كل عمل يعمله العبقرى ففيه مسحة من لوازمه الشخصية لا محالة ، فهو من. ثم مطرّد على قياس

وكل عمل يعمله المبقرى فهو خارج فيه على القيود ، ثائر على القواعد والمصطلحات . فهو من ثم لايطرد ولا يفتأ مخالفا للمتوقع والمألوف

وهاهنا التناقض الظاهر

ونخطو خطوة وراء هذا التناقض الظاهر فنرى « مفتاح الشخصية » الذي يفسر لنا كل نقيضة و يعلل لنا كل مستعص على التعليل

مثال ذلك غريزة الهجرة فى الطيور ، وقد قلنسا أن العبقرية أقرب إلى الغريزة منها إلى التفكير

فالهجرة لها — ولا ريب — غاية واحدة هي طلب الفذاء والسلامة من برد الشتاء ، و بوحي هذه الغاية يهتدى الطير إلى الأوقات والمسافات هداية لأثنية لا تجاربها في الدقة أرصاد الملاحين وآلات الفلكيين

لـكنها مع هذه الدقة سبب الفرق والهـلاك لألوف الألوف من أسراب الطير، التي ما تحركت إلا ابتغاء السلامة والغذاء

ومثال آخر غر نزة التيناسل ودوام الاتصال بين الجنسين

فلماذا يستأثر الرجل بالمرأة ؟

طلباللذرية لامراء

وماذا يصنع الرجل الذي يرى ابناً له يخونه في زوجه ؟

انه يقتله أو يهم بقتله ا

وهنا التناقض الظاهر:

فهو يقتل ذرية حاصلة إذهو يطلب الذرية الحجمولة المشكوك فيها

ولكنك مع ذلك تفهم معنى هذه الغييرة واستقامتها مع الطبيعة ، وترى ماوراء التناقض الظاهر من القياس المستقيم

وهكذا تناقض المبقرية : أما هو تناقض فى الظاهر ، واستواء عند الرجوع الله أسرار الشخصية الخفية

وهذه هى خصائص العبقرية التى حاولنا تقريبها وتوضيحها منماً لخطأ المخطئين إذ يفهمون أن العبقرية هى أرفع مراتب العقول ، وان الفكرة العبقرية هى « أحسن » ماتجود به الأفكار

كلا ! ليست العبقرية بأرفع مراتب العقل ولا هي بأحسن ضروب التفكير ولكنها « حالة » على الوصف الذي قدمناه توجد في الذروة كما توجد في الحضيض ، وتنتظر في الترياق كما تنتظر في السم الزعاف

وعبقرية هتار هي عبقريته في إدراك الجاهير ومراوغات السياسة . فمايفهمه في هذا الباب هو شيء بمعزل عن الاطلاع ، وعن الخبرة المألوفة ، وعن الدرس والتعليم ، وهو شيء أقرب إلى تفاعل المواد وتبادل الأثر في الأجسام . فمن الجاهير يعلم ماتريده الجاهير ، وفي وثبة الساعة يفعل ماتدفعه اليه وثبة الساعة . و بينها هو مهتد في المسافات الطويلة بهداية كهداية الطير المهاجر بلا خريطة ولا ابرة مغناطيسية ولا دليل ، إذا هو يغرق كما يغرق الطير في اللجة التي يراها بعينيه ولا يقوى على اجتنابها

و يدعونا إلى اعتقاد العبقرية السياسية أو العبقرية الشعبية في هتار أن سياسته لها طابع، وأنها تتسم بحاسة الرياضة ولا تتسم بقيود الشغل وحدود النظام، وأنه يهجم هجوما يخيل اليك أنه بالغ به الغاية المنشودة، ولعله هوالعقبة المهلكة التي تنكل به أشأم النكول عن تلك الغاية

وفى تفكير العبقرى أبداً حساب « حسبة مجهولة » كالحسبة التي يرمز لها الرياضيون بحرف « س» و ير مز لها جماعة التطور بالحلقة المفقودة

هناك أبدا حسبة تنقطع فيها سلسلة التفكير ولا تنتظم الى النهاية : أو نهايتها القصوى هي « ان قلبي يحدثني بهذا » وكفي ؛

وهتلر عندما يذكر « العناية الألمّية » كأنها لا تريد إلا ما يريد ينم على

غرور عظيم ولكنه لاينم على الفرور وحده بذلك ، ولا يختار فى الحقيقة مايقول اذ « العناية الالكية » فى عرفه هى الكلمة التى يسد بها فراغ تلك الحسبة المجهولة أو الحلقة المفقودة

يسأل نفسه : لماذا أريد هذا ؟ أو لماذا سيتم ماأريد ؟ ثم يعييه الجواب الصريح

يعييه الجواب لأن هناك أسبابا يجهلها ولايستطيع تنظيم حلّقاتها الى نهايتها ، فكلمة «العناية الألمّية » تسعفه اذن في سد هذا الفراغ

وقد يقال إن هتلر مغرور حين يتخيل أنه سينجح فى الحربلانه يريد ذلك والمناية الأُلَمية لاتريد إلا ما تريد

ولكن هتلر يقول أيضا فى كتابه إن المناية الآلهية قيضت له أن يفهم فى شبابه لماذا فشلت أحزاب محسوية ونجحت أحزاب أخرى ، وأنها علمته أن حركات الجاهير لا تتم بنير اشتراك الجاهير ، وان الانقلاب القومى لا يضطلع به الملية دون السواد فأى لغز من الالغاز فى هذه البداهة التى ظن هتار أن المناية الالهية تسوقها اليه ؟

كل ما هنالك أنها الحلقة الناقصة فى سلسلة الافكار السببة ، يملأها بما يرضى غروره ولا يدعوه الى اعتراف بالجهل أو بالضعف عن النفاذ الى كنه حوادث اليوم ، وقضايا التاريخ

وكلة « العناية الآلمية » هى اللحام الذى ير بط به هتلر ما تفكاك من تفكيره ومقدماته ، فمن قرأ كتابه أو تتبع خطبه فلن يرى أمامه بناءا كاملا متناسقا إلا إذا صدق دعواه أن العناية الالهية تريد كل مايريد

أما إذا شك في هذه الدعوى فليس أمامه بناء قائم. وانما هو ركام فوق ركام

فى كل شهرة خطابية منافذ المبالغة والاطناب لابد منها فى كل زمان ، وفى زماننا الحاضر خاصة "

ومنافذ المبالغة والاطناب هذه تأتى من مصادر متعددة : بمضها برى، و بعضها متهم ، ومنها القصود المدبر ، ومنها الذي يحدث على غير قصد وتدبير

فأول مصادر المباغة والاطناب جمهور السامة بن ، وهم كدأب الجاهير يحبون أن يتأثروا وأن يخلقوا لانفسهم دواعى الحماسة والمفالاة ، وأن ينوسوا أذهانهم تنويما يسهل لهم أن يعتقدوا ما يحبون اعتقاده ، وأن ينساقوا في موجه من الشعور لا تطبق الحدود ، ولا تقف دون الاعجاب الكامل . لأن الوقوف عند حد من الحدود المعقولة يفسد الحاسة ، وليس افساد الحاسة بما تطبقه الجاهير

وهي ، أي الجاهير ، طبقات في هــذه الخليقة : ترتفع أو تهبط ، وتعتدل أو تجمح مع الشطط ، على حسب موقفها من الخطيب وموضوع الخطابه

فاذا كان موضوع الخطابه نعرة قومية أو شهوة عدائية يشترك فيها الخطيب والسامعون، فالجمهور في هـذه الحالة على استعداد للحاسة والاطناب بغير مقدرة كبيرة في الخطيب

و إذا كان السامعون مرؤسين لذلك الخطيب أو أنباعا متشيمين لحــزبه ، يكرهون النض منه لأنهم يحسبونه غضا منهم ، ويحبون أكباره لأن كبره منسوب اليهم ، فهم اذن أكثر استعداداً للحاسة والاطناب

و إذا كانوا فوق هذا صفارا ناشئين يفورون بحرارة السن الباكرة ، فأحرى بهم وهم جماعات وجماهير أن يستسلموا لما يسممون ، والا يجشموا الخطيب معجزة الابداع ، ليستجيش بها قلوبا هي من قبل ذلك لاتهدأ من الجيشان

فأدنى الجماهير إلى التسليم هو جمهور صبية ناشئين يصغون إلى زعيم يفخرون به فخر المصبية ، و يسمعون منه صبحة الكبرياء الوطنية . . . وهذا هو جمهور هتلر فى جميع المواقف ، إلا القليل الذى لا يذكر

وقد شهد الناس فى مصر مجامع يحتشد لها السامعون زرافات زرافات من جميع الطوائف والاسنات ، ليسمعوا كالاما يعلمونه و يحفظونه ، من خطيب لا يعجب السامع بصوته ولا بايمائه . . بغية الاجتماع فى الواقع لا بغية الاستماع ثم تتكرر الدعوة ويتكررالاقبال ويتكررالتصفيق الذي لاباعث له الاالرغبه فى شيء يثير الشعور و يدفع الساسمة و « يبرر » للجمهور وجوده وسعيه وانتظاره ، و يبرد » للجمهور وجوده وسعيه وانتظاره ، ويريحه من الحكم على « وجوده » بالفناء . والفناء كريه إلى كل موجود ، جمهورا كان أو غير جمهور !

وفى وسعنا أن نشهد كل يوم حشدا من الناس يبذلون من مالهم ليستمعوا إلى ممثل مضحك مشهور فى دور من الأدوار . فما هو إلا أن يلفظ السكامة الأولى حتى ينفجر السامعون بالضحك والقهقهة ، وربحا سأل أحدهم جاره : ماذا قال ؟ بعد أن يكون قد ضحك مع الضاحكين ا

فالمصدر الأول المبالغة والاطناب في شهرة الخطباء هو ابرأ المصادر وأخلاها من الغش وفساد الذمة ، وهو دفاع الجهور عن وجوده حيث انتظم له وجود

* * *

والمصدر الثانى وسط بين البراءة والاتهام ، و بين الاندفاع والتدبير: وهو مصدر الرواة وكتاب الاخبار فان الصحيفة الاخبارية لتتعمد التهويل والاغراق في وصف حادثة هيئة لا تستحق الالتفات اليها . لأنها تريد من القراء أن يلتفتوا ، وتعيش من التفاتهم إلى ما تسكتب ، لا من تعويدهم أن بهملوا الأخبار التي تستحق الاهال والسكاتب الذي يسافر الف ميل لينقل خطبة يلقيها أحد الزعاء في يوم مشهود مرتقب المصير من المغرب الى المشرق _ قد يفقد وظيفته إذا قنع بما دون السحر والاعجاز في وصف ما سمع وما رأى ، وما لبث الناس ينتظرونه و يتكهنون به منشوقين متليفين !

وقد تتفق الرواية الأمينة في الصحيفة الرصينة فيقرأها السارف المسئول ويعرض عنها طالب المناظر والعناوين ، ممن ينظرون إلى مسرح السياسة كا ينظرون إلى مسرح المثيل، وهم جهرة القراء والنظارة في كل مكان ، فيتواتر النبأ المبالغ فيه وينقطع النبأ الذي يحرص على الصدق والآناة ، وينتهى الأمر برواج السكذب والتلفيق، و بالشك في الصدق والأمانة

فبالغة السامعين ومبالغة الرواة ملازمتان لكل شهرة سياسية في كل زمان ولا سيا زماننا الحاضر: زمان النشر والاذاعة، وزمان التشوف إلى الجدة والغرابة ودفع الملل والسامة

* * *

و يأتى بعد مبالغة السامعين ومبالغة الرواة مصدر آخر من مصادر النهويل فى الشهرة الخطابية قائم على النية السيئة والخطة المرسومة ، ونعنى به مصدر الدعوة المسخرة والأقوال المأجورة ، وهو سلاح يعتمد عليه النازيون خاصة فوق اعتمادهم على سلاح الميدان

وجميع هذه المبالغات قد بلغت فى تعظيم شسهرة الزعيم النازى اقصى مايتاح لشهرة أن تبلغ على الاطلاق: فاهتمام النازيين بالدعوة المسخرة قد جاوز كل اهتمام،

وجهورهم أقرب الجماهير الى التسليم والاستسلام ، وحملة الاقلام مافتئوا عدة أعوام يتنافسون في اشباع نهمة القراء بين جميع الاقوام

* * *

فن الطبيمي اذن أن تكون حقيقة هتار الخطابية أقل كثيرا من شهرته التي أذاعها الدعاة والصحفيون والسامعون من أتباعه ومريديه ، وأن يدخل في حساب شهرته كثير من المبالغة والاختراع و « الإخراج »

ونحن فى عصر نسمع فيه الخطباء ونراهم على بعد ، ونحكم على المتكلم فى برلين أو موسكو أو واشنطون حكم راء وسامع ، فما على الذباع ولا على الصو رالمتحركة من بعيد

وقد رأينا هتار وسمعناه

فهو ولا شك خطيب مبين ، ولسكن لاشك كذلك أنه ليس من ملوك الكلام فى عصرنا الحاضر ؛ وأنه لا يعد من طبقة الخطباء الذين يخاطبون كل جمهو رو يتكامون فى كل قضية و ير وضون عصي الامهاع ، ولا نخاله يحسن القول بضع لحظات فى موضوع غير الموضوع الذى يقلبه منذ عشرين سنة ، أو بين أناس غير الذن يوافقونه فى الجلة ، ولا يخالفونه — ان خالفوه — إلا فى التفصيل

فليس هو فى إفاضة بريان ، ولا فى بادرة لويد جورج ، ولا فى مهابة سعد زغلول

ولسكنه أقرب الى المثل الذى كرر دوره حتى حفظه و وعاه و وقع فريسة له فلا يقدر على تبديله

تخيلُه مثلا غير غاضب ، أو غير متكلم في مظالم ألمانيا المزعومة ؛ أو غير مطمئن الى آذان سامعيه







هتلربين الوجوم والغضب الخطابى

وتخيله واقفا فى لندن أو فى موسكو أو فى القاهرة يفاجىء الساممين على غير معرفة باسمه ، ولا عهد بموضوع كلامه

إنه اذن ضائع لا محالة

وعيبه الأكبر أنه لا يُقنع ولا يقسيم الدليل ، وأنه ما خرج قط على عادة واحدة تتردد فى جميع مواقفه وموضوعاته ، وهي إثارة الحفائظ و إضرام الكراهية ومواجهة السامعين من جانب الشمور المتفق عليه بينه و بينهم . . . وفيم اجتهاده في اقناع من هو قائع ؟ وإيمان من هو مؤمن بغير برهان ؟

ومرجع هذه العادة عنده الى علل كثيرة : بمضها أصيل عالق بطبعه ، و بعضها حديث طارىء عليه من حوادث حياته وعصره

فالحديث الطارىء عليه هوهذا الذى ذكرناه ، وهو أنه تموّد فى أيامه الأخيرة على الأقل أن يخاطب أناساً لا يحاسبونه ولا يجسرون على حسابه ، ولعلهم لا يريدون أن يحاسبوه لاتفاق الشمور بينهم وبينه

والأصيل العالق بطبعه أنه فقير في العاطفة الشخصية ، غني في العاطفة الشعبية ، أي العاطفة التي تربط بين الفرد والجاهير

والعاطفة الشخصية هي التي تربى عادة المساجلة والمحادثة ، ومواجهة العقل العقل ، والنفس النفس ، والاصفاء في موضع الاصفاء ، والاثبات بالحجة الصادعة في موضع الاثبات

فالرجل الفطور على عاطفة يساجل بها المواطف، وفكرة يقابل بها الأفكار، يقول و يسمع، و يستميل الفرد بالوسائل التي يستمال بها الأفراد، مرة بالايحاء ومرة بالدليل ومرة بالشرح المفهوم، وفي كل مرة بتبادل الثقة والاعتراف بحق المناقشة والاعتراض.

أما الرجل الذي نضبت نفسه منجانب العاطفة الفردية ، والنبي ليس عنده

ما يتبادل به مودة بمودة أو فهما بفهم أو خاطراً بخاطر ، والذى انقطمت جميع الوشائج بينه و بين إخوانه من أبناء آدم إلا الوشيجة التي تكون بين الواحد والألوف أو بين الداعية والجمهور — فذلك رجل محدود القدرة على التحدث والتفاهم وعلى الاصغاء والاقناع ، محتوم عليه أن يجد جمهوراً يستمع له . و يكتنى منه بالاستهاع ، أو أن يتخيل نفسه قائماً بين جمهور و إن كان في مجلسه أفراد قليلون .

لهذا اشتهر هتار بالتدفق فى أحاديث السياسة ساعة بمد ساعة دون أن يقف أو يتمهل أو يسأم التكرار . فان لم يتدفق فى أحاديث السياسة فهو بين حكاية فادرة أو إعادة ملحة مطروقة ، أو سرد تاريخ قديم ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فليس فى مجلسه إلا السكوت والوجوم .

فهتلر الفَرد' « معدوم »

أما هتِلر الموجود فهو البوق الذي ينفخ في الجاهير أو يردد صدى الجاهير .

وانظر إلى صوره وهو فى مواقف التفاهم والتخادث تر أمامك صوراً فاترة باهتة تنطق بالتكلف ونقص الحياة وتبعث فى نفس ناظرها الريبة والنفور .

أما الصور التي يحيا فيها وتلبسه الحركة والشدة فهي الصور التي ينقطع فيها التفاهم ويثور فيها الغضب وتتأجيج فيها البغضاء .

وماذا ترى في هذه الصور ؟

إِن الخطباء الحماسيين جميعاً ليفضبون، وأنهم جميعا ليحركون الفضب فى الجماهير. إلا أن الفرق بين غضب وغضب لفرق عظيم ، وإن الاختلاف ببن حماسة وحماسة ليفوق الاختلاف بين القوة والمرض ، وبين الجلال والهوان .

رأينا سعد زغاول وهو غاضب فىخطبه فرأينا غضباً كأنه السيف يصول به القارس على قرنه ، و يعرف كيف يصول .



هتلرمع السفير البريطاني

المفتوح ينفس عن ضغينة كامنة كأنها القيح المحبوس. فهو فرصة الألم والتذاذ الألم في وقت واحد ، وهو علاج للتنفيس عن داء ، وليس بالسيف في أيدى الأقوياء

هو نو بة مصروع وليس بوثبة صارع وهو منظر تزورُ منه النيون ، وليس بمنظر تود العيون أن تمتلي. منه وهو رقصة الهمجي في حومة الدم أمام أوثان النقمة والتشفى ، وليس برقصة الفارس في حومة البرجاس

وقد جمعنا فى هذه الصفحات صورا عدة لمتلر وهو يخطب ، أو وهو يغضب ، لأنه فى الحقيقة قلما يخطب إلا ليغضب . فأية صورة من تلك الصور ياترى يستطيع القارىء أن يكتب تحمها مثلا « هذه صورة هملر يزأر أو يزمجر ؟ »

إن هذا الكلام ليكتب تحت صوركثيرة لمصطنى كال أو لسعد زغلول ، ولكن هتار — على عنايته بصوره واتخاذه رساما خاصا يتبعه فى جميع المحافل ويوزع فى أقطار العالم ألوف الصور بل عشرات الألوف منها — لاتوجد له صورة واحدة تخيل إلى الناظر هيئة الأسد المزبجر أو الأسد الغاضب ، وكلها بلا استثناء مما يصح أن يكتب القارىء تحته : « هتار يموى » أو هتار « يلطم »... ولا جناح عليه

* * *

ومن المقول أن رجلا كهذا يحب حلقات الخطابة التي يتزين فيها اشياطين غروره وحقده كما تتزين المرأة المجنونة لشياطين الزوار، ويستريح فيها الهياج والمهييج كما تستريح تلك المرأة الصرعة الرقص وجلبة الطبل ورؤية الذبائح وهي تتخبط في الدماء

ومن المعقول جداً أن يكره مواقف الفاوضة والتفاهم لأنها تطلعه على عجزه وتحكشف له عن خواه طبعه ، وتخرجه منها وهو فى رأى نفسه أقل ممن حوله . . إلا أن يلجأ إلى النهديد بالحرب كما يفعل فى معظم أحاديثه ، فهو إذن فى موقف الاملاء وليس فى موقف المفاوضة والاقناع

وقد شُجلت كلماته فى المفاوضات التى دارت بينه و بين سفراء الدول ورؤساء الحكومات فاذا هى عبرة العبر واضحوكة الأضاحيك: لايكون فيها إلا ممثلا

راوغ ، أو مهددا يتوعد ، أو منكراً لما يقال على طريقــــة الأطفال والنساء الجاهلات : إنى أنكر هذا أنكر هذا ، ولا مزيد . .

ناقشه مستر شامبرلن رئيس الوزارة الانجليزية في الشروط التي فرضها على حكومة براغ وأوجب عليها فيها أن تخلى الأرض المطلوبة وأن تبسدأ الاخلاء في الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من شهر سبتمبر (١٩٣٨) وأن تتمه عند انتهاء اليوم الثامن والعشرين

فقال له مستر شامبرلن أن هذا املاء هانذار نهائي» بنير حرب، و بنير هزيمة، على أمة قبلت المطالب وقبلت الاحتلال"

واختار شامبران كلمة « املاء » عمدا لأن هتار يذكرها كلما ذكر معاهدات الصلح ومعاهدة فرساى على الخصوص ، ويعتبرها موجبا لفسخ تلك المعاهدات فسا زاد هتار على أن قال : « كلا ، ليس هو إملاء » وأشار إلى رأس الورقة قائلا : « انظر . . . إن الورقة مكتوب علما كلمة مذكرة . . »

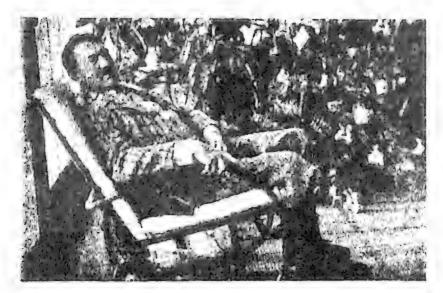
وهو كلام يقال للابسى القمصان فى ساحـة الخطابة فيقبلونه ويسيغونه ، ولـكنه لايقال فى مفارضات وزراء وسفراء

فالخطابة هي الميدان الذي يغلب فيه هتلر بهذا الأسلوب ، ولن يغلب به في ميدان آخر

وقد حذق من الخطابة ما يُحذق بالمرانة ومساعدة الساممين المسستعدين للاصفاء والتصديق ، وأهمه تدفق الكلام وسهولة التعبير

ولم تزوده الطبيعة من أدوات الخطابة الفطرية الا بزاد واحد وهو انقطاع الصلة النفسية بينه و بين الأفراد واضطراره من أجل ذلك الى مواجهة الجماهير للشعور بالحياة ونشاط الاحساس . ومتى نشطت نفسه ودبت الحركة الى ذهنه فلا يندر أن يلهمه الموقف بعض الخواطر البارعه التى يمثل بهما أعداءه في صورة





متلر في حياته الهادثة

مزرية أو صورة تستفز السخط والامتعاض ، وكلما من ولائد الـــكراهية وليس فمها صورة واحدة وليدة عطف أو عناية بالآخرين

و يختلف الناقدون فى صوته اختلافا لايتبين الحقيقه فيه من يسمع الصوت منقولا بالمذياع ، وهو ينقل بعض الأصوات على أصلها ويعرّض بمضها للتعديف وبمضها للتحسين

فن الناقدين من يعيبون على صوته خشونة تصك الآذان ، ويقولون أنه أجرى العملية الجراحية في حنجرته لاصلاح هذا العيب

ومنهم من يمجب بما في صوته من العمق و رنة التجويف ، ويعده من اصلح الأصوات الخطابية لنقل الشعور الجارف والنهويل على السامعين

وسواء كان الميب الذى يعيبه اولئك الناقدون صحيحاً أو غير صحيح فالمهم في صفات الاصوات أن تؤلف بالتكرار ، وأن يكون لها طابع ولون معروف ، وعندئذ قد يصبح الميب حلية مرغوبا فيها مع النجاح والتوفيق .

عصرنا هذا هو عصر الزعماء غير مدا فعر بين جميع عصور التاريخ فقدشهدنافيه كل ضرب من ضروب الزعامة على اختلاف شر وطهاومقوماتها، وشهدنا فيه كل ضرب من ضروب الحركات الشعبية وكل جماعة من الجماعات التي تدين بالطاعة لزعيم

شهدنا زعماء من طراز سعد زغلول ومصطفى كمال يقودون الاتباع بهيبــة «الشخصية» الآمرة وطلعة السيدالمطاع

وشهدنا زعماء من طراز غاندى تحف بهم هالة القداسة ويأتمُّ بهم الناسكمة يأتمون بناسك الححواب

وشهدنا زعماء من طراز «دى فاليرا» يعيدون عهد القديسين المقاتلين بالصبر والثقة والمفاداة

وشهدنا زعماء من طراز موسولینی یسری منهم النشاط الحیوی إلى أتباعهم كما تسرى الحرارة في الأسلاك

وشهدنا زعماء من طراز لنسين يقنعون من يقنعونهم بقوة الفكر المتعصب والمنطق المنحرف واللدد العنيف

وشهدنا زعماء من طراز شيان كاى شيك يقرر ون زعامتهم بصرامة العزم وحصافة الذهن ومثابرة الصبر والعناد

وشهدنا زعماء كابن السعود يجمعون أكبر ما يجتمع في أبناء قومهم من

الصفات. فيفهم الناس أن ابن السعود أكبر العرب لأنه أكبر عربي في طبائع الأمة الدرنية كما نعرفها الآن

وكل هؤلاء الزعماء يراهم المتفرسون المتوسمون فلا يحارون فى أسرار زعامتهم ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا: لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لأن الايمان باستحقاق سعد زغلول ومصطفى كمال وغاندى ودى فالسيرا وموسوليني ولنين وشيان كاى شيك وابن السعود لمنزلة الزعامة فى أقوامهم لهو أسهل كشيرا من الشك في ذلك الاستحقاق

فا خر ما يخطر على البال أن يرى المتفرسُ المتوسم رجلا كسعد زغلول أو غاندى على بعد مابينهما من التفاوت ، ثم يخرج سائلا : لا أدرى والله ما الذى جعل هذا من الزعماء ؟ . . . أنه لا يسأل هذا السؤال لأن حديرة الشك هنا لا يميك له في خاطر

أما الذين رأوا هتلر — وقد رآه أكثرنا في الصورالمتحركة — فكلهم على مانعتقد يسألون : أين سر الزعامة فيه ؟ لماذا يستهوى الجماهير؟ وأي شيء



(هتلر وجربلز)

يبوضه عن هيبة الزعاء ؟
وعندنا نحن أن سر
الزعامة في هتلر أنه هو «واحد مكبر » من جماهير النازيين ،
أو أنه هو «مكبرالصوت »الذي
يعيد في الساحة الواسمة اصداء
أفراد متعددين ، لا يُسمَع
الواحد منهم الا إلى أمد قريب

فهو رجل يستطيع كل فرد من أتباعه أن يتمثـل فيه نفسه مجسّم معظما جهذا التمثيـل. ويقول في وعيه الخني: انظر. انظر. هوذا أنت. هوذا نموذج منك في نطاق كبير

وهتار من أجل هذا ضائع «المعالمالشخصية» لأنه في صميمه ولبابه مجموعة من ملامح الجمهور وليس بفرد عظيم له ملامح فرد عظيم

ولو وضع فى وسط خمسة أو وسط خمسين أو وسط خمسائة لكان حيرة الحائر فى الانتقاء والاستخراج ، لأنه صورة لا تتميز من سائر الصور إلا إذا الترعتها من بينها لتكبيرها

فكل خصلة فى رجل الشارع فهى فى هتلر أضخم وأجسم ، ولسكنه يلبسها كما يلبس الممثل دوره فلا يناقضك « بشخصية » مقررة تثير القاومة والمناظرة ، ولا يشعرك بالفضاضة أن تجلسه على كرسى الرئاسة ، لأنك أنت الذى اجلسته على سعيد وأنت الكاسب عند الموازنة بين نصيبك ونصيبه ، فأنما هو « شخصية مسرحية » وأنت الحقيقة الحيه على كل حال

وانظر الفارق مثلا بينه وبين بسارك ، أو بينه وبين هندنبرج ، أو بينه وبين مولتكة ، أو بينه وبين أصحاب القيادة السياسية والحربية فى أمة الألمان على الاجمال

فليس واحد من هؤلاء « شخصية مسرحية » تقوم على الثوب الذي تلبسه لتمثل به الامة بأسرها

نعم انهم المانيون في الصميم ، والمانيون في الخلق والسحناء ، ولكنهم المانيون ينفردون بملامح لا تنغمر في ملامح السواد ، وليسوا بالقناع الألماني الذي تتساوى فيه الوجوه

ماذا يبقى من بسمارك إذا نزعت عنه جلباب قومه ? يبقى كثير

وماذا يبقى من هتلر إذا جردته من ذلك الجلباب المسرحى أو من تلك الصبغة المعومية ?

لا شيء

ولا شى، يبقى منه أيضا إذا عزلته عن الحركه النازية فى أوانهـا المعلوم ودواعيها السبوقة . « فهتلر غير النازى » لن يكون له وجود . و بسمارك موجود ولو لم يطرق باب الديوان

* * *

قال كارل شتيبانك Karl Stepanek المثل الذي رأى هتلر على القرب وكان هتلر يشهد رواياته و يخلع عليه الجنسية الآرية على الرغم من نشأته التشكية: « دخل الفوهرر فقال هيل ا . . . تحيه النازيين . إلى مفتبط محضورك إلى . فأجبته : هيل ا ورفعت يدى بالتحية المهودة

«ثم لفظ ببعض كلمات دارجة وسيلهالتفكيربادية عليه ، أما عيناه اللتان اشتهرتا بلون الحديد فكانتا تنظران خلالى ولا أقول تنظران إلى . وطالما سألنى أناس من الانجليز عن تينك المينين ماهاوما لونهما ؟ فالحق أقول أننى مااستطعت قط أن أعطيهما لونا بين الألوان الرمادية أو الزرقاء أو الخضراء . إن في تحديقهما ولا شك شيئا غير مقبول ، فان وصفه بعضهم بالمفناطيسي فهو فيا رأيت أقرب إلى تحديق الذين ينامون منه إلى تحديق الذين يُنيمون »

وقال السير نيفيل هندرسون السفير البريطاني الذي كانوا يلقبونه في انجلترا « (١) ألفت أن اسمع كثيرا من « بالنازي » لفرط رغبته في مسالمة الألمان : « (١) ألفت أن اسمع كثيرا من

⁽۱) من كتابه اخماق مهمة Failure of a Mission

الألمان — ولا سيما النساء — يترنمون باشراق سيماه وعينيه خاصة ، وكنت انظر اليهما فأرى فيهما سخونة وغضبا . إذ لم يكن من حظى أن أراه إلا فى المناسبات الرسمية . بيد أننى على الرغم من أعماله ومساعيه التى لا يستطاع الاقلال من شأنها — لست أرى مناصا من المصارحة بما أبقاه فى نقسى من الأثر عند المقابلة الأولى أو بعدها . وذاك أنه لم يشعرنى قط بأية سمة من سمات العظمة

« ولقسد كان يسحر شعبه كما هو بيّن بغير حاجة إلى بيان ، وكانت له قدرة على الخلابة إذا أجمع النية عليها ، فانها كانت إحدى بضائمه ومخزوناته ، وكان لها أثر شهدته غير مرة . و إن لم يكن لى منه نصيب

« على أنه فى حالاته المعقولة كان ير بكنى أحيانا بسداده وحسن تدليله . فاذا سارت سورته ، وهى الحالة التي كان لها أبلغ السلطان على قومه ، فكل ما كنت أصبو اليه ساعتثذ أن أرجوه تهدئة نفسه

« ورأيت منه كثيراً من اعتزاز الفطرة وتأدبا حيثها لقيته ، ولكنى طالما تساءات وما برحت أسأل : كيف صعد إلى هذه المرتبة ؟ وكيف احتفظ بسلطانه على الأمة الألمانية ؟ وجواب السؤال الثانى فيها أعتقد أن الألمان يحبون أن يسوقهم الحاكم المستبد ، وأن حزبه ليس بقادر وقد حصل على زعيمه أن يبدله الآن . فلا حيلة له في ابقائه حيث هو إذا أراد أن يتقى الهدم والدمار »

وقال السير نيفيل فى موضع آخر: « هذه القدرة على خداع النفس واقناعها قد كانت جزءاً موصولا بخططه وتدبيراته ، وقد ساعدته على اضرام عواطفه واقتاع شعبه بما يريدهم على تصديقه . ويخيل إلى أنه إذا وقف غدا بين يدى الديان فلسوف يجادل يومئذ جدال المؤمن فى ظاهر الأمر بانه كان حريًا أن يعصم أور با من أهوال الحرب لو قبل البولونيون شروطه المقولة السخية ا»

وزارته الرحالةالمعروفة «روز يتافوربس» Rosita Forbes فوصفت مظهره

بالتفاهة فى أحواله الهادئة وقالت: «(١) يستطيع هتار دأمًا أن يلوح لك فى مسحة البساطة والبراءة على المها، وأن يحس ما يقوله فى ساعة قوله، وفى ذلك الساعة على الأرجح لافى غيرها .! وهو لا يصطنع المعرفة الغزيرة ، بل يتكام فى سهولة بالغة . وعيناه — إذا لزم موقف الدفاع — تشفان عن بعض الخلو والفراغ ، ولكنه يمكس لك ما يحسه متى اهتم بموضوع الحسديث بكل ما يبدو لك من ملامحه وسائر كيانه ...»

وقال الأستاذ ستيفن رو برت (٢) « إن المانيا الجنو بية طالما أنجبت الحالمين وتباع الخيالات ، على مثال ملك البجع لدفيج البافارى ، ثلا تزال بينهم نزعة القرون الوسطى لاتفارقهم . وهم يعيشون فى عالم كأنه الوهم بين جبال كأنها الخرافات التي لا ترى رأى العيان ، وكأعما الحقول والبيوت التي لهم تخريج مسرح وتصوير ستار.»

ثم قال: « وهتلر واحد منهم : ابن قلاح يزيد تعليمه قليلا على تعليم كل ابن قلاح ، ولكنه يستوى الآن فى مكان يعلو على متناول الخيال فى أعجب ما عندهم من قصص الجان

« وفى الحق انه لا يخلو أبدا من هيئة انسان مدهوش بعض الدهشة ، وقد نبهنى زميل من كبار أطباء العقول لازمني فى رحلة نورمبرج إلى هيئة هتار وهو يشد نفسه من حين إلى حين فى المحاف ل الكبرى ليكف عن الأحلام ، كأنما هى حالة من حالات الشخصية المزدوجة ، فهو لا يحب أن تبرز فيه صفات الفلاح الشائعة بين جهرة الفلاحين ، ولايفتاً مذكرا تفسه بتمثيل دور الزعيم أو نصف الآلة بين شعب عظيم ، ونبهنى ذلك الزميل إلى علامة أخرى من

⁽۱) من كتاب مؤلاء الرجال اعرفهم These Men I knew

Stefhen · H. Robert (۲) صاحب كتاب البيت الذي بناه هتلر The House that Hitler Built

علامات هـذه الخليقة ، وهي اسراعة إلى تبديل ملامح الرضى والأكتفاء التي تزحف إلى وجهه أحيانًا في وسط المواكب الشعبية . . . » .

هذه كلها ملامح رجل مطبوع على « الايحاء الذاتى » أو مزاج الاستحضار الذي يستمين به المثلون على تحضير الشخوص والأدوار .

فهو أبداً شخص غير شخصه ، وهو أبداً لابس قناع من صبغة خياله ، وهو أبداً لابس قناع من صبغة خياله ، وهو أبداً لابين جهور وعلى مسمع من هتاف وتصفيق ، و إلا فهو نكرة من النكرات . ونحن نستفيد من أوصاف الذين راقبوه ودرسوه وقيدوا حركاته وسكناته عليه ولكنه لا يختنى عنا إذا اختفت أقوال هؤلاء أجمين ، لأننا كا قلنا في عصر الزعاء ، وفي عصر الذياع يجوب الفضاء ، والصور المتحركة تتردد في الأرجاء ، وليس لنا محيص من القابلة بينه و بين زعماء الأم في زمانه ، وليس في وسمنا بعد هذه المقابلة أن ننسب اليه صفة « ذاتية » كالصفات التي تتجلى في أمثال سعد زغلول ومصطفى كال وغاندي وموسوليني ، ولا أن ننسي الفارق بينه و بينهم في مقور مات الزعامة . فهو مكبر صوت في ساحة عامة ، وليس منهم جيماً من تتحصر سياه في تكبير الأصوات .

وربماكان أوفى الطرق وأقربها إلى دراسة نفس انسان أن تلم بسيرة أصحابه وأعوائه الذين يعمل معهم ويعملون معه ، ويحتاج اليهم ويحتاجون اليه .

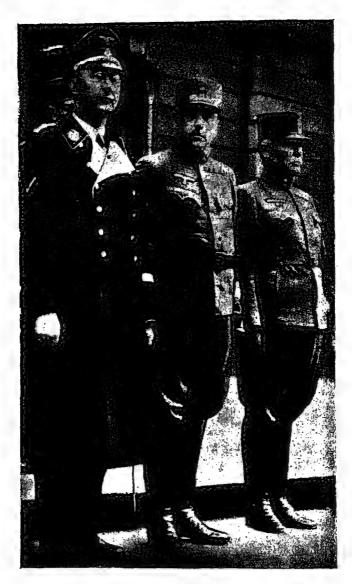
فن هذا الالمام بسيرة أصحابه وأعوانه نعلم حقيقة العمل الذى يتفقون عليه : هل هو مبرة يتفق عليها أناس كرام ، أو هو جريمة يتفق عليها أناس مخلوقون للاجرام .

وليس فى وسع أقرب المقربين إلى هتلر وأرغب الراغبين فى الثناء عليه أن يطلق وصف « الأناس الكرام » على أصحابه الأخصاء : جورنج وريبنتروب وجو بلز وهيملر واخوان هذا الطراز!

فكلهم من مرضى الظهور المشهورين بالنقمة والغــدر وسوء الدخلة وحب الشرور .

وكلهم ممن يعرفهم العارف فيقول على الفور: ها هنا جريمة مدبرة! ولايخطر له على بال أنها مأثرة من مآثر النبل والشم والفضيلة.

ولاحاجة إلى التوسع في سيرة هيملر فحسبه أنه رئيس الشحنة وقائد الجواسيس الذي ترجع الرم آثام الفيلة ومكائد الوقيعة ووصمة التعذيب في المتقلات ، وافساد الأبناء على الآباء . والزوجات على الأزواج والاخوان على الاخوان ، سمياً وراء الفضائح وتسقطاً للا خبار واختراعاً للجنايات والأكاذيب ، وقياما «بوظيفة نازية» لا يخطر على البال أن يضطلع بها رجل صادق شريف .



هبلر -- عن متلر الى لاتنمن وإلى جانبه طابطان تمدوبان ولا حاجة كذلك إلى التوسع فى سيرة جو بلز فحسبه أنه مدير الدعاية النازيه التى تقوم على الدس الخبيث والكذب الصريح ، والألمان أنفسهم على الرغم من قسوة الرقابة عليهم يصفونه بأنه أكذوبة تتحرك : وقف المثل الهزلى لدفيج



جوبلز « الارى » يحرسه رجال الشحنة

فنك Finkh مرة يقول معرضا به «: نحن الالمان نحب صيغة الجمع لغير داع » فنقول مثلا إن الأكذوبة فنقول مثلا إن الأكذوبة الحارجل ... لماذا لا نختصر فنقول إن الاكذوبة الها رجل قصيرة !

ولكننا نذكر الحقائق المقررة عن الرجاين اللذين يقبضان مع هتار على زمام السطوة كلها فى البلاد الالمانية ، وهما و يبنتر وب المسئول عن السياسة الخارجية ، وجو رنج المسؤل عن الجيش والطيران ، وفيهما ينحصر كل ما فى المانيا من قوة السياسة وقوة السلاح

فالأول من صرعى الظهور وأمثلة « الانتهاز » الذين عُرفوا في الاصطلاح الحديث بنعنت « الوصوليين »

لم يكن من أصحاب الالقاب ولكنه سعى عند عمه حتى تبناه ثم سمى عند. المراجع الرسمية حتى قبلت و راثة اللقب بالتبني كما يو رث بالبنوة الصحيحة

ولم يكن من الأغنياء ولكنه وصل الى الثروة من طريق الزواج، فأصهر الى أوتو هنكل Otto Hinckel صاحب الملايين من تجار الانبذة المدودين

وكان فى نشأته ، وبعد الحرب ، يتجر بالنبيذ فى للانيا الغربية حيث يعسكر الفرنسيون وجنود الحلفاء ، وهى تجارة كانت تقوم على التهريب برعاية «الاعداء» المحتلين للبلاد ا

وكان سبب التعارف بينه و بين هتار من « أليق » الاسباب باخلاق النازيين وطبيعة الحركة النازية

فقد كان ريبندوب منوطا بالتحسس على الاحراب البافارية في أعقاب الحرب الماضية ، وكان ضابطا يساعده في هذه المهمة ضابط آخر ، فكانا موضع الشبهة والارتياب بين العال وصفار الجند لانهائهما الى طبقة الضباط التي كانت كا أسلفنا متهمة النيات في عرف السواد من أبناء الطبقة العاملة

وكان من جراء ذلك أنهما بحثا عن « جندى » يؤدى عنهما هـذه المهمة وينقل اليهما ما يسمع ويرى فمثرا بالطلبة المنشودة ، ولم تـكن هذه الطلبة غير « هتلر » الذى كان مستمدا لـكل صناعة من هذا القبيل فى مقاهى ميونيخ

وعلى هذا النحوتم التمارف بين الرئيس والمرؤس، أو بين المرؤس والرئيس وريبنتروب، بعد، هو موقع الميثاق الالمانى اليابانى لحنس سنوات وهو هو الساعى فى ابرام الحالفة بين الالمان والروس! وانه لعمل لايخلو من الدلالة على الأخلاق مهما يقل القائلون فى تسو بغه باسم السياسة والمناورات الدولية

أما جورينج فالثابت من الاوراق الرسمية في بلاد السويد أنه كان يتعاطى

المورفين بشميهادة الاطباء والصيادلة أمام قضاة الأحوال الشخصية في مدينة « ستوكهلم » سنة ١٩٣٦

وفحوى القضية أن زوجته السويدية طلقت من زوجها السابق فون كانتزو Von Kantzow ولهما منه ولد قاصر فاختلفا على الحضانة ، وجاء أهل الزوج السابق إلى الحمكة يثبتون أن تربيسة الولد على خطر محقق بين الأم وزوجها الجديد . . . لأن الأم مصابة بالنوبات المزمنة ، والزوج – وهو جورينج – مصاب بادمان المخدرات وأعراض الجنون

و بعد تقديم الوثائق وسماع أقوال الخبراء والشهود قضت المحكمة بفصل الولد عن الزوجين وتسليمه الى حضانة آخرين

وقد ثبت فى المحكمة أن جورينج دخل مستشفى اسبودن Aspudden بعاصمة السويد فى منتصف سنة ١٩٢٦ للعلاج من آفة المخدرات وعوارض الجنون ، وأنه نقل منه الى مستشفى كاتارينا Katarina حيث كانوا يحجزونه فى حجرة مبطنة لفرط هياجه بعد تحريم المورفين عليه (١)

وعجائب جورينج فى حب الظهور ونشوز الأخلاق لا تحصى ولا تفرغ منها فكاهات أهل براين من نازيين وغير نازيين : حسبك منها انه يلعب بشبل أسد وانه يبد ل نيفاً وعشرين كسوة رسمية ، و يملأ كل واحدة منها بالأنواط والأوسمة والشارات !

والظاهر أن الآفة عامة بين زعماء النازيين على صور وأشكال. فكالهم جياع إلى المظهر البراق ، وكلهم يعيشون في جو التمثيل والاخراج.

فالمنافس الأول لجور ينج — وهو ريبنتروب — لا يَكُثر مثله في تبديل الكسي وحمل الأنواط والأوسمة ، ولكنه لايميش بغير تمثيل وتهو يل سواء أقام في

⁽۱) كتاب « جورنج أخطر رجل فى ألمانيا » تأليف كو رت سنجر Kurt Singer

جلاده أو تغرّب عنها . . . ومن ذاك انه تولى وزارة الخارجية فأقام فيها حرسا من مائة وخمسين فتى يلبسون الكسوة الرمادية الخضراء ، و يرسلون الأهداب من الأكتاف ، و يصطفون كل صباح لأداء التحية في فناء الوزارة .

وروى مراسل لا لايف » Life الامريكية انه حضر مأدبة من مآدب ريبنتروب الرسمية وهو سفير فى الماصمة الانجليزية ، فلما دخل الردهة الكبيرة بصر بابنه رودلف واقفاً على الشرفة وفى يده نسخة لم تفتح من كتاب «كفاحى » لهتلر يقلّب فيها كأنه يقرأها وينعم فى قراءتها ا

ثم أدب ريبنتر و مأدبة أخرى فى الخريف التالى تكريمًا للكونت شيانو فضرها المراسل مع الصحفيين المدعوين . قال : قرأيت الفتى فى وقفته الأولى ، وفى موضعه الأولى ومعه الكتاب لم يفتح بعد ، وهو مقبل على قراءته بانعام .

وحكاية « هيل هتار » والوقفة النازيه فى بلاط لندن أعجب ما ُيروى من مهازل هذا التمثيل والاخراج !

وقد تساوى ريبنتروب وجورينج فى استغلال الوطنية والاستفادة من حمنة الأمة عند الحاحة .

فاحتلال الحلفاء لوادى الرين لم يمنع ريبنةروب أن يقنص الفرصة ويتجر هنالك بتهريب النبيذ.

وحماسة جورينج الوطنية لم تمنعه أن يعرض مسر المظلات الواقية للبيع فى الأسواق الأوربية ، فأنشأ فى أيام الجمهورية الألمانية المعروفة باسم الريخ الثانى مصنعاً لهذه المظلات بماصمة السويد يعرضها لمن يشاء أن بشتريها من دول الأعداء والأصدقاء ، وهى تلك المظلات التي يعتمدون عليها الآن فى غارات النرويج والميادين الغربية .

وقد حفظت نسخة الاعلان في دار المحفوظات السويدية وفقاً للقانون الذي يقضى في تلك البلاد بايداع نسخة في المكتبات الحكومية من كل

ورقة مطبوعة . . . فكأن جورينج لا يختص وطنه عخترعاته إلا إذا كان له نصيب من حكمه ، أما إذا كان يائساً من الحكم غريباً في بلاد أجنبية فليس لوطنه هذا الحق عليه .

وندع هنا ما أفشاه الصحنى سفتون ديلمر Sefton Delmer عن ودائع الزعماء النازيين فى المصارف الأوربية والامريكية وتبلغ فى تقديره سبعة ملايين من الجنيهات.

فسواء ثبت هـذا الخبر أو لم يثبت فالهـدايا التي قبلها جورنج في عرسه (سنة ١٩٣٤) ولا يزال يقبل أمثالها تبلغ الملايين ولا شك فيها بين الألمان ... والأسهم التي اشتراها جو بلز في البلاد الخارجية حقيقة لا تقبل الانكار ، ومنها مائة سهم في شركة كبيرة يعرفها المصريون وهي شركة قناة السويس حُبجز عليها (أي على الأسهم) بقرار من نيابة محكمة السين في منتصف شهر مايو (١٩٤٠) ... وقس على ما ثبت بالأوراق والشهادات ماهو مرزوي إلى الساعة في انتظار الاثبات . إلا اننا لو نفينا الاختلاس وابتزاز الأموال عن هؤلاء الناس لظلوا على وصفهم

الذي تنكره الأخلاق والأذواق عصابةً من مرضى الظهور ونهازي الفرص وأصحاب الضراوة بالشرور .

فا هى القضية الشريفة التى يخدمها أمثال هؤلاء ؟ وما الذى يرحض عنهم وصمة هذه الشرور ؟ أيرحضها عنهم أذكياء لبقون فى التحيل ونصب الفخاخ ؟ لقد حسيرت عصابات المهربين فى الولايات المتحدة ذكاء الشرطة والمحققين ورؤساء الحكومة حتى اضطروهم إلى رفع الحظر عن المسكرات . فمن المجرمين أذكياء ومنظمون ، ولكن ايس من رجال الخير والنجدة والقضايا الشريفة فتاكون أشزار ، مجردون من فضائل النبل وسجايا المروءة .

ولولا أن العمل الذي يتولاه هتلر « جريجة انسانية » لما تولاه معـــه أناس بهذه الطباع . وفحوى ماتقدم أننا أمام رجل أبتر مدخول الطبيعة

لم تؤهله للخير و راثته ولا نشأته ، ولا صلة الارحام بينه و بين أهله ، ولاصلة المودة بينه و بين صحبه ، ولا القدرة على كسب عيشه ، ولا النجاح والتوفيق فى الفنون الجيلة التى ظن أنه مستمد لها بطبعه ، ولا الغرائز والعواطف التى ركبها الله فى تكو ش كل ذكر وأنثى

والى جانب هذا لم يكن لطبيعته المكبوتة مصرف من الحركة الجسدية والألماب الرياضية التى تُلهى وتشغل عن هواجس النفس المصدومة النافرة وأشواق الجسدالماجز المحسور. لأن هتار على كل إطنابه في مدح الالماب وتنشئة الجيل عليها لم يولع قط بلعبة رياضية أو حركة جسدية ، ولم يشتهر كما اشتهر غيره من الطفاة بغرام السرعة في ركوب الطيارات والسيارات ، أو غرام الفر وسية في الصيد وتجربة السلاح ، أو ما شاكل ذلك من وسائل التنفيس والتفريج

ولو اقتصر أمره على هذا الحانت نهايته التي لاشك فيها إما الى الاجرام أو الجنون ، وإما الى الحمول والهزال ، ولما سمع به أحد ولا كتب له اسم في سجل التاريخ

ولكنه نشأ موهوب الذهن في فترة الزعازع الدولية والمفاجآت السياسية واتفق له أنه كان « مختار » خسة أو ستة في بدء حياته الحزبية : اختار وه ولم يكن في وسمهم أن يختار وا من يشاءون كما يشاءون . ثم تكفّل التاريخ

جالبقية الباقية ، وأصبحت الصعوبة بعد ذلك في اسقاطه ومحوه لا في ارتقائه وعميد طريقه

كيف وصل هتلر إلى الزعامة ؟

وصل اليها لأنه كان «مختار » أولئك الخسة أو الستة من البداية ، ولم يكن من السهل اسقاط زميم بعد اختياره

وكيف فعل بعد ذلك مافعل في عالم السياسة الدولية ؟

فعله لأنه قبض بفضل تلك الزعامة على موارد أمة كبيرة كالأمة الألمانية ، عدتها ثمانون مليونا وطاقتها الحربية والسياسية والصناعية لاتفوقها طاقة أمة أوربية ، وعقيدة الجيل الناشى منها في طاعة « الزعيم » أنها مقدمة على طاعة الآلة كاقال مدير المدارس الدكتور رينولد كروس Reinold Kraus حيث كتب في صحيفة دوتش تاجسيتونج « إن المسيحية علمية في شمورها . ولسكن الواجب هو تقديم الوطن على العالم . فبن المستحيل أن تؤمن بالريخ الثالث ثم تؤمن بان طاعة الله مقدمة على طاعة الانسان »

ورجل يقبض على زمام ثمانين مليونا من المخلوقات الآدمية هذه عقيدتهم وهذه فطرتهم وذلك استعدادهم للطاعة العمياء ما الذى يستكثر عليه مما فعل ؟ ولماذا يستكثر عليه ؟ ولماذا نقف أمام فعله موقف اله هشة والاكبار .

لوأنه كان متقيدا بدستور أومتقيدا بقانون أو متقيدا بمرف مأثور أو متقيدا بمماهدات مرعية أو متقيدا باجتناب الحرب أو بالسير فى طريق محدود لايتحاشاه ولا يحيد عنه لـكان المجب معهوما من أن يستطيع ما استطاع . لـكنه لم يتقيد قط بشىء من الأشياء ، ولم يزل يأمر و يطاع فى كل ماأراد

Deutsche Tageszeitung ن عيفة ١٩٣٤ - ٣ - ١٩ (١)

بل نحن نخطىء إذا فهمنا أنالسألة هنا مسألة طاعة . لأنها في حقيقتها أكثر . جدا من الطاعة

المسألة هنا مسألة تعصب لزعيم يراد له التقديس والتمجيد، ومسألة « ثورة شعورية» جامحة في سبيل التمكين والتأييد، أو هي «هوسة» تسبق الطاعة إلى المفاداة والمغامرة، لأن غريزة الجاعات قد جاشت جيشانها، فاندفعت كا يندفع القطيع من الماشية في أثر الحيوان السابق، ولو إلى الهلاك

أيقال إن هذا مطلب صعب على من يريده ؟

كلا . بل هذا أسهل المراكب وأوطؤها لمن لايحسب حسابا ولايتقيد بقيد ... فليس أسهل من إثارة الشر" في نفوس الجماعات الغاضبة المتعطشة إلى الانتقام ، المهتاجة بصيحة الحرب والعدوان

وأنه لأسهل المراكب من الوجهـــة الاقتصادية والسياسية ، لا من الوجهة الشمورية ولا من وجهة النظر إلى غرائز الجاعة دون غيرها

تسلحوا أيها الألمان جميعاً . . !

هذه أسهل صيحة تصاح وأقمنها بالاجابة والقبول:

يقبلها أصحاب المصانع لأنهم يرو جون بها مناجم الفحم والحديد ومصانع السلاح و يقبلها الضباط والجنود لأنهم يعتزون بها و يضمنون بها العيش والكرامة و يقبلها المهال والصناع لأنهم يجدون عملافى صنع السلاح أو في حل السلاح و يقبلها الشيوح المحافظون لما فيها من تعزيز النظام القديم ، و يقبلها الشبان المتطرفون لما فيها من الحماسة والضجيج ، و يقبلها النساء لأنهن زوجات عمال أو جنود أو أصحاب أموال ، ولأنهن مهجبات بمظاهر الفروسية ومواكب الجنود فى كل زمان

فأنت ترى أنها ليست بمعجزة

بل هي نقيض المجزة

إنها أسهل شيء يخطر على بال من يريد ، ولا مانع يمنعها إلا التفسكير في العواقب على الأمة الألمانية ، وعلى الامم المجاورة لها وعلى العالم الانساني بأسره ... وهذا مالم يفكر هتار فيه

لأنه مجرم يركب رأسه لا لأنه رجل مقدام

* * *

وكل ماصنع هتار فهو ضرورى لغرض واحد : ضرورى لاشباع غريزة الحقد والغرور والبطش والاجرام في نفس بتراء ممسوخة

ولیس بضروری لغرض آخر کائنا ما کان

تعم لیس بضروری لسیطرة ألمـانیا المزعومة حتی لو أمكن أن تسود ألمـانیا علی الدنیا ، وهو مستحیل

وغاية ماهنا لك أن «سيطرة المسانيا المزعومة » هي الستار الذي يداري به هتلر بشاعة إجرامه ، أو هي المخدر الذي ينتيم به وسواسه قبل اقتراف الجريمة أو بعد اقترافها

و إلا فكيف كان هتار يطيق تلك الأشباح كلها لو صارح نفسه بالحقيقة ، وأعلن نفسه أنه يهدر ما أهدر ويقتل من قتل لمحض الاستمتاع بشهوة الدما، ونهمة الأحقاد

إن القاتل ليرتمد من الوجل والرعب أمام شبيح واحد وجثة واحدة . فكيف بالحجرم الذي يقذف بالمسلم كله في اتون النار . وكيف بالحجرم الذي تتراءى له الرؤوس الطائعة من أصدقائه وأعدائه بالألوف ؟ وكيف بالحجرم الذي يقضى على شموب ويهتك كل حرمة مقدسة في الشرائع والآداب ؟

الجنون السريع أيسر ما يصيب الجحرم الذى تطارده كل هاتيك الاشباح ، ثم يصمد لها الليل بعد الليل والنهار بعد النهار ، بغير مخدَّر فعال وسيطرة المانيا المزعومة هي ذلك المخدر الفعال

فاقتل ياهتلر اذن واضرب وغامر وانتقم وأشبع ما بدالك من ضغينة وشر وكنود ، فما أنت بمجرم منهوم بالشر المستطير بل أنت بطل مشغوف بمجد المانيا الموعود

هل ضمن مجد المانيا الموعود ؟ وهل ضمن السيطرة الالمانية على الدنيا ؟ كلا ! فسيطرة المانيا على الدنيا ولو انتصرت في الحروب كافة مطلب لا يكون، ومصير غير مضمون ، ولا هو بعد ضمانه بمأمون

ولكنه ضمن المطلب الذي لاريب فيه ، وهو اشباع مافيه من شر متفزز ...

وقد يقول قائل الآن انه استهان بالأرواح والحرمات وأقدم على الشر المستطير في سبيل خطة عظيمة هو واضعها وهو الكفيل بانجازها في مكان الزعامة على الأمة الالمانية ، أو في المكان الذي يستطيع فيه أن يتمنى و يحقق ما يتمناه لكنه مع ذلك فرح بالشر المستطير عند اعلان الحرب الماضية وتهلل له وقال في كتابه « ان تلك الساعات كانت نجاة لى من الضيق الذي كان يرين على نفسي في أيام شبابي . فلا مخجلني أن أقول اليوم انني قد أخذت بمجيء تلك الساعة و ركمت على ركبتي أشكر الله من أعماق قلبي لأنه أتاح لى العيش في هذا الزمان »

فهو يفرح بالشر المستطير وهو جنثدى من عشرة ملايين ، ويفرح به وهو زعيم لا يشاركه أحد في الزعامة ، وليس في وسع مخيلة أن تتوهم أنه قد فرح بالنكارثة العظمى ذلك الفرح لأنه رأى امته منتصرة ورأى أنه سيجلس على

عرشها بديلا من آل هوهنزلون وهم ظافرون! أو رأى أمته منتصرة وهو يتنبأ اللدولة النمسوية بالامهيار، أو رآها منهزمة ثم تسلسات أمامه الحوادث إلى اليوم الذي يشن فيه هذه الحرب الحاضرة. فتلك أوهام بعيدة من تخيل المتخيلين، وإعا الصحيح من كل هذا أنه مجرم شرير يفرح بالشر حيث كأن لأنه لا يعرف الفرح بغيره في عمل من الأعمال

* * *

و إيانا أن ننخدع عن كنه الاجرام فنفهم أن المجرم ينوى الجريمة ويعترف بينه وبين وجدانه باختيارها وتفضيلها ولو تسنى له اجتنابها

فان المجرمين ليمتقدون أنهم مكرهون ، وأنهم لولا الأيام والصروف لما اقترفوا قط ما يقترفون ، وما من نزيل من نزلاء السجون تسأله فيقول لك إنه كان يأى أن يميش كا عاش فلان الضالح السري وفلان العائل المكفول المونة بين



هتلر يسمع اعلان الحرب الماضية سنة (١٩١٤)

عياله وأهله ، وهتلر أيضا لو سألته لقال لك تخلصًا أو غير مخلص أنه كان يود لو تم له كل ما أراد بغير قتال

إننا لنبحث عبثاً فى ستجلات التاريخ ووقائع الدنيا الماثلة بين أيدينا لو بمثنا عن المجرم الذى يقول إنه خرب العالم وله مندوحة عن خرابه ، أو ظلم من ظلم وسفح ما سفح لأنه يستريح إلى الظلم وسفك الدماء .

فانكار ألجريمة لا ينفي طبيعة الاجرام .

وكفى أن يكون الشرسهلا يواقعه المرء لأيسر ضرورة أو لضرورة موهومة لمتثبت طبيعة الاجرام أبما ثبوت .

وما ضرورة دانزيج . وما ضرورة تأجيلها أو انتظار اليأس من المفاوضة فيها ؟ ليست بضرورة على الاطلاق

لكنها مع هــــــذا كانت أعضل على هتلر من معضلة للغامرة بسلام الدنيا ومصير بني الانسان

وسوّغها المسوغون فقالوا إنه قد أسرع إلى الحرب لأنه عاهد الروسيين على النزام الحيدة وتقسيم الغنائم ، كأنهم ينسون أنهم يعنون بذلك تفسيرا واحدا لا تفسير غيره ؟ وهو أن صاحبهم يتلهف على ذرائع الشر والبغى فلا يرفضها ساعة العثور عليها ، وليس يتلهف على ذرائع الرفق والسلام

* * *

و معد فسيطرة المانيا على الدنيا ليست حقيقة فى حيز الوجود ، وليست حقيقة فى ميز الوجود ، وليست حقيقة فى مستقبل الأيام ، وليست حقيقة تساوى أهوالها وخسائرها على فرض امكانها لكنها حقيقة على صورة واحدة : وهى الاعانة على طوية الشر والبغى والبادى. فيهما إلى أقصى مداها . . فنى هذا ولا شك هى حقيقة وافية بغاياتها ، مؤدية إلى نتأجها

وليس في تاريخ الرجل عمل واحد يستعصى على انسان متوسط الذكاء غير

مقيد بالعواقب ولا بوازع القاون والاخلاق

فهو لم يصنع معجزة يوم اختاروه زعبالحسة أو لستة من الفارغين للمشاغبات السياسية في ميونيخ . ولا سيا إذا ذكرنا أن هذه الزعامة لم تكن أمنية مرغوبا فيها ، للشك في مصيرها واستلزامها أن ينقطع لها صاحبها عن الأعمال والعلاقات وهو لم يصنع معجزة ببقائه في زعامته ، لأن خلع الزعيم ولو كان خصومه على هدى ، أصعب جدا من بقائه في الزعامة ولوكان على ضلال

وهو لم يصنع معجزة باقتداره على مافعل و بين يديه موارد الدولة الألمــانية وأمامه عالم لا يريد الحرب ولا يتفق على المقاومة

وفضيلته الكبرى هي نقيصته الكبرى:

هى أنه ركب الدولاب الجامح ولم يبال وخامة المركب، لأن أسوأ العواقب لا يعنيه ولا يثنيه

فلم يفكر ماذا يكون المصير والمانيا كاما هاجمة على التسليح مشغولة بالتأهب القتال فالمصانع لا تخرج المدافع والدبابات أبد الآبدين: دورانها على السلاح سرمدا مستحيل، ووقوفها بمد دورانها أعواما مستحيل، لما فيه من اغضاب أصحاب المال، واغضاب الملابين من العال، المتسكمين بين الجوع والسؤال

والتحدث عن الحرب ليل نهار لابد أن ينتهى إلى حرب عاجلة ولو لم تكن لازمة ولا ناجحة

وتربية الشعب على المفاجآت المسرحية تموده أن يترقبها و يتحفز لها ولايطيق الفراغ منها، و إلا فترت الحية وخمدت نار الزعامة التي هي قوامها وعلة وجودها وهكذا دار الدولاب الجهنمي دورته المرهوبة، ولم يكن عند هتلر إلا لعبة أخاذة يستطيبها خيال اكتع لم يخلق للمظمة الفنية، وطبيعة جارمة خوت من الرحم الانساني، وعقل محبول يومض فيه الذكاء، ولكنه ذكاء في قبضة شيطان.



هنار بین یدی مندنبرج

الفصيل الرابع

قضت براليوم

ما هي إذن قضية اليوم؟ ما هي القضية التي يعرضها النازيون على العالم للفصل فيها؟ وأين هي مصلحة العالم من طرفَي القضية؟

ان هتلر يعرض على العالم قضية الطغيان والحرية الانسانية ، أو قضية الايمان بالسلاح وحده والايمان بشيء في الحياة وفي الحضارة غير السلاح .

وهو لا يعرض على الناس قضية الطفيان ليقول لهم : أيها الاخوان . تعالوا وكونوا طفاة مثلى ولكنه يعرضها ليكون هو الطاغية المتحكم وهم العبيد المستسلمين .

وهو لا يؤمن بالسلاح وحده ليقضى به فى خصومته مع بولونيا وانجلترا وفرنسا و بلجيكا وغيرها وغيرها ثم يكفر به و يلقيه جانباً و يعترف بالحقوق والحرمات .

كلا ! بل هو يعتمد عليه اليوم مرة و يعتمد عليه غداً عشر مرات ، لأنه إذا بلغ به ما أراد زاد اعتماده عليه ، وأصبح أقدر على استخدامه نما هو الآن .

فهو قد عمل للحرب فجمع لهما عدتها . . . وغيره لم يعملوا للحرب فلم يحمعوا لها مثل تلك العدة .

هل أصاب أو أخطأ في اشتغاله للحرب دون غيرها ؟

قل انه أصاب أو قل انه أخطأ فليس هــذا مقطع القول الآن ، و إنما مقطع القول ان الذي ينصره أو يتمنى له النصر يخطىء كل الخطأ ولا يصيب في حقه ولا في حق العالم أقل صواب .

على ان العالم لو اشتغل للحرب وحدها كما اشتغل لها هتار لكان معنى ذلك ان الهتارية قد ر بحت المعركة قبل دخولها ، وقد دان العالم بدين الطفيان وكفر بدين الحرية . وأصبح لزاما عليه أن ينقلب إلى معسكر ميدان لايتربى فيه الطفل ولا يعمل فيه الرجل ، ولا تفحر فيه العقول ، ولا تجمع الدولة مالا أو تنفقه ، ولا تبيح الحكومة شيئاً أو تحرمه إلا في هذا السبيل .

وبئس الوقاية من الهتارية تلك الوقاية .

* * *

يقول هتلر للمالم :

«اعطونى حرية الانسان . . . اعطونى حقوق الانسان . . . اعطونى ضان الرأى والروح . . . اعطونى حقوق الرأى والروح . . . اعطونى تراث الماضى والرجاء فى المستقبل . . . اعطونى حقوق الغرد فى الدولة ألغيها ، واعطونى الدول الصغيرة أدوسها ، والدول الكبيرة أمزقها . . . وقواعد الطمأنينة فى الأرض كاها أزعزعها وألقى الفزع والفوضى والصيير المجهول فى مكانها . . . اعطونى كل ما تعزون ولا تسألونى ماذا تأخذون ! . . لأننى آخد ولا أعطى : آخد الحرية التى عندكم ولا أعطى القوة التى عندى ، أو آخذ رجاءكم فى الحرية ولا أعطى رجاءكم فى القوة . إذ هى لى وحدى لا أعطيها أحدا حتى بين الألمان خلاصة بنى الإنسان ، . . فكيف يعطاها غيرهم من المخلوقين للطاعة والهوان ؟

يقول هتلر للمالم : اعطونى الحرمات والحقوق لأن ألمانيا لا تميش فى الدنيا وللدنيا حرمات وحقوق ؟

فهل يصدق فيما يقول ^٢ كلا . بل هو يكذب ويلغو · فما فى الأرض أمة تعيش قريرة راضية والدنيا مسلوبة الحرمات والحقوق .

وهبوه معذلك صادقا فملام يدل صدقه ؟ بدل على أن مصلحة المانيا ومصلحة العالم نقيضان ، وان العالم لن يستريح وللألمان سطوة وشناك .

والواقع ان العالم — كذب هتلر أو صدق — لمن يستر بنح والسطوة الهتلرية. قائمة والدولة النازية دائمة .

فقضية الانسان اليوم هي أن تنهزم المانيا الهتارية الهزيمة البرمة التي لا قيام بعدها ، لأن انتصارها هو انتصار لمطالبها التي تبغيها : ومبادئها التي تدين بها ، ومطالبها الصريحة التي لا تكتمها هي استفلال الشعوب الأخرى وابتزازها ، ومبادئها الصريحة التي تبشر بها هي سيادة القوة بينها و بين الدول ، وسيادة القوة بينها الصريحة التي تبشر بها هي سيادة القوة بينها و بين الدول ، وسيادة القوة بين الحكومة والرعية . . . وهل لأحد أن يطمع من حكومة ألمانية في حرية أوسم من الحرية التي يؤذن بها لأبناء المانيا نفسها ؟ كلا . فما للحرية وجود في عالم يسوده فرد مقدس معصوم يطلب من الناس ما لا يطلبه الخالق من المخلوقات .

كل ما هنالك مبادى؛ القوة ، ومعنى مبادىء القوة إلغاء التفاهم والتعاقد فى السياسة الخارجية ، وإلغاء الشورى والانتقاد وضان الحقوق والأرواح فى السياسة الداخلية ، فلا شيء غيير طغيان السيد واذعان الضيف الحكوم اذعان المستسلم الناس لا ينبس بشكاية ، ولا يطمع فى إصغاء .

ليس يكفى أن تخرج المانيا من الحرب وقدفاتها النصر والاستملاء ، بل يجب أن تخرج منها مهزومة عاجزة عن التهديد .

لأنها إذا ملسكت زمام النهديد بعد الحرب لم يلبث العالم أن يمود إلى ما كان فيه من الفرع الدائم والتسابق الأهوج فى مضار التسليح ، وأن يسرف إسرافه المنهك فى أهبة الهجوم والدفاع . فتذهب موارده فى اعداد عدة التدمير ثم تضيق هذه الموارد بكل عمل مفيد من أعمال البناء والتعمير . ويمانى أبناء

الأمم جميما ما كانوا يمانونه من الكساد وارهاق النفقات ، بغير أمل في تبديل هذه الحاله

ولا موضع المفاضلة بين خروج ألمانيا منصورة أو موفورة القوة وبين خروج الحلفاء منصورين قادرين على المقاومة

فأقل ما يُرجى من انتصار الأمم الديمقراطية أن تبقى حالة الحرية كا كانت فى السنوات الأخيرة ، وهى حالة أكرم وأسلم من كل حالة يتوقعها العالم بعد تسليط الألمان عليه

هذا أقل مايرجى من انتصار الأمم الديمقراطية . أما أكبر ما يرجى من انتصارها فهو اتساع آفاق التفاهم والتعاون بينها وبين الأمم الضعيفة ، وهى خطة صالحة للأقوياء والضعفاء على السواء : يظفر منها الأقوياء بمودة لا يستهان بها وتخفيف في النفقات الحربية هم أحوج ما يكونون اليه ، ويظفر منها الضعفاء بالعضد الذي يريحهم من أعباء الدفاع ، ويتبيح لهم أن يوجهوا أموالهم وأرزاقهم وجهة الاصلاح والتعمير

وقد يخطر على بال جاهل أن خروج الدول الديمقراطية من الحرب مضمضمة خائرة أصلح للعالم وأجدى على الأمم الضعيفة

فهذا الخاطر سخيف مأفون. لأن الدول المضعفة الخائرة لا تضمن تقرير السلام واخافة المتربصين المتوثبين للشروهم كثيرون: منهم المستبدون الذين تجنبوا الحرب فصانوا قوتهم للارهاب والنهب بغير حساب، ومنهم الشيوعيون الذين يرقبون يوما يفرضون فيه مذاهب الهدم والكراهية على جميع الشعوب، وأى فرصة ينتهزونها لترويج مذاهبهم كالفرصة التي يجدونها وهم آمنون سطوة الدول الديمقراطية الكبرى ? لعلهم يصيبون بين شعوب تلك الدول نفسها تربة صالحة لالقاء بذور الفتنة والتمرد والانتقاض، متى وجدوها مضعضعة خائرة

لاتقوى على إخافتهم ولا على علاج المشكلات المتراكمة في داخل بلادها وقد يخطر لأحسد أن مذاهب الهدم والكراهية تشقى أناسا وتسعد آخرين....فان كان المقصود انها تسعد الحاكمين بأمرهم فذلك صحيح.أما إن كان المقصود أنها تسعد الأيدى العاملة فليس أفشل من هذا الخاطر بشهادة العيان فقد اتسع مجال التجربة للطغاة الشيوعيين جيلا كاملا فماذا صنموا ؟ وماذا أفاءوا على الطبقة الفقيرة من فلاحين أو صناع؟ جمعوا على رأسها من الذل والارهاق مالم يجتمع في أمة حاضرة ، وجعلوا الدولة صاحبة رأس المال وصاحبة المرافق في داخل البلاد وخارجها ، فأصبحت الطبقة العاملة من أجل ذلك محرومة حقها رقبَل رأس المال وأصبح الاحتجاجأو الاضطرابق هذه الحالة تمردا على الدولة وخيانة عظمي يعاقب عليها بالموت أو بالسجن الطويل، وأصبحت الساطة التي يشكو منها العامل هي السلطة التي يشكو اليها. بل أصبحت روسيا كلهـا سجنا كبيرا لايباح الخروج منه ولا الدخول اليه إلاكما يباح الدخول والخروج فى السجون ولا يكتم الشيوعيون هذا الاخفاق الذي لاسبيل إلى كتمانه ، فهم يعترفون به و يردونه إلى كل سبب غير سببه الصحيح ، وهو سخافة المذهب الذي يجعل تاريخ الانسان كله تاريخ « بنك » أبدى لا محل فيه الهير أطوار النقد وأسعار المصارفات ، ولن يفقهوا هذا ولن يرجعوا عنه . لأن المسألة عنـــدهم مسألة شهوة لامسألة فكرة ، وهي في قلوبهم حقد على المحسودين وليست رأفة بالمحرومين . وسيمنُّون أنفسهم مااستطاعوا أن ينهزم العالم ويتضعضع فيتاح لهم الأمل المنشود، ويدركوا يومئذ مالم يدركوه بعد الحرب الماضية التي خرج منهما الظافرون وهم متاسكون غير مضعضمين

* * *

ولهذا نقول أن قضية العالم هي انهزام المانيا وانتصار الدول الديمقراطية

وكما نقول أن كل نتيجة دون هزيمة المانيا لاتكفى ، نقول كذلك أن كل نتيجة دون انتصار الديمقراطية لا تكفى . لأن الشيوعيين والمستبدين هم المستفيدون دون غيرهم من هزيمة الديمقراطية أو من انتصارها على أعدائها انتصارا لا تحميه

* * *

إن النازبين يتقربون الينا نحن الشرقيين مجعجة غريبة ، ويتقربون الى الأمم الأخرى محمحة أغرب وأدعى إلى الرببة

أماالشرقيون فيذكر ون لهم الشكايات التي يشكونها من الدول الديمقراطية ، والقضايا الوطنية المعلقة بين تلك الدول و بعض الشعوب العربية والشرقية

ومهما يكن من شأن هذه القضايا والشكايات فمما لانزاع فيه أن المرء لا يحمد جراثيم السل لأنه يشكو الزكام ، ولا يرضى بصولة النازيين وطريقتهم فى حكم البولونيين والتشكيين والمسويين والمولنديين وأبناء الشمال ، لأنه يلقى ما يسوء من الدول الديمقراطية

فان الفرق لبعيد جدا بين من ينكر الحرية أصلا وفصلا و بين من يعترف بها و يماطلك فيها ، أو يخالفك في مقدارها

ولا أمل على الاطلاق فى حرية أو رخاء مع النازيين ، ولا يأس على الاطلاق من بلوغ الحرية والرخاء مادامت للديمقراطية حجة قائمة

* * *

ما من شرقى يرضى للشرق بما دون الانصاف الشامل والحقوق الوافية ، وسيبلغ أبناؤه لا محالة ما يتوقون اليه من انصاف ومنعة بفضل الجهود التى يقوم بها رجال كل بلد على حدة ، وفضل الجهود التى يتعاون عليها رجال الأمم العربية كافة . فمطلب الحرية والانصاف لأمم الشرق مطلب مفروغ منه ، ولا جدال فيه

إلا أننا حين ننظر الى النزاع الاوربى إنما ننظر الى المسألة من جانب الموقف الحربى والسياسة الخارجية ، وهى لا يمكن أن تكون إلا على وجه من وجوه ثلاثة : أن تقف الأمم الشرقية وحدها ، أو تقف الى جانب النازيين ، أوتقف الى جانب الخلفاء

فالوقوف وحدها في حومة هذا النزاع العالمي لا يتأتى. اذ ليس في أمم الشرق الأدنى أمة أقوى من فرنسا وهي لم تستنن عن الموئة الأنجليزية ، ولا أقوى من بريطانيا العظمي وهي لم تستنن عن الموئة الفرنسية

وحسبنا أن نتخيل تركيا وقد وقفت أمام الروسيا وألمانيا ونظرت الى خلفها فلم تجد من يحمى ظهرها و يملك العدة اللازمة لنصرتها . فماذا يسمها أن تصنع ؟ وماذا يكون المصير إلا أن يطغى الروس والألمان ومن معهم على كل أرض ف طريقهم ليقتسموها أو يقتتلوا عليها ؟

بقى الوقوف الى جانب الحلفاء أو الوقوف الى جانب النازيين، ولا تردد فى المفاضلة بين الموقفين: قوم يسلمون الحق و يؤجلون موعده، وقوم ينكر ون كل حق لمن عداهم فى خيرات الدنيا ولا ينتظرون من الساميين خاصة الا الخضوع لسيادة الآريين، بغير أمل فى الخلاص أو فى تبديل الحال، إلا أن تتبدل الأجناس ... وهيهات!

فالأمم الشرقية لاتمرف مصيرا هو أولى بخشيتها واتقائها وضياع آمالها من مصيرها مع النازيين ، إذا ملكوا زمامها بوسيلة من وسائل الغلب والارهاب

**

أما الحجة التي يتقرب بها النازيون الى العالم مسوغين بها مطامعهم وملطفين بها من شرور عدوانهم فهى أنهم لايصنعون اليوم إلاما صنعه الانجليز والفرنسيون في الاجيال الماضية ، فلماذا يجوز النتح للانجليز والفرنسيين ولا يجوز للنازيين ؟

ولماذا تهمنأ بريطانيا العظمي مثلا بالسيطرة العالمية ولايغلبها النازيون عليها ؟

فادًا سلَّم المالم هذه الحَبِحة وجب أن يطلَّق الأمل في التقدم والتفاهم والسلام أبد الآبدين ، وأن يجعل السيطرة العالمية قبلة لكل دوله تشعر بالقوة وتمتز بالمدد والمدة : يوم للالمان ويوم ثلر وس ويوم للطليان ويوم لأهل اليابان أو الصين أو من شئت من البلاد ، ولا راحة للدنيا في هذا الرجراج الصاعد الهابط بين قوم قد استعدوا وقوم يستعدون ، أو بين عدة أقوام مستعدين في جيل واحد . . . وذلك هو الجحيم بهينه للظافرين والمظفور بهم أجمين

والحقيقة أن السيطرة على العالم خرافة أغبياء وستظل خرافة أغبياء إلى آخ الزمان

والناس لا يملكهم واحسل

مهما علا في ملكه واستطال

كما قلنا فى توديع غليوم الثابى الذى ركبه الغرور قبل ربع قرن كما ركب الهتلريين فى هذه الأيام

فالدنيا لاتسودها دولة فى العصور الحديثة وان تسودها دولة فى العصور المقبلة ، وما سادتها بريطانيا العظمى فى أيامنا هذه ولا فى أيامها الماضية . وأحرى بالمستقبل أن يجرى على سنة أقوم من هذه السنة مادام للحضارة معنى وللمصالح المشتركة قدرة على كبح من يعدون عليها ، طفياناً فى سبيل الفتوح ، أو إيثاراً لمصلحة دولة واحدة على المصالح جمعاء

والأمم التى تدخل فى الدولة البريطانية إما مستقلة كافريقيا الجنوبية وكندا واستراليا وزيلاندة الجديدة ، و ربما كان سلطانها على لندن أكبر من سلطان لندن عليها

وإما تابعة كالمستعمرات الافريقية وما شابهها وليست سيادة الأنجليز لهـا دليلا على سيادتهم للمالم ، لأن البلجيكيين والاسبانيين يملكون مثلها . ولا ينفع

النازيين عند هذه الأمم أن تُجلى الانجليز عن أرضها . فانها متى استطاعت اجلاءهم فلن تفعل ذلك لتركع تحت أقدام النازيين ، وتقب ل السيطرة ممن يحسبون الأمم الافريقية في زمرة القرود

و بين الأمم المستقلة والأمم التابعة أمم كأهل الهند يتقدمون في طريق الاستقلال، وقد تكون للنازيين مصلحة في الحلول من أهل الهند محل الأنجليز... ولكن ما هي مصلحة أهل الهند ؟ وما هي مصلحة العالم ؟ وما هي مصلحة الأمم الفالبة أو الدول المغلوبة ؟ وما هي مصلحة الأمم الواقعة في الطريق ؟

على أننا لم نذكر الهند لنقر رهذه الحقيقة . فهى غنية عن التقرير ، وأعا ذكر ناها لنقول ان الحالة الحاضرة فى الهند لا ترجع إلى العوامل الخارجية كما ترجع إلى العوامل الداخلية ، وأن يريطانيا العظمى لو رفعت يدها اليوم عن تلك البلاد لما زالت جميع الحوائل بينها وبين قيام الحكومة الوطنية الشاملة ، ولا قار بت الزوال

فهناك الأمراء الحاكون في ولاياتهم وهم لا يتفتون ولا يرضون أن يحكمهم مجلس في عاصمة بميدة عن عواصم الامارات

وهناك المسلمون وهم كثرة في بعض الأقاليم وقلة في بعض الأقاليم الأخرى ، ولوشماتهم حكومة واحدة لأصبحوا قلة ضائعة في جميع الأقاليم

وهناك المنبوذون وهم عشرات الملايين ينظر اليهم البراهمة نظرتهم إلى الرجس الذى يفرقون من ظله ، ولا خــــــير لهم فى حكومة تضمهم هذا الموضع وتهملهم هذا الاهال

وهناك اختسلاف الأقاليم في الأجناس واللفسات والأديان وعناصر الثروة ومعادن التربة الزراعية ، مما لا يجتمع نظيره إلا في قارة من القارات الكبار فسألة المند المضال ليست مسألة السيادة الخارجية وحدها ، سواء كانت

عالمية أو مقصورة على بمض أجزاء المالم ، إذ لو فرغت كل سيادة عالمية في الدنيا لما فرغت السألة الهندية ، بل لعلها تبدأ يومئذ من جديد

واعا المسألة في الهند انها محتاجة إلى الانجليز كاحتياج الانجليز اليها ، وانها لاتخسر إذا حالفت الانجليز محالفة استقلال وكرامة ، كما تخسر إذا انفصل الفريقان دفعة واحدة

فالملاقة الوحيدة الصالحة للتوفيق بين أمتين فى زماننا هذا هى علاقة المصالح المشتركة والمعونة المتبادلة ، ولو كانت بريطانيا العظمى أقوى مما هى اليوم اضعافا مضاعفات لما استطاعت أن تقيم علاقاتها مع الأمم المتصلة بهما على غير هذا الأساس

أما السيطرة على العالم فى زماننا هذا فأوجز ما نقول فيها انها خرافة أغبياء، وأنها قد بطلت اليوم كل البطلان، ونرجو أن يكون يطلانا سرمديا لارجة فيه

* * *

وهنا مفترق الطريقين في قضية اليوم:

طريق الايمان بالقوة الحيوانية تبقى اليوم كما كانت بالأمس وتبقى إلى آخر الزمان كما كانت في أول الزمان ، فلا تبديل لها ولا رجاء في التبديل ولا خير فيه لوكان إلى تحقيقه سبيل ، وسيسود القوى العالم وينبغى أن يسوده وأنفه راغم . ولا عبرة بما يتعلل به طلاب المثل العليا من الآمال والأحلام

وهذه طريق النازيين

وطريق الايمان بشريعة فى الحياة غيرشريعة القوة الحيوانية: وهى شريعة الحق والانصاف والأمل فى تقدم الانسان إلى سنن فى المعاملات بين الأمم والافراد وراء سنة الكهف والغابة

وهذه طريق الديمقراطيين

و يقول النازيون أن شريمة القوة حقيق لاريب فيها ، وأن الانسان لا يغالط نفسه فى وجودها إلا لعلق على حد قول أبى الطيب . فالدول الديمقراطية تنادى اليوم بشريمة القوانين والعهود وتنكر سياسة البطش والارهاب لأنهبا شبعت وامتلأت فلا حاجة بها إلى مزيد من السطوة والسيادة ، والأمم الضعيفة تنادى بشر بعمة القوانين والعهود لأنها تطمع فى المساواة بينها و بين الأقوياء على أحكامهذه الشريمة

وكل ما يقال عدا ذلك فهو أكاذيب وأوهام

وعندنا أن هذا القول على فرض سحته ان ينفع النازيين وان يشفع لهم بين يدى العالم . فاذا كانت المسألة كما يقولون مسألة مصلحة وليست بمسألة حق ، فقد كنى خذلاناً لقضيتهم أن تسكون مصلحتهم هم ومصلحة العالم نقيضين ، وأن يكون نجاحهم أول خطوة فى خذلان من عداهم من شعوب الدنيا ، حتى شعوب الدول التى ندين بالقوة ولا تدين بالعسدل والانصاف ، فان نجاح النازيين يضير تلك الشعوب كا يضير الدول الديمقراطية الكبرى ويضير المستضعفين

على أن المسألة هنا ليست مسألة مصلحة وحسب كا يقول النازيون. فشريمة القوة وشنريمة الحق موجودتان لاشك فيهما ، والخصومة بينهما قائمة على أمور مشهودة وليست قائمة على أوهام وأكاذيب ، واحتياج الحق إلى القوة لا ينفى هذه الحقيقة ، لأن القوة أيضا تحتاج إلى الحق في عملها وفي دعواها

ونحن لاننكر شريعة القوة والارهاب وننصر شريعة المدل والقانون لأننا أمم ضعيفة تحسب حساب مصلحتها كما يقول النازيون ، بل نحن ننسكر تلك وننصر هذه لأن بينهما فرقا صحيحاً بل فوارق جمة فى جميع الأمور: فوارق يجب أن يحرص عليها القوى كما يحرص عليها الضعيف ، ويظهر أثرها فى الضائر. والأخلاق والمقول كما يظهر في المرافق التي تتناولها السياسة خارجيــة كانت أو داخلية

وفيا يلى تلخيص بعض هذه الفوارق التى تدعونا إلى تفضيل شريعة القانون على شريعة القانون على شريعة القوة ، أو تفضيل الديمقراطية على النازية وما اليها ، سواء بلغنا شأو القوة العسكارية أو قنعنا بما نحن فيه

بداية القضية

إن قضية الحرية الانسانية لم تُطرح للفصل فيها اليوم في إبان الحرب الحاضرة أو أثناء الأزمات المتعاقبة التي تقدمتها

ولكنها مُطرحت للفصل فيها منذ بضع عشرة سمنة ، أى من اليوم الذى. تصدى فيه المستبدون للحكم وهم يعلنون جبرة أنهم يستبدون لأن الاستبداد فى الحكم هو الواجب وهو الصواب ، وأنه هو النظام المفضّل على نظام الحرية فى كل شعب وفى كل آونة ، ولم يقولوا كما كان يقال من قبل أن الاستبداد ضرورة موقوتة الى أيام معدودة ، ثم تعود الحرية الى مجراها وترجع الشعوب الى شوراها

يومئذ بدأت قضية الحرية الانسانية في القرن المشرين ، و وجب أن يتوقع الناس النهاية من ثلك البداية

وبدا لنا يومئذ أن نمالج للوضوع من نواحيه القريبة الينا عسى أن ننبه ولو الى بمض الخطر، وأن نجلو ولو بعض الشبهات. فكتبنا رسالتنا عن « الحكم المطلق في القرن العشرين » وصدرناها بفصلين نميدهما في هذا المقام ونحن نقارن بين الاستبداد والحرية، لأن وجه المسالة لم يتغير بين أمسه و يومه ، ولم تزل

الدعاوى هي الدعاوى والآراء هي الآراء ، سواء من جانب الحرية الانسانية أو من جانب الطنيان

بدأنا الرسالة بفصل سألنا فيه: « هل فشلت الديمقراطية ؟ » ثم أجبنا السؤال بفصل تال عنوانه « لم تفشل الديمقراطية » . . . وهذان هما الفصلان ننقلهما توطئة للمقارنة التي سنعقدها بين الديمقراطية والنازية على النحو الذي تمثّل في النزاع الحاضر، وترجو أن نصل بذلك بين بداية القضيه قبل بضعة عشرة سنة وبين أعقابها التي استطردت اليها في هذه الآونة

هل قشلت الديمقرالمية

كان الاستبداد المطلق مقدساً فى زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء ما ربهم ، وكان هو يستمين بهم على تقرير نفوذه وشمول سلطانه على الضائر والأجسام ، وكان لحق الحكم مصدر إلهى يتنقاه الحاكم المستبد من السهاء فلا يُسأل عنه ولا يكون للشعب إلاأن يطيعه كا يطيع خالقه ، ويؤمن بحكمته التى تخفى عليه عليه عليومن بأسرار حكمة القدر . فالحكومة رسالة معاوية معصومة على هذه الارض الخاطئة ، والشك فى الحكومة كالشك فى المقيدة . . . كلاها كفر يعاقب عليه بالحرمان السرمدى من رحمة الله

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة الى ماقبل القرن الثامن عشر. وكان الاعمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه إلا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراءهم كما يخفى الحجسرم جريحته والآثم وصمة عاره ، فلما انتقل سلطان الحكم من المستبدين الى مشيئة الشعوب انتقلت القداسة معه الى المصدر الجديد ، وأصبح حق الحكم مقدساً — مرة أخرى — من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والسكهان ، وتغير النظام القديم ولم يتغير قالبه الذى صنعته المادات المتأصلة والمالح المتشعبة والعقائد للوروثة

ور بما بدأت هذه القداسة الشمبية على سبيل الجاز فى التمبير يلجأ اليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس الحكومة الغابرة وأساس الحكومة الحاضرة ، مُ أَضيفت الى هذا المجاز حماقة الفكرة الناشئة وروحالأمل فى المستقبل ، والنقمة

على الماضى . فأصبحت القداسة الحديثة عقيدة في الضمير يشوبها من الابهام كل من المقول من المقول من المقول الم

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة في المصرف الشائع فجاءها الخطر من همذه الناحية في عصر الشك والسخرية من جميع «المقدسات» . . . وسمع الشاكون والساخرون بهذه «المقدسة» الجديدة فعلموا أن هناك شيئا طريغا يظهر ون فيه براعة التفنيد وقدرة التصغير والتقييد، فأسرعوا اليه في جد ووقار، وأعنتوا أنفسهم كثيراً ليقولوا ان الديمقراطية شيء لم يهبط على الارض من السهاء وأن القداسة هنا مجاز لاحقيقة له في العلم والاستقراء ... فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمحدون الشوائب بمسئزلة واحدة من النهم والسداد، لأن قداسة الديمقراطية لم تكن مسألة علمية يبحثها الناقدون المحصون على هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الانكار، فالذين يضعونها هذا الموضع ينظر ون اليها من أضيق حدودها التي يعرفها المجازيون والجلاء ولا ينظرون اليها من أوسع الحدود التي يحيط بها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح. وإذا كان المتكلم الذي يقول ان الماء المذب شهد حلو المذاق عمل الماء المذب إلى المعل الكيمي ليثبت أن الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق ، كما يقولون في لغة المجاز

恭 华 泰

ف أواخر القرن التــاسع عشر ظهرت « السيكولوجيــة » أو علم النفس وتفرعت فروعه وكثر الاشتغــــــــــال بتطبيقه على الأفراد والشعوب

ولمل أغرب ما استغربه الناس من قضايا هذا العلم وصفه لأطوار الجاعات والأساليب التي يُجرى عليها في تكوين عقائدها وتوجيمه أهوائهما وتسيير

حركاتها واثارة خواطرها . فقد جاء هذا الوصف بمد شيوع الديمقراطية في العالم الحديث بأكثر من جيلين، فلاح لمظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف المقرر في الأذهان أو لما يجب أن يتقرر في الأذهان ! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتي سنة أو لو انه تقدم في عصر الاصلاح مثلاً لما وقع من الافكار موقع الغرابة في شيء ولا أحاط به ذلك السحر الذي يحيط بكل هجمة مخالفة للمألوف ، ثم لجانت الديمقراطية حمّا في سياقها الطبيعي دون أن يتخيل إلى أحد أنحقائق علم النفس تعارض الحكم الديمقراطي أو تعارض حكم الشعوب . لأن الذيمقراطية كانت نتيجة لازمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجه لجهل الناس بالسيكولوجية وخطئهم فى تفسير حركات الجاعات . فلو علم الناس فى القرن الرابع عشر أو الحامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا معزهة عن عيوب الطبيعة البشرية لما كان ذلك مانماً لوقوع تلك الحركات في أوانها ولا واقيماً للا نظمة العتيقة من التداعي والسقوط. ولكن «السيكولوجية» ظهرت بعد الديمقراطية فنشأت غرابتها من ثُمَّ وكان استغراب الناس اياها وهما متولداً من الوهم القديم الذي تطرق اليهم من تقديس الشعب بعد تقديس العواهل المستبدين. فلولاالخرافة الدائرة خرافة المستبدين الالمميين لما وجدت خرافة الشموب الألمية ولا اتُّحذت أطوار الجاعات التي استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلا على بطلان الديمقراطية ، ولا قيل ان نظامها قائم على أساس واهن لأنه قائم على مشديئة الشعوب وهي مشيئة لا توصف بالعصمة . وقديما عرف النماس من أطوار الأفراد أنهم يطمعون ويستأثرون وأنهم ينقادون للهوى ويخضمون للشهوات وأنهم عرضة للخطأالكثير والضلال البميد وأنهم غير معصومين بحال ، فلم يكن هذا العلم بأطوار الأفراد هو الذي قضي على حكومة الفرد ، ولم تتقوض النظم الأولى الأحين تعذر التوفيق بيتها وبين أحوال الرعايا ومطالب الأمم.

لم تنقض على الديمقراطية سنوات حتى خيبت آمال الحالمين فيها وخيبت آمال أولئك المظلومين الذين صور وا زمانها المترقب في صورة الفردوس الأرضى أو المصر الذهبي الذي تغنى به الشعراء وتحدثت به الأساطير ، فلا ظلم ولا المحاف ولا تمييز بين القوى والضعيف أو القريب والبعيد : كأنما صوت الشعب المنطلق من غيابات الأسر نغمة ساحرة كنفات «أورفيوس» يتجاور في ساعها الليث والحمل والضاريات والنقاد ، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية فلا جرم يخيب فيها الظن و يحكم عليها الحاكمون بالفشل بعد أول صدمة مع وقائع الحياة وعثرات التجر بة الأولى ، وهي لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب فلم يكن أقسى على الديمقراطية ولا أظلم لها من غلاة المؤمنين بها الذين كانوا يكافونها ماليس يكافّه نظام في هذه الدنيا . أية كانت قواعده من الصحة ، ونيات القائمين به من الصلاح

هذه كلها أسباب يصح أن تسمى بالأسباب المصطنعة للشك في حقيقة النظام الديمقراطي والأخذ فيه بالعرض دون الجوهر المقصود

على أنها ليست بجميع الأسباب الصطنعة التي يمكن أن تعدد في هذا المقام . فهناك أسباب مثلها دعت إلى الشك في حكومة الشعب قلما تتجاوز العرضيات إلى دخائل الأمور... فنها أن عيوب الحكومة الشعبية مكشوفة ذائمة "لاستفاضة علاقاتها واشتراك المئات والألوف في دعواتها وأعمالها . فايس لها حجاب مرت الفخامة والروعة كذلك الحجاب الذي كانوا يسترون به عيوب الحكومات الستبدة و يتعاون فيه الكهان والمداح والبلاطيون على التمويه والتزويق، وخليق " مهذا التكشف أن يغض من فضائلها بعض الشيء

وان مجرد القول بان الشموب لا تصلح للديمقراطية لدليل على أنها درجة عالية بجب أن تتوجه اليها آمال المصلحين وطلاب الـكمال، في حين أن القول

بجهل الشعوب واضطرارها من أجل ذلك إلى الحسكم المطاق دليل على مصلحة الحسكام المطلةين في بقاء ذلك الجهل وتخليد هذه الحالة التي بها يخلدون

ومما يضعف جانب الحكام المطاقين في دءوتهم هذه أنهم يعيبون على الجماهير أطوارها ليتخلصوا من ذلك إلى تركية الحكم الدكتاتورى أو الحكم المطلق ... مع أن التجارب الكثيرة — والتجارب الحديثة منها على الخصوص قد أظهرت أن الدكتاتور ين الصالحين هم رجال الشعوب وثمرة تلك الأطوار ، وأن الجاهير لا تعوزها البديهة التي تفطن بها إلى مقدرة القادة وتوليهم إعجابها وتخصهم بثقتها واقبالها وتسلمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التي تغار عليها وتغضب للمساس بها إذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الاعجاب . فاذا احتاجت الجاهير إلى المضلح النافذ في اصلاحه فليس أقدر على هذا المطلب من زعيم شعبي تبرزه البديهة الشعبية ، ولا أسرع منه في حث غريزة الامم ومغالبة زعيم شعبي تبرزه البديهة الشعبية ، ولا أسرع منه في حث غريزة الامم ومغالبة ما فيها من العيوب ، وكان هذا المصلح هو الزوج الحبوب الذي يطاع لأن طاعته سرور ويقاس مقدار عبه بمقدار المشقة التي تبذل في اطاعة أمره . وقد يكون الزوج زوجا بالصيغة الرسمية ولكنه لا ينال هذه المكانه ولا يأمن الرياء والخيانة إذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطعة الظاهرة .

وعبث ولا ريب أن تعاب أطوار الجاهير وأن يقتصر الأمر فيها على النقد والزراية وهي هي الاطوار التي لازمتها في كل ما تمخضت عنه الانسانية من الثقافات ، وفي كل من تمخضت عنهم من الدعاة والمصلحين

فأصلح الطبائع لاحياء الشعوب هي الطبائع التي بينها وبين الشعوب مجاوبة في الشعور ومساجلة في عناصر الحياة . وإذا كانت الشعوب تخطيء في عرف الملماء فليس عرف العلماء هنا هو المقياس الذي ترجع اليسه في تقدير الدوافع والنتائج ، لأن الطبيعة لا تستشير العلماء فيما تعمل وفيا تريد . بل ليس العلماء

أنفسهم بنجوة من الخطأ على حسب مقياسهم ، لأن أخطاءهم قديما وحديثا في تصور الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات .

للديمقراطية عيوبها ولكنها عيوب الطبيعة الانسانية التي لافكاك منها. وقد يكون لهـذه العيوب في مجموع الحضارات الانسانية فضل كفضل المحاسن. المصطلح عليهـا إن لم يزد عليه

ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الأعلى المنشودة في الخيال والموصوفة في الاحلام . إذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون لها موضع . ولكنها تقارن بالأنظمة الأخرى في جملتها وينظر الى عيوبها بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف فلمل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التي لا يستغنى عنها أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية . . . إذ كان من المحقق أن محار بة الديمقراطية لم تزلها فيا مضى ولا يرجى أن تزيلها فيا بعد

وكذلك لا يصح أن نقيس الدعقراطة من اس الأغراض التي أعلنها دعاتها والآمال التي عقدوها عليها لان عؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحصروها و يسيطروا عليها — و إنما تقاس مزاياها بالضرورات التي أدت اليها أولاً ثم بالفوائد التي نجمت عنها فعد لا ولا تزال تنجم: فهي بلا ريب قد أوجدت للمصبيات الحزبية مخرجا غير الفتن الدموية، وأقنعت الشعوب بأن عليها تبعة في الحسميات الحزبية عرجا غير الفتن الدموية، فأقنعت الشعوب بأن عليها تبعة في المشتراك في الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهي في مدى خدين سنة قد صاحبت الاشتراك في الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهي في مدى خدين سنة قد صاحبت في عالم الصناعة والعلم تقدما لم تبلغه الانسانية في خسين الف سنة ، وكلا ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤمنوا بتلك الحرافة التي كانت تهيى و لفرد واحد أن يملك لم له ولابنائه هن بعده ملك السيد للعبيد .

يقول بعض الباحثين — (ومنهم الاستاذ ساروليا الذي ألقي محاضراته في هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية) - إن الحكم النيابي تراث انجليزي غير قابل للتعميم في الأمم الأخرى . ويضرب « ساروليا » المثل بالأمة الفرنسية التي لا تستقر فيها الوزارات طو يلا لاختلاف الأحزاب وصعوبة التوفيق بينها إلى زمن طويل، ويعتبر ذلك الاختلاف من أعراض الحكم النيابي ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل أمة... ولو كان الحكم النيابي هو الذي خلق المصبيات الحزبية في فرنسا لِكَانَ قُولُ الاستاذُ وأمثاله صحيحاً في هذا المني وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية ، ولكن الواقع أن العصبيات الحرّبية لم تفتأ تمزق فرنسا كل ممزق في عهود حكامها الطلقين ، ولم يخلُ جيل واحد في تار يخهامن فتنة على وراثة العرش أو فتنة على المذاهب الدينية أو فتنة علىالقحط والافلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لانجفاء هذه النازعات ، حتى توطدت فيهـــا الديمقراطية فانحصرت « العصبيات » في مناوشات الأحزاب وسكنت النورات و بطلت الجاعات، ولم يمنعها اختلاف الأحزاب أن تماسك بعد الحرب العظمي وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصارا لا ينكر افادتهم لها منكر ، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها في عهد الماوك الشموس ، وأن تكون هي وزميلاتها المنتصرات عنوانا لانتصارالحرية الشمبية وآية "على أن حكومات الشعوب تحتمـــلمن الصدمات ما لم تحتمله جكومات القياصرة والطغاة . فانكسرت الروسيا والمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التماسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة في الشئون العامة بين الشعب والحكومة ، وخرجت الأمم من تلك الحنة بعبرتها التي لاتضيع

وقد فعل تراث الحكم النيابي فعله في انجلترا كما فعل فعله في الأمة الفرنسية ، فوقاها الثورات والخصومات الدامية وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مرتين في القرن التاسع عشر عند الخلاف على تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديل شروط الانتخاب، وهو فى جوهره أشد من الخلاف الذى أفضى إلى الثورة الجأمحة فى عهد الاستبداد

ومن النظريات التى أذاعها بعض المؤرخين — وفى طليعتهم فلندرس بترى العالم الشهور فى الأثريات المصرية — أن الحكومة الشعبية كانت هى الدور الأخير من أدوارالدول فى التاريخ القديم ولا سيا تواريخ الدول المصرية : يبدأ الدور بفاتح عظيم ثم يضعف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الفالبون ، ثم يضعف هؤلا دالقادة ويستسلم أبناؤهم للترف والصغائر فتثور عليهم العامة وتتولى الأمر الحكومة الشعبية ، ثم يسطو عليهم مغير جديد فيبدأ الدور الأول كرة أخرى... وهكذا دواليك عصراً بعد عصر فى سجلات الفراعنة ومن جاورهم من المشارقة والمغاربة .

فاذا صح هــــــذا فهو مختلف مما نحن فيه اليوم . لأن الحكومة الشعبية كانت في التاريخ القديم فترة منفرده تقع في إحـــــدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها في تلك الفترة ، بل ربما كانت في بداية الدور الأول حور الفاتح العظيم — فتحدث الغارات من ثم وتتجدد الأدوار . أما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفــترة المنفردة ولا بالدور المقصور على بعض الحكومات ا

لم تفشل الديمقراطية

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر إلى الآن من آثارها وعلاماتها الا ما يدل على نجاحها وثباتها وانها ستكون أساساً للحكم فى المستقبل تُبنى عليه قواعد الحكومات وبرجع اليه فى اصلاح كل ما يحتاج منها إلى الاصلاح

أما تلك الأسباب المصطنعة التي ألمنا بها فأكثر من يتعلق بها ويعمل لترويجها هم أنصار الحكم المطلق والرجعة إلى الاستبداد القديم، وهم أقل الناس حقاً في تجريح الديمقراطية بعد ماتبين من فشل حكمهم في بلاد كثيرة وأحوال مختلفة. فاذا بطل ايمان الناس بقداسة الديمقراطية — مجازاً أو حقا — فمن المقرر المقطوع به أنهم لايرجعون إلى الايمان بقداسة المستبدين وما يزيفونه من الدعاوى والجهالات، واذا قيل أن الجاهير تنخدع للزعاء وتؤخذ بالمظاهر وتسمال المعائد التي تُبث فيها بالايحاء والتكرار فهذه الأطوار لم تكن ملغاة في المصور الماضية ولاكان شأنها ضعيفا في تصريف الأمن وقيادة الحكومات. وماذا كان يصنع المستبدون طوال المصور الماضية إلا أن يستعينوا على خداع الجاهير تارة بالخرافات والأوهام وتارة بالمظاهر والوجاهات والألقاب والأسماء وتارة أخرى بالعطايا والمواعيد إلى سائر ما هو معروف من أساليبهم في تمويه الأعمال أريقت فيها دماء الألوف من الحارب التي أريقت فيها دماء الألوف من الحاربين والمسالين خداعا للشموب وتمليقهالها، أو لو

أحصيت الأرواح البريشة التي أزهتها أعداء الحرية والمعرفة ، أولو أحصيت الثورات والقلاقل التي شجرت بين الحكام والرعايا من أجل المظاهر والأسماء والمنازعات الصبيانية والدعاوى الفارغة ، أو لو أحصيت الدسائس والجرائم التي انغمس فيها طلاب الحظوة وأعوان الطغيان لكان في بعض ذلك شاهد على حقيقة من تنفعهم غفلة الجاهير ومن يضرهم انتباهها ، وأن تلك الغفلة لم تدم كا دامت في عهود المستبدين ، ولم تفد أحدا كما أفادتهم ، ولم يحذر واشيئا قط كما حذروا يقظتها ولا رغبوا في شيء قط كما رغبوا في بقائها واستطالتها . . . وأعا الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال يتسع في هذه لأقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها ، ولكنه لا يتسع في عهد الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على الغش والمكتمان

ومن الأسباب المصطنعة أنّ نقد الديمقراطية يرضى غرور تلك الفئة التي تحبأن تتعالى من «الشعبيات» لما فى ذلك من الامتياز والادعاء، ويرسل على الديمقراطية ألسنة الثرائرة والفضوليين ومن لاينظرون إلى عواقب الكلام

ومنها أنه المستبدين الطامعين فى رجعة الحكم القديم يسعون سعيهم سراً وجهراً التشويه كل نظام غير نظامهم وتأليب الناقمين على الحكم الحديث، ولابد فى كل حكم من راضين وناقمين

ومنها أننا فى زمن تتوالى فيه المخترعات ويسألون فيه أبداً عن أحدث الآراء وأغرب الأخبار . فاذا مضت خسون سنة على الناس وهم يمدحون الديمقراطية فالذى يفاجئهم بمد ذلك بنقدها لايمدم له سامعين بين طلاب الزى الطريف فى كل مجال

فأنت ترى أن نقد الديمقــراطية يصادف من العناية أضعاف ما تســـتوجبه الأسباب الحقيقية التي لا دخل فيهــا للوهم والغــرض والفضول. وأما الاسباب

الصناعية فما هي وما مبلغ ما تجيزه ؟ هي أشياء لا تجيز لأجد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولابأنها في طريق النشل القريب.

على أننا اذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم كا تكررت فى دولات الفراعنة وجيرانهم فكل ما يستخرج من هذه النظرية أن الحمكم قد تمذر على الطفاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم فصار الامر الى الشعوب تحكم نفسها الى حين ويبقى علينا أن نسأل انفسنا متمجبين : هل يمقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية التى وصلنا اليها ان هى إلا فترة موقوتة جاء بها وباء عام أصاب الطفاة والنبلاء فى مقدرتهم على الحكم دون الكافة والأوساط؟ وهل نمود بمدز وال هذا الوباء الى عهد يكون فيه لنا طفاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من ملكوت الله ؟ .. لقد كانت الديمقراطية بالأمس حكومة الشعب وكان الشعب هو العامة . أما ديمقراطيتنا فليس نصيب المامة فيها الاجزءا من سلطان الأمة ، وهى كل شامل يدخل فيه السوقة والسراة والامراء

* * *

انتهى الفصلان من رسالة الحكم للطلق في القرن المشرين

ويوم كتب هذان الفصلان كان هتار يوالى دعوته ويوحى بكتابه الذى لم يكن يقرأ أحد ، وكان بينه و بين ولاية الحكم أر بع سنوات ، وبين اضرام الحرب الحاضرة إحدى عشرة سنة ، فاذا كان قد أقنع الناس بشى، في هذه الفترة فقد أقنعهم بخطر الاستبداد على العالم ، وأراهم أن المستبد حيث كان إنما يسخر الحضارة في خدمة الهمجية ، و إنما ينكص بالخاضمين له من قومه ومن الأقوام الأخرى أحقابا إلى الوراء

الفوارق بين الديمقر اطية والنازية

فحالتقدم

إن النازيين ينكرون التقـــدم ويدعون أن للضاهاة بين ماضى الانسان. وحاضره فى عناصرالأخلاق تدل على الدوران فى حيز واحد، ولاتدل على التقدم خطوة بعد خطوة ، أو الارتقاء درجة فوق درجة

وهـذا بحث يطول ولا يُقضى بنا الى طائل فيما نحن بصدده . فحسبنا أن التهذيب جائز مشاهد في طبائع الحيوان ، وأن تقدم الانسان في علومه وصناعاته وآرائه محسوس لا يخفى الفرق الشاسع بين حاضره وماضيه

ولنضرب مشلا واحدا على امكان المهدديب في طبائع الحيوان يغنينا عن أمشلة كثيرة ، وهو مشل الكلب الذي كان في توحشه أخوف ما يُخاف على الأطفال والطير وصفار الغنم ، فأصبح الآن حاميا أمينا لها يدفع عنها المخاوف ويرعاها وهو جائع محروم

أما التقدم في عاوم الانسان وصناعاته وآرائه وأحواله الملابسة للعاوم والصناعات فهو أظهرمن أن يحتاج الى تمثيل

* * *

ومقاييس التقــدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال : فاذا قسنا التقدم بالسمادة فقــد تتاح السعادة للحقير و يحرمها العظيم ، واذا قسناه بالغنى فقــد يغنى الجاهل ويفتقر العالم ، واذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتية

الامقياسا واحدا لايقع فيه الاختلاف والاختلال ، وهو مقياس «المسؤلية» واحتمال التبعة

فانك لا تضاهى بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية ، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته

ولا اختلاف فى هذا المقياس كلا قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد، أو بين الهمجى والمدنى، أو بين المجنون والماقل، أو بين المهمجى والمدنى، أو بين العاجز والقادر، أو بين كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل

فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع

والنازية تهدم هذا الخلق من أساسه ، لأنها تقضى على الحرية والتصرف والاختيار ، وايس من المعقول أن تحاسب إنسانا على التبعات وهو مسلوب الحرية مأمور ، فيما يأخذ وفيما يدع ، من مطالب عيشه وواجباته نحو قومه

وقد ركدت القرائح في ألمانيا منذ تولاها النازيون . فلم يظهر فيها نابغة في العلم والفن والحكمة ، ولم يؤثر عنها ابتكار مفيد في الثقافة العالمية ، هذا وهي الأمة التي امتلاً تاريخها بأعلام الأدب والبحث والاختراع

ولقد شكا هذا الركود وزراؤهم وقادتهم وكرروا الشكوى مرأت . . . ف كتب الدكتور سيروب Syrup رئيس مصلحة العمل في شهر مارس من سنة ١٩٣٨ يقول : « إن الجيل الجديد من رجال العلم ناقص في جامعاتنا . ولا شك أن بناء الدولة والثروة معا يستلزم وشيكاً أن ينشأ المهندسون والكيميون وعلماء طبقات الأرض والطبيعيون والأطباء »

وربما خطر لبعضهم أن النازيين لا يكترثون لذلك النقص ما استطاعوا إخراج الضباط والجنود وتزويدهم بالسلاح

ول كن الواقع غير ذلك . فان التعليم الفنى لازم اليوم للضباط والجنوداز ومه للمهندسين والصناع . وقد كتب الماجور التوماس في صحيفة فرا لكفورتر زيتنع يقول : « ان الاستاذ زيميك Zemeck مدير المتحف الجرماني في ميونييخ قد أشار في آخر اجماع لمكتب الريخ الاقتصادي إشارة خاصة الى هبوط طبقة اللتعليم العالى بين الناشئة الالمانية ، ولا مناص لى من موافقته في رأيه . اذ الخطر عظم فيا أرى على قوة دفاعنا اذا انحصر نطاق التربية الذهنية وضاق أفق التفكير، من جراء فرط الاهمام بالتربية البدنية .

ومتى بلغ بالأمر أن يلحظه قادة الفرّق والألوية فى جنودهم المدعوين للخدمة هما لاجدال فيه أنه يدل على ضعف مائل فى نظام تعليمنا الآن »

وقد تخرج من المدارس العليا في سنة ١٩٣٧ ثمانية عشر ألف طالب فالتحق منهم عشرة آلاف بخدمة الجيش وانقطعوا عن حياة الدرس والاستبحار في العلوم (١) ولم يظهر أن الآخرين وجدوا متسعا لهم في هذه الحياة

* * *

وسواء شكا القادة النازيون أو لم يشكوا ذلك النقص المطرد فهو نقص لايستغرب من جيل مفتون بالمواكب والصفوف، مشغول بالثكنة والطريق عن المكتبة والممل، مشغوف بما يرضى الحواس الحيوانية دون ما يرضى الفكر والروح ومتى نظرنا الى المبادىء التى يقوم عليها بنيان النازية لم نجد بينها مبدأ واحدا يستدعى التقدم وراء آداب الحيوان

⁽۱) هتلر والمانيا لمؤلفه هنريخ هاوزر Hitler Versus Germany

فالطاعة العبياء هي طاعة السرب والقطيع ، وحركة الضفوف هي حركة الطيور والمال ، والزعامة « الغريزية » أعرق في الحيوانية من زعامة الارتياد والاختيار ، بل حتى التضحية العمياء لهامرجع الى غريزة الحيوان ، وايست هي من فضائل البصيرة والضمير

وما من عبث ولا مصادفة كان تقدم العلوم والصناعات في العصر الحديث أعظم وأوسع من تقدمها في جميع العصور

فند نشأت الديمقسراطية نشأت حرية البحث وحرية الكشف وحرية الابتداع . ولا عجب أن يخترع الناس في مائة وخسين سنة أضماف ما اخترعوه في مائة وخسين ألف سنة ، لأن الاختراع وليد التصرف والاختيار ، وهما نبات يزكو في عهد الحرية ولا يزكو في عهود القسر والتسخير

* * *

الاملان:

والأخلاق « أولا » لا تفهم بمعزل عن المشيئة والاختيار ، فاننا لا نعرف آلة ذات خلق. و إنما تبدأ الأخلاق حين يبدأ الادراك والتكليف

وأنت تستطيع أن تقيم على ابنك حارساً يلازمه فلا ينسى واجبا ولا يهم برذيلة ، ولكنك لا تربيسه بهسذه الحراسة ، ولا تجمسل له روحا ولا تمييزا كتمييز المقلاء بين ماينتهى عنه وما ينتحيه

وكذلك تربى الأمة هـذه التربية فلا تنتفع بما ربيت فيها من عادة التسليم والاستسلام ، بل تقتل فيها فضيلة الاستقلال وتهيؤها للذل والخنوع ، وربما كان ذلها وهي تشكو السيد وتثلبه أشرف لها وأجدى عليها من الذل لسيد تهتف له وتحييه

وكثيرا ما نسمع التشهير والتجريس بالفضائح أو الرشاوى التى تنكشف فى الأمم الديمقراطية و يتخذها المستبدون دليلا على فساد أصيل فى النظام الديمقراطى والحكام الديمقراطيين

و يحق لا بواق الاستبداد أن تطنب فى ذلك التشهير وذلك التجريس لو كانت الرشاوى والسرقات تمتنع فى دولة المستبدين ولا تحدث إلا فى دولة الديمقراطيين. بيد أن الواقع الذى لاجدال فيه ان سرقات الطفاة المستبدين فى جيل واحد تربى على سرقات الديمقراطيين فى جميع الأجيال

و إنما يجسر الناس على اتهام السارق فى عهد الحرية ولا يجسرون على اتهامه فى عهود الطغاة ، أو يجسر منهم من لايبالى بالمصير فيلقى جزاءه من حيث ينجو السارق بما سرق ، وذلك أحرى أن يحسب للديمقراطية من المزايا ولا يحسب عليها من الميوب

وما يزعم أحد أن « النظام الديمقراطي» يقتلع الرذائل من الطبائع البشرية ويتركما وليس فها إلا الفضائل والحسنات

فهــــذا ما ليس يزعمه زاعم فى نظام من أنظمة الحمكم كيفها كان، وغاية ما هنالك أن الديمقراطية تكشف رذائل الحكام ولا تحميها كا تحميها سطوة المستبدين، وهذا وحده غنيمة جديرة بالذب عنها والحرص عليها

على أن الأموال التي أنفقها هتار في تشييد قصوره السحرية وتنظيم حراسته الشخصية ، والأموال التي فرضها على كل قارى، المانى ثمناً لمكتابه تارة وثمنا لصحفه تارة أخرى ، لتبلغن أضعاف ما اختلس حاكم ديمقراطي أو عدة حكام ديمقراطيين في عمر طويل ، وهو مع ذلك معدود في عرفهم من أمثلة النزاهة والعفاف ا

ولا يخفى أن الحرية ليست بأرخص من المال ، وأن جميع الحكام الستبدين

يسلبون الحرية ، وليس جميع الحكام الديمقراطيين يسلبون الأموال كذلك لا يخنى أن القتل جريمة أقبح من السرقة وأوبل منها ، وهو شيء يقترفه الحاكم المستبد حيث شاء

قتل فى المانيا ألوف من الناس ولم تحفل الحكومة باثبات الذنب على واحد منهم ولو بعد نفاذ العقاب ، مع سهولة الاثبات لمن يقبض على أعنة الدواوين بغير رقيب

و إنما رخصت الأرواح وشاعت الغفلة فأمكن هذا حيث يحسبون اختلاس الأموال من المستحيلات

ومنذ خمس سنوات قتل المستشار النمسوى دافوس فكتب النازيون يومئذ يقولون إنه شهيد الماركسيين، وقال فون پاپن سفيرهم فى فينيا «إن حكومة الريخ تنعى الجريمة وتأسف لوقوعها»

وما هو إلا أن سقطت النمسافى أيدى النازيين حتى احتفلوا بتكريم ذكرى القتلة وقام رودلف هس ينادى علانية « بأننا نذكرهم فى اليوم الذى سيق فيه هؤلاء الثلاثة عشرة من نخبة الزملاء إلى للوت المبين على المشانق الزرية ، وأن أطيافهم لتمشى فى مقدمة الصفوف حيث مشت فى الدنيا جموع النازيين »

فهذا المدوان الوضيع على حياة رجل لا ذنب له عندهم إلا الأمانة لاستقلال بلاده ، وهذا الرياء القبيح فى انكار الجريمة ثم الاشادة بفاعليها ، وهذه الرذائل التي تتكرر فى حبس شوشنيج والتنكيل بامثاله من رؤساء الأمم المفلو بة -- من الذى قال ائها دون السرقة فى شناعتها ووصمة عارها ؟ ومنذ متى كان للمستبدين حق الصولة على الضمير الانسانى فلا يأنف إلا مما ير يدونه على الأنفة منه ، ولا يثنى على الخلق الجميل إلا إذا أمروه بالثناء ؟

إن فساد الأخلاق في حكومات الاستبـداد لما يمكن اثباته بالأرقام . فني

المانيا النازية مئات الالوف من الجواسيس والرقباء ، وكل جاسوس من هؤلاء فهو رمز للرياء والجبن والخوف واهدار الحقوق ، و إلى جانب همذا الجيش من الجواسيس والرقباء جيش مثله من الدعاة والقرظين علهم فى الحياة أن يكذبوا على أبناء وطنهم و يخدعوهم بالباطل والنفاق . وكل هذا — كل هذا لا يساوى فضائح ستافسكي وأمثالها من عيوب الحكومات الديمقراطية ؟... شاهت المقول أن كان هذا حكما على الأخلاق ، فكيف وفضائح ستافسكي شائعة مع رذائل التجسس والدعوة الكاذبة لا يحجبها إلا الجبن والتهديد ؟

وأبشع من هــــذا أنهم يمسخون الأذواق فيسوّلون لها أن تستمرى هذه الرذائل كأنها حسنات وطيبات . فن الأمثلة التي ينصبونها للاعجاب مثل الابن الذي يشي بابيه وأولياء أمره و يتجسس عليهم لرؤسائه النازيين... فيشو بون هذا المين الطاهر — معين الحنان والاخلاص — بشائبة مسممة لا تُبقى في النفس الانسانية على موضع للأمان

* * *

ثم تسرى ظلمات هذه الأخلاق المنكوسة إلى دخائل العقول فتغشى عليها بظلمات فوق ظلمات . لأن العقل الذى يتعود أن يرى للمسألة وجها واحدا لاوجه غيره يتعطل فيه التفكير ولا يفهم حجة الآخرين ، ثم يتعود أن يتلقى الأفكار كا تصاغ له لاكبا يصوغها هو بعد تقليبها على جميع الفروض والاحتمالات ، ولا يقتصر هذا العيب الفادح على المحكومين بل يسبقهم إلى الحاكمين الذين لا يسمعون اعتراضا ولا يصبرون على اعتراض . ومن جرائر ذلك ولا شك أنهم يتعنتون فلا يديرون أسماعهم إلى حجج خصومهم ولا يعرفون من حل المشكلات إلا أن يقمعوا المعارضين في أوطانهم و يشهر وا السلاح على سائر الأوطان

مل المشكلات

وعلى ذكر المشكلات وحلها نقول ان الآخذين بالظواهر يتوهمون أن النظم « الدكتاتورية » أصلح النظم الحكومية لملاج المشكلات المويصة وحل المقد المؤرّبة فى زمن وجيز

وهــذا صحيح إذا نحن أخذنا بالظواهر ولم نتمقب الحلول والمــلاجات إلى جرائرها المحتومة ونهاياتها التي لا محيد عنها

أما إذا نحن تجاورنا الظواهر إلى ما رواءها فالنظم الدكتاتورية في الواقع تدارى المشكلات ولا تمحوها، أو هي في أكثر الأوقات تحل مشكلة واحدة وتخلق إلى جانبها مشكلات عديدة . كما فعلت في مشكلة البطالة

قيل لسكاتب أنجليزي: لابطالة في ألمانيا !

قال نعم. ولا في سجن دارتمور ا...

ومعنى ذلك أن علاج البطالة على الطريقة الألمانيه النازية مستطاع فى كل مكان يرضى سكانه أن يعيشوا فى بلادهم عيشة السجناء فى دارتمور

وجلية الأمر أن النازيين عالجوا البطالة « بتشفيل » العماطلين جنودا فى الجيش ، ورقباء فى ديوان الجاسوسية ، وعمالا فى مصانع السلاح والذخيرة ، ونزلاء فى معسكرات الاعتقال ، وأجراء بانصاف أجور وارباع أجور

وكل علاج من هذه العلاجات يؤدى إلى كارثة مطبقة تهون إلى جانبها. كارثة البطالة

لأن استنفاد ثروة الأمة فى المدافع والدبابات وما اليها يضيّع المال بغير عوض ويؤدى إلى رخص العملة وضعف القدرة على الشراء . فما يُشترى فى هذه الحالة بعشرة قروش لا يساوى مايشترى فى الأحوال الطبيعية بقرشين

ولأن انفاق الملايين على السلاح يلجى، الحكومة إلى ارهاق الرعية من أصحاب الأموال والموظفين والعمال بالضرائب الثقيلة والخصوم المتعددة بأسماء شتى . فيحسب الأجر على صاحبه خسة قروش مثلا وهو لا يقبض منه أكثر من ثلث ما حسبوه

ولأن «تشغيل » المصانع بالسلاح والذخيرة لابد أن يقف أو يدوم . فان وقف فهناك صدمة الركود المفاجىء وكارثة البطالة من جديد ، وان دام فهناك دوام الحساد و رخص العملة وضرورة البحث عن مصرف للسلاح في القتال والتخريب

وليس فى وسع حكومة أن تخلق جو الحرب بتجييش الجيوش وتكديس السلاح وتهييج الخواطر وتجويع الناس دون أن تصطدم بالحرب طائمة أوكارهة ، ومحتاجة اليها أو زاهدة فيها ، فهى أسيرة مسخرة وليست بحرة قادرة على التدبير والتقدير ، وهى كالدابة المسحوبة من لجامها إلى حيث تشاء أو لاتشاء ، وليست كالرجل الذى يضع قدميه حيث تبصر عيناه

* * *

ومثل آخر مشكلة التجارة

فالناز يون يحلون هذهالمشكلة بالترقيع والتلفيق والخداع والاحتيال ، فلايلبثون قليلا حتى يجدوا أنفسهم بين ضرورات القوة العمياء

يعرضون على الأمم أسماراً أكبرمن الأسعار التى تبيعها محصولاتها الزراعية ثم يعرضون عليها مصنوعات حربية بأرخص من أنمانها في البلاد الأخرى، مقايضة ومبادلة . لأنهم لا يشترون بالنقد الحاضر

ثم يبيعون المحصولات الزراعية بأقل من الأسمار التي اشتروها بهـ ، و يماطلون في تسليم المصنوعات بدلا منها ، ليرفعوا أثمانها

ولما كانت الأمم التى تعاملهم مضطرة إلى استيفاء ديونها فهى تعود فتقبل كل ثمن ، كما يقبل الدائن كل ما يستطيع الوصول اليه من أمتعة المدين المماطل وتمضى فترة وجيزة فتعلم الأمم التى تعاملهم أنها خسرت عملاءها ، لأن علاءها يشترون محصولاتها من النازيين بأرخص من الأثمان التى تباع بها فى أسواقها الوطنية

وهنا يرى النازيون أنهم مستهدفون لقطع الماملات ، عاجزون عن إطالتها والاستمرار عليها بغير التهديد والارهاب ، والقتال كرة أخرى

هــذه أمثلة من « الملاجات α النازية

وهى أشبه بعلاج الشعوذة والطلاسم منها بعلاج الطب والجراحة العلمية والمشعوذ قـد يخدع مريضه فترة من الزمن ويقنعه أنه خيرله من الطبيب وخير من الجراح أ

والطبيب أو الجراح قد يفشلان في بعض الأمراض و يبدو للمريض أنه أخطأ في الركون اليهما وقلة الركون الى السحرة والمشموذين

واكن الطب طب والشعوذة شعوذة على كل حال

ومتى عرف الطب عــلاجه فذلك هو الملاج الصحيح الذى يقاس عليــه و بطمأن اليه

أما إذا بقى العلاج الطبى مجهولا فليس ذلك بحجة على صلاح الشعوذة والتدجيل، ولو تجحا الى حين

وهكذا مشكلة البطالة مثلا في البلاد الديمقراطية ، فان هذه البلاد لم تحسم داءها حتى الساعة ، ولا تزال تعالجها بالاعانات تارة وإنشاء أعمال الاصلاح والتعمير تارة أخرى ، الى ما شابه ذلك من المسكنات واللطفّات . ولكنها مسكنات الطب وليست بمسكنات الشعوذة ، ثم هي حيرة سليمة المغبة ، وليست بدواء كاذب يخلق الى جانبه عدة أو دواء

ومن الواضح أن مشكلة كشكلة البطالة التي ترجع الى أسبابها العالمية لن يتأتى أن تحلها أمة واحدة في داخل حدودها ، ولن تعالَج يوما بمعزل عن علاج السكساد العالمي واختلال المبادلات التجارية

فاذا شعرت الأمم بهذه الضرورة ودفعها الشعور بها الى ابتغاء الوسيلة الناجعة بالتعاون فيما بينها فذلك خير للعالم وخير لكمل أمة على حدة من الجرعة القاتلة التي تودى بالعليل والصحيح

ومتى رأى الطبيب من واجبى أن يترك بنية المريض تعمل علها وتدبر مقاومتها فعليه أن يظل طبيبا يفعل مايوحيه اليه طبه ، وليس عليه أن يلبس للناس لبوس المشعوذ الدجال

* * *

النظا م

والنظام هو « فخر » النازيين لأنهم يعيبون على الديمقراطية اختلاف الآراء وصعو بة الاتفاق على قرار ، و بطء الانجاز بعد الاتفاق عليه

والقـول الصواب هنا أن نقارن بين أحسن الديكتاتوريات وأحسن الديمقراطيات ، كما نقارن بين أسوأ الحكومات من الجانبين . فلا نفرض النظام الديمقراطي كما يكون الدكتاتوري كما يكون في « مثله الأعلى » ونفرض النظام الديمقراطي كما يكون في أقبح الأشكال والأوضاع

ومما لاشك فيه بعد هذه المقارنة أن أفضل حكومة ديمقراطية خير من أفضل حكومة دكتانوريه . وأن الدكتانور الردىء شر من الديمقراطية الرديئة على أسوأ ماتكون

والنظام بغير « انتظام » نقيضة لايقبلها العقل المستقيم . فما هي وسيلة انتظام

الدكتاتورية حاكماً معصوما بعد حاكم معصوم ، وخلفا صالحا بعد سلف صالح ؟ لا وسيلة على الاطلاق

ولكن الديمقراطية الصالحة تمقبها ديمقراطية صالحة ان لم تكن أصلح منها، لأن مرجم صلاحها الى الشعب قبل حاكيه

أما اذا كان النساد من الشعب نفسه فهسو فاسد مع الشورى وفاسد مع الاستبداد ، وقد يكون المستبد غبيا سفاحا كما يكون الحكام الديمقراطيون عجزة أو مختلسين

وما الحيلة فى فساد المستبد الجائر، وكيف السبيل الى تبديل حكمه ؟ لا سبيل غير الثورة والفوضى

أما الديمقراطية فباب التبديل فيها مفتوح بنير ثورات و بنيرسفك دماء على أن الحاكم الستبد إنما يصلح من جانب و يفسد من جوانب شتى ، فيعطى الأمة نظاما ان أعطاها ، و يسلب منها حرية الرأى وكرامة الاستقلال والارادة حيثًا ظهر وكيفًا كان

والديمقراطية بعد لا تميى بالمواقف المصيبة التى لابد فيها من اطلاق أيدى الحاكمين . لأنها تطلق أيدى الحاكمين فى هذه المواقف بنظام مقرر معروف ، ليس كله استبدادا لأن أساسه تفويض الأمة . وليس كله حرية لأن الحرية فيه محدودة حيث تقام لها الحدود . وربحا تعلمت من سرعة العمل فى أيام الحروب دروسا تنفعها أيام السلام . فتأتى السرعة من طريق التعليم والتعود لا من طريق الأرغام والالزام

فنى الديمقراطية «احتياط»لأحوال الاستبداد، وليس فى الاستبداد احتياط لأحوال الديمقراطية، اذ هو استثناء دائم، ولن لايجرى إلا على حكم الاستثناء وربما كان للاستبداد_إذا صلح _ بعض حسنات المستشفى الذى يضمن

النازلون به نظافة الطمام وجودة الهواء وانتظام المواعيــد بأعين الأطباء. فاذا الستشرى فساده فهو حبس كحبس الحجاج لاحرية فيه ولاظل ولاطمام

أما الديمقراطية فهى بيتك الذى تعيش فيه وفق مرادك، إذا صلح فهو خير من المستشفى ، وإذا فسد فهو خير من حبس الحجاج . . . والناس مخلوقون للعيش فى البيوت لا فى المستشفيات والسحون .

* * *

الصحة

ونحن نذكر المستشفى على سبيل الحجاز والتمثيل ولا نعنى أن الصحة تتوافر لرعايا الحكومات المستبدة كما تتوافر في المستشفيات

فن غير المقول أن حكومات تجور على أقوات رعاياها وتعتمد على نظام الجرايات فى أوقات السلم لتنفق على السلاح والذخيرة تستطيع أن تكفل التغذية النافعة لأولئك الرعايا المجرومين . وكل حكومة تتخذشمارها «العدة ولا الزبدة» كا تفعل الحكومة النازية فليس فى وسعها أن توفّق بين نقص الأرزاق وتصحيح الأجسام

وقد تعجب الناظر مواكب الألعاب الرياضية ومعارض الجيوش فيعخالها عنوان الصحة الحسنة والأرزاق المكفولة لسواد الأمة ، ولكنه لا ينظر إلى ما وراء ذلك نظرة قريبة حتى يتبين مكامن الداء ويعرف الثمن القاصم الذى اشتريت به هذه المشاهد الجوفاء : موكب زمر وطبل واحد وراءه ألف أسرة تحرم الفذاء والسكساء ؟ ولولا هذا التمويه الفاشل لوجدت منهما النكفاية وفوق الكفاية

ويقترن نقص الأرزاق بنقص الرعاية الطبية ، لانصراف الأطباء إلى ملازمة الفرق المسكرية ، أو لانصراف الشبان عن دراسة الطب والاستبحار في العلوم

فتقل الرعاية الطبية وهي أحرى ما تكون بالمزيد ، لازدياد حاجة الناس اليها من جراء سوء التغذية وضعف الوقاية

وفى كتاب الدكتور مارتن جهرت الألماني المسمى « يحيى الجوع (١) » بيانات واحصاءات مستمدة من مصادر النازي الرسمية تدل على مبلغ انتشار الأمراض والعلل بين الناشئة الألمانية من أثر المبدأ القائل « العدة ولا الزبدة » أودعوا السمن واصنعوا المدفع Butter

فاصابات الحمى القرمزية في سنة ١٩٣٣ كانت ٧٩٨٨٠٠ فأصبحت ١١٧٥٤٤ بعد أربع سنوات

و إِصابات الدفتير يا في سنة ١٩٣٣ كانت ٢٧٥/٥٧٠ فأصبحت ١٤٦ر٢٤٦ بعد أر بع سنوات .

وفى دورتمند خمسة وخمسون فى المائة من الأطفال مصابون بلين العظام ، ولا يزيد عدد الأطفال المافين من أعراضه فى ميونيخ على خمسة وثلاثين فى الألف ؟

وجاء فى التقرير الطبى عن الجامعات سنة ١٩٣٩ « ان مقابلة الأحوال فى السنوات الأربع الماضية تدل على هبوط فى مستوى الصحة بين الشبان . فان زيادة المصابين بمرض القلب فى السنة الماضية مزعجة غاية الازعاج وعدد الطلاب الذين لا يصلحون للانتظام فى سلك الفرق الرياضية قد تضاعف فى السنتين الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية فى سنة الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية فى سنة الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية فى سنة الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية فى سنة الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية فى سنة الماضية بين المائة الآن » .

وانتشار الأمراض بين العمال أكثر وأعضل . وقد حرَّمت الأمم تشغيل الأطفال في بعض المعامل إلا المانيا النازية ، فانها — لحاجتها إلى الصناخ بالأجر

⁽¹ Heil Hunger by Dr Martin Gumpert

القليل - قد أوجبت على الأطفال أن يعملوا من العاشرة ، وارتفعت نسبة الناشئين الذين يعملون فى وادى الرور بين الرابعه عشرة والعشرين من ٨٥٥ فى كل عشرة آلاف (سنة ١٩٣٢) إلى ١٧٧٨ بعد ذلك بخمس سنوات .

و يشيع النازيون انهم يروضون الناشئين على فرح القوة والفرح بالحياة . ولحكن المقارنة بين حوادث الانتحار فى المانيا وحوادث الانتحار فى البلدان الأوربية الأخرى لا تنبىء عن فرح بالحياة بل فرح بالموت . فأن عدد المنتجرين فى المانيا وحدها يكاد يساوى عددهم فى أرجاء القارة الأوربية بأجمها .

وكذلك زاد عدد الموتى ثمانين ألفا كل سنة فى ألمانيا الجديدة ، وكان معظم الزيادة فى الأعمار ما بين الأولى والخامسة عشرة ، وما بين العشرين والخامسة والأربعين ، أى فى سن الطفولة وسن الشباب : سن الفرح بالحياة

وهذه نتيجة بدهية لا غرابة فيها مع نقص التغذية و إرهاق الأجسام بالعمل وكبت النفوس واستفزاز الأعصاب

* * *

النربية

وتربية العقول أضر في ظل النازيين من تربية الأجسام

لأنهم يتعمدون تعويج الرؤس و يجردونها من ملكة التفكير المستقيم فلاترى الدنيا على حقيقتها بل تراها كما تحب الحكومه أن يروها ويثابروا على رؤيتها: يصبغون التاريخ والجغرافيا للطفل بالصبغة التي تساعدهم على ترويضه واقتياده، ويغرسون فيسه الأحقاد التي يضرمونها بالغضب والشركلا أحبوا أن يضرموها، ويخلقون له وجودا عجيبا لا مجد فيه ولا حق ولا فضيلة لغير الآريين المزعومين، ويفقدونه الملكة الصحيحة التي يختبر بها حقائق الأمم والرجال، فلارى الأشياء

ولا يتصور المعانى الا بعد تحريفها وتشويهها كما ترى الأشباح فى المرايا المعقوفة ، واطر ادها أمامه على نسق واحد لا ينفى أنه زائغ مضلل وأن تفكيره وشيك أن يخونه متى لمح شماعا واحدا من الضوء فى عالم الرؤية القويمة والنظر السليم

و يستولون على الطفل من السادسة فيقلدونه خنجراً صغيراً ويطبعونه على الشر والنقمة يسمونها المجد والنخوة الآرية ، ويخيل اليهم أنهم بهذا وأشباهه يقرغون الدنيا بجيل مشاكس متنمر لاحيلة لها فيه إلا أن تستكين له أو تقضى على كل قوة في يديه . وذلك في وهمهم مستحيل لشيخوخة الدنيا واضمحلالها ، وآية الشيخوخة والاضمحلال عندهم ان الدنيا لا تألف الضراوة بالشر ولا تتغنى بالقتل والقتال

فتلاميذهم على غرار تلاميذ الحسن بن الصباح الذي كان يخيل إلى أتباعه انهم في نعيم مقيم ماداموا في طاعته و رضاه ، وأنما يقود تلاميذه بتخدير الحشيش وهم يقودونهم بما يشبه الحشيش من الأوهام والأضاليل

وهؤلاء التلاميذ هم الذين يترنمون بصيحتهم على الحرية: « أيتها الحرية لا اننى أبصق على وجهك للسلام وكلة أبصق هي ألطف تعبير لما يقولون فى ذلك النشيد

表放体

البيئة

ولعل الفاصل المبين بين الديمقراطية والنازية هو فاصل البيئة التي تعيش فيها كل منهما

فليس أول على سلامة الديمقراطية من أن قيامها في الأمة دليــل على مزاياً كثيرة في تلك الأمة ، أو دليل على أن الأمة في معيشة طيبة ومعاملة حسنة ، وليس أدل على وخامة الدكتاتورية من أن قيامها فى الأمة دليل على شذوذ فى معيشتها أو على خوف من بعض الاخطار الحجدقة بكيانها ، كما يعترف الحاكمون بأمرهم كلا أعوزهم أن يسوغوا قيامهم فى شعب من الشعوب

فالبيئة الديمقراطية كالأرض الآمنة القريرة ، والبيئةالدكتاتورية كالمحجر الصحى أوكالمخفر الذي لا يعاش فيه بنير رقابة وتضييق

ولم يعرف التاريخ قط أن ديمقراطية حاربت ديمقراطية على مبادئها ، وأنما تتحارب مثلا حكومة اسبرطة العسكرية وحكومة اثينا الدستورية ، أو تتحارب ولايات الشمال في أمريكا و ولايات الجنوب ، لأن الشمال يطلب الحرية للسود والجنوب يظلب لهم التسخير والاستعباد

أو يتحارب نابليون بونابرت و بريطانيا العظمى ، أو بسمارك ونابليون الثالث ، أو اليابان وروسيا القياصرة

وحتم على النازية وما شاكلها أن تسكون بيئة حرب تنفر من السلم كما تنفر البنية من السم الذي يتلفها و يقضى عليها . فان « الزعيم » لا يخدع الناس عن عقولهم وحرياتهم إلا بما يزلفه لهم من بواعث الهيساج وسورة الشعور وشهوة البغضاء وتعاقب الحوادث بالضجة والصليل . فان لم يتعهدهم بهذه المثيرات فتر عندهم وباخ وآذن نجمه بالأفول

وهو مع هذا يتماظمهم بروعة التقديس والتأليه ومظهر القدرة التي تأمر فتطاع ، وتريد فلا يحال بينها و بين ما تريد . فان وقف بين جيرانه ونظرائه موقف المساوم الذي يأخذ و يعطى و يتقدم و يتراجع صفر في أعينهم وضاع بينهم

وأوشكوا أن ينقلبوا عليه وينتقموا لذلتهم الماضية مما أسبغوا عليه من الهول والتهويل. فهو يشل يديه عن عمل الساسة كل يوم يلبس فيه هالة التقديس والتأليه : فأما أن يرسل الصواعق من سماء جو بيتير ، وأما أن يهبط إلى الأرض مع الهابطين

فسلام الدنيا إذا حكمتها الديمقراطية مفهوم لأنها تقوم على التفاهم ولا تحصر الرأى في يدى انسان واحد . ولكنه غير مفهوم والدنيا تحكمها الدكتاتورية ، بل غير مفهوم وفي الدنيا دكتاتورية واحدة على مذهب التقديس والتأليه ، تفتأ من يوم طهورها تقمقع بسلاح المدوان وتنشىء أبناءها على تمجيده واصطفائه دون سائر الخطط وسائر الحلول

**

ومن الملائم أن نستحضر في اخلادنا قبل ختام هذه المقارنة ان تفضيلنا الديموقراطيه يؤدى إلى تعميمها في كل أمة ، وان تفضيلنا النازية أو الدكتاتورية لا يؤدى إلى مثل هذا التعميم ، لأن النازيين يعتبرون مذهبهم مزية جنسية يستأهلها صفوة الخلق من أبناء الشمال ولا يستأهلها الجنوبيون ولا المفلوبون ، وآخر ما يفكرون فيه إذا انتصروا أن يتركوا الشعوب الصفيرة للمستبدين من عشيرتها ، والزعماء المقدسين من أبناء جلدتها ، ولكنهم يدينونها بشريعة العسف التي لا تؤمن بتقديس ولا بحق مصون لحاكم أو محكوم من الضعفاء

و يحسن بنا كذلك أن نستحضر فى أخلادنا أن الديمقراطيه لم تنته من التطور ولم تتحجر على وضعها الذى هى عليه فى هذه الايام . فهى نظام يتقدم مع تقدم الشعوب ، وتزول نقائصه كلما زالت نقائص الناس ، ولا أمل من الناحية الاخرى فى ارتقاء الدكتاتورية طبقة بعد طبقة وسيدا بعد سيد . لأنها راجعة إلى

القفزات والنوادر ، منوطة بالآحاد المتفرقين ، معرضة للهدم والنخريب بعد كل جناء وتعمير

قال الامام الشيخ محمد عبده: «لايصلح الشرق إلا بمستبد عادل » نعم . ولم يفسد الشرق إلا بالمستبدين الظالمين ، ولم يفهض فهضته المرجوة في القرن العشرين إلا بنفحة من الحرية الديمقراطية سرت اليه . وقد جرب حظه في الحرية ، وليجملها اليوم قضيته الكبرى ، فهى في الحق قضيته التي ينتصر فيها فينجو من ظلم أبنائه وظلم المرباء



اوتو شتراسر

الفصل الجاميين

فوتسالغ

ولعلها كانت أحجى أن تكون قضية أمس أو أمس الأول ، لو كانت « السياسة » تمشى في طليعة الشعوب ولم تكن تمشى وراءها بخطوات

وقد قيل إن الساسة يتخلفون عن عصورهم ثلاثين سنة لأنهم يقتبسون أفكارهم الحديثة في زمن ويتولون الحسكم في زمن آخر ، ولأنهم يلبثون إلى أن عر « الصف الأخير » من « محافظى الشعوب » ثم يمروا وراه ليجتنبوا مشقة الابتداء والاقتحام، و يأمنوامغبة «الرجة الثورية» التي تصاحب دعوات الاصلاح وليتها ثلاثون سنة !

قامها على ما ثرى مائة أو مائة وخسون ، وكا ننا لا نزال الآن فى أوائل القرن التاسع عشر من حيث سياسة العالم وفض المشكلات بين الشعوب والحكومات ماذا كان محدث لو أن الدول جميعا — كبيرها وصغيرها — أجمت على انذار هتلر بالحرب لو أنه رفض خطة التفاهم فى المشكلة البولونية وأبى إلا خطة الارغام ؟

كان ينثني عن الحرب ولاجدال

وكانت كل دولة من هذه الدول تخدم مصلحتها هي قبل أن تخدم مصلحة المالم ... لأن خمس دول على الأقل كانت تأمن على حوزتها من غارة هتلر ، وان كانت بولونيا وحدها هي التي انفردت بالتهديد في بداية النزاع

فلماذا لم تصنع الدول ذلك ؟

لم تصنعه لأنها تعمل فى السياسة الدولية كاكانوا يعملون قبل مائة سنة ، وهم يومئذ على صواب

فبعد الحروب الدينية والحروب التى نشبت بين الأسر المالكة من جراء الخلاف على الوراثة رشدت الأمم بعض الرشاد فاجتنبت الحروب « العاطفية » والنزوات الحاسية واتبعت « المصلحة » وحدها فى إدارة علاقاتها الخارجية ، فلا تعادى ولا تصادق من أجل مصالح الأمم الاخرى ولو كانت تجاورها أو تماثلها ، ولا تظن أن حدثا من الأحداث يعنيها مادام يجرى من وراء خدودها

وجعلت شعارها كلتين اثنتين : الكلمة الأولى «مصلحتي» . . . والكلمة الثانية « لا يمنيني ! »

وصمدت على ذلك فى جميع الأزمات الدولية ، ولا سيما أزمات الحروب

* * *

إلا أن العالم قد تغيّر ، وقام بعـــد العالم فى القرن التاسع عشر عالم متشابك متاسك لا تنفصل فيه أمة عن أمة ، ولا تطرأ فيه المشكلة الدولية إلا " سرت آثارها إلى أبعد الأمم وأقربها على السواء

فقيام حكومة النازي في المانياكان مسألة المانية داخلية على رأى الساسة « الحصفاء » من المدرسة العتيقة

ولكن ألم يكن كذلك مسألة داخلية بولونية ؟ ألم يكن مسألة داخلية بالمبيكية ومسألة داخلية وألم يكن بلجيكية ومسألة داخلية نرويجية و إنجليزية وفرنسية وتركيمة ومصرية ؟ ألم يكن مسألة داخلية في جميع الأمم التي اضطرت من جراء قيام النازيين إلى انفاق مالم تكن تنفق ، وتدبير ما لم تكن تدبر ، واتخاذ ما لم تكن تتخذ من الحيطة ،

وفرض ما لم تكن تفرض من الضرائب ، وانتداب من لم تكن تفكر في انتدابهم من الوزراء والساسة والسفراء 1

أكل هذا لا يكنى لاعتبار المسألة الداخليـة فى أمة مسألة داخلية فى الأمم الأخرى ؟

بلي . إنه لكاف وأكثر من كاف

ولكن النازيين أغاروا على بولونيا ومن ورائها أمم شتى تنتظر وتحسب أنها تسلم بالانتظار ، وتبتمد وتحسب أنها تأمن بالابتماد

فلم تنقض أسابيع حتى فهمت كل واحدة منها أنها اخطأت فى حق نفسها واخطأت فى حق غيرها ، ولم تفد أحدا غير المعتدى عليها وعلى غيرها

فلا هى سلكت طريق المروءة ، ولا هى سلكت طريق السلامة . . . و بئست السياسة التى تحيد عن هذين الطريقين لتمهد بيديها طريق المتدين عليها انتهى فى السياسة الدولية عهد « مصلحتى » وعهد شئوني وكفى!

وأصبحت المصلحة الآن فى التوحيد بين المصلحة الوطنية والمصلحة العالمية ، فلا تنفرد أمة فى سياستها إلا على نية من نيتين : العدوان على غيرها أو التعرض لعدوان المتدين

فاذا أبت أمة من الأمم إلا أن تفرغ جهودها كلها للسطوة المسكرية وأن تشبع نفوس أبنائها كلهم بنوازع البغي والمدوان ، فماذا يبقى للامم الأخرى بازاء هذا الخطر الذي يهددها واحدة بمد واحدة ؟

لا يبقى اتلك الأمم إلا أن تعمل كل منها منفردة تستعد وحدها لدرء الخطر عنها، وهى الخاسرة بما يضيع عليها من الأموال والجهود وعلى أبنائها من الحقوق والحريات

هذا أو تعمل الأمم مجتمعات وتقلع عن سياسة «مصاحتي» ، «ولا يعنيني» لأنها نقيض الصلحة والمروءة والسداد

وفى هذه الحالة يكفيها ربع الاستعداد الذى كانت مضطرة اليه لو أنها عملت على انفراد

لأن دولاً عشراً تبذل ربع مجهودها ومالها أقوى من دولة واحدة تبذل كل ما عندها من مجهود ومال

فهدده « الخطه العالمية » أقل نفقة وأقرب إلى السلامة ، وأشبه بالبكرم والمروءة ، ولا عائق يعوق الأمم عن المضى فيها إلا البلادة والغباء

ومتى ثبت لزوم الخطة وثبت إمكانها ، وثبتت فوائدها فهى فى انتظار «الاداة » التى تصلح لتنفيذها ، أو هى فى انتظار «واسطة الاتصال » بين الحكومات

وليست هذه الواسطة المرجوّة - بن الضرورية اللازمة - بالطريق المقطوع فالتماون الدولي قد أخرج بعد اليوم ضرورة و «عقلا » ولم يعد كما كان قبل اليوم حلما من الأحلام أو هاطفة من عزاطف المتخيلين

وصداقات الدول لا ينبغى أن تقوم غدا على أساس غير أساس الاشتراك في المدوان أو الاشتراك في دفع المدوان

والاتفاق على دفع العسدوان أيسر من الاتفاق على العدوان ، لأن المعتدين يتغالبون ويتنازعون ، ولا يمضون في الوفاق الى نهاية الطريق

وتلك قضية الغد

وتلك هي عبرة الحرب الحاضرة ، إن كانت لها عبرة على الاطلاق

* * *

فلهذه الحرب أغراضها التي لامناص من تحقيقها

ولانه في تلك الأغراض التي يعلنها الساسة ويؤمنون ، أولا يؤمنون ، أنهم يعملون لها وينتبون اليها

ولمكننا ندخى الاغراض التى تتجه اليها الحوادث ونوجه اليها الساسة فى تيارها الجارف الذى لايسلس عنانه لأحد ، و إن خيل الى كثيرين أنهم قابضون عليه ، مستوون فى الركاب

وكل حادث عظيم من حوادث الدنيا فله نتائجه اللازمة اللازبة اذا شئناأن نتحنب كلة القاصد

فالحرب الماضية انتهت بزيادة الأمم المستقلة في أوربا وأفريقيا وآسيا ، وبدخول التحكيم الدولى في دور جديد من أدواره الكثيرة ، و بفشل النزعات المادية في تجارب الأمم والأفراد . فقد فشلت تجربة الماركسية في روسيا بعد أن أتيحت لهما فرصة لا نظير لها ، وفشلت تجربة الخلاعة والانطلاق من ضوابط الآداب والأخلاق ، فأحس كل خليع مستخف بتلك الضوابط أن النفس التي لاضابط لهما نفس متفككة خاوية ، وأنها من أجل ذلك خليقة أن تتهالك وتستخذي في إبان سرورها وانتشابها ، كأنها تنفر من ضعفها وتتقزز من خوامها . فرجعت النفوس تتمرد على التمرد ، وتتمثل طريقها الى الايمان والمثل العليا

واذا قصرنا القول على الجانب السياسى فقد تحقق شطر من أغراض الحسرب الماضية وهو تقسر بر المصير فى أمم كثيرة ، و بقى شطر فى انتظار التحقيق وهو انصاف الاقوام الصغيرة أو الاقليات ، واتمام التماون ٥ عملا » بين الحكومات فا هى أغراض الحزب الحاضرة ؟

أولى من سؤالنا عن أغراضها أن نسأل عن أسبابها

فاذا سألنا عن تلك الأسباب ظهر لنا الماركسيون والماديون بأسبابهــم التي لا يعرفون. غيرها ، وخلاصــتها المضحكة أن الدول قد انفقت ألوف الألوف من

ر بوات الدنانير للوصول الى عشرمعشار هذا المقدار،، وهى لاتثق من هذا المكسب. كما وثقت كل الثقة من ذلك الخسار

والماركسيون أو للاديون أولمن يجهل أن « الدينار » ليس بشيء فى ذاته. وأنه لا يصبح شيئا إلا حين يمثل حاجات النفوس والأجسام ، ومنها الغلب والزهو. و إرضاء الأوهام والخيالات

وقد أحصيت أسباب شتى للحرب الحاضرة غير أسباب الماركسيين والماديين وهى الخوف من الحرب واتخاذ الحيطة لها ، وفقدان المثل العليا والأصول الاخلاقية التي لااستقرار للنفوس مع فقدانها ، والتفاوت بين الامم في طبقات الحضارة ونظم الاجتماع . فإن التفاوت يمنع التعامل بقسطاس واحد ، ومتى تعددت أساليب المعاملة صعب التوفيق ونجمت أسباب الخلاف

إلا أن هذه الاسباب جميعاً تنطيى فى السبب الأكبر الذى تتلاق عنده ، ولا قبل لذا باستيمابها فى تفصيلها إلا ادا استوعبناه فى جملته ، ثم رددناها اليه ذلك السبب الأكبر هو افتراق الطريقين بين الماضى والمستقبل ، فان العالم اليوم حائر بين ماضيه ومصيره ، فلا هو قد فرغ من الماضى بتة ولا هو قد وصل الى تقرير المستقبل وتوطيده والاتفاق عليه

ماض لا رجمة له ، ومستقبل لم يأت بعد ، وقد آذن فى عصرنا بالظهور : فى الماضى كانت السياسة تقوم على أساس المصبيات و تكثر منها ما استطاعت. لتمتز بناصرها : بين عصبية وطن وعصبية جنس وعصبية لفة وعصبية دين ، وعصبية موقع ومصلحة

وفى المستقبل يضيق العالم بهذه العصبيات ، لأنه يتسع و يتقارب بمواصلاته، وكلّا انسع وتقارب اشتبكت مصالحه ومشار به وتعذر على الامة أن تنعزل فيه ، واستحال أن يحكمه قوى واحد وأن يتفق على تقسيمه أقوياء متحار بون ،

واستحال أن يُهمَل فيه شأن الضعفاء ، فلا غنى فيه عن التفاهم والتعاون ، وأن ينسحق فيه القوى الذي لا يأخذ خصومه الأقوياء والضعفاء بغير السلاح

فلا مناص إذن في الفد المنظور من قيام السياسة على أساس المسلاقات العالمية المشتركة ، حتى في الأمور التي كانت تستأثر بها كل دولة وتأبى أشدالاباء أن تشاركها الدول الأخرى في كثير أو قليل منها ، كالعملة والجيش والسياسة الحارجية ، والمصطلحات الاجتماعية

فهذه المسائل كانت معدودة فى شريعة العصبيات القديمة عنوان السيادة القومية التي يستقل بها كل قوم عن سأتر الأقوام

فأصبحنا في مسألة العملة نرى كثيرا من الأمم ترتبط بنظام واحد وترجع إلى ثقة واحدة ، ولا تملك أمة واحدة أن تستقل بعملتها عن سائر الأمم

وأصبحنا في مسألة الجيش نرى فرنسا تشير على انجلترا بنظام التجنيد فتقبل اشارتها ، ونرى أسطولا فرنسيا بقيادة انجليز ، وجيشا انجليزيا بقيادة فرنسيين ، ونرى نحن المصر بين اننا نقبل الجيوش الأجنبية في أرضنا ونمتبراقامتها بيننا أثناء الحرب تنفيذاً لاتقاق محود مرغوب فيه

وأصبحنا فى السياسة الخارجية نرى المذكرة الواحلة تمكتب وتدرس فى دواوين أمم كثيرة قبل اتفاذها ، ونرى اللجان « المختلطة » تحل محل الوزراء المنفردين فى كل دولة

و بلغ من اشتراك اللجان ومجالس الحرب فى جميع الشئون أنها لم تترك عملا واحدا تنفرد به السيادة القومية على النحو القديم

فهذا عالم جديد ، وهـذه أحوال جديدة ، وهذه طلائع للستقبل لابد أن تبلغ تمامها ، ولما تبلغه بعد

ومن عمة هذا التقلقل ، وهذه الحاولات ، وهذه التجارب ، تارة في ميادين

السياسه وتارة في ميادن التجارة ، وتارة في ميادين القتال

وما من عبث ولا مصادفة قد انقسم المسكران المتقاتلان اليوم هذا الانقسام مسكر ألمانيا وأصحابها الظاهرين والمستترين، وممسكر بريطانيا العظمى ومن معامن الحلفاء والأصدقاء

بلهما يمثلان في انقسامهما عالم العصبيات من جهه ، وعالم المشاركة العالمية من جهة أخرى

فها هى ذى المانيا تحمل راية العصبية الجنسية باسم الآرية أو باسم الأقوام الشمالية ، وفى صفها أو من خلفها الروسيا الشيوعية وهى التى تحمل راية التعصب للطبقة العاملة وتسميها سيادة الصعاليك

وها هى ذى بريطانيا العظمى تحمل راية المشاركة العالمية وتقوم على التساند بين شعوب كثيرة داخل الامبراطورية وخارجها ، قد اتصلت كلها بالمحالفات والمعاهدات والدساتير التي تساعد على المعاونة ولا تمنع الاستقلال ولا تجور على الحقوق الوطنية ، فليست كندا ولا استراليا ولا أفريقيا الجنوبية أقل استقلالا في اعلان الحرب من انجلترا نفسها . . . أما خارج الأمبراطورية فهناك فرنسا وتركيا ومصر على اختلاف الأجناس واللغات والعقائد تتعاون وتتفق في الغاية اتفاق الأنداد ، الذين لاينوون البغى على أحد من الأحرار ، باسم تعظيم جنس حاضر أو إحياء دولة غابرة

فنى أحد المسكرين نموذج صغير للعالم البائد عالم العصبيات والعداوات والمشاكسات ، وقوامه جماعة النازيين

وفى المسكرالمقابل له نموذج صغير للعالم المقبل عالم التعاون على تحقيق المشاركة الدنيوية في غير تعطيل للسيادة القومية ، وقوامه جماعة الحلفاء

و بين هذين النموذجين، أو هذين المسكرين ، سر الحرب العظيم الذي تندمج

فيه الأسرار كافة، وسببها الأكبر الذى تتفرع منه الأسباب النفسية والفكرية والاجتماعية والتجارية قاطبة . وتلك هى قضية الفد التى نترقب الفصل فيها بعد الحرب الحاضرة ، ولا يعنى الفصل فيها أحدا من بنى الانسان كا يعنى الأمم المزلاء

* *

ومن التغرير بالآمال أن نتخيل أن المشاركة المالمية حاصلة في بكرة المدنة بعد الحرب الحاضرة ، وان الدول سترمى السلاح بيد وتقيم حق العالم باليد الأخرى . فالعافية درجات كا يقولون في حكمة العامة ، وأمشال هذه الآمال الكبار لاتسرع إلى التمام في اللحظات القصار ، وحسبنا أن نعرف اتجاه آمالنا وأن نتوخاه في أعمالنا فنطمتن إذن إلى كل خطوة تخطوها ، وننزع عن عقولنا حيرة السالك في مفازة لا معلم في أرضها ولا قطب في سمائها . ونثوب إلى الايمان في السياسة ، فنصيب صواب المؤمنين وتخطىء خطأ المؤمنين ، ولا نقذف بأنفسنا في تيار الحوادث يجرفنا إلى حيث شاء ، و يمضى بنا من حيث لاندرى إلى حيث لاندرى . كا ننا خشبة من حطام لادفة لها ولا شراع

ليست هذه الحرب نهاية الحروب، وليس المهم أن تنتهى الحرب بعد أمد قريب أو بعيد

وانما المهم أن نفصل بين بطولة الحربواجرامها بفاصل يميز والناس كا يميزون. موت الشرطى في سبيل الحق من موت اللص على مشنقة القصاص ، وأن تكون للمالم شريعة يدين بها الخارجين عليه كما كانت لكل أمة شريعة تدين بها من. يخرج عليها

وقد يمضى زمن قبل أن يُشنق رئيس أمة باغية جزاء له على اضرام الحرب في سبيل شهواته وخيالاته ، ولمكنه إذا أصبح في أعين الناس مستحقا للشنق خوصول الحبل إلى عنقه وتقصيره عن الوصول اليـه سيان في حــكم الآداب والأخلاق

وستبقى القوة والضعف بعد الحرب الحاضرة ، وتبقى بعد جميع الحروب المقبلة ، سواء نشبت فى سبيل الفتوح والمغامرات أو نشبت فى سبيل العدل والأمان

فلن يأتى فى تاريخ العالم يوم تصبح فيه القوة هى الضعف ويصبح فيه الضعف هو القوة : ذلك الغاء لمعنى الكلمات فضلا عن الغائه لحقائق الأشياء ولكن القوة ضروب .

فاللص الذي يقطع الطريق و يزهق فرائسه المنهزمين قوى معتمد على قوته . والسيد السريّ الذي يطمع في حق الضعيف فيبذل المال في إرضاء المحامين والشهود وتضليل القضاء ونقض الشريعة قوى يعتمد على قوته

إلا أننا لانمرف عاقلا على الرغم من هذا يقول: الغوا القضاء وأبيحوا قطع الطريق لأن القوى والضعيف لايتساويان، أو ينكر أن نصوص الشريعة وانظمة القضاء مكسب انسانى يغار عليه المظاوم وان لم يبلغ منه مايروم

فن قال ان الحرب الحاضرة تسوّي بين القوى والضعيف فهو خادع أو محدوع ، ولكنها إذا استطاعت فى عالم السياسة الدولية أن تفرّق بين قوة اللص الخارج على الجاعة وقوة السري المعتز بمنزلته فى أمته فقد — استطاعت الشيء الكثير ، وتركت بقية للمستقبل عسى أن تتحقق فى زمن يسير

* * *

كيف تتأدى الحرب الحاضرة إلى هذه الغاية ؟

الرأى عندى أبداً هو أن العقيدة سابقة للنظام كما أن الوظيفة سابقة للمضو في اصطلاح علماء الاحياء فهل وجد فى الدنيا شيء يسمى « الحق العالمي » وشيء يسمى « الجريمة العالمية » ؟

هل ينظر العالم إلى من يزعج سلامه ويستهين بتراث الآداب فينه نظرته إلى مجرم مأفون أو نظرته إلى بطل جليل؟

ذلك هو السؤال ا

فاذا كان « الحق العالمي» قد وُجد بيننا ، بل إذا كانت الرغبة في وجوده قد غلبت على نفوسنا ، فالنظام الذي يتولى الانفاذ والاجراء بالمرتبة الثانية بعد هذه المرتبة الأولى أ

والذى أعتقده جازما لا أشك فيه ان تقرير الحق العالمى واجب ، و إننا اليوم فى مقام الشترع الذى يريد أن يقرّر بالنصوص حقوقا مرغو با فيها وجرائم مغضو با عليها ، و إننا فى أوائها وفى فرصتها الكبرى ، فينبغى أن نضن بها على الضياع

و يأتى بمــد ذلك دور « النظام » الذى يتكفل بالانفاذ والاجراء ، فماذا عسى أن يكون هذا النظام ؟

إن الغروض والمقترحات فى هذا الباب لا تقتصر على المثاليين والخياليين ، فان أناسامن المسؤلين فى السياسة كالمسيو بريان قد عرضوا على سبع وعشرين دولة أن يفكروا فى تأسيس « اتحاد » كالاتحاد الأمريكي أو السويسرى أوالأسترالى على نحو من الأنحاء ، قبل نشوب الحرب الحاضرة بعشر سنوات

وقد سبقه ولحق به مفكرون من الأدباء والحكاء ذهبوا إلى توحيد الوزارات وتوحيد المجالس النيابية وتقسيم الكراسي فيها بين الأعضاء على قواعد يؤثر ونها و يحسبونها وافية بالقصد قابلة للانفاذ

ويغلب على الظن أن إنشاء هــذا الاتحاد غير ميسور وغير لازم في الجيل

الذى نحن فيـــه ، لأن الاتفاق على أساس الانتخاب عسير. فهل نعتمد فى الانتخاب على العدد ؟ أو نعتمد فيه على طبقة الحضارة ؟ لاهذا ولا ذاك بما يسهل الاتفاق عليه

إلا أن الآنجاء مع ذلك مرسوم

والخطوات الأولى في هـــــذا الاتجاه تغرى بخطوات تالية لاتُخشى عاقبة '

وأسهل من إنشاء الحكومة العالمية فيما نرى توجيه الجهود إلى إنشاء سوق عالمية للخامات ، وسوق عالميه للمصنوعات ، وأن يكون الاصدار والايراد بين هذه وتلك بمقدار متفق عليه ، على مثال الاتفاق الذى تلاحظه الدول فى زرع الحبوب والأغشاب التى تدخل فى سموم المخدرات

وليس من الضرورى أن يتوحد مكان هذه السوق أو تتوحد مصادر التصدير والتوريد. إذ يكفى أن يتوحد مكتب التسجيل والاحصاء حيث كان الانتاج والتوزيع ، ليعرف الطالب من أين يطلب والبائع لمن يبيع . وخليق بالعالم الذى تقصل فيه شرايين الأثير والكهرباء بين تليفون وتلفراف ومذياع أن يمدما كان عصيا من هذا المطلب قبل سنين

* * *

ولا يخلو من الطرافة أو من الأهمية أن نشير هنا إلى اقتراح الزعم الألمانى الذى يرشحه السكثيرون لرئاسة الحسكومة الديمقراطية فى ألمانيا بعد هزيمة هتار وسقوط نظامه ، ونعنى به أو تو شتراسر Otto Strasser شقيق جريجو رشتراسر ومساعده فى إئشاء حزب النازى بأقاليم ألمانيا الشهالية ، وقد كان جريجو رصديقا لمتار وكان هتار أباً لولديه التوأمين فى العاد . ثم انفصلا. فأرسل إليه هتار نفرامن أعوانه فأخذوه من بيته وهو بين زوجه وأبنائه وقتلوه ركلا بالأقدام

لكن هتلر لم يسترح من أوتو كا استراح من جر يجور ، ولا يزال يخشاه و يتهمه بكل مكيدة تصيبه أو تصيب نظامه

ورأى « أوتو شتراسر » فى علاج مشكلة التجارة العالمية وما تنطوى عليه من مشكلة المستعمرات أن تؤلف لها شركة كبرى تدورفيها الأعمال على أساس المعاملات المالية التى لا تحتاج إلى مداخلة من الساسة أو الجيوش

ورأيه الذي أبداه لمكافحة الحرب قبل بضع سنوات أن تنصف الدول المأنيا وتقضى على سيطرة بروسيا قضاء لاتقوم لهما من بعده قائمة ، وعنده أن تقويض بروسيا لا يتأتى بغير تقويض السادة البروسيين الذين يحتكرون الضياع الواسعة و يعيشون فيها عيشه الطفاة ولا يأذنون لحكومة في المانيا أن تستقر وتهدأ في أماكنها ما لم تقم على أركان الطفيان والعتو والعدوان

وفى هذا الرأى هو ولاشك مصيب ومخلص لوطنه وللمالم .. فما تأتى المصائب لألمــانيا ولا للامم المبتلاة بطغيانها إلا من قبل أولئك « السادة » البروسيين

* * *

على أن التفكير في حرب الدول لا يغنى عن التفكير في حرب الطبقات ، إذ ربمــا نجمت الحرب الدولية من جرائر النزاع بين طبقة وطبقة في أمة واحدة ، أو أمم عديدة

والرأى اليقين في هذا الصدد أن حرب الطبقات لن تهدأ بتغليب طبقة ولا باستنزاف طبقة ، سواء كانت هي طبقة الأغنيا، أو طبقة الصعاليك ، و إنما تهدأ بالتعاون القومي والتنافس الشريف ، وتبقى الطبقات باقية ، ما بقيت الحياة ، إذ ليس السر الكامن وراءها سر « النقود » كما فهم كارل ماركس وأشياعه ، ولكنه هو سر الحياة الذي يقضى بتعدد القيم وتعدد الساعى وتعدد الكفاءات والأذواق واللبانات

وخير ما تعالج به مشكلتها أن تتوسع الأمم فى نظام « الجاعات التعاونية » فلا يستفيد « رأس المال » شيئا إلا كان مرد و إلى المشترين ، وأن تتوسع فى نظام المشاركة بين العامل وأصحاب العمل فيصبح للعامل نصيب فى ربح عمد المشاركة بين العامل وأصحاب العمل فيصبح للعامل نصيب فى ربح عمد المقول وترجع الدولة إلى مافاض من ربح يتجاوز المعقول فتأخذ منه حصة الضريبة التى تقيد الجاعة كاما ، وتمين الفقراء منها قبل الأغنياء

لا نقول إننا وفينا المكلام في الاصلاح السياسي أو الاصلاح الاجتماعي عا قدمناه ، فليست توفية المكلام في ذلك من مطالب هذا الكتاب

ولا نقول إن حلاً من الحلول السياسية والاجتماعية كائنا ماكان سيفض مشكلة الحياة الله الأمم والأفراد . فمشكلة الحياة لا تفض ، ومطالبها لا تنتهى ، وقصاراها أن

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى فان الحياة التى لا تواجه كل يوم كشفا جديدا وتسعى كل يوم إلى مجهول جديد لهى حياة قفراء جدياء لا تستحق أن تعاش

ولـكننا نقول إننا أشرنا إلى وجهة الهداية ، وإننا إذا مضينا في هذه الوجهة على هداها فقد بلغنا شوطنا ، وأبرأنا ذمة أمسنا إلى غدنا ، ولم نـكن - نحن أبناء العصر الحاضر - سدًّا يعوق طريق المصر المقبل ، أو غيهبا ينحرف به عن مسراه

'اجتمع مجلس النواب المصرى فى بداية دور انعقاده بعد اتفاق ميونيخ بنحو شهرين ، ودارت فيه للناسبة الرد على خطاب العرش للمناشئ عدة عن علاقة مصر بالحالة الدولية فى أوربا وغيرها من الأمم الأجنبية ، وكنت مقررا الجنة الرد على خطاب العرش ، فأجبت على الملاحظات التي أبديت فى هذا الصدد على غطاب العرش ، فأجبت على الملاحظات التي أبديت فى هذا الصدد على يال : (١)

... « سمعنا كلاما متعددا عن مادة الطوارى، فى المعاهدة وما عسى أن تجرنا إليه من مشكلات لا شأن لنا بها . فن المتفق عليه – ولا شك – بين جميع المصريين أن مصر لا ينبغى أن تدخل حربا يمكنها اجتنابها . ولكن ماهى هذه الحرب التى يمكننا اجتنابها ؟ . . .

أخشى ياحضرات النواب المحترمين أن يفهم من هذا أننا نقيس الأخطار من حيث قربها أو بعدها بالمقياس الجغرافي . . . أو بمقياس الأيام والساعات ! . . فالفرق عظيم جدا بين منشأ الحادثة و بين النتائج التي تؤدى اليها ، ومثال ذلك قريب الينا من الحرب العظمى . فبلدة سيراجيفو بعيدة كل البعد من الولايات المتحدة ، بعيدة كل البعد من اليابان ، ولسكن حادثاً واحدا وقع فيها كان كافيا لأن يزج بكلتا الدولتين في حرب يظهر لأول وهلة أنه ليس بينها و بينهما شأن كبير . أما نحن فقد وصلت الينا فقلبت تاريخنا وغيرت نظام الحكم عندنا

^{- 133-}

وأنشأت لنا تار يخا آخر غير ما كان يسير اليه مجرى الحوادث لو لم تقع هذه الأساة في سيراجيفو ، وهذا مثل بسيط يمكن أن يتكرر في كل حادث

« قيل ان أعداء بريطانيا العظمى كثير ، وهذا صحيح . ولكن يجب أن نذكر أن أعداء بريطانيا العظمى لايحار بونها ليحتلوا لندن ولا لينتزعوا ليفر بول ولكنهم يحار بونها ليحتلوا مصر وأشباه مصر . فالخطر متجه اليناعلى كل حال ، وإذا انفر دنا باخطارنا فليس معنى ذلك أنها تنقص بل لعلها تزيد ، ولست أعنى بهذا إلا أن نعرف الحقيقة على جليتها لأن من يتوهم أن الخطر بعيد وهو قريب منه يوشك أن يقع فيه »

و بعد كلام عن ميناء اسكندرية وقناة السويس قلت فى الرد على بعض حضرات الأعضاء بمن يرون الحد من الحرية الفردية .

« يريد . . . أن يفنى الفرد فى المجموع أو فى الدولة ، ولا يجوز أن أفهم من ذلك أنه يريد اقامة حكم نازي أو فاشيستي فى مصر ، ولكن يجوز لى أن أقول إن فناء الفرد فى الدولة شىء لا تعرفه الديمقراطية

« فالديمقراطية تعطي الفرد أقصى ما يستطاع من الحقوق ، ومعلوم "أن الغرض الأكبر من التقدم الانساني هو حرية الفرد قبل كل شيء ، وان التفاضل بين أمة وأخرى إنما هو في الأمة التي يتمتع فيها الفرد محقوق الأحوار ، وليس في مصر من يرى فرقا بين رجل يستمبده أحد "من قومه سواء كان زعيا أو غيرزعيم وبين رجل يستمبده حاكم أجنبي . هذا وهذا سواء عندنا على كل حال . لأننا نرود أن نكون أحرارا إزاء كل حاكم سواء كان وطنيا أو أجنبيا

ثم قلت:

« أن القوة المسكرية ياحضرات النواب الحسترمين ليست هي مقياس الحضارة لأنها قد تكون ضرورية للوصول إلى غرض معلوم أو موقوت ، ولم يقل

أحد من الناس أنها هى مقياس الحضارة ، أو أن ترقى الجنس الانسانى انما كان بمقدار كفاءة الأمة فى انشاء الجيوش . فأنيلا وهولاكو مثلاكان لها جيش يعتبر من أقوى جيوش العالم . أنما مقياس الرقى والتقدم الانسانى هو شىء واحد : وهو الانتاج المقلى ونبوغ العلماء والفكرين والفنانين والمثقفين

فلنرجع إلى حالة البلاد التى أخذت بالنظام الدكتاتورى لنرى حالبها من ناحية الانتاج العقلى . أقول مع الأسف أن كل أمة أخذت بهذا النظام ضاعت فيها الحرية الفردية فركد فيها الانتاج العقلى ركودا تأما ولم يظهر فيها فى السنوات العشر الأخيرة عالم أو نابغ أو كاتب مشهور

« لقد اعترفت صحيفة (دوتشى الجمين زيتونج) كبرى صحف المانيا التى تمد من مفاخرها أن حالة الثقافة فى الوقت الحاضر حالة محزنة ، و إنهم يأسفون على القرن التاسع عشر الذى لم تخل فيه سنة من أثر قيم تتجاوب به أنحاء العالم

« ووقف الهر هتلر فى مؤتمر الثقافة فى نورمبرج منذ سنة واحدة وأعلن أن ألمانيا لا تزال تموزها المبقريات الفذة التي تعبّر عن شعور الحجامع . لم حدث ذلك ؟ يجب أن نبحث عن السبب لا أن نوازن بين تقدم الشعب فى البلاد المختلفة . فالسبب أن فناء الفرد فى المجموع يفنى المواهب العليا ، و إذ استمر هذا خافياً سنة أو سنتين فلا بد من ظهوره فى المستقبل ، لاسيا عند ما يتجاوز الفرض الموقوت الذى أنشىء هذا النظام من أجله

« و إذا كان مثل هذا الضغط على الحرية الفردية قد أصاب بلادا لها سبق التقدم فى العلوم والمخترعات فهاذا يصيبنا منه هنا و يحن لانزال فى أول شوطنا ؟ أظن أن الكارثة ستكون عظمى ، وسنيأس من مستقبلنا ولانجنى شيئا فى مقابلة ما جناه أوائك الحمكام من الضغط على الحرية الفردية . ومع ذلك من منا يشك فى أن المانيا مثلا لو استطاعت أن تكون مثل المجلترا فى ديمقراطيتها ما كانت

تلجأ إلى الحسكم الدكتاتورى ؟ إنها لو استطاعت أن تكون قوية كانجلترا لما فعلت ذلك . فهى واقعة فى حكم الضرورة القاسية ، والاضطرار لا يتخذ مقياسا لجرى الحياة العامة . ثم من أين لنا إذا انشأنا دكتاتورية أن تكون مثل المانيا ؟ لماذا نقابل أنفسنا بمن هم أمثالنا ؟ لماذا لانقول أن ديكتاتوريتنا فى هذه الحالة تصبح كالدكتاتورية فى دول أمريكا الجنوبية ؟ ولماذا لا نقول إنها تكون مجالا للنهب والسلب واظهار أحط الشهوات ؟ إن المعروف عن معظم الدكتاتورين أنهم لا يطمعون فى مال ، فمعروف عن هتلر وموسوليني وستالين أنهم يعملون بلا أجر . فمن أين لنا الا يقيض الله لنا في مصر لصاً باسم دكتاتور »

* * *

هذا الخطاب الذي أُلقى في مجلس النواب قبل الحرب الحاضرة بتسمة شهور يلخص جملة الآراء التي وردت في هذا السكتاب

ولم يتغير الموقف بعبد قيام الحرب الأوربية الحاضرة ، بل اقترب من الظهور والتوكيد كما تقترب الصورة التي كانت بعيدة ثم أخذت تتدائى وتتعرض للضياء فصر لا تستهدف للطوارىء والأخطار وحدها فى الحرب الحاضرة أو فى الأزمات الدولية التى تليها ، ولكنها تستهدف لها مع غيرها

ولهـذا كان من السداد والانصاف ألا تنوء وحدها باعباء الدفاع عن نفسها والاستعداد للطوارى، والأخطار التي قد تـكتنفها وتكتنف غيرها وهي لو أرادت ذلك لمـا أطاقته ولا أطاقت بسضه

لأنها تحتاج إلى مئات الألوف من الجند يحمون حدودها شِرقا وغربا وشهالا

الطوارى، والحرب الواقعة ، و إلى أسطول ضخم يحرس تجارتها في البحار القريبة ، و إلى مصانع للسلاح مستوفاة كل الاستيفاء على اتصال دائم بينها و بين موارد المادن والخامات

وما دام الخطر على مصر لا يصيبها وحدها فمن الظلم أن تنوء وحدها بدفعه فى جميع الحالات

حسبها أن تقوى على دفعه حتى توافيها قوة حلفائها ، ثم تكون قادرة على المساهمة بالنصيب النافع فى ترجيح الكفتين ، ولا تظل عالة على كواهل الأصدقاء ، مهملة فى حساب الاعداء

وليست مصر بدعا فى هذه السنة . لأنها السنة التى تجرى عليها الدول كبيرها وصغيرها . فلا تنفرد واحدة منها فى ميدان السياسة أو الحرب كائنا ما كان حظها من العدد والعدة والثراء

فلابد لمصرمن صف تقف فيه

فأى الصفين أكرم لها وأصون لمصيرها وأدنى الى مقدورها ؟

أَنْدَخُلُ صَمَّا يَشْتَرُكُ دَاخَلُوهُ فِي الْعَدُوانَ *

أو صفا يشترك داخلوه فىدفع العدوان أيا كان السبب : للشبع أو للضر ورة أو لحب الحرية والسلام ؟

أما أن تدخل صفا تشترك فيه مع المتدين فلا حاجة لها به ولا إمكان ولا أمان : لأنها لم تتطلع قط الى بلد تمتدي عليه ، وان تأمن أن يعتدي عليها من يخرجون للعدوان على الناس ، وهي في طليعة القصودين المهددين

فليس لمصر مكان أكرم من تأييد الديمقراطية ومبادى. التفاهم بين الشعوب والإيمان بقداسة المواثيق والعهود

ومن كرامة مصر أن تخرج الديمقواطية من الحرب الحاضرة قوية قادرة على الثبات في ميادين السياسة العالمية ، لأننا عائدون لامحالة الى القلاقل والمطامع والعجز عن التعمير والى انقاق الأموال فيا يضيع ولا يفيد اذا بقيت الدول الباغية قادرة على التهديد والارهاب ، غير هيابة ولا مترددة أمام بأس الخصوم

ذلك أكرم الطريقين وأسلم الخيرتين . بل هي الخيرة الوحيدة التي يملكها العقل وهو حر طليق

* * *

أماالمبرة لنا نحن المصريين من موضوع هذا الكتاب الأول وهوتقويم هتار ووزن مزاياه بالمبزان الوحيد الفارق بين الانسانية والوحشية فهي اجتناب الغلوفى استعظام أعماله وأعمال أمثاله ؛ لأن استعظام القدرة على مثل تلك الاعمال قد يسوق الى الاعجاب الخاطىء ؛ والاعجاب الخاطىءقد يسوق الى قبول ما يستنكر ولا يجمل بضائر الاحرار

وعبرة أخرى هى اليقظة للدعوات التى من قبيل الدعوة المتلوية كلا ظهر ملاء مروجون فى السياسة المصرية . فقد يخطر على البال أن الهوادة مع هؤلاء المروجين لن تضيرنا عاجلا ولا آجلا لأن الخطر الكبير لن يأتى الا من رأس كبير أو طبيعة غلابة أو رجل نادر بين عظاء الرجال . فاذا عرفنا حقيقة هتلر وعرفنا أن رجلا متهم العقل متهم الضمير مقسم الرأى والهوى بين الجنون والاجرام أملت له الظروف والمصادفات فصنع ماصنع واقترف مااقترف لم ننتطر بمن يحملون عود الثقاب حتى يتاح لهم مخزن البارود المستور ، ولم نجعل الحذر رهينا بالحريق حون عود الثقاب ، أو بكبار الرجال من ذى الملكات العليا دون الأوساط ومن هم أقل من الاوساط . فان الشر لعلى قدرالمكان الذى يتبوأه الشرير ، وان المكان

الذى يتبوأه الشريرلقد ترفعه اليه المصادفات ولايشترط فى كل حال أن ترفعه اليه عظمة واقتدار

* **

والمبرة الكبرى فوق كل عبرة وبدد كل عبرة هى أن نصحح مقاييسنة للحوادث والرجال. فان الانسان يطلب جودة النظر لأنها جودة النظر ، قبل أن يطلبها لما تجزيه من تفع أو وقاية ، ولا يزال يطلبها ويحرص عليها ولو استغنى عن المنافع والوقايات

كلمة ختـام

نختم هذه الصفحات وهتلر ماضٍ فى مغامرته الجديدة التى يقامر فيها بأرواح الملايين وهولا يبالي مصير ضحاياه

ونعنى بمفامرته الجديدة هجومه العنيف على شمال فرنسا من طريق هولندة و بلجيكا وامارة لكسمبرج ، وفاقا لخطة عسكرية عجيبة يعتمد فيها كايقول جورينج على الوحى والآراء الثورية ولايعتمد على أصول الحرب المعهودة ولا على آراء الخبراء من العسكريين .

وكل « وحي » يدعيه هتلر فأنما هو فى حقيقته تجربة فجائية قوامها الممارف المشتتة ، والقامرة الجامحة ، والاعتماد على الخيانة والتقصير فى موضع من المواضع

وربما كانت خيانه الآخرين أقوى الدعائم التي يعتمد عليها في مغامراته ، لأن هذا المخلوق الموكوس لم يثق قط بغضيلة من فضائل الانسان بعض ثقته التي لا حد لها بالسفالة الانسانية والغفلة الانسانية . ومن هنا تلك الدعوة التي يستغفل بها الناس وتلك الأموال التي يشترى بها ضائر الناس . بل تلك الضراوة الوحشية التي يثيرها في نفوس أتباعه بالتحريض والتلقين ، ولاتعد من الشجاعة أونبل الأخلاق لانها انتكاس إلى غرائز السباع . . . إلا إذا عُدَّت ضراوة السباع ضربا من الخلق النبيل

أما المارف المشتنة هنا فهي خطة الـكونت شليفن ، وخطة جور ينج المدلة

لها بعض التعديل ، وتقريرات الضباط الذين شهدوا الفتتة الأسبانية وغارة النرويج فطة الكونت شليفن هي الخطة التي وضعها هذا القائد الكبير يوم إن قام برئاسة أركان الحرب في بروسيا من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٠٦ و بناها على طريقة هانيبال في معركة كانيا Cannae حيث هجم هجومه المنيف بكل ما عنده من الفرسان على جناح العدو ثم اغرى الجناح الآخر منه بالتقدم إلى حيث استهدف للتطويق السريع .

وكان شليفن ينوى توجيه ثلاثة أرباع الجيش الألماني - أى توجيه ثلاث وخمسين فرقة من اثنتين وسبعين - فى جناحه الأيمن إلى حدود هولندة و بلجيكا ثم الأرض الفرنسية على الشاطىء إلى العاصمة الفرنسية ، وأن يزو د هذا الجناح الأيمن بأ كبر ماعند الألمان من المدافع الضخام التى استكثروامها كل الاستكثار . فلا تنقضي ، على تقديره ، ستة أسابيع حتى تنقض هذه القوة الجائعة على باريس . وقد أمشكت خطته أن تنفذ في الحد ب الماضمة لولا ان القائدين مولتكه

وقد أوشكت خطته أن تنفذ في الحسرب الماضية لولا ان القائدين مولتكه الصغير وفون كلوك خالفاها في عدة أمور ، فأهملا الهجوم على هولندة وأضعفا الجناح الأيمن بما سحباه من فيالقه القوية لتعزيز الجيش الألماني في الشرق وتعزيز الجناج الأيسر في اللورين . ثم وقع الخطأ في الزحف إلى الجنوب فلم يجر على النحو الذي قدره صاحب الخطة من الاسراع والاحكام .

ولبث الألمان يتغنون بهذه الخطة ويعتقدون أنها صالحة للتنفيذ في تجربة أخرى ، لأن الفشل الذي أصابها إنماعرض لها من خطأ الآخرينوليس من خطأ فيها أو في القواعد التي قامت عليها .

وقدذ كرها هتلر في كتابه فقال ما فحواه ان فع الحرب يتلخص في مفاجأة العدو الأكبر بالعدد الأكبر ، والاستبسال في الهجوم عليه .

ثم عدّل جورينج خطة شليفن بتعديل الأسلحة لا بتعديل القواعد والطريقة . فاعتمد على الدبابات والمركبات المصفحة والطيارات بدلا من الاعماد على الأسلحة القديمة التي كان عليها المعرل كله في أوائل القرن العشرين . وسميت خطة جورينج بخطة كانيا Cannae الثالثة لأنه نظر فيها كما نظر شليفن من قبله إلى أساليب هانيبال (١) .

أما التقريرات الحديثة التي كتبها الضباط والخمس براء الذين شهدوا الفتنة الأسبانية والغارة على النرويج فأكثر ما تدور على أساليب الفصائل المتفرقة فى الجبال وأساليب الجنود التي تهبط بالمظلات الواقية وتعيث وراء الخطوط لتعطيل المواصلات واقلاق السكان وازعاج المقاتلين من وراء الصفوف .

وهـذا كله لم يكن لبغني شيئًا لولا دسائس الجيوش الخامسة أو جيوش الجواسيس والدعاة المستترين الذين يكلفون الخزانة النازية ملايين الجنيهات فى كل سنة وينبثون فى البلاد المعتدى عليها لينتقضوا عليها فى أحرج الأوقات . فلولا التقصير فى نسف القناطر على نهر الموز مثلا لانتهت هذه الخطط جميمًا قبل أن توغل فى دور الابتداء .

وقد وقع تقصير ، ولا شك ، فى عدة الدفاع لا نعلم الآن ما حقيقته ومن المسئولون عنه ، ولعل الحكومة الفرنسية تكشف النقاب عنه قريبا كا وعد المسيو بول رينو رئيس الوزراء

إلا أن الأمر فيما عدا هذا التقصير ليس من السهولة والبساطة بحيث يبدو المتعجلين والمستغربين والناصحين وأيديهم في الماء للعاملين وأيديهم في النار!

Hitler over Europe by Ernest-Henré

⁽١) كتاب هتلر على أوربا لمؤلفه ارنست منرى .

فهم يسألون: لم لم يتخذ الحلفاء كل حيطتهم فى الثغرة الضعيفة على حدودهم مادامت للهجوم خطط معروفة وتقديرات لاتعزب عن البال، ولا سيما بال القواد الحنكين ؟

وهوسؤال يبدو وجيها عصي الجواب لولا أن سائليه قد غفلوا عن كثير من الحقائق التي لا تقل في ثبوتها و بداهتها عن خطط الهجوم في تقديرات النازيين فأول ماهنالك أن وجود خطة حربية في دولة من الدول لا يستلزم وقوع الاختيار عليها في اللحظة الأخيرة ، ولا أن تنفذ بجملتها وتفصيلاتها عند وقوع الاختيار عليها

فقد يلجأ أركان الحرب إلى خطة أخرى يفضلونها على جميع الخطط الرسومة، وقد يلجأون إلى الخطة بعينها مع التعديل فى بعض أجزائها كما فعل مولتكه وكلوك فى الحرب الماضية

ولا يجب أن ننسى أن النازيين يستبيحون المدوان على حيدة البلدان المستقلة كولنددة و بلجيكا ولكسمبورج والدنمرك والنرويج ولا يستبيحه الديمقراطيون في حربهم مع النازيين و إلا أسقطوا حجتهم وألحقوا قضيتهم بقضية المعتدين، ومهما يقل القائلون في الحجج الأدبية فهي شيء يكسب به الديمقراطيون و يخسر به النازيون، وقد يكون له النفع أكبر النفع عند النظر في شر وطالسلام ومغارم التعويض

ومتى كان النازيون متروكين أحرارا فى تدبير خطط العدوان وأوقات العدوان وفرائس العدوان في وسعهم أن يوجهوا ثلاثة أرباع جيشهم إلى حيث شاءوا حين يشاءون . وليس فى وسع الحلقاء أن يضعوا ثلاثة أرباع جيشهم فى كل مكان وفى كل حين . ولعلهم اذ يختارون نقطة الدفاع مصيبين أو مخطئين أن ينبهواأعداءهم إلى تعديل ما اعتزموه فى الوقت الأخير

هذا إلى أن هتار يستطيع أن يجازف بأر واح الألوف ومئات الألوف من جنوده وهو لا يبالى بالمصير، لأنه غير مسؤل ولا متحرج كما هو دأب المفامرين والمقامرين . أما القادة المسؤلون فهم أبعد ما يكونون عن الحجازفة بالأر واحوالنجاة من الحساب . وليس من أساليبهم أن يطرحوا كل ما عندهم على مأندة القار فى سبيل الغنى الكامل أو فى سبيل الافلاس

ويضاف إلى هذا وذاك مزية أخرى لاحيلة للحلفاء فيها: وهى وحدة القيادة عند الألمان وتفرقها عند الهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين والانجليز . فطالما تعب الساسة الانجليز والفرنسيون وهم يقترحون على الأمم الصغيرة أن تعاونهم ويعاونوها فى تحضير خطط الدفاع وهي تعتصم بالحيدة وتحسب أنها عصمة تغنيها عن الحلفاء والأعوان . فلما هجم الألمان على هولندة و بلجيكا كانوا يعرفون مواقعهم وغاياتهم جملة وتفصيلاً وكان على الحلفاء أن يصلوا أولا إلى الميادين شم ينظروا فى توجيه الجيوش المختلفة هنا وهنا على حسب الطوارى، من مقتضيات كل ساعة وكل حركة ، ومنها أهواء رؤساء البلاد

وتلك مزية تحسب للنازيين في ميزان الحرب ، و إن كانت تحسب للحلفاء في ميزان السياسة والقانون

ومزية أخرى لاتقل عن هذه المزية هي ارتجال الخطط التي لا يعول عليها أصحاب الأصول والقواعد المرعية في الحروب. فهذه البهاوانيات من حركات المظلات الواقية وفصائل الدراجات الموغلة من وراء الخطوط لعب معيرما مون و إن بدا نجاحه بعدالمفاجأة الأولى أو بعد مفاجآت كثيرة. و إذا كان جورينج قدخشي من عقباه واسرع إلى التبرؤ من تبعاته في صيغة الشهادة لزعيمه فالأحرى بقواد الحلفاء وهم لا يستوحون الخطط العسكرية من عالم الغيب أن يحاروا عند المباغتة كما يحار اللاعب المدرب مع اللاعب الذي يخالف جميع الاصول ، وأن

يتريثوا هنيهة قبل أن يتمودوا طريقة هــذا اللاعب في نقل الورق أو تنسيق الاحتدار

تلك هى بمض المصاعب التى يعانيها المقاتلون الديمقر اطيون ولا يعانيها المقاتلون الناذيون

ولا بد للحرية من مصاعب ، ولا بد لها من ثمن غال فليس لإنسان أن يجمع المزيتين ، وأن يكون مستبدا وحراً في نزعة واحدة ... ولا أن يأكل حلاوة الحرية بنير نار

* * *

ونحن نـكتب هذه السطور والرحى تدور ولا يعلم أحـد أين يرتمي اللباب وأين ترتمي القشور

غير أن الرجاء فيما نمتقد معلق برجحان الروية على المجازفات ، وغلبة القدرة الصابرة على القدرة اليائسة التي تفرغ رجاءها كله في الهجمة الأولى . ثم يقعد بها الأعياء ويستعصى عليها الثبات

وهجمة هتار دليل على هــذا الاستيئاس وعلى أنه يضيق ذرعا بالحصار ولا يقوى على مواجهة الشتاء

وهذا ما قدرناه من بداية الحرب فقلنا إن هتلر لا يصبر عليها ولا يثابر فيها شتاءين متواليتين ، إلا وهو منهوك مضطر في نهاية الشوط إلى النسليم

ولولا ذلك لما جازف بهذه الهجمة ولوكان على رجاء فى نجاحها ، فان احتمال الفشل فيها بالفا مابلغ من الضعف لخليق أن يحسن له الانتظار لوكان يطيقه ويقوى عليه

وتلك علامة خير

وعلامة الخير الكبرى أن تفشل هذه الهجمة فيتاح للمدافسين عزل الفرق

النازية بين الشرق والغرب وتعريض من وصلوا منها الى الشاطىء لنيران البر والبحر والهواء. مع انقطاعهم عن المدد والتموين واتصال جيوش الحلفاء فى الميادين والفرنسية ، بعد تفرغهم لها وجلائهم عن الساحة البلجيكية

وأن حبوط هذه التجربة النازية لهو أصدق نذير بحبوط الدولة النازية وإن تطل الأيام ... ولعلما لاتطول

أبى الله لهــذا العالم الذى أعيى الفاتحين من جبابرة التاريخ أن تحكمه عصابة من المغامرين والأقاتين ، وأن يرتد الى جاهلية جهلاء لاحرمات فيها ولاحتوق

ذلك مالا يكون ، وهيهات أن يكون

فلا أحلامهم مفلحة ، ولا آمال الانسانية مخلقة ، ولا كلة الحرية منسية ، ولا قضيتها في موازين القدر دون قضية الهمجية

وكل آت قريب ما

عَبَاسِ عَنَهُ وَ الْمُعَالِدُ الْمُعَالُ الْمُعَالِدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَالِدُ الْمُعَالِدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعِلَّذِ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعِلَّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعِلَّدُ الْمُعَلِّدُ الْمُعِلَّدُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلِّدُ الْمُعِلِّدُ الْمُعِلِّدُ الْمُعِلِي الْمُعِلَّدُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلَّدُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلِّذِ الْمُعِلِّذِ الْمُعِلِي الْمُعِلِّدُ الْمُعِلِّدُ الْمُعِلِي الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلَّذِ الْمُعِلِي الْمُعِلَّدُ الْمُعِلَّذِ الْمُعِلَّذِ الْمُعِلَّذِ الْمُعِلَّذِ الْمُعِلِي الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلِي الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلِمِ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّالِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمِي الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ ا

فلاسفة أنحكم في العصر الحكريث

دارالكتاباللبناني ـ بيروت

هذه عجالة في مذاهب الحكم التي تشيع في القرن العشرين وقد صدق من قال : و لكل زمان دولة ورجال ، ويصدق مثله من يقول إن لكل دولة مذهبا في الحكم وفلاسفة يسجلون ذلك المذهب أو يروجونه ، ولعل هذه المذاهب دليل محسوس على خطأ الذين يقولون ببقاء نظام الحكم على حال واحدة لا يتبدل منها غير الاسهاء والعناوين ، فإن التطور في مهام الحكومة وفي نظر المحكومين إليها يتجلى في عرض مذاهب الحكم منذ وجدت للحكم فلسفة إلى ان ترددت مذاهبه التي تشيع بيننا اليوم في القرن العشرين .

وقد تطور الحكم قبل ظهور المذاهب الفلسفية التي تشرح قواعده ونظرياته ، وانتقل الناس من تأليه الملوك إلى الايمان بولايتهم الملك من عند الله ، إلى الفصل بين السلطان الالحمي والسلطان الانساني قبل انتشار الفلسفة السياسية وقبل انتشار الفلسفة على الاجمال ، وكانت الأديان الكتابية الثلاثة آية بالغة من آيات هذا التطور البعيد ، فكتاب العهد القديم سجل لزعامة النبي وزعامة القاضي وزعامة اللك مع الجمع بين الحكم والقداسة الدينية في حين والفصل بينها بعد ذلك الحين ، وخطبة السيد المسيح على الجبل دستور كامل للانسان الصالح الذي الحين ، وخطبة السيحة في كل مجتمع وفي ظل جميع الحكومات ، والدين ترتضيه المسيحية السمحة في كل مجتمع وفي ظل جميع الحكومات ، والدين

الاسلامي قد فصل مذهبه في الشورى والمساواة واحترام الاجماع وسؤ ال اهـل الذكر تفصيلا يتناول أصول الحكومة ويوافق تطورها مع الزمن ، وكانـت هذه الأديان حجة لطلب الاصلاح والكف من طغيان الانسان في جميع العصور .

ونود في هذه المقدمة الموجزة أن نربط حلقات السلسلة من العصور القديمة إلى العصر الحديث ، لأن الحلقات التي صيغت في القرن العشرين أو شاعت خلاله لم تكن لتصاغ من معدنها هذا لولا ما تقدمها من حلقات الحكم القديم والفلاسفة الأولين ، وغني عن القول أن هذا البيان لن يكون إلا تلخيصاً مجملا غاية الاجمال على القدر الذي يكفي هنا للتمهيد المطلوب .

تفلسف حكماء اليونان في مسألة الحكم كما تفلسفوا في سائر المسائل التي عرضت لعقل الانسان في الزمن القديم ، وأعانهم على فلسفتهم أنهم جاءوا بعد فترة من التجارب الحكومية في أثينا وسبرطة كفيلة بأن تمد الفيلسوف بالزاد الضروري للمقارنة والمقابلة بين هذه التجارب المتوالية ، ويضاف إليها ما عرفوه من صراعهم مع دولة فارس ومن صلاتهم الودية مع الدولة المصرية ، فكان القرن الرابع قبل الميلاد فترة صالحة للتعقيب على تجارب الحكم وأنواعه في عدة أقطار أجنبية أو وطنية تتفق في الوطن وتختلف بالمعيشة والعادات ، كما يختلف الأثينيون والسبرطيون .

وقبل أن يصبح مذهب الحكم في اليونان فلسفة كان قد أصبح من الملاحظات الواقعية التي يدونها المؤرخون ، فكتب هيرودوت قبل مولد أفلاطون يقول في المساواة : « إنه من الواضح جيدا في هذه الحادثة ومثيلاتها المتعددة أن المساواة شيء عظيم . فقد كان الأثينيون ولا فضل لهم على من جاورهم في الشجاعة أيام خضوعهم للطغاة ، فها هو إلا أن نفضوا عنهم نيرهم حتى تقدموا إلى الرعيل الأول بين الجميع ، وتبين من هذا أنهم رضوا بالهزيمة حين كانوا مقهورين يعملون للسيد المسلط عليهم ، فلما ملكوا زمامهم حرص كل منهم على أن يبذل غاية ما في وسعه لنفسه ».

ولو أن هيرودوت قد امتد به الأجل حقبة قصيرة لاستطاع أن يزيد على دليله هذا دليلا جديدا على فضيلة الحرية ، وهي ارتقاء الفكر ونبوغ الفلاسفة الذين يلقون أنوارهم على المسألة بحذافيرها ويتناولون قواعد الحكم وحقوق المحكومين على وجوهها المتقابلة كها تناولها أفلاطون وتناولها من بعده تلميذه أرسطو ومريدوه .

فهذان الفيلسوفان قد تقابلا في مذاهب الحكم كها تقابلا في غيرها من المذاهب العملية والعلمية ، وكانا كالقطبين المتقابلين للدائرة الواحدة ، فكل منهما طرف يكشف محاسن رأيه ومآخذ الرأي الذي يعارضه ، وتتم الدائرة على سعتها بهذين القطبين المتقابلين .

كان أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م) يعظم شأن الدولة بالقياس إلى الحرية الفردية ، فالقوانين لا توضع لتمكين الفرد من فعل ما يشاء ، ولكنها توضع لمدايته إلى فعل أحسن ما يستطيع ، ولا ضير من إكراهه على صلاح أمره إذا كان في حاجة إلى الهداية والاصلاح ، وأكثر الناس في حاجة دائمة إليها يجوز في تربيتهم ما يجوز في تربية القصر والأطفال .

وواضح من هذا أن الحاكم في مذهب أفلاطون بمثابة الأب والمعلم وليس قصاراه أنه خادم مصالح المحكومين ، ولهذا يوصي بإسناد الحكم إلى الحكماء والعلماء ، ويوصي إلى جانب ذلك بتجريدهم من روابط الأسرة وشواغل الثروة تنزيها لهم عن الفتنة والمحاباة ، ولا حرج على ولاة الحكم من استخدام الأساطير والخرافات واختراع قصص البطولة والأعاجيب لترويض الرعية على الخضوع لما فيه نفعها ورشادها ، فهذه في مذهبه « أكاذيب نبيلة » لا غنى عنها في إقناع الدهماء ، ولا يلبثون أن يعرفوها ويعرفوا أعذار من استخدموها متى ارتفعت عنهم غشاوة الجهل والخرافة .

وينظر الفاشيون والاشتراكيون معا إلى أفلاطون كأنه رائد سابق للفاشية والاشتراكية ، فيرضى عنه الفاشيون لأنه بكل الأمر إلى الولاة والزعماء ، ويعظم شأن الدولة والحكومة ، ويرضى عنه الاشتراكيون لأنه يحرم الملكية على الولاة ويسمح باشتراك الجمهور في الملك الواحد ويجعل للنساء حق الحكم مع الرجال ويفرض عليهن واجب الدفاع معهم . ويسوق الفاشيون والاشتراكيون كلمات

له وردت في كتاب الجمهورية تعزز ما يقررونه لتأييد آرائهم ونقد آراء خصومهم . ومنها قول بعض المحاورين في كتاب الجمهورية : « إن العدل مصلحة الاقوى » وإن الرجل العظيم في حل من إرضاء عظمته بالسيطرة على من دونه ، وإن الوازع الأخلاقي رياء ونفاق ما لم يكن صرورة من ضرورات البيئة ، وغير ذلك من دعاوى الحوار التي تقال كها يقال الرد عليها ، ولا تعبر كلها عن رأى أفلاطون .

ولا شك في ميل أفلاطون إلى حصر السلطان في الأيدي القليلة وإعراضه عن إطلاق حقوق الحكم لجميع المحكومين ، بيد أن الشراح الذين يستندون إليه في تسويغ الاستبداد يخطئون تفسيره وقد يتعمدون تحويله عن معناه ، لأنه شديد الانكار لحكم القوة شديد الاعجاب بحكم الرضا والاقناع ، وتفرقته الكبرى بين الملك والطاغية أن الملك يهتم بحب رعاياه وأن الطاغية يفرض عليهم طاعته غير مبال منهم بشعور بعد شعورهم بالرهبة والولاء . وقد فاضل أفلاطون بين حكومة الفرد بغير قانون وحكومة الخاصة بغير قانون وحكومة الدهاء بغير قانون ، فقال إن حكومة الدهاء هي أفضل هذه الحكومات وإن شرورها أهون من شرور الحكومة الفردية المطلقة وشروز الحكومة التي يحتكرها الخاصة مع أطلاقها واستبدادها ، إذ كان فساد المستبد يشمله ويشمل كل من عداه وتمتد أوهاق ظلمه إلى جميع الطبقات ، وإنما يسوء حكم المدهاء حين يشرعون له القوانين لأنهم يجهلون أصولها ويولون أمرها غير أهلها ويسيئون التشريع كها يتفق عليها من يشهون التنفيذ ، وليس كذلك الخاصة المقيدون بالشريعة كها يتفق عليها من يفقهونها ويحسنون الرقابة عليها .

وقد توزع مذهب أفلاطون حديثا بين أناس متفرقين يدعي كل منهم أنه قادر على تطهير نظامه من النقائص التي احتاط لها الفيلسوف في زمانه ، والواقع أنه مذهب مفروغ من استحالة تطبيقه ، فالمناقشة في نظرياته تسلس لمن يريدها دون أن يجبسها الواقع عند حد محدود .

* * *

إلى الطرف المقابل لهذا الطرف يتجه أرسطو تلميذ أفلاطون الأول الذي لقبه الأقدمون بالمعلم الأول .

فالحكم عنده وظيفة خبرة يتدرب عليها ذووها وليس وظيفة فلسفة وحكمة ، وهو يقسم الحكومات إلى ثلاثة أنواع: هي حكومة الفرد وحكومة الأعيان وحكومة الشعب أو الديمقراطية ، ولكل منها آفة تمسخها وترجم سيئاتها على حسناتها ، فإذا مسخت حكومة الفرد غلب الهوى في نفس حاكم واحد على مصلحته ومصلحة الرعية كلها ، وإذا مسخت حكومة الأعيان فهو الاحتكار الذي يسخر الأكثرين من المحكومين للأقلين من الحاكمين ، وإذا مسخت الحكومة الديمقراطية فتلك هي فوضى السوقة والدهاء .

وليس عدد الحاكمين هو الفرق الجوهري بين الحكومات الشلاث ، ولكن الفرق الجوهري هو الفرق بينها في حقوق المواطن ، وخيرها ما تكفل لجميع المواطنين بالمساواة في الحرية ، وهذه المساواة هي التي تبطل القول بأن الحرية هي أن يفعل كل إنسان ما يشاء . فلو جاز لكل أن يفعل ما يشاء لجاز له أن يعتدي على غيره فتبطل المساواة ، وإذا تساوت حريتهم جميعاً فهذه هي الحرية في حدود القانون ، وذلك هو القانون الذي يوضع لجميع الرعايا ولا يوضع لطبقة منها دون طبقة .

وإذا تكلم أرسطو عن المواطنين وحقوقهم فإنما يتكلم عن الأحرار ويستثني الأرقاء ، فالمواطن من شترك في تسيير الدولة برأيه أو بعمله ، ولم يكن للأرقاء على عهد أرسطو شيء من المشاركة في الحقوق السياسية .

والتفرقة بين الحكومتين الصالحة والفاسدة عند أرسطوهي أصدق تفرقة قال بها الفلاسفة حتى اليوم . فالحكومة صالحة متى عملت لمنفعة المحكومين ، وفاسدة متى عملت لمنفعة الحاكمين . مثلها مثل كل أداة توضع لغاية ، ولا تؤدي الحكومة غايتها إذا كانت لا تنفع رعاياها .

وليس من رأي أرسطو أن « خير » الناس هم الحكام ، فمعنى هذا أن الذين لا يتولون الحكم أشرار ، أو معناه أن أخيارا قلائل يستأثرون وحدهم بحقوق جميع

الأخيار .

وليس من رأيه أن الحكم حق للثروة ، فمعنى ذلك جمع الثروة والسلطة في أيد قليلة .

وليس من رأيه أن الكثرة تباشر الحكم بجميع آحادها فتلك استحالة لا تتحقق في الواقع ، ويكفي من الكثرة أن تكون مكفية المؤنة راضية عن معيشتها .

واشتراط الرضا من جانب الأكثرين ضهان لإخلاص الحكومة في خدمتهم . ووفرة الناس ،- في رأي أرسطو ، كوفرة الماء التي تعصمه أن يأجن ويتعفن كها يتعفن الماء القليل بأقل شائبة .

وقد وجد أرسطو أن توزيع مهام الحكم ضهان آخر لمنع التفرد بالسيطرة الحكومية ، فتنقسم الحكومة بين الاستشارة والإدارة والقضاء ، وتنشأ من تخصيص الحكام لكل قسم من هذه الأقسام طائفة خبيرة بما تتولاه ، وقيام الحكم على القواعد الديمقراطية يمنع أن تنحصر هذه الطوائف في كبار السادة والاغنياء ، ويمنع ان تنحدر إلى السفلة والجهلاء ، فسبيلها أن تؤ ول إلى طبقة وسطى لا تستبد استبداد الأعلياء ولا تسف في أعها لها وأخلاقها إسفاف الأدنياء .

ويعارض أرسطو أستاذه في شيوع الملكية كما يعارضه في احتكار السلطة ، فقد بحث شيوع الأرض وتقسيم الغلة ، وبحث شيوع الغلة وتقسيم الأرض ، وبحث شيوع الأرض والغلة معاً ، فخلص من هذه البحوث إلى ضرر الشيوع في هذه الحالات جميعاً ، لأنه باب النزاع وسوء الاستغلال ، وأضمن منه للسلم أن تباح الملكية مع تقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء .

بهذين المذهبين ـ مذهب أرسطو وأستاذه ـ تحت الأثينا رسالتها العظيمة في فلسفة الحكومة ، وهي أوفي رسالة فلسفية كانت مستطاعة قبل عصر الميلاد .

* * *

وتأتي رسالة روما بعد رسالـة أثينـا ، وهـي رسالـة عملية يقـل فيهـا نصيب الدراسات الفلسفية . ومع استثناء القوانين المسطورة لم يبق من تراث روما في

فلسفة الحكم غير كتابين لخطيبها الأكبر شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) وهما كتاب الجمهورية De Republica وكتاب القوانين De Lagibus عرفت روما ضروب الحكم جميعاً مع تعدد أنواع الحكام وتعدد أنواع المحكومين : عرفت الملك والجمهورية والقنصلية وحكم الدكتاتور العادل والدكتاتور الظالم ورقابة الشيوخ الأعيان ورقابة الوكلاء الشعبين ، وعرفت الحكم الذي يقوم على حقوق العلية والحكم الذي يقوم على حقوق العلية والعامة ، والحكم الذي يستثنى منه الأرقاء والحكم الذي يقبلون فيه بعض القبول ، وتركت بتجاربها العملية رسالة عامرة بالناذج والتعديلات لا يستغنى عنها باحث من الدارسين لنظم الحكومة في جميع الأوضاع وبين جميع الأقوام .

أما رسالتها الفلسفية فهي كها تقدم محصورة في كتابي الخطيب الكبير ، وجانب الاقتباس فيها من المدرسة الأثينية أكبر من جانب الاستقلال بالرأي والابتكار ، ولعل إيمان شيشرون بالنظريات هو الذي جنى عليه فجعله يصر في أثناء ولايته للحكومة على توخي الغايات التي لا تدرك وسوم الشيوخ والأعيان ما لا طاقة لهم به من النزاهة والاعتدال ، فكان الموت جزاءه على هذه النزعة المثالية التي لا تقبل التطبيق .

نقل شيشرون عن الفيلسوف اليوناني زينوقراط Xenocrates أنه سئل : ماذا استفاد منك تلاميذك ؟ فقال : إنهم استفادوا أنهم بمحض اختيارهم يعملون ما توجبه القوانين على الآخرين .

يقول شيشرون : يم إنه من رأي أعقل الحكماء أن القانون لا يرجع في أصوله إلى فكر إنساني ولا إلى عمل أمة من الأمم ولكنه شيء خالد يحكم الكون كله بما يوحيه من أوامر، ونواهيه من وإن أفضل المجتمعات هو المجتمع الذي يوافق إلهام الطبيعة ولا يعطل هذا الإلهام بزيغان المطامع والشهوات .

وينكر شيشرون قول أفلاطون إن ذوي الاستعداد لفهم الشريعة جد قليلين بين البشر ، ففي اعتقاده على عكس ذلك أنه ما من إنسان إلا وهو قادر على فهم الشريعة كما توحيها الطبيعة ، وإن القانون الطبيعي يقضي بالمساواة بين البشر في

هذا الاعتبار ، وإنه عند عصبيان هذا القانون الطبيعي يقع من الناس الاجتراء على نصوص الشرائع المسطوره .

ويقول على لسان سيبيو وهو يلخص حجج الديمقراطية : « إنهم يقررون انه ليس من الانصاف أن تدان الديمقراطية على عمومها لان الجمهرة الجامحة من سواد الناس لها عيوبها ، وإن الناس ما داموا متناسقين يخضعون كل شيء لسلامتهم وحريتهم فلا حكومة أنأى عن خطر الثورة وأمكن استقرارا من حكومتهم . اي. من الحكومة الديمقراطية » .

ويمضي سيبيو قائلا: « وعلى الجملة لا يعتبر أنصار الديمقراطية أن الحكومات الاخرى جديرة باسم الحكومة ، فهالي مثلا أطلق اسم المالك الذي هو أليق الاسهاء برب الارباب على مخلوق بشري متلهف على السيادة والاستئثار بالغلبة كأنه في سوقه للرعية يدفع أمامه قطيعا من العبيد ؟ أليس الاحرى بي أن أطلق عليه اسم الطاغية ؟ . . »

والعجب في هذه الديمقراطية الغالية وهذا القانون الطبيعي أن تتمخض عنها الدولة الرومانية التي كانت رسالتها في العالم « صناعة » القوانين . .! فقد أصاب من قال إن شيشرون كان رائداً للثورة الفرنسية والثورة الامريكية قبل ألف وسبعائة سنة ، وإنه بهذه الاقوال عن القانون الطبيعي وعموم المساواة بين البشر كان زميلا لجان جاك روسو ظهر في العصر الغابر قبل الاوان .

※ ※ ※

مضى من القرن الاول قبل الميلاد عصر شيشرون ، إلى القرن الخامس عشر بعد الميلاد عصر ماكيافلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) اكثر من خمسة عشر قرنا لم ينبغ فيها من فلاسفة الحكم من يستحق أن يذكر غير ثلاثة ، اثنان منهم حبران جليلان من أحبار الكنيسة وعلمان بارزان من أعلام الفكر وهما القديس أوغسطين والقديس توما الاكويني ، والثالث هو جون أوف سلسبوري القس الشاعر الفيلسوف الذي عاصر الملك هنرى الثاني في إبان الخلاف على الدين والسياسة .

ولد القديس أوغسطين في منتصف القرن الرابع (٣٥٤ ـ ٤٣٠) وألف كتابه

عن مدينة الله تفنيدا لقول القائلين إن روما آمنت بالارباب الوثنية فعاشت في القوة والرخاء عدة قرون ، وآمنت بإله الدين المسيحي فعجل إليها البوار بعد قرن أو قرنين ، وقد استغرق تأليفه ثلاث عشرة سنة في أوقات متقطعة فكثرت فيه النقائض كما كثر فيه الاستطراد من موضوعات الحكم والسياسة إلى موضوعات الفقه واللاهوت ، ويتحدث القديس أوغسطين عن مدينة الله كأنها مدينتان الفقه واللاهوت ، والاخرى على الارض ، وهو لا يعني بمدينة السماء سلطان المحلول والامراء ، ولكنه يعني بهما مدينتين الكنيسة ولا يعني بمدينة الارض سلطان الملوك والامراء ، ولكنه يعني بهما مدينتين مثاليتين يبنيهما الله والصالحون من عباده بالتقوى وعمل الخير والزهد في الملذات والشهوات وقضاء الحياة في رعاية أوامر الله واجتناب نواهية ، وتنعقد الصلة بين ابناء المدينة بأن يحبوا الله و يحب بعضهم بعضاً في الله ، ويضرب الشراح المثل لهذه الصلة الروحية بالصلة التي يشعر بها قراء الكتاب الواحد إذ يعجبون بمؤ لفه ويستر وحون جمال فكره وبلاغة كلامه ، فالأمم التي تشترك في حب الله وتمجيد ويستر وحون جمال فكره وبلاغة كلامه ، فالأمم التي تشترك في حب الله وتمجيد آياته هي أمة واحدة في مدينة الله .

وأهم المبادىء السياسية التي اشتمل عليها كتاب القديس أوغسطين هي : (1) أن اقتناء الأملاك وجمع الكنوز هو شهوة من شهوات النفس البشرية الخاطئة وليس شريعة من شرائع الله ، وأن أفضل المجتمعات ما كانت خيرات الله فيه مباحة لجميع عباده يأخذون منها بمقدار ما يحتاجونه في لوازم الحياة و (٢) أن المستقبل للوحدة الإنسانية التي تؤلف بين المؤ منين في حب الله و (٣) أن الأمل الأكبر للجهاعة الإنسانية هو « السلام » وهو في حكمة القديس أوغسطين مرادف لكهال الروح وكهال الالفة بين البشر ، وليست غايته اجتناب الحرب وكفى . إذ لا سلام بغير إخوان كها أنه لا حرب بغير أعداء و (٤) أن الرق ثمرة الخطيئة والخطيئة هي السبب الاول لخضوع الإنسان للإنسان ، ولعل كبرياء السيد عقاب له وضراعة العبد غفران وتكفير و (٥) أن خضوع المؤمنين لاصحاب عقاب له وضراعة العبد غفران وتكفير و (٥) أن خضوع المؤمنين لاصحاب السلطان الدنيوي واجب في حدود الامور الدنيوية ، فإذا تجاوزها أصحاب ذلك السلطان فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق و (٢) أن الناس في مدينة الأرض حجاج إلى مدينة السياء أقربهم إليها من هانت عليه النعمة الارضية في سبيل

النعمة السهاوية الابدية .

* * *

وتعاقبت القرون إلى القرن الثاني عشر الذي عاش فيه جون أوف سلسبوري (١١٢٠ ـ ١١٨٠) صاحب كتاب دليل الحاكم الذي اخترع له اسم بوليكراتكاس Policraticus واسترعب فيه الكلام على واجبات الحاكم وواجبات الرعبة وشر وطالحكومة المطاعة ، وأهم آرائه أن الفضيلة هي غاية الحياة وأن هذه الغاية لا تدرك بغير حرية ، وقد ضرب المثل للحرية المطلوبة بكلام من يدعى فيليب philip في مواجهة مجلس الشيوخ الروماني حيث نعى عليهم جمودهم وتراخيهم فلم يغضبوا لتبكيته وقال له الشيخ الذي نهض ليخرجه : « لا عليك أن تسلم نفسك إلى فإنني لست بالشيخ صاحب السلطان في نظرك ».

وقد أوجب فيه على الملك أن يعمل بالقانون ، وفرق فيه بين الراعي ، والحارس الأجير ، واللص ، في تربية القطيع : فالراعي يعمل بخلوص نية وصدق رغبة ، والحارس يعمل لحساب غيره طمعا في الأجر وخوفا من العقاب ، واللص لا يبالي من القطيع إلا أن يلتهم ما استطاع التهامه ويخفي فعلته عن أنظار مطارديه .

* * *

وانقضت حقبة في اقتباس القوانين من بقايا الدولة الرومانية ساعت خلالها النظريات التي أشرنا إلى بعضها في تلخيص مذهب شيشرون ، كالقانون الطبيعي وحق المساواة . وشاع معها تعريف القانون بأنه مجموعة العرف والعادة التي اصطلحت عليها الشعوب وتولى رؤساؤها القيام على تنفيذها بالنيابة عنها ، ووافق هذا الاعتقاد غرضا من سادة أوربة لميلهم إلى الاستقلال بالسلطة الدنيوية عن السلطة البابوية ، وظهر في تلك العصور الاولى من يقول كها قال مانيجول أوف لاتنباخ في القرن الحادي عشر : « لا احد يملك أن يجعل نفسه امبراطورا أو ملكا ، وإنما هو الشعب الذي يرفع إنسانا فوق نفسه ليحكمه ويدبر شؤونه على أصول الحكم الصالح ، معطيا كل ذى حق حقه ، متوليا من يتقى

بحراسته ومن يعتدي بنقمته ، وقائها بالقسط بين الجميع ، .

وظهر في القرن الثالث عشر من يقول كها قال براكتون الفقيه الإنجليزي : « لا ينبغي للملك أن يعلو على مكانه أحد ، إلا أن يعلوه سلطان الله والقانون . لان القوانين هي التي تنصب الملك ، وعليه أن يمد القانون بالقوة والنفاذ . . إذ لا ملك حيث لا قانون » .

* * *

بين هذه التمهيدات المختمرة نبغ الفيلسوف الديني الكبير توماس الإكويني (١٢٧٥- ١٢٧٤) ونظر إليها وإلى كتب الفلسفة جميعاً في مذهبه السياسي الذي شرحه أثناء تعليقه على كتاب السياسة لأرسطو وعاد إليه في رسالة لم يتممها سهاها « ولاية الأمراء » .

والكون كله في مذهب القديس توما حكومة ذات درجات Hierachy يستوي الإله على عرشها الأعلى ، وأهم آرائه أن الحكومات الدنيوية ينبغي أن تتوجه بطلب المشورة إلى آباء الكنيسة ، لان الإنسان في هذه الحياة يسعى إلى غايتين : إحداهما روحية والآخرى جسدية ، وليست سعادته الجسدية هي الغاية القصوى بل هي وسيلة لتحقيق غايته العليا وهي سعادة الروح . فالكنيسة التي تشرف على أمر روحه أولى بالتقديم من الحكومة الدنيوية التي تشرف على أمر جسده ، ومن حق حكومة الدنيا أن تطاع في كل شيء تتساوى فيه طاعة المرؤ وس والرئيس . أما إذا فرض الرئيس على مرؤ وسيه ما لا يقبله هو ولا يلتزمه فلا طاعة للحكومة الدنيوية ولا حرج على مرؤ وسيه عن عصيانه والثورة عليه . وقد توصف حكومة القديس توما بأنها مزيج من الفردية والانتخابية ، لانه يشير باشتراك الشعب في انتخاب الملك والنبلاء ، ليتم امتياز الممتازين وأمان الضعفاء من بغي الاقوياء ، ومساك الوفاق بين الجميع هو القانون الطبيعي الذي لا يخفي على أحد ، وهو ومساك الوفاق بين الجميع هو القانون الطبيعي الذي لا يخفي على أحد ، وهو خلك القانون الرعية أن تقاوم راعيها أو تكف عن الطاعة إذا أقحم عليها قانونا لا يطابق ذلك القانون .

* * *

ثم جاء عصر ماكيافلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) وهو الرجل الذي أصبح اسمه علما على سياسة الغش والغيلة والقسوة والدسيسة والتاس النجاح بكل وسيلة ، وتعود شهرته الى ما اشتهر من وصاياه في كتابه الموسوم « بالأمير » .

أما الحقيقة فهي كها قال في رسالة منه إلى بعض ثقاته « إن كتاب الأمير نزغة هوى » ، ولم يكن الرجل كاذبا فيا وصف به هذا الكتاب ، فكل ما فيه من الجد أنه طمح إلى توحيد إيطاليا كها توحدت فرنسا وأسبانيا ، ورأى أمامه طائفة من شرار الأمراء يتنازعون فيا بينهم ولا أمل في توحيد وطنه مع بقائهم ، فمن أزاحهم من طريق الوحدة بما وسعه من وسيلة فلا جناح عليه .

على أن مذهب ماكيافلي الصحيح مفصل في تعليقاته على كتب ليفي العشرة وملحوظ فيما بين السطور من كتاب الامير ، فهو يقرر ان الاستناد إلى الشعب أضمن لصيانة الحرية من الاستناد إلى الاعيان والنبلاء الـذين يتكلـون على ما ورثوه ولا يزالون يطمعون في زيادته بالعسف والحجر على المحرومين ، وأن وفاء الشعوب أوثق من وفاء الامراء ، وأن الملك الحق من يجبه رعاياه ويهابونه لا من يرتاب فيه رعاياه ويمقتونه ، وأن الدكتاتور الـذي يخشي خطـره على الحـرية هو الدكتاتور الذي يغتصب القوة ولا يستمدها من رعيته ، فإذا انطلقت يده في الحكم باختيار الرعية كما كان يحدث في الدولة الرومانية القديمة فهو قمين أن يبلغ قومه من المجد والرخاء ما لا يبلغونه في ظل القوة المفاجئة . وعبرة التاريخ الروماني في رأى ماكيافلي أن الجمهورية تصلح ما بقيت قوية متوازنة الاركان لا تبغى فيها طبقة على طبقة ، فإذا هي تضعضعت وآذنت بالزوال فالدكتاتور الذي تقدم وصفه خير حاكم يتعهد الوطن في تلك الحالة . ومساك الحكمة السياسية في كتاب الامير وفي التعليقات على التاريخ الروماني هو « أن سلامة الدولة مقدمة على كل مصلحة أو شريعة ، فإذا وجبت وقايتها من غائلة تهدد سلامتها فلا محل المبحث في النصوص والفتاوي ولا حرج من اتخاذ كل وسيلة لدفع الغائلة عنها ، ولا يصعب على ولاة الامر مع هذا أن يسوغوا عملهم للشعب بما يقنعه لاستدامة إيمانه بالشريعة وقوانين الاخلاق .

والمثل الاعلى للحكومة في مذهب ماكيافلي هي الحكومة التي تسقط أمراء

الاقطاع ، وتنهض بالطبقة الوسطى ، وتؤمن الشعب على حريته ومعيشته ، وتنضوي إلى حاكم قوي يمزج بين دهاء الثعالب وجرأة الاسود ، ويلتف به رعاياه عن حب ومهابة وثقة لا عن خوف وخنوع واستسلام .

* * *

وفيها بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر دخلت نظريات السياسة في دور جديد يدور على محورين : محور القوانين الطبيعية أو الحقوق الطبيعية التي تقدم ذكرها ، ومحور الخلاف على حق الكنيسة وحق الدولة وأيهما أحق بالاتباع عند احتدام النزاع بين السلطتين .

وأدى استقلال الملوك عن الكنيسة واضمحلال نفوذ النبلاء والفرسان أصحاب الإقطاعات إلى استقلال الاوطان والدعوة إلى حقوق الوطن وحقوق الامة ، فتركزت الحقوق السياسية رويدا رويدا في الشعب وبرزت على طليعته طبقته الوسطى ، وهي أقدر طبقاته بعد اضحملال السادة الأعلين من النبلاء والفرسان « الإقطاعيين » .

هذه النظريات عن الحقوق الطبيعية وحق الكنيسة وحق الدولة وحق الشعب لم تزل تتراءى على درجات متعددة ووجهات متعارضة في بحوث الفلاسفة الذين كتبوا عن فلسفة الحكم من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر .

فأقدمهم جان بودان الفرنسي Jean Bodin (1041 - 1041) يشرح نظرياته في ستة مجلدات يسميها و الكتب الستة في الدولة ، ويقرر فيها أن الاسرة والملكية (أي الامتلاك) هما أساس المجتمع ، وأن النظام الملكي المقيد هو أصلح الانظمة الحكومية ، وأن صاحب السيادة متى بويع بها حرم على الرعية نقض ولائه كائنا ما كان اعتذارها لنقضه ، وتفرقته بين السيادة الشرعية والسلطة القائمة بالقوة أن السلطة القائمة بالقوة قد تحفظ النظام ولكنها لا تحفظ القانون وهو السند الوحيد الذي يقوم عليه حق الطاعة والولاء . ولهذا الكاتب حوار أجراه بين يهودي وموحد ومسلم ومسيحي تابع لكنيسة روما ومسيحي من أنصار لوثر وأبيقوري وموحد بالله غير متدين بدين فانتهى منه على ترك الجدل في العقائد الدينية والتلاقي بينهم بالله غير متدين بدين فانتهى منه على ترك الجدل في العقائد الدينية والتلاقي بينهم

جميعاً على سهاحة في أمور هذه الحياة الدنيوية .

وتوماس هوبــز الإنجليزي Thomas Hobbes (١٦٧٩ - ١٩٨٨) قد حضر الثورة التي قادها كرومويل وكان معلما للملك شارل الثاني ، وبني فلسفة الحكم على ما استخلصه من القوانين الطبيعية في زعمه ، وفحواه أن الفعل ورد الفعل هما مداركل حركة في الطبيعة ، وأن تدافع الناس في المجتمع هو مدار السياسة ، وأن العامل الاكبر في نفس الإنسان هو حفظذاته ، ومن أجل حفظ الذات يطلب القوة ويطمع في الغلبة على غيره . فمن هنا كانت الحالة الطبيعية بين الناس حالة حرب لا أمان فيها لاحد على نفسه ، وهذه هي الحالة التي تضطرهم أن يسلموا مقادهم إلى الدولة لحماية بعضهم من بعض وتمكينهم جميعاً من استخدام حقوقهم الطبيعية التي يتعذر عليهم استخدامها بغير دولة حاكمة ، وهذا التسليم منهم أبدى لا رجعة فيه ، إذ كانت الرجعة فيه نكسة إلى فوضى الهمجية التي لجأوا منها إلى سيادة الدولة فلا يجوز استرداد هذه السيادة ممن تولاها ، ولا يحق لاحد من الرعايا أن يعترض عليه ، فإن إرادته قانون وقانونه هو مناط الاخلاق ، ولا قيمة لعهد لا يحميه سيف ، فلن تصل العهود إلى مدى أبعد من حد السيف الـذي يرعاه ، ومتى عجز صاحب السيادة عن حياطة الرعية وتغليب سلطان الشريعة فذلك هو الحد الذي تنتهي إليه سيادته ويستدعي الرعية إلى تسليم هذه السيادة لغيره .

ويأتي جون لوك الإنجليزي Jhon Locke (١٧٠٢ - ١٧٠٢) عقب هوبنز بجيل واحد فينقض مذهبه في الحرب الطبيعية ويقيم في مكانها طبيعة الاجتاع والتضامن الاجتاعي ، ويعتبر ولاية الحكم وكالة عن الأمة تحاسب عليها ، فلا تصلح سياسة الأمم إلا بمحاسبة الرعية لولاتها واعتبار الحكومة مسؤ ولة أمام شعبها ، وينقض لوك مذهب هوبز في نشأة القانون كها ينقض مذهبه في السلطة الحكومية ، فالأخلاق هي التي توجد القانون وليس القانون هو موجدها قبل وجودها ، ولا حد لحرية الانسان في عمله ولا في ملكه إلا الحد الذي يكفل لغيره حقوقا مثل حقوقه ، وخير الحكومات عنده هي الحكومة التي تنفصل فيها السلطات وتجري على النظم الدستورية ، ووظيفتها الكبرى هي حماية الحرية السلطات وتجري على النظم الدستورية ، ووظيفتها الكبرى هي حماية الحرية

وحماية الملك والثروة .

ويلي جون لوك في التاريخ البارون دي مونتسكيو الفرنسي Montesquieu (١٦٨٩ - ١٦٨٩) صاحب كتاب روح القوانين ، ومذهب قائم على تفسير القوانين بعوامل الاقليم وأثرها في معيشة السكان وعاداتهم ، ويحسب مونتسكيو من تلاميذ المدرسة الانجليزية في تفضيل الملكية الدستورية ، مع التوسط بين المحافظة والتطرف في الحقوق النيابية .

ويلي مونتسكيو جان جاك روسو الفيلسوف السويسري الفرنسي Rousseau (1۷۱۱ ـ ۱۷۱۸ ـ ۱۷۱۸) وكان معاصرا للفيلسوف الإنجليزي دافيد هيوم (۱۷۱۱ ـ ۱۷۷۸) Hume (۱۷۷۲ للدرسة الحديثة التي تعزو أعال المجتمعات إلى دوافع لدنية لا تخضع للتعقل في جميع الاحوال ، وأن رابطة الاجتاع نفسها عاطفية وليست بعقلية ، فليس هناك تعاقد معقول بين أبناء المجتمع ولكنهم يتعاطفون ويتنافرون بالحس والشعور ، وما من حكومة تدوم ما لم تكن مستندة إلى التقاليد التي تواضع عليها الناس ، ولو خرجت هذه التقاليد على المعقول .

وروسو يقتبس من هيوم في هذه الناحية ويناقش نظرية العقد الاجتاعي على أساس هذه الفلسفة ، ويجعل شعاره « عودا إلى الطبيعة » لان الفطرة أهدى من العقل وأجدى على صاحبها ، وأولى الناس بالاحترام عنده هم البسطاء الطبيعيون وهم كثرة الناس ، ولهم فوق ذلك حق الاحترام على اعتبار أن الناس جميعاً سواء بغير فارق في « الطبيعة » بين أبناء الطبقات المختلفة ، فكثرة العدد إذن هي المرجح للطبقة الدنيا مع تساوي الطبائع بين أبناء الطبقات ، فالناس طيبون فطرة ما لم تفسدهم الاسباب الصناعية ، وإرادتهم التي يسميها « الارادة العامة » هي قوام القانون والاخلاق .

وقد تعاقب الكتاب بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر على مبدأ واحد وهو مبدأ « السيادة الشعبية » والحكم النيابي ، فإذا كانت لبعضهم رسالة خاصة ففي مقدمة هؤلاء بنتام Bentham (١٨٣٢ - ١٨٣٣) وجون ستيوارت ميل Mill (١٨٧٣ - ١٨٧٣) أعظم الفلاسفة المحدثين الذين

اشتهروا بالنفعيين Utilitarianists النهم يردون أعمال الانسان جميعا إلى طلب السرور والمنفعة . فإن رسالته مذه قد كان لها شأن في تركيب كشير من الفلسفات التي تنظر في التربية والاصلاح الاجتاعي من ناحيتي الاخلاق والسياسة ، ويغلو جون ستيورات ميل في تقديس حرية الفرد حتى ليقول إن النوع الانساني لو خالفه فرد واحد لما كان حقهم قاطبة في إبداء رأيهم أصح من حق الفرد الواحد في إبداء رأيه ، ومع هذا الغلو في تقديس الحرية الفردية ، وذلك المذهب في تعليل الاعمال الانسانية بالمنفعة ـ يرى ميل أن جمهرة السواد تنشد منفعتها الظاهرة ولا تنشد منفعتها الحقيقية ، ولهذا يحسن أن تتبع في الانتخابات طريقة نسبية ترشح للحكم من هم أهل له بالعقل الراجح والخلق المتوراة المستمدة من الثقافة والمرانة .

ثم ظهر في النصف الأخير من القرن التاسع عشر مذهب المادية الثنائية لصاحبه كارل ماركس Marx (١٨٢٠ - ١٨٨٣) وفردريك إنجلز Engels (١٨٨٠ - ١٨٩٥) وهو مذهب له شطران : شطر في فلسفة ما وراء الطبيعة وشطر في فلسفة الاقتصاد والساسة

فلسفة الاقتصاد والسياسة .
ففيا وراء الطبيعة تقرر المادية الثنائية ان المادة يتولد منها ضدها ثم يتولد منها تركيب واحد لا يلبث ان يخرج من ضده ، وتطبيق هذا المذهب على المجتمع الانساني يدل على أن نظام المشاعية الاول قد خرج منه ضده وهو نظام الاقطاع ثم خرج من هذا ضده وهو نظام الطبقة الحضرية أو الطبقة الوسطى التي عرفت بالبرجوازية ، وأن هذه البرجوازية تخلي مكانها لنظام رأس المال ثم يتبعه النظام الذي يستولي فيه العال على الحكم فتنقطع الاسباب التي أنشأت الطبقات مع الاجتاعية ، لانها قائمة على استغلال بعض الناس لبعض فلا محل للطبقات مع بطلان الاستغلال .

اما الفلسفة الاقتصادية فمحصولها أن الانتاج الاقتصادي هو أصل كل سلطة وأصل كل عرف وعادة ، وأن الطبقة التي تتسلم زمام الانتاج الاقتصادي هي التي تضع القوانين والآداب التي تخدم مصالحها ، وسيأتي اليوم الذي يفلس في نظام رأس المال لما فيه من التناقص المتأصل في تكوينه ، فيؤ ول زمام الانتاج الى العاملين اللذين يديرون الآلات المنتجة ، وتسفر الفترة التي تنقضي في

« الدكتاتورية الشيوعية » عن حكومة عالمية لا سيد فيها ولا مسود ولا مالك فيها ولا أجر .

ولم يبين كارل ماركس ولا أصحابه: لماذا تكون كل طبقة ضدا لما قبلها ولا تكون مختلفة منها مجرد اختلاف، ولم يبين كذلك كيف يساس المجتمع بعد الدكتاتورية الشيوعية وكيف يمتنع التبديل والتعديل في النظام السياسي ما دام للنوع الانساني بقاء على هذه الغبراء.

بعد هؤ لاء الفلاسفة الاقدمين والمحدثين لم يظهر من فلاسفة الحكم من يعرف له مذهب مذكور غير هذه النخبة التي لخصنا نماذج آراثها في هذه الرسالة ، وقد أغفلنا بالبداهة أصحاب مذهب الفوضى لان مذهبهم في فلسفة الحكم هو إلغاء جميع الحكومات .

ومزية الفلاسفة المحدثين على الفلاسفة السابقين أنهم قد وضعوا مذاهبهم مستفيدين من جميع المذاهب ومن جميع التجارب ، ومستفيدين معها من كشوف العلم الحديث في طبائع النفس البشرية آحاداً وجماعات ، ومن كشوف العلوم الاجتاعية والاقتصادية التي كانت مجهولة قبل بضعة أجيال .

وإذا أردنا أن نجمل الفارق بين القدامي والمحدثين في مدارس الفلسفة الحكومية فالفارق الواضح بينهم أن الاولين أكثر اقتراحا وأكثر تعويلا على عمل العقل في الحياة الإنسانية وأشد من لاحقيهم تعلقا بالمجتمعات المثالية التي تسمى بالطوبيات Utopias وأن المحدثين يقل في فلسفتهم الاقتراح والتعويل على عمل العقل ، ويكثر وصف الواقع والتعويل على الدوافع النفسية .

وسيرى القارىء أنهم جميعاً يخطئون وأنهم جميعاً يصيبون ، وأن مسألة الحكم مسألة تنتقل بها الحلول من عصر إلى عصر في الغيب المجهول . . والعلم بمواطن الخطأ والصواب منها أفضل وأسلم من الجهل بها على كل حال .

جورج سوريل ۱۹۲۲ - ۱۸٤۷

George Sorel

كان جورج سوريل من المعمرين كمعظم زملائه من فلاسفة الحكم في العصر الحديث ، فامتدت حياته من سنة ١٨٤٧ ـ إلى سنة ١٩٢٢ ووقعت في خلال هذا الغمر حرب السبعين وتأسست الدولة الالمانية وتداولت فرنسا أنواع مختلفة من الحكومات ، ثم نشبت الحرب العالمية الاولى وقامت بعدها حكومة شيوعية في بلاد روسيا القيصرية . فاستطاع سوريل أن يقرن بين مشاهدة الوقائع ومطالعة التواريخ ومذاهب السياسة التي كانت في إبان رواجها حوالي الزمن الذي بلغ فيه سن العمل والتفكير ، فبنى مذهبه على ما استخلصه من المشاهدة والمطالعة ، وكان يقول إنه يطالع ليمسح من ذهنه بعض ما تعلمه في صباه ، فهو يطالع لنسيان بعض القديم كما يطالع لتحصيل بعض الجديد .

ويعتبر سوريل أستاذاً لكثير من الكتاب في فلسفة الحكم والسياسة ، ومنهم باريتو وميشل اللذان كتبنا عنهما في هذه الرسالة ، وكان موسوليني يقول : « إن الذي جعلني أنا ما أنا لست مدينا به لنيتشه ولا لوليام جيمس ، بل لسوريل » ومن عجائب الخصائص التي امتاز بها سوريل أنه يصلح أن يكون أستاذاً

لاناس يخالف بعضهم بعضا مخالفة النقيض . . لانه في طوية نفسه محافظ متمرد ، ويتوقف على فهم هذه الطبيعة فيه فهم كل ما آمن به وكل ما أنكره من المعتقدات والاخلاق .

كان فرنسيا من النورمانديين ، فيه ما فيهم من طبيعة الجد والمحافظة ، فهو لا يتمرد لانه يحب الإفلات من الواجبات والمأشورات ، بل يتمرد لانه يقدس الواجبات والمأثورات ويشمئز من التبذل والاباحة والانطلاق مع الشهوات والصغائر ، ولعل استقامته في حياته الزوجية مثل فريد بين الاكثرين من دعاة الثورة وأنصار التجديد .

ويمكننا أن نعرف الطريق التي تنفتح أمام هذا الثائر المتمرد إذا عرفنا الآراء التي كانت طاغية في زمانه على الافكار ، فهناك نزعة تمرد أمام كل رأي طغى على سائر الآراء ، ومن ثم كانت ثورة سوريل على سذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية ، وثورته على الشيوعية الماركسية كذلك .

ولد سوريل في شربورج وتعلم في مدارسها ثم تخرج من مدرسة الصناعات والفنون بباريس واشتغل بهندسة الطرق والقناطر إلى أن بلغ الخامسة والاربعين وحصل باجتهاده وأمانته على وسام فرقة الشرف ، ثم ثقلت على نفسه آفات الفساد والاختلاس فترك الهندسة وعول على الدعوة إلى إصلاح المجتمع من حيث يقدر له الصلاح .

وران على ضميره شعور الاشمئزاز فملكته فكرة الانهيار والتداعي ، فراح يكتب عن تداعي العالم الحديث كها يكتب عن تداعي العالم العديم ، وليس أكثر في كتاباته من كلهات الانحلال والانحطاط والخراب مقترنة بوصف النظم الاجتاعية التي وجب في عرفه أن تنهدم أو تزال كها تزال الانقاض .

واتفق أنه تصدى للسياسة والفرنسيون خاصة يتحلثون عن آخرة الزمن Fin de siècle لاقتراب نباية القرن التاسع عشر ، كأنما هم يتحدثون عن اقتراب يوم القيامة! فوافقت هذه النغمة شعوره بانحلال كل شي وحاجة كل شي الى اعادة الناء .

وقد أسلفنا أن الافكار الطاغية في كل زمن من الازمان تدلنا على الوجهة التي تنفتح بطبيعتها أمام المتمرد في ذلك الزمن . ولهذا تمرد سوريل ـ كها أسلفنا ـ على مذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية .، كها تمرد على الشيوعية الماركسية .

ففي أواخر القرن التاسع عشر بلغ مذهب داروين أوجه من الشيوع بين المفكرين فاستهوى إليه الباحثين والمتكلمين في المجالس عن محدثات العلوم، وكان المذهب كها شاع يومئذ يقوم على نظرية تنازع البقاء ونظرية التقدم والارتقاء، وهو خطأ في ترجمة كلمة التطور وقع فيه القراء الاوربيون كها وقع فيه قراء المشرق في أوائل عهدهم بهذه النظريات، لان التقدم Progress لا يلزم من القول بتطور الحياة وتطور الاشياء على العموم.

أنكر سوريل كلتا النظريتين . فقال بتنازع القوة والسيادة بدلا من تنازع البقاء ، وقال بالدورات التاريخية بدلا من التقدم المطرد في أدوار التاريخ ، وقد رجع في الايمان بإرادة القوة إلى نيتشه ورجع في القول بالدورات إلى فيكوVico الذي يقول بنكسة الحضارة إلى البربرية وتجدد الحضارة كرة أخرى من غمرة البربرية دواليك على طول الزمن إلى غير انتهاء .

وكان العلم الحديث قد أرسل معاوله لهدم كل معتقد قديم ووقر في أذهان بعض أنصاره أنه قادر على تفسير كل سر من أسرار الطبيعة والنفس البشرية ، وقادر على إصلاح كل عيب من عيوب الاجتماع .

وبدأ رد الفعل على هذه الدعوى في إبان الوقت الذي تحول فيه سوريل من الهندسة إلى السياسة ، فثار على دعوى العلم بل ثار على العقليين الذين يعالجون مسائل الاخلاق ومشكلات الاجتاع كأنما هي كلها قضايا عقلية تخضع للمنطق والتعليل ، ووافقت ثورته هذه ظهور مذهب برجسون القائل بدفعة الحياة وظهور مذهب وليام جيمس القائل بأن « العمل الواقع » هو مقياس الحقيقة ، وامتزج المذهبان في رأي سوريل فأنحى على الفلاسفة الاقدمين والمحدثين الذين وامتزج المذهبان أن الاقتاع كاف للإصلاح وأن الاخلاق منوطة بتعريفات العقول والعلوم ، وعد من عيوب المجتمع « البرجوازي » أو مجتمع الطبقة الوسطى أنه يعتمد على الإقناع في جميع الامور ، ولا يلتفت إلى الفضائل الحيوية وبواعث العمل من أجهاق السرائر والطباع .

وكفر سوريل بالاحزاب البرلمانية جميعاً ، وطـوى لبـه على إيمــان لا يتزعـزع

باستحالة الإصلاح والانقاذ على يد حزب من هده الاحزاب ، وزاده إيمانا بذلك أنه خاض معركة الدفاع عن الضابط دريفوس فلم يلبث أن لمس بنفسه كيف يعرض المسخ لكل حركة نبيلة في معترك السياسة ومنازعات الاحزاب ، وأيقن أن الجمهور الغالب بين سواد الناس لا ينساق لدعوات النبل والاريحية ولا تجدي غاطبته بهذه الدعوات على اي نحو من الانحاء ، وإنما تجدي الدعوة إلى الاريحية النبيلة إدا خوطبت بها نخبة مختارة من المطبوعين على الإقدام والمفاداة ، وخرج من النبيلة إدا خوطبت بها نخبة مختارة من المطبوعين على الإقدام والمفاداة ، وخرج من تعقيبه على تواريخ النهضات جميعا بفكرة لازمته طوال حياته ، وهي أن نهضات الاديان والحضارة كانت على الدوام من عمل نخبة قليلة فائا تفرض مشيئتها على الكثرة الكبرى فتنقاد لها كها ينقاد القطيع لرائده أو لراعيه .

واشترك سوريل في السياسة العالمية آيام الدعوة إلى السلام وفض المشكلات بالتحكيم والوئام ، فنفرت نفسه من هذه الدعوة لانه اعتقد أن آفة الانسانية في زمانه هي الاستكانة إلى الدعة ، والركون إلى الرغد والرخاء ، وتهيب الإقدام على أخطار البطولة والفداء ، وهي الأخطار التي لا غنى عنها لاستنقاذ الملجتمع البشري » من الإسفاف والابتذال والنهوض به إلى المثل العليا وعظائم الطموح والامال الجسام .

* * *

ولا يكتم سوريل أن آراءه هذه في مجملها تنم على التشاؤم وأنها صريحة في السخط والنقمة ، بل هو يجهر بتفضيل التشاؤم على التفاؤ ل ويزعم أن المتفائلين لا يعملون شيئاً لأنهم يتخيلون أن الحوادث تجري في مجرى الصلاح والأمل بغير حاجة إلى جهود المصلحين وذوي الآمال البعيدة ، وقد غلا في تشاؤ مه أحيانا من غباء الجماهير التي يريد إصلاحها كها قدمنا ، وكان طوال حياته من أنصار الكاتب المعروف لقراء العربية جوستاف لوبون الذي يقرر أن الجماهير تبعد السادة ولا تبرح على استعداد للإقبال على « قيصر » يروعها بقوته وجبروته ، ولم يكن هو يكره أن تلتف الجماهير حول « قيصر » يلهب حماستها ويستنهضها لغايتها ، ولهذا جنح فترة من الزمن (١٩١٢) إلى حزب اليمين المتطرف الذي الشهر باسم « أكسيون فرانسيز » وينكر المجالس النيابية في صورتها بالعمل والقوة ويقدم النظام على الحرية وينكر المجالس النيابية في صورتها

الحاضرة ، ومن الواجب أولا في عرف سوريل أن تنصرف الجماهير عن لغط الديمقراطية وتلتف حول راية واحدة ، ثم تسعى بها النخبة المختارة إلى غايتها المنشودة .

أما هذه الغاية المنشودة فهي موضع الافتراق بينه وبين أصحاب المذاهب الاخرى . فهو مع إقباله على مذهب كارل ماركس في أوائل شبابه يخالفه كل المخالفة في جدوى المساعي السياسية والاعتاد على الحكومة ، وهو كذلك يخالف الاشتراكيين النيابيين ويعتقد أن حكومتهم إذا قبضوا على زمام الدولة لن تختلف عن حكومات النبلاء أو الطبقة اوسطى .

إلا أنه مع مخالفته لكارل ماركس مدين بقوة العوامل الاقتصادية ويستند البها في اختيار الحركة التي تؤدي إلى الإصلاح . فلا بد من التعويل على طبقة اقتصادية لإنشاء المجتمع الجديد ، ولن تكون هذه الطبقة بالبداهة طبقة العلية لانها هي التي فسدت وجنت بفسادها على المجتمعات الحاضرة ، ولن تكون هي الطبقة الوسطى لان أوساط الناس يتحرون الامثلة العليا التي يتحراها علية الناس ولا يجدون في شؤون معاشهم موضعاً لفكرة جديدة يجرون وراءها لتقويض مجتمع وإقامة مجتمع في مكانه . فلم يبق إلا سواد الدهاء من الاجراء والمعوزين للنهوض بأمانة الرسالة الجديدة وراء هذه « النخبة المختارة » .

وعلينا أن نذكر دائها إعراض سوريل عن التفصيلات العلمية والبرامج المعقولة التي يتوخاها الطوبيون إذ يتوهمون أنهم مطلعون سلفا على كل خطوة من خطواتها في الحاضر والمستقبل . فأمثال هذه البرامج لا تقدم ولا تؤخر في حوادث التاريخ ، ولا يبلغ من أثرها أن تستجيش نفوس الجهاهير وتلهب فيها الحهاسة والنخوة وترتفع بها إلى التفدية والاستشهاد .

إنما اللازم في هذه الحالة خرافة أو أسطورة أو أمثولة أو فكرة ساحرة ، ولا يلزم عند عرض هذه الفكرة إلا أن تروق السامعين بصيغتها وتلقي في روعهم أنها قابلة للإنجاز في جملتها ، ومهمة النخبة المختارة هي توكيد هذه الفكرة بالتكرار والتعزيز والعمل الذي لا يحجم عن العنف إذا اقتضاه .

ويسمى سوريل هذه الفكرة « Myth » وهي في اللغات الاوربية تقابل الخرافة والاسطورة كما تقابل الشخص المتخيل أو المثالة التي يتمثلها من ينظر إليها ولا

يكاد يتبينها ، وقد اخترنا لها كلمة الامثولة لانها وسطبين معنى الفكرة ومعنى الخرافة . فإن سوريل لا يبلغ بمعنى الكلمة أن تكون فكرة قابلة للدرس والبرهان ، ولا يبلغ بها أن تكون خرافة يعلم السامع لها انها خرافة لا تثبت في عالم الواقع ، وقد قال في تعريفها إنها لا تقبل التنفيذ لانها مشروع عمل ومحاولة ، فكل ما يقال عنها إذا أخفقت أنها لم تتحقق اليوم وسوف تتحقق في المحاولة التالية .

والامثولة التي اختارها سوريل لتكويف الجهاهير حول السراية هي 1 إضراب عظيم » تتحفز نقابات العهال والصناع لإعلانه في وقت من الاوقات ، ولا ضير في تصويره لهم في صورة الواقع القريب .

وفحوى الأمثولة أن تعرض الطبقة الفقيرة عن الانتخابات وتنصرف بجهودها كلها إلى تنظيم النقابات وإعدادها ليوم ، الإضراب الاعظم ، متى نم لها أن تقبض على أزمة الإنتاج في المجتمع كله ، ويومئذ تضرب عن للعمل وتشل حركة الطبقة العليا والطبقة الوسطى وتبرم أمرها في إدارة المرافق العامة وتوزيع مطالب المعيشة بالمبادلة والمقايضة أو بأسلوب المعاملة الذي تمليه الضرورة في حينها .

أيكن هذا ؟

في رأي سوريل أنه يمكن ، ولكنه يرى أيضا أن المهم هو فعل (الامثولة) في نفوس المتمثلين به لا إمكان وقوعها بجميع أجزائها ، وقد يقع الإضراب الاعظم أو لا يقع على طول الزمن ، ولكنه ينفع في بلوغ غرضه ويؤ دي إلى نتيجة تهدي الى ما بعدها .

فالاماني التي أذاعها الحكيم الايطالي « ماتسيني » بين قومه كانت كأضغاث الاحلام في رأي النقاد « المعقولين ».. ولكن إيطاليا الحديثة لم تكن لتصبح شيئاً مذكورا في العالم الاوربي لولا تلك الاماني والاحلام.

وجنود نابليون بونابرت كانوا يقدمون على « الاستشهاد ، إيمانا بمجد البطولة ومجد الدولة ، وهم يعيشون ويموتون في فاقة لا ينفعهم فيها هذا المجد ولا ذاك .

وبعد فمن ذا الذي يسوغ له أن يدعي الجزم بما يكون أو لا يكون من أطوار الجماعات البشرية في المستقبل البعيد ؟

إنَّ العقائد الكبرى قد انتشرت بين أتباعها لانها ملأت قلوبهم بالثقة وعمرت

صدورهم بالامل ووافقت منهم دخيلة السخط على ما هم فيه ، ولم تنتشر لانهم عرضوا وعودها على موازين الاحتال فرجحت عندهم كفة الإمكان . . ويقول سوريل إن الدين الذي يوضح كل عقيدة بالعقل والبرهان يضعف ويتزعزع وإن الدين الذي يترك للغيب المجهول محلا من الضمير يقوى ويستقر ، وبهذا يعلل غلبة الكثلكة على اللوثرية في الديانة المسيحية .

يقول: إن البدعة الحديثة التي جاء بها القرن التاسع عشر قد خيلت إلى جاء بها القرن التاسع عشر قد خيلت إلى جاءات المتعالمين أن العلم التجريبي قادر على شق الحجب والنفاذ إلى غياهب المستقبل: « ولان الفلكيين سجلوا جداول القمر ترى المتعالمين يتوهمون أن غاية العلم كله هي استطلاع المجهول بدقائقه وخفناياه ، ولان فرييه Verrier قد استطاع أن يوميء إلى موقع السيار نبتون الذي لم يكن مرئيا قط وكان فرض وجوده مفيدا في تعليل الاضطراب على السيارات المرئية - ترى المتعالمين يتوهمون أن العلم قادر على إصلاح عيوب المجتمع والايماء إلى الخطط التي تزيل المساوىء من هذه الدنيا . ومن الجائز أن نعتبر أن هذا هو تصور الطبقة الوسطى للعلم وأنه على التحقيق يطابق المنزعة الفكرية التي هيمنت على رؤ وس أصحاب الاموال حين رأو أنهم - مع عجزهم عن الإحاطة بشؤ ون مصانعهم - يجدون على الدوام المخترع الالمعي الذي يخرجهم من ورطاتهم ، وكأنما كان « علم الطبقة الوسطى » طاحونا تخرج لنا حلولا لجميع المشكلات التي نلقاها في طريقنا ، الوسطى » طاحونا تخرج لنا حلولا لجميع المشكلات التي نلقاها في طريقنا ، فليس العلم إذن وسيلة من وسائل إتقان المعرفة ، بل هو حيلة لتحصيل بعض المنافع المطلوبة » .

وكذَّلك يتقي سوريل اعتراض العلماء والباحثين المحللين على فكرته العزيزة التي ساهم بها في حركة الثورة النقابية ، وهي الإضراب الاعظم .

ونقول إنه ساهم بها في الحركة النقابية لان الحركة النقابية في ذاتها كانت قائمة منتشرة قبل انتائه إليها ، ولكنه برز فيها لانه اشتهر بتوكيد أمثولة الإضراب الاعظم وساعد على تدعيم الحركة النقابية بنظريات الفلسفة وعلم الاجتاع ، وقد أراح نفسه وأراح أصحابه من مؤ ونة المناقشة والجدل حول هذه الامثولة ، فتقرر لديه أن العلم مخطىء في ادعائه الإحاطة بما ينجم عن التبشير بالإضراب الاعظم ، ، ولكن المبشرين به غير مخطئين لانهم على يقير، من إنجاز شيء على سنة

العمل والتغير التي حلت في اعتقاده محل سنة التقدم والارتقاء .

وقد أسلفنا أن الرجل صالح لان يتتلمذ عليه المتفقون والمتناقضون ، ولعمل طبيعة الحركة النقابية نفسها ترشحها للالتقاء بكثير من المذاهب على فرط ما بينها من التناقض والافتراق .

فهي تلتقي بالفوضية لانها تنكر الحكومة وتنفي عن برنامجها استخدام الجند والشرطة في مجتمعها الذي تسوده بعد نجاحها ، وتصر على أنها إذا بلغت من القوة أن تستخدم الجند والشرطة فقد بلغت من القوة ما يكفي لإدارة المجتمع بالنقابات دون غرها .

وهي تلتقي بالشيوعية لانها تؤلب الاجراء والفقراء وتعتبر الحرب بين الطبقات أصلا من أصول الاطوار الاجتاعية .

وهي تلتقي بأحزاب اليمين المتطرفة لآنها تحارب الديمقراطية والحكومة النيابية وتكل الامر إلى النخبة الممتازة دون الكثرة المغمورة .

بل هي تلتفي بللصلحين السياسيين من رجال الكنيسة الذين يقترحون الحكومة التعاونية Corporative State لحل مشكلة الطبقات ، فإن التعاون يقوم في بدء الامر على نتابات .

ولا يرى أحد من المطلعين على مساعي الدعاة الاجتاعيين والسياسين ـ ما ظهر منها وما بطن ـ أن الحركة النقابية تتقدم في العالم وتؤذن بالامتداد والانساع ، فربما كان أهم سبب للهتاف باستمها أن النقاد نسبوا نجاح الفاشية الايطالية والنازية الالمانية إليها ، وزعموا أن موسوليني طبق نظام النقابات في مجلسه النيابي تنفيذاً لآراء سوريل الذي أعلن غير مرة أنه من تلاميذه !

بيد أنه « نجاح معكوس » أن ينتهي إنكار الحكومة إلى تركيز السلطان كله في أيدي الحكومة ، فربما كان القول بإفلاس النقابية لهذا السبب أصح من القول بنجاحها لاجله ، ولا سيا بعد انهيار الفاشية والنازية وبعد تجربتهما في الدولتين على أوسع نطاق .

والظاهر أن (النقابية » مبتلاة بداء أصيل يتعذر شفاؤه ، إذ هي تصاب مما يبدو أنه موطن القوة فيها . فعلة فشلها لاصقة بعلة رواجها لا تنفصل عنها إن من شواهد القوة ـ في الظاهر ـ أن تلتقي المذهب بعدة مذاهب تتناقض فيا بينها كها تتناقض الفوضية والشيوعية أو الفاشية والحكومة الدينية ، ولكن هذا بعينه هو مكمن الضعف في المذهب حيث التقى وحيث افترق ، إذ هو يتشعب ويتوزع ولا يصيب قوته كلها في اتجاه واحد ، فله ممن يؤ يدونه من جهة محاربون مستميتون في حربه من جهة أخرى ، كلما وصل إلى الفعل الحاسم والتنفيذ الاخرر .

وإذا جاز الاخذ بالارقام المسجلة في أسانيد المصانع وأسانيد الهيئات الشورية فهذه الارقام تدل على تناقض النقابيين في جميع البقاع التي ظهروا فيها ، وكأنما يطرد النقص في عددهم ورواج دعوتهم في كل قطر تقدمت فيه الصناعة والحكومة النيابية . فهم على حظ من الرواج في أمم أمريكا اللاتينية وكانوا على حظ من الرواج في أسبانيا الجمهورية ولكنهم يتأخرون ولا يتقدمون بين صناع الولايات المتحدة والجزر البريطانية .

ففي الولايات المتحدة نشأت طائفة من العمال على غرار النقابات الفرنسية وسميت هناك « باسم عمال الدنيا الصناعيين » وهي الطائفة التي يشار إليها بحروف (i. w. w) اختصاراً لاسم Industrial Workers of the World ولكنها لم تلبث أن عكفت على نفسها وانعزلت عن صفوف الحركة العمالية في أنحاء الولايات من أقصاها إلى أقصاها ، فبقي فيها الطارئون المهاجرون وقيل على سبيل الفكاهة إن عمال أمريكا طبقتان : طبقة أرستقراطية وهي التي اشتملت على هؤ لاء الطارئين على المحنكين الاصلاء وطبقة عامية وهي التي اشتملت على هؤ لاء الطارئين الغرباء ، وقد أصاب الفرع الكندي والفرع الاسترائي ما أصاب زملاءهم في الولايات .

أما الجزر البريطانية فالذين بقوا من عها لها خارج النقابات التي تدين بالجهود البرلمان لا يزالون في الوقت نفسه خارج النقابات الثورية التي تذكر البرلمان والحكومة ، وقد اتخذوا لهم عنوانا آخر باسم الاشتراكية النقابية Guild Socialism وخالفوا النقابين الثوريين في إنكار الحكومة معلنين أن بقاء الحكومات لا يضير المصنع » إذا اشتغل بإدارته على الاصول الاقتصادية .

وسوريل نفسه قد ختم حياته وهو على يأس من النقابيين الثوريين فاعتزلهم واعتزلوه ، وشيعته الصحافة الشيوعية الرسمية بأوصاف لا ترضي تلاميذه من

قبيل: « الرجعي والبرجوازي والفوضي والبرودوني ـ نسبة الى برودون Proudhon ـ اذاكرة له فقط أنه كان يعمل على إضرام الثورة ما استطاع. ولم يكن الرجل ذا وجهين باختياره، ولكنه كان على الرغم منه ذا وجوه شتى يلاقي بها أقصى اليسار وأقصى اليمن، فأدركه حظ من تعددت وجوهه، فلم

يكن وجيها عند هؤ لاء ولا هؤ لاء .

باريتو

Pareto

1974-1781

قلفريدو فردريكو داماسو باريتو هو وريث أسرة إيطالية نبيلة ، كان أبوه من أنصار « ما تسيني » إمام الوطنية الايطالية وأقام زمنا في فرنسا فتجنس بالجنسية الفرنسية وقضى حياته منتصرا للمبادىء السياسية المتطرفة ، وولد له ابنه « باريتو » صاحب المذهب الذي نحن بصدده في باريس حيث نشأ وتعلم وتخرج من مدارسها ومدارس تورين .

وقد خلف باريتو أباه في هندسة السكة الحديد الايطالية ، ثم اشتغل بهندسة المناجم وعكف في أثناء ذلك على مذاهب الفلسفة الحديثة وأهمها في إبان نشأته مذهب أوجست كونت إمام المدرسة الوضعية ، وقد خرج من دراساته وتجاربه مناقضا لرأي أبيه في إيمانه بمادىء الحرية المتطرفة ، فكان من أنصار حرية التجارة ولكنه كان يشعر بخيبة الامل من جراء إخفاق الحكم الديمقراطي في بلاده وفي بعض الامم الاوربية الاخرى ، ولما أعياه تقرير مذهبه في الاقتصاد وفي السياسة بين أبناء وطنه تحفز للهجرة منه ولبي أول دعوة وصلت إليه من سويسرة لتعليم الاقتصاد السياسي بجامعة لوزان ، وهناك توفر على بحوث الاقتصاد ثم على التوسع في دروس الحكم واستخلاص القواعد التي تقوم عليها النظم الحكومية ،

وانتهى منها بالرأي المفصل الذي شرحه في كتابه الضخم المترجم إلى اللغة الإنجليزية باسم العقل والمجتمع Mind and Society ويعتبر باريتو أعلم هذه الزمرة من فلاسفة الحكم في العصر الحديث، فهو على علمه بالرياضة صاحب نظريات وتعريفات في علم الاقتصاد عن القيمة والدخل والطلب ورأس المال والسعر يعول عليها الاقتصاديون ويحلها الموافقون لها والمتشككون فيها محل الاعتبار، وكتابه الذي تقدم ذكره أوفي الكتب مراجع من أمهات التواريخ والثقافات الغابرة والحاضرة، وأحفلها بالاسانيد والامثلة والقرائن التي عني بتقسيمها وتبويبها على نهج المناطقة والعلماء التجريبين، فهو في مجلداته الأربعة الضخام أوفى كتب الفلسفة السياسية التي وضعها الاقدمون أو المحدثون إلى اليوم.

ومع شغف الرجل بوضع القوانين وتسمية النظريات لم تغرر به الثقة إلى الجزم بعصمة القوانين التي تتعلق بأطوار المجتمعات الإنسانية . ففي وسعك أن تقول إن التاريخ يكرر نفسه كما في وسعك أن تقول إنه لم يكرر نفسه قط على حسب الواجهة التي أنت ناظر اليها ، فإذا نظرت إلى جوهر العوامل التاريخية فهناك تكرار لا شك فيه ، وإذا نظرت إلى العوارض الظاهرة فليست هناك عارضة تشبه غيرها كما تشبه النسخة من الكتاب نسخة أخرى ، ومن كلامه في تقديم نظرياته : « إن القوانين التي تسمى بقوانين العرض والطلب لا يمكن أن تستخلص من الإحصاءات وفاقا للمقادير والأثمان التي ترصد لبضاعة ما مجلوبة يقررون قانونا عن حالة مثالية ينذر أن تشاهد في عالم الواقع ، ويجب أن نلاحظ في تطبيق نظريات الاقتصاديون إن زيادة الغرض تؤدي إلى هبوط الثمن فهم يقانون العرض والطلب مما نكون حين البله بقانون الاستعمال والمنفعة الذي بقانون العرض والطلب مما نكون حين البله بقانون الاستعمال والمنفعة الذي وغيرها من قوانين الاقتصاديين المتأخرين ، ومهما نصنع فنحن في النهاية راجعون وغيرها من قوانين الاقتصاديين المتأخرين ، ومهما نصنع فنحن في النهاية راجعون وغيرها من قوانين الاقتصاديين المتأخرين ، ومهما نصنع فنحن في النهاية راجعون إلى الواقع عير ذلك ».

ولى التطبيق التفرقة بين القوانين التي يثبتها التطبيق طردا وعكساً كقانون الحاذبية في الفلك مثلا وبين القوانين التي تبنى على حشد الأمثلة والمقارنات

وتلجئنا إلى الخوض في كثير من المشابهات والمفارقات ، ثم تؤخذ الحقائق فيها بالتغليب في غيبة ما هو أولى منها بالاعتاد عليه.، وأصدق منها في تفسير العدد الاكبر من الوقائع والاطوار .

بذلك الاطلاع ، ويهذا التحفظ ، تقدم « باريتو » إلى شرح نظريته المستفيضة في نظم الحكومة ، وهذه خلاصة منها كأوجز ما يمكن أن تلخص ألـوف الصفحات في بضع صفحات صغار .

* * *

أول ما يقرره باريتو أن أعمال الإنسان لا تقترن كلها بالتعقل ولا بمعرفة الاسباب ولا تكون الاسباب التي تعزى إليها هي الاسباب التي توحيها ، ولا سما الاعمال التي تدور عليها سياسة المجتمعات .

فهناك أعهال تعقلية أو منطقية ، وهي الاعهان التي لها غايات معلومة ووسائل مرسومة ، كالمنضدة يصنعها النجار ، والكتاب يصنفه المؤلف ، والقصر يشيده البناء ، والصورة ينقشها الرسام .

وهناك أعال لا تخضع للتعقل ولا يتابعها التعقل إلى نهاياتها ، ومنها السعي إلى الامثلة العليا ، أو أحلام السعادة الابدية ، أو الانظمة المثالية في المجتمعات ، أو ما شاكلها من المطالب التي لا تتضح غاياتها ولا تتفق العقول على وسائلها . ونحن في الاصطلاح نسمي الاعمال الاولى بالمنطقية ونسمي الاعمال الشانية باللدنية أو الغريزية ، ونفضل اللدنية لان الغريزة قد تتصل كثيرا بالمعقولات . ولهذه الاعمال جميعاً من النفس البشرية مصدران : مصدر الجذور ومصدر المشتقات .

فالجذور قلما تتغير من زمن إلى زمن ، والمشتقات هي التي تتغير بالاسماء والتعبيرات الكلامية والفنية ، ويكثر تغييرها عندما يزول نظام من أنظمة الحكم ويخلفه نظام آخر ، فلا بد لكل نظام من مشتقاته ومصطلحاته ، مع بقاء الجذور في الغالب على ماكانت عليه .

والجذور على الدوام هي المصدر الاكبر للاحداث السياسية ، فإنما المشتقات تفسيرات لا يهم كثيراً أن تتفق أو تختلف ، ما دامت الجذور هي الاساس المكين . لهذا يتفق في التاريخ أن تعترف الامم بغاية واحدة ودين واحد ولكنها تتناحر فيا

بينها كأنها متشعبة المقاصد متناقضة الآمال ، لان مقاصدها وآمالها هي المشتقات العرضية ومن ورائها الجذور الكامنة على الدوام بغير تبديل .

وكذلك يتفق أن تتفرق الامم شعارا ومقصداً وتجتمع في صف واحد أمام عدو واحد ، لأن حركاتها تصدر من جذورها ، وجذورها على وفاق عند انقسام الاصدقاء والاعداء .

وقد عرض باريتو ألوف الحوادث والصروف التاريخية والدوافع النفسية ثم ردها جميعا إلى ستة أنواع من الجذور .

النوع الاول سليقة التوفيق Combination وهي السليقة التي توحي إلى الإنسان أن يوفق بين كيانه وبين مؤثرات الكون الذي يعيش فيه ، ويصدر عنها السحر والاعتقاد في بعض النجوم أو الارقام أو الطوالع والبخوت ، كما يصدر منها ربط الوقائع العلمية وربط المشروعات الكبرى وكل محاولة لتقرير مركز الإنسان بين ما يحيط به من المؤثرات والآثار .

والنوع الثاني سليقة المثابرة والصيانة Group Persistences وهي الكفيلة بحفظ تلك التوفيقات والغيرة عليها والدفاع عنها ، وإليها ترجع المحافظة على تقاليد الاسرة والامة وضروب العقائد والعادات .

والنوع الثالث سليقة التعبير بالكلام والعمل ، وإليها يرجع الاعراب عن شكايات المجتمع ومقترحات الإصلاح والنقمة من خروج بعض الناس على التوفيقات والتقاليد والاجتهاد في ردهم إلى ما يعتبره العرف سواء السبيل.

والنوع الرابع سليقة العلاقات الاجتاعية ، وإليها يرجع عرف الناس في صلات بعضهم ببعض آحادا وأسرا وطوائف وطبقات وهي سليقة وثيقة الارتباط بالنوعين الاولين .

والنوع الخامس سليقة السلامة وهي تتعلق بفرد فرد من آحاد المجتمع ، ثم هي سليقة يحكمها العرف والعادات ، ولاجلها يتشبث كل عضو من أعضاء المجتمع بسلامة حوزته ويعقد الصلة بينها وبين معالم الحياة الاجتاعية خشية ما يصيبه في سلامته من جراء المساس بتلك المعالم ، عدا ما يساوره من الغيرة على معالم الاجتاع بغير نظر إلى سلامته (الشخصية) .

والنوع السادس سليقة الجنس ، والمقصود بها عرف السليقة الجنسية لا مجرد

الرغبة المتبادلة بين الجنسين ، وعن هذه السليقة تصدر الطواطم الاجتاعية والمحظورات وقضايا الاخلاق وما يصح أن يسمى بالعقد النفسية في الجماعات والآحاد وخرافات الحمل والولادة وخصائص الذكور والإناث والابناء والبنات .

* * *

تتجمع هذه الجذور ـ متحدة أو منفصلة ـ في أساس كل حركة سياسية تشمل المجتمع في حالتي المحافظة أو التجديد ، وهي كما تقدم لا تتغير من جيل إلى جيل إلا في صورها وتعبيراتها الظاهرة وهي المشتقات والفروع .

وقد أحصى باريتو هذه المشتقات فأدخلها في أربعة أنواع: أولها هو مرجع الحكم الاجتاعية والقواعد السياسية التي يتخذها الناس قضايا مسلمة يرددونها أحيانا بغير بحث عميق في معانيها ، وقد تكون صحيحة أو غير صحيحة ، وقد تكون صحيحة في أوقات وغير صحيحة في أوقات أخرى ، ولكن المهم هو مريانها في العرف لا مقدار ما يتحراه القائلون بها من الصحة والتحقيق ، ومن أمثلتها قولهم : « في التأني السلامة وفي العجلة الندامة » و « الظلم مرتعه وخيم » و « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » و « الناس أكفاء أبوهم آدم وأمهم حواء » و « صوت الشعب من صوت الله » و « الإحسان منجاة من السوء » و « رأيان أفضل من واحد و رأي الثلاثة لا يخطىء » و « خير لك أن تصاب مظلوما من أن تصيب ظالما » ومانحا هذا النحو من حكم الاخلاق الاجتاعية التي يستشهد بها في المواقف السياسية ، وأقواها وأنفذها ما كان موجزا يسهل تكريره على صيغة واحدة .

والنوع الثاني من المشتقات هو الذي يوحي إلى النفس الاطمئنان إلى المصادر والأسانيد التي تستمد من أقوال المشهورين الموصوفين بالثقات ، فها قيل قد يما يتلقاه الخلف بالتسليم ولو لم يكن هناك برهان في الحاضر أو الماضي على صدقه وتجاح المعتمدين عليه .

والنوع الثالث هو المبادىء التي يحسن وقعها في الشعور أو توافق المقررات الشائعة في زمن من الأزمان ، وبهذا النوع من المشتقات يتمكن الدعاة من ترويج أقوالهم بما يسمونه « إرادة الشعب »أو « المصلحة العامة » أو « حرمة الوطن » أو

« حقوق الإنسان » أو د التضامن الاجتاعي ، وما إليها من العبارات التي يصحبها شعور مبهم بالموافقة والحماسة .

ورابع الأنواع هو المجازات والكنايات التي يختلط فيها الواقع بالتخيل والتقرير بالتشبيه والتمثيل .

وهذه المشتقات جميعا يطرأ عليها التغيير بين نظام ونظام من سلسلة الأنظمة الحكومية المتعددة ، والداعون إلى النظم الجديدة يعنون باستبدال مشتقات جديدة بالمشتقات القديمة التي يخشون أن تصدمهم وتعرقل حركاتهم كلما هجموا على تراث غابر طالت مدته وتسلل إلى الوعي الباطن في نفوس الجماهير ، ويعينهم في معظم الأحوال على تغيير المشتقات أن تقترن بالنظم الحكومية التي تتابع سخط الرعية عليها وما زالوا يتبرمون بها حتى فقدوا الثقة بقوال دعاتها أو سئموها وكرهوا تردادها ولو لم يفهموا بطلانها . إلا أن المشتقات الجديدة لن تخرج عن كونها صورا وتعبيرات لتلك الجذور الخالدة التي كمنت في الطبيعة البشرية ولازمتها على تعاقب الحكام والحكومات .

ويسال السائلون : لماذا تحدث الثورات وتتجدد الحكومات إذا كانت تقوم دائها على الجذور الكامنة في الطبيعة البشرية .

وجواب باريتو عن ذلك في كلمات معدودات هو قانون د تناوب الصفوة الممتازة لمقاليد الحكم بين الأجيال المتوالية » .

فمن الخطأ أن نتخيل أن الجهاعة البشرية تظل على حالة واحدة لأنها لا تخرج عن طبيعتها البشرية .

فالجهاعة البشرية خليط من الأنساب والأجناس والأمزجة والمدارك والمنافع والصناعات ، وقد تكون شر وطبقائها معروفة بالنسبة إلى الجهاعات الأجنبية التي تزاحمها ، ولكن الشروط الداخلية لا تستقر على حال ولا تطرد على نسق واحد بين جميع الأجيال .

فشرط البقاء في معترك الامم يتلخص في المناعة والقوة ، وبغير مناعة ولا قوة لا

أمان على الدولة من الضياع أو الخضوع لمن ينازعونها .

أما شروط البقاء للمجتمع في حياته الداخلية فهمي متقلبة متجددة ، وفقاً للتقلب والتجدد في تركيب عناصره وزيادة بعضها ونقص بعضها ، ونشاط فئة منها وانقباض فئة غيرها .

وقد كان من السهل أن نتوهم مصلحة واحدة للمجتمع الصغير في الأزمنة الغابرة ، وأن نتوهم أن كل مواطن في ذلك المجتمع يعمل مع إخوانه في اتجاه واحد هو الاتجاه القومي الشامل للمواطنين أجمعين .

أما المجتمعات الحديثة فربما كانت لبعض أبنائها مصلحة تناقض مصلحتها في أشد الأزمات التي تهدد كيانها ، كما يحدث في إبان الحروب من التناقض بين أنصار التضخم والغلاء وأنصار الحرب على العموم وبين سواد الرعية الذين يقع عليهم عبء الغلاء وعبء القتال .

ففي مجتمعات كهذه تتصارع القوى وتتدافع المطامع ولا ينقطع التنافس على مراكز الحكم بين ذوي الحول والحيلة وهم لا يصعدون إليها جميعا في كل آونة ، بل يحدث على الدوام أن يكون هناك أناس مقصون عن الحكم وهم قادر ون عليه ولا يقلون قدرة عليه عمن تولوه بالحول أو بالحيلة .

وفي كل مجتمع فئات من العسكريين ورجال الدين وكبار الأغنياء والمفكرين والمغامرين والمحتالين على قلة أو كثرة في العدد ، وعلى رجاحة أو نقص في المزايا الخلقية والعقلية ومن صفوة هؤ لاء كلهم تتالف الحكومة وتستثر بسلطان الحكم حتى تفقد مزاياها الأولى وتضعف عن حماية سلطانها فتخلفها على المهل أو على العجل صفوة أخرى يصيبها مع الزمن ما أصاب سابقاتها .

والأمثلة التاريخية التي يرى باريتو أنها تعـزز رأيه تستغـرق المئــات من الصفحات ، وقد تلخص في مثل عام يغني عن الإسهاب في السرد والتفصيل

فئة من الأقوياء يثبون إلى مراكز الحكم في حقبة مؤ اتية ، يستعينون بـ عوان من الدهاة واصحاب الحيلة على توطيده وحل مشكلاته ، ويضعف الأقـوياء كلما

استسلموا للطمانينة والمعيشة الرتيبة ، ويتهاون الدهاة كلها جازت الحيلة واستقرت عليها العقائد والعادات فلا يكلفون أنفسهم عناء التدبير والتفكير ، ومع ضعف الأقوياء والدهاة يسوء الحكم وتضطرب الحال وتتشعب مصالح الأشياع والخصوم ويتطلع إلى الحكم طراز آخر من الأقوياء والدهاة طال بهم التربص وانتظار الفرصة ، فها هي إلا أن تسنح لهم حتى يثبوا وثبتهم ويعيدوا عثيل الدور السابق كرة اخرى .

وبين الجذور الستة التي لخصناها فيا تقدم نوعان يرشحها باريتو لولاية الحكم في جميع الأدوار ، وهما النوع الأول الذي يشتغل بالتوفيق من سحرة وكهان ومفكرين وذوي احتيال وتصرف ويسميهم كها سهاهم مكيافلي بالثعالب ، والنوع الثاني الذي يشتغل بالمثابرة والصيانة ويركن إلى القوة والاقدام والطبع الغيور ويسميهم مثله بالأسود ، ولا خوف على الحكم ما دام له حماة من ذوي الحول والحيلة ، ولكنه شرط لا يتوافر على توالي الزمن ، فلا يسلم المقتدر بحوله أو بحيلته من جرائر التواكل والاههال ، ومن دأب أصحاب الحيلة أن يفقدوا الصفات الدهاء الصفات العسكرية ، ومن دأب أصحاب الحول ان يفقدوا صفات الدهاء والمداورة ، وجرصد لهم أناس يزيدهم التطلع همة ويزيدهم الأمل بأسا وشدة ، لا يقلون عنهم قدرة وقد يزيدون عليهم ، فتسنح لهم الفرصة لا محالة بعد انتظار يطول أو يقصر ولكنه لا يدوم إلى غير انتهاء .

« وهب أمة من الأمم لها صفوة حاكمة من النوع الأول الذي يشتمل على أوفر العناصر في الرعية قاطبة حظاً من الحنكة والذكاء . ففي هذه الحالة تتجرد الرعية على الأغلب الأعم من هذه المزية ويضعف أملها في الانتصار على الصفوة الحاكمة ما دام المرجع إلى الذكاء والحصافة . . غير أن المعهود على الأغلب الأعم أيضاً أن أصحاب الحيلة والذكاء يفقدون اليل شيئاً فشيئا إلى استخدام العنف والقوة والعكس بالعكس في أمر أصحاب العنف والقوة ، ومن ثم يؤ دي تركيز الذكاء في الأولين إلى تركيز العنف والاقدام في الآخرين ، ويختل التوازن بين الفريقين مع الاستمرار ، لأن أحدها زاد حظه من الحيلة ونقص حظه من الجرأة والاقدام والثاني زاد حظه من الجيلة ، فإذا حصل مصادفة

أن ذوي الاقدام وجدوا لهم زعيا يحسن الاحتيال وتصريف الامور ـ وقد ظهر من المصادفات المتكررة في التاريخ أنهم لا يعدمون هذا الزعيم من بين الطائفة المتذمرة في صفوف الدهاة أنفسهم ـ فيومئذ يتهيا لهم كل ما يلزمهم لاقصاء الحاكمين عن الحكم ، وهي الدورة التي لا عداد لتكرارها منذ فجر التاريخ إلى أوقاتنا الحاضرة » .

* * *

تلك صورة تقريبية تتكرر على مدى الزمن ، بيد أنها لا تتكرر على هذا الشكل دون غيره ، بل تتبدل أشكالها ويثبت منها شيء واحد من وراء تلك الأشكال المتبدلة فلا تفتا صفوة تعلو وصفوة تهبط بالحول وبالحيلة على أساليب شتى ، تتراوح بين أسلوب سبرطة العسكرية وأسلوب أثينا الفلسفية ، وفي كل منها مزيج من السطوة والحصافة .

ويستخدم باريتو بعض مشتقاته أو مصطلحاته لتطبيقه على علم السياسة كالحكمة التي يقابلها عندنا قول القائلين « إن الناس على دين ملوكهم » .

فإنه يقرر أن الآداب والأخلاق في كل مجتمع هي آداب الصفوة وأخلاقها ، وأن الرعايا يتشبهون بحكامهم إن لم يماثلوهم طبعا وعادة واستعدادا للتخلق بالأخلاق الاجتاعية ، ولا يزال المجتمع في أمان ما دام المحكومون يدينون بالآداب والعقائدالتي يعلنها الحاكمون ويحافظون عليها ، وقد يؤ من الرعايا بوصايا المسيحية التي تحرم القتل والسرقة والكذب وتحث على الايشار والرحمة ويقعون في تلك الأوزار ويتعدد بينهم من يعصون أوامر الدين وينتهكون وصاياه ، فلا يكون العصيان خطرا على النظام القائم كخطر الشك في وجوب تلك الأوامر والوصايا . إذ ليس العصيان هدما للأساس الذي يستقر عليه النظام ، وإنما الكفر به هو الذي يهدم النظام ويعرضه للتصدع والانهيار .

ولا خطر على المجتمع من الذين يتشاءمون بوقائع الأخلاق فيسخرون ممن يشيد بالفضيلة وينكرون أن الصدق ينجي صاحبه والكذب يوقعه في المهالك كما يقال على ألسنة الوعاظ والمرشدين ، فإن هذا التشاؤ م يحمل أحيانا محمل الغيرة

على الصدق والسخط على الكذب والرثاء لمن يصابون في سبيل الحق والفضيلة ، ولعل في ذلك متنفسا للساخطين وبابا من أبـواب الحض على إصـــلاح العيوب والتحريض على الآثمين .

وإنما الخطر على المجتمع ممن يسقطون تلك الفضائل والواجبات إيمانا بسقوطها ودعوة إلى عقيدة غير العقيدة التي توجبها ، فهذه هي علامة الخطر والتصدع في البنية الاجتاعية ولن تتاسك بنية تتزلزل فيها قواعد الأخلاق .

وقد ينجم في الآمة مصلحون ومجددون يخيل إليهم ان جلاء الحقيقة عن بعض الخرافات كاف لازالة الآفات الاجتاعية وتقويم النظم والحكومات ، ويجوز أن يصببوا كما يجوز أن يخطئوا والمجتمع على صواب . غير أنهم مخطئون حتا إذا خيل إليهم أن الجهل وحده هو العامل الذي يحول بين الناس وبين التصرف المنطقي المعقول ، فهناك عوامل غير الجهل تبقى مسيطرة على أعمال الناس ولو زالت من عقولهم جميع الخرافات والأباطيل ، ولم يعهد قط في مجتمع مضى أن الناس خلوا من جهالة أو خرافة وصمدوا على التفكير المنطقي في شؤ ون السياسة ، ولا يظن قياسا على هذا أنهم يخلون يوما من الجهالات والخرافات مهما يتقدم بهم العلم وتنكشف أمامهم مجهولات الكون والطبيعة البشرية .

وذهابا مع هذا الظن - بل نكاد نقول مع هذا اليقين - ينحى باريت و على من يخلقون الأديان المنطقية في زعمهم ويحسبون أنهم يعوضون بها الناس عن أديانهم التي ألفوها ، فليس أشد من إنحائه على جماعة المتدينين الذين يسمون أنفسهم بالانسانيين Humanitarians ويتوهمون أنهم يصلحون الضائر بدين يخلقون قداسته بتدبيرهم ، فإنه - على تقدير بارتيو - دين لا يحسب للمجهول حسابه ، وهو الجانب العميق الذي لا يتجاهله دين من الأديان .

وبعد فها هو النظام الذي يزكيه باريتو ويوطى، له بمذهب المستفيض الذي اضطلع بجهود الجبابرة لشرحه وتدوينه ؟

إنه لا يتشيع لنظام على نظام ، ولا يلقي بالا إلى فروق الأسهاء والقواعد الشائعة أو ما يسميه المشتقات ويرى أنها فروع تقتلع أحيانا ولا تقتلع معها الجذور إنما هو يبسط الوقائع التاريخية كها وعاها ، ومن تلك الوقائع تبدو له حالـة أفضل من حالات ولا يجزم أنها ميسرة الوقوع بالطلب والاختيار .

فالحالة الفضلي هي أن تتولى الحكم صفوة بمتازة من ذوي الحول والحيلة وتتفتح الأبواب لتداول الصفوة كلما أخفقت طائفة منها واستعدت طائفة أخرى للصعود إلى مكانها ، وأن تكون آداب المجتمع معتقدة مرعية لا يتشكك فيها الرعاة ولا الرعايا ، وتتفتح الأبواب هنا أيضا لتجدد الآداب على التدريج بغير حسم بين القديم والجديد يستلزم الصدام بينها لتقويض دعام وإقامة دعام :

ولهذا يتطرف باريتو غاية التطرف في التوصية بحرية المعاملة وحرية التجارة ، وينتقد الطبقات الحاكمة التي تحجر على المعاملات ويدخل في روعها أنها تستديم بذلك مصالحها ومصالح وارثيها . « فها من وسيلة لتوطيد السلم والأمان أنجع من أن تطلق الحرية للتجارة ويمتنع إتلاف الثروة ». وهو على طريقته في الحساب الاقتصادي يفرض أن سنتيا واحدا خصص للتثمير في عهد ميلاد السيد المسيح وجعلت فائدته أربعة في المائة قد تنقص مع دوام السلم ووفرة الرخاء ، ثم يقدر : كم يبلغ هذا السنتيم في سنة ١٩٤٠ بعد الميلاد ؟ إنه يبلغ على حسابه .

كذلك يقرر من الوجهة الاقتصادية العملية ، لا من الوجهة النفسية وحسب « ان أوفر الأعمال نتاجا هو العمل الذي يقبل عليه صاحبه برغبته ، وأقلها نتاجا ما يعمله لخشيته من العقاب » .

ولوجرى الناس في مطالب حياتهم على سنة التعقل لما حجروا على المعاملات ولا حكموا في الأعمال أمرا غير الرغبة والحرية ، ولكنهم في رعايتهم للحرية والطلاقة ما كانوا قط أحراراً مطلقين .

جايتانو موسكا

1981-1101

ولد هذا الفيلسوف السياسي في نحو منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفي في نحو منتصف القرن العشرين ، فلو أنه اكتفى بما حدث في مدى حياته من وقائع السياسة وخطوبها لاستطاع أن يتزود من هذه المادة الزاخرة ما يدعم به مذهبا كاملا في أطوار الدول والحكومات .

ولد في صقلية وهي مهد الوحدة الايطالية ومعرض التاريخ الحافل بآثار الدول وغرائب العادات الاجتماعية من أقدم العصور .

ونشأ وهو يستمع الى قصص القتال بين الدولة الدينية المقدسة والدولة المدنية المستقلة ، وتلقى في صباه أقاصيص الرواة عن غريبالدي وفكتور عهانويل وهي من أعجب الأقاصيص عن العلاقة بين القائد « الدكتاتور » والملك المختار ، ثم شهد القارة الأوربية وهي تنتقل من نظام إلى نظام من أنظمة الحكم على اختلافها بين ملكية مطلقة وملكية مقيدة وبين جمهورية وإمبراطورية ، وبين انتخابية تضيق فيها حقوق التصويت إلى انتخابية تتسع فيها هذه الحقوق غاية مداها من الاتساع .

وعاصر فرنسا وهي تتحول من جهورية إلى إمبراطورية ثم من إمبراطورية إلى جمهورية كرة اخرى ، وشهد قيام الدولة الجرمانية الموحدة كما شهد قيام غيرها من الدول الصغيرة في أوربة الشرقية ، ولم تمض في حياته فترة دون أن يسمع بنباً من أنباء الثورات أو الفتوح ، وامتد به العمر حتى حضر الحرب العالمية الأولى وأحاط بكل ما تلاها من أسباب القلاقل أو أسباب قيام الحكومات وتنازعها وانهيارها ، وتم في أيام نضجه تطبيق ثلاثة من المذاهب السياسية في نطاق واسع بين أمم غتلفة الأجناس والثقافات ، فطبق المذهب الشيوعي في روسيا وطبق المذهب الفاشي في إيطاليا وطبق المذهب النازي في ألمانيا ، وطبقت مذاهب أخرى تمتزج فيها هذه المذاهب على درجات من الامتزاج في غير بلاد السلافيين والتيوتون واللاتين ، وعاش إلى ما بعد نشوب الحرب العالمية الثانية فكانت تلخيصا شاملا لكل ما عالجه من المشكلات القومية والعالمية ، وأكدت له من آرائه ما كان محتاجا إلى تأكيد .

وقد جنحت به سليقته إلى دراسة العلن السياسية من جوانبها التاريخية أو الفكرية ، فاطلع على تواريخ الأمم والحضارات في المشرق والمغرب ، وإن تاريخ الدولة الرومانية وحده لكاف لا ستخلاض عبر السياسة في كل صورة وكل زمن ، ولكنه أضاف إلى العلم الراسخ بتفصيلات هذا التاريخ علما يضارعه بتواريخ الدول الشرقية من المضين إلى الهند إلى فارس إلى بين النهرين إلى مصر إلى بلاد العرب إلى ما استحدث بعد هذه الدول العظام من الدويلات والولايات . ثم كان عمله أن يلقي الدروس في هذه الموضوعات على طلاب الجامعات الايطالية ، فتهيات له المادة الكافية لتقرير مذهب في السياسة مدعوم بالشواهد والأسانيد والتجارب والبحوث ، أيا كان رأي المطلعين عليه من الموافقة أو الاعتراض .

ولم يبلغ موسكا الرابعة والعشرين حتى تمت عناصر مذهبه في ذهنه وأوشكت أن تنعقد على صورتها الأخيرة لولا بعض التنقيح الذي ترادفت به الحوادث في بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فلما أصدر كتابه المسمى .« عناصر العلم السياسي » (سنة ١٩٢٣) كان بمثابة رسالته الآخيرة في هذا العلم

غير محتاجة إلى إضافة جديدة في لباب الموضوع .

ومن الواضح أن موسكا قد أتم تقرير مذهبه قبل قيام الحكومة الفاشية في بلاده على يد موسوليني وأصحابه ، فلم يكن مضطرا إلى صوغ المذهب على الأسلوب الذي يتقي به غضب الحاكم المستبد بعد السيطرة على حرية القلم واللسان ، بل جاءت الحكومة الفاشية مؤ يدة لبعض فروضه وتقديراته ، ومنها أن الدولة الملكية قد يقوم فيها حاكم ذو سلطان إلى جانب الملك الذي يتولى الملك بالوراثة ، ويسمى تارة بدمين Major Domo وتارة بالصدر الأعظم وتارة برئيس الوزارة ، وكان توزيع السلطان بين فكتور عها نويل الثالث وموسوليني مثلا من أمثلة الازدواج على هذه الصورة بين الملك والدوتشي كها سمى زعيم الفاشيين .

إلا أن موسكا لم يكن من أصحاب الحظوة الكبرى في الحكومة الفاشية ، لأنه على نقده للتوسع في حقوق الانتخاب لم يكن من أنصار الحكومة المطلقة ولم يكن من رأية أن الحاكم المستبد أقدر على الإصلاح من الحكومات البرلمانية ، بل عنده أن تمثيل الشعب على صورة من الصور لازم لكف الحاكم عن الطغيان وتجديد العناصر التي تتولى الحكم من حين إلى حين ، وليس هذا الرأي مما يرضاه الحاكم بأمره في الدول الفاشية وما جرى على نظامها ، ولهذا كان موسكا مرضيا عنه محذورا منه في وقت واحد ، وقصارى ما بلغه من مناصب الدولة أنه تولى وكالة المستعمرات زمناً ثم دخل مجلس الشيوخ عضوا معينا مدى الحياة .

وقبل أن نمضي في تلخيص مذهب موسكا نحب أن نقرر بداءة ما قرره هو في أسلوب جازم حازم لا مواربة فيه عن عاقبة المذاهب السياسية التي يحسن بالباحث أن يفكر فيها ، فمها يكن من صلاح المذهب لتدبير شؤ ون الآمم فلا محل في هذه الدنيا للحكومة المثالية أو لـ « طوبي » الفلاسفة الأقدمين والمحدثين الذين عنون الناس جنة النعيم إذا عملوا بآرائهم في الحكم والسياسة . فهذه « الطوبي » خارجة عند موسكا من كل حساب ، وتوكيد هذه الحقيقة عنده لازم كل اللزوم لتبديد غشاوة الجهل والخداع عن أبصار العاملين في ولاية الأمور . فلن يشهد الناس « طوبي » على هذه الأرض وإن طالت الأزمان والآزال ، ولن فلن يشهد النام يوم يعمهم فيه العدل المطلق على يد وال من الولاة أو نظام من ياتي على أبناء آدم يوم يعمهم فيه العدل المطلق على يد وال من الولاة أو نظام من

النظم كائنا ما كان ، وغاية ما في الأمر أنه حكم أعدل من حكم ونظام أسلم من نظام .

قال في كتابه الذي ترجم الى اللغة الانجليزية باسم « الطبقة الحاكمة » The Ruling Class : «ان الطوبيات خطرة شديدة اذا استطاعت ان تجذب اليها طائفة جمة من ذوي الاذهان والفضائل الخلقية يصرفون جهود العقل والنفس الى تحقيق غاية لن تتحقق آخر الزمان ، ولن يكون تحقيقها المزعوم عند ادعاء حصوله الا تغليبا لشر العناصر وشقاء لأطيبها وأكرمها وخيبة رجاء . وقد اعلن ادموند بيرك قبل اكثر من مائة سنة ان اية دعوة سياسية تفرض امكان البظولات والفضائل التي تعلو على طاقة البشر لن تسفر في النهاية الاعن رذيلة وفساد » .

وموسكا يابى أن يرجع باطوار الشعوب وصروف الحوادث إلى عامل واحد أو عوامل شتى مرسومة على نهج واحد . فهو لا يعتمد كل الاعتاد على فعل السلالة أو فعل الجو والاقليم أو فعل العوامل الاقتصادية وما يسمونه بنظام الانتاج والاستغلال . فهذه جميعاً قد تفعل فعلها على اشتراك واختلاط في كل بقعة وقي كل قبيل ، ولكنها لا تنفرد بالأثر الفعال في جميع الأحوال .

فإذا قيل إن الفضل في قيام الدولة او الحضارة ينحصر في مزايا السلالات فالتأريخ يثبت لنا قيام الدول والحضارات بين سلالات كثيرة كالطورانية والآرية والسامية وسلالة الأمريكيين الأصلاء في أواسط الدنيا الجديدة ، وكثيرا ما يحدث التغير من الركود إلى النشاط ومن النشاط إلى الركود في أقل من قرن واحد لا يتغير فيه تركيب السلالة أو تركيب بنية الآحاد الذين تتألف منهم الأمة . وقد يحدث أن تسيطر على الدولة طبقة من النبلاء بالنسب والوراثة ولكنها تسود بالصفات التي تكسبها من التربية والعادة ، لأن الخبرة بأساليب الحكم شيء لا ينتقل في الدم وليست خصائص الدم مما يتحول في مدى سنوات . وقد تثور الرعايا على حكامها ولم تتغير سلالة هؤ لاء في آماد طوال من عصور التاريخ ، وإنما تغيرت التربية ولم تتغير سلالة هؤ لاء في آماد طوال من عصور التاريخ ، وإنما تغيرت التربية

والعادة كما حدث بين نبلاء صقلية ورعاياهم أوكما حدث بين فرسان الأقطاع في القرون الوسطى وأتباعهم في مختلف البيئات . فالسيد القديم كان يستبد بسلطانه ولكنه مقبول محبوب لأن عقائده وأوهامه هي العقائد والأوهام التي يدين بها العامة من حوله ، ولكنه يتغير بالتربية في العصور الحديثة فيصبح « جنتلهانا » بين السوقة فلا يألفهم ولا يألفونه ولا يزال باب الشقاق مفتوحا بينه وبين عماله وفلاحيه .

أما خصائص الجو والإقليم فلا خلاف على تاثيرها في نشأة الدولة أو نشأة الحضارة وإنما الخلاف على حصر التأثير فيها دون غيرها . وقد أولع بعض المؤ رخين بتسجيل القوانين الإِقليمية وهي في حقيقتها مصادفات لا تستحق أن تسمى بالقوانين المرعية في سنن الطبيعة . ومثال ذلك أنك تستطيع أن تضع على هذا المثال قانونا تقول فيه إن الأنهار تجري دائها من الجنوب إلى الشَّهال لأنكُّ تبني حكمك على خريطة ألمانيا أو سيبيريا ، وما هي إلا مصادفة وافقت مواقع الجبال والبحار في تلك الأقطار ، وقد تتكرر المصادفات من قبيلها في تلك القوآنين التي يقررون بها انتشار الحضارات من الشرق إلى الغرب أو من الجنوب إلى الشمال . وقد قيل إن حكومات الاستبداد تنشأ في البلاد الحارة وإن الحكومات الحرة تنشأ في البلاد الباردة أو القريبة إلى البرودة ، ولكن حك الاستبداد طال واستطال في روسيا التي يبلغ فيها البرد غاية اشتداده ، والحرية وجدت إلى الجنوب حيث لا تتساقط الثلوج ولا يشتد نفح الهواء ، وربما اختلف السكاذ في المواقع مئـات السنين ، وبينهم شيء من تقارب الشعور والتفكير لا نراه في سكان الموقع الواحد . فالمسلم الفارسي آري والمسلم العربي سامي والمسلم التركي طوراني ولكنك قد تراهم في استعدادهم للتفاهم بينهم أقرب الأمر من أبناء الجنس الواحد في البقعة الواحدة ، وقد ينعكس الأمر بعض الأحيان فيبطل القـول بانحصار التاثير في الثقافة أو انحصاره في طبائع السلالة والإقليم .

والخطأ في القول بانحصار العوامل السياسية في الانتاج ونظام الاقتصاد كالخطأ في القول بانحصارها في مزايا السلالة أو خصائص الإقليم . فاليونان الأقدمون قد تحولوا من حكم الفرد إلى الحكم النيابي دون أن يطرأ على نظام الانتاج في بلادهم أقل تغيير ، وكل ما حدث أن الفوز في الحرب لم يبق محصورا في اقتناء

العربات بل أضيف إليه ركوب الخيل والقتال بسلاح المشاة ، وقد كانت العربة والمهارة في توجيهها حكراً للأغنياء فزال هذا الحكر بعد تطور أساليب القتال ، ومثل هذا حدث في عصر الأقطاع بعد اختراع المدفع وتهديده لمعاقبل النبلاء والفرسان ، فتغير نظام الإنتاج تبعا لهذا ولم يكن نظام الانتاج هوسبب التغيير .

وقد دالت الدولة الرومانية وانتشرت الديانة المسيحية وهما حادثان من أُجِّل الحوادث في تاريخ بني الانسان ، فإذا رجعت إلى نظام الانتاج قبل حدوثهما وبعد أن حدثًا فعلا لم تجد فيه تغييرًا في مجمل الأحوال ، وإذا كان قد حدث فيه بعض التغيير الطفيف فقد حدث مثله من قبل ولم ينته إلى تلك النتيجة من تداعى دولة

عريقة وشيوع دين جديد .

والذين يعلقون الأمل كله على نظام الانتاج ويحسبون أن تعديله كفيل بتعديل الطبيعة البشرية في صميمها لا يأتون بشيء جديد في تعلقهم بهذا الخيال ، فقديما كان « لكتانتيوس « -Lactantius يقول قبل اعتبار المسيحية دينا رسميا للدولة في عهد قسطنطين إن الناس « لو آمنوا بالالله الحق لانقضي في الأرض زمن المنازعات والحروب ، وتآلف الناس جميعاً بالفة المحبة لأنهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرة الأخ إلى أخيه ، فلا يسعى أحدهم للتخلص من جاره ولا يزال كل منهم قانعا بقليله ، فلا غش ولا اختلاس ولا سرقة فها أسعم حال الانسان يومئذ! وأي عصر ذهبي يطلع على الدنيا بفجره السعيد في ذلك الزمان » .

وهذه الوعود بعينها يجددها بيبل Bebel الاشتراكي الالماني حيث يقول : « إننا لو غيرنا الأحوال الاجتاعية وفقاً للغايات التي تتجه اليها الاشتراكية لانتهينا الى تبديل حاسم في الطبيعة البشرية ، .

ومثله دي جورمونت الفرنسيDe Gourmontحيث يقول في بعض فصوله : « لو أتيح لنا إزالة القوانين بتة لأصبح ارتقاء المتفوقين الممتازين هو القانون الوحيد ، وأصبح حكمهم المطلق المشروع غير منازع فيه . فالحكم المطلق لازم لكبح البلهاء ، والإنسان الذي لا ذهن له عضاض ».

ويعقب موسكا على هذه الأمنية « الفوضية » فيقول إنه يقبلها كل القبول مع وضع كلمة الآقوياء في موضع المتفوقين الممتازين وكلمة الضعفاء في موضع البلهاء . فالعيوب التي تعاب بها طبيعة البشر لا ينتزعها نظام الحكم البشري

كيف كان .

وقد عرض موسكا لتقسيم أنواع آلحكومات من عصر الفلسفة اليونانية إلى العصر الحديث. فارسطو يقسم الحكومات إلى ملكية وارستقراطية وديمقراطية وتنظوي القرون الوسطى بتقسياتها الدينية أو التقليدية ، ثم يزعم العلماء المحدثون أنهم وصلوا إلى استقصاء التاريخ الانساني كله فجمعوا أطواره ـ كها فعل أوجست كونت ـ في ثلاثة أدوار: دينية وفلسفية ووضعية ، تقابلها الدولة العسكرية فالدولة الاقطاعية فالدولة الصناعية ، ثم يختصر هربرت سبنسر هذا التقسيم إلى قسمين: أحدهما العسكري والاخر الصناعي ، ويقرن الأول بالاستبداد والحجر على التجارة ، ويقرن الثاني بالحرية وإجراء المعاملات عجرى الصفقات التجارية بالتعاقد والاتفاق والتوكيل .

ولا يعترض موسكا على هذه التقسيات ولا على التقسيات التي من قبيلها كتقسيم الحكومات إلى جمهورية ودكتاتورية وملكية مقيدة أو ملكية مطلقة ، فهي صادقة في الدلالة على بعض الفروق وينبغي أن تقبل على هذا الاعتبار ، ولكنها لا تغني عن الماس الوحدة المتكررة في جميع هذه الأنواع ، ولا تحسم الفروق بينها كل الحسم في جميع الأحوال .

فالشبه بين بعض الجمهوريات وبعض الملكيات أقرب من الشبه بين جمهورية وجمهورية أو ملكية وملكية ، وتقسيم الدول إلى عسكرية وصناعية لا يغنينا عن توجيه البحث الأصيل إلى الطبقة الحاكمة في كل من هذين النظامين .

والعبرة كلها بالطبقة الحاكمة في جميع الأحوال .

وهنا نصل إلى حجر الزاوية في مذهب الفيلسوف الذي بوأه مكانه بين فلاسفة الحكم الأقدمين والمحدثين .

* * *

فمها يكن نوع الحكومة ، وفي أي بلد تحكم ، ودي عنوان تشتهر فالظاهرة المتكررة دائما في جميع الدول هي أن الحكم مهمة تنحصر في أيد قليلة جدا بالنسبة إلى الجمهور المحكوم .

هذه هي الظاهرة التي تكررت في جميع الدول ، وستظل كما يعتقـد موسكا متكررة إلى آخر الزمان ، لأنها ثبتت بالتجربة والاستقرار وبالاحتمال الممكن دون

غيره عند تقليب السألة على جميع الوجوه .

ولا فرق في هذه الظاهرة بين حكومة الدكتاتور وحكومات الأمم النيابية التي يعم فيها حق الانتخابات إلى اوسع حدود التعميم .

فمن الوهم أن يفهم من « حكومة الفرد » أنها حكومة يديرها فرد واحد ، لأن الفرد الواحد لا يستطيع إدارة الآلة الحكومية ولا كسب النفوذ في المجتمع ما لم تؤيده (طبقة حاكمة » تلتف به وتحقق إرادتها بتحقيق إرادته .

ومن الوهم أيضاً أن يفهم من كلمة الحكومة النيابية أن الكثرة الغالبة هي التي تدير دفة الحكومة بالأصالة أو بالنيابة ، فليس بالصحيح أن يقال إن الناخبين اتفقوا على اختيار نائب عنهم ، وإنما الصحيح أن قلة صغيرة جعلتهم ينتخبونه وتمكنت بوسائلها المنظمة من تحويل أصوات الناخبين إليه ، وهذه القلة الصغيرة هي « لجنة الادارة » في الحزب الظافر بأكثر الأصوات ، ولا حيلة لعشرات الآلوف المتفرقين أمام مائة أو نحو المائة يتفقون في الغرض والحركة ونشر الدغوة ، ويحكمون تدبيرهم بالمرانة الخاصة على أعمال الانتخاب .

ويحدث كثيراً أنْ تكون الطبقة الحاكمة في الحزب الدستوري أو النيابي أقـل عددا من الطبقة الحاكمة التي تحيط بالدكتاتور أو الحاكم بأمره ، وأن يكون نفوذ النيابيين أقوى وأصعب مقاومة من نفود المستبدين .

ومن هذه الطبقة الحائمة يتالف سلك الموظفين أو « البيروقراطية » وهي التي تطلع على دخائل الأمور وتستاثر بالخبرة في الدواوين ، فلا يسهل على الحكومة. أن تستغنى عن خبرتها واقتدارها على معالجة الأعمال .

ولكل طبقة حاكمة صيغة أو جملة من الصيغ تقرر بها سلطانها وتجعلها شعاراً لها في إقناع رعاياها ، ولا يلزم أن تكون موافقة للمنطق والمعقول ، كصيغة الحكم بالحق الإلهي أو سيادة الأمة أو « الحرية والإنجاء والمساواة » أو الزعامة المقدسة أو رسالة الدولة أو الحرية الفردية أو التاميم وما شاكلها من الصيغ التي تتبدل مع الطبقة الحاكمة على حسب الأمم والأوقات .

وتبقى الطبقة الحاكمة ما دامت مالكة لصفات القيادة وكفايات الولاية العامة ، وليس من الضروري أن تكون هذه الصفات والكفايات مطابقة لفضائل الطيبة والصدق والإخلاص ولكنها لا يمكن أن تخلو من مزايا الحصافة والجد والحنكة

وبعد النظر والبداهة الموفقة في تصريف الأمور .

وخير الطبقات الحاكمة هي الطبقات التي تخدم المصلحة العامة ولا تجوز فيها المطامع الشخصية على المصالح الكبرى .

ولكن هذا « الخير » لا يأتي من فرض القوانين وتبدوين النصوص وتنقيح الدسائير ، فإن الدستور قد يبقى بجوهره خلال عهدين متناقضين كما بقي دستور قيار على عهد الجمهورية وعهد الدولة النازية ، وإنما يتحقق الخير في الطبقة الحاكمة بفضل القوى الاجتاعية والحصانة الشرعية ، وهما - في فلسفة موسكا اصطلاحان مجتاجان إلى تفسير وجيز .

ففي كل أمة من الأمم قوى اجتاعية متعددة تدخل في بنية المجتمع بمقادير متساوية أو متفاوتة ، ومنها قوة العقيدة وقوة الرأي وقوة العرف والقوة العسكرية والقوة الصناعية والقوة الزراعية والقوة التجارية وقوة العمل وغير ذلك من القوى التى تشتمل كل أمة على نصيب منها .

أما الحصانة الشرعية فهي الحصانة التي تستمد من قدرة هذه القوى على مقاومة المطامع الشخصية التي قد يعمل لها رجال الحكم ورؤ ساء الدولة .

فإذا كانت هذه القوى متوازنة متكافئة فالحصانة الشرعية وافية والطغيان متعذر ومصلحة الحاكم في إجراء العدالة أكبر من مصلحت في مطاوعة المآرب الشخصية .

وإذا طغى بعضها على سائر القوى فهناك يختل التوازن وتضطرب الأمور ويتربص فريق من الأمة بفريق .

ولا تقع الثورات العسكرية - في رأي موسكا - لأن بعض القادة يتمردون وبعضهم لا يتمردون . فمها يكن من نزوع بعض القادة إلى التمرد فهم لا يستطيعونه إذا كانت القوى الاجتاعية التي تتوطد عليها دعائم المجتمع ممثلة في الجيش بقادته وضباطه وجنوده ، وإنما تقع الثورات أو الانقلابات العسكرية لاختلال التوازن بين القوى الاجتاعية واستطاعة قوة منها أن تسيطر على الجيش والحكومة مع السيطرة على المجتمع بغلبة النفوذ .

فالطبقة الحاكمة تحسن أو تسوء على حسب القوى الاجتاعية والحصانة الشرعية لا على حسب القوانين والنصوص ، ومن أفضل الأسباب لضهان التوازن بين القوى الاجتماعية أن تشتمل الأمة على طبقة وسطى تمنع الاصطدام بين الغنسي الفاحش والفقر المدقع وتفتح الباب لتقدم الطبقة الفقيرة كما تفتح الباب لتجدد الطبقة الحاكمة وتناوب السلطان بين المقتدرين عليه ، كلما انتهت مهمة طائفة منهم خلفتها طائفة أخرى تناسب الأوضاع الاجتاعية التي تتعاقب مع الأيام ولهذا يفضل موسكا أن تتولى شؤ ون الأمم حكومات نيابية ، لأنَّ الحصانة الشرعية أوفر في الحكومات التي تتسع للمعارضة ، ولأن السيادة إذا احتكرتها فئة من الناس أو شكت أن تفسد وتستنيم ولا تحسب حساب المعارضة والانتقاد . ويحاول موسكا أن يطبق قوانين الطبيعة على المجتمع في هذه الظاهرة ، فيقول : إن الجو تتنازعه خاصتان : خاصة الميل إلى الـركود بحكم القصـور الذاتي وخاصة الميل إلى الحركة بحكم الاختلاف في توزيع الحرارة ، وهـكذا يحدث في المجتمع حين تسعى فئة من الناس إلى احتكار السلطان في « دائرة مقفلة » وحين تهب « الرياح الاجتماعية » مع اختلاف توزيع الثروة والنفوذ . وسلك الوظائف في الدولة يتجدد _كما يقول موسكا _ على طريقتين : من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى . ففي الحكومات المطلقة يستأثر الحاكمون بالوظائف ويؤثرون بها أنفسهم وذويهم ، وفي الحكومات النيابية يتسع المجمال لصعود طائفة بعد طائفة إلى سلك الوظائف أو البيروقراطية ، وذلك أسلم وأجدى من الاستئثار والاحتكار .

* * *

ومن خلاصة مذهب موسكا يبدو أنه لا يفرط في التفاؤ ل بمصير الحرية الديمقراطية ، وهو كذلك لا يحسن الظن بأحلام الحالمين الذين يتخيلون أن أبناء آدم متحولون غداً إلى طهارة كطهارة الملائكة وعدالة كعدالة السهاء الموعودة ، إلا أنه لا يفرط في التشاؤم كها أنه لا يفرط في التفاؤل ، وجملة أمره في هذا الباب أنه يفرق بين الأخلاق الأدبية المثالية وبين الأخلاق السياسية الواقعية . فالايشار وحب الخير وسلامة الجانب فصائل مأثورة محبوبة على السنة الناس وفي كتب الأخلاق ، ولكن الصفات التي ترشح أصحابها للبروز في عالم السياسة لا تتفق على الدوام مع تلك الفضائل المأثورة . بل يغلب على صفات السياسة النافذة أن تنحرف عن النمط السوي عند دعاة الفضيلة والمحبة . فالرجل الذي يقيس آماله

بحقوقه ويوازن بين وسائله وغاياته ويسالم الناس ويحب أن يسالموه قلما يقدم على عمل رائع في ميدان الحياة العامة ، وإنما يتاح الرجحان في هذا الميدان للذين تغلب فيهم طبيعة الوثوب والاندفاع على طبيعة الانصاف والاتزان ، ومن هؤلاء ينبغ طلاب الإصلاح كما ينبغ طلاب السيطرة ، وكلهم في عرف العقلاء المسالمين أناس « غير معقولين » وغير معتمدين على العقل في كسب الثقة أو كسب المكانة ، بل جل اعتادهم على التأثير واستجاشة الحس والخيال . ومن تضييع الآمال في غير طائل أن ننتظر من الناس أن يعملوا ما يعقل ويوافق المنطق على الدوام . فإن ميدان السياسة مفتوح للدوافع المعقولة وغير المعقولة ، وينبغي أن يعول الناس في كبح القوة الطاغية على القوة الرادعة ، فلا يصد القوة إلا القوة ولا يفل الحديد إلا كبح القرة الذي يعنيه موسكا بإعداد القوى الاجتاعية في الأمة لضمان الحديد ، وهذا الذي يعنيه موسكا بإعداد القوى الاجتاعية في الأمة لضمان العدل أوفر من مصلحتها في الجور على حقوق المحكومين .

روبرت ميشل

Robert Michels

1947 - 1747

يعتبر ميشل حجة بين كتاب الاجتاع والسياسة في دراسة النازية والفاشية دراسة علمية ، فقد مكنته نشأته بألمانيا ومقامه بإيطاليا من التغلغل في أعهاق الحركتين والنفاذ إلى ما وراء الظواهر من كل حركة ، فتوفر على بحث الأحوال العامة التي سبقت قيام موسوليني وهتلر في إيطاليا وألمانيا وراقب تنظيم الهيئات التي توسلت بالقوة وبالحيلة إلى القبض على زمام الحكم في الأمتين ، وأمعن في تقصي الدخائل والعوارض التي فعلت فعلها في بواطن تلك الهيئات ومن حولها ، واستعان على ذلك بالصبر الطويل الذي أثر عن علماء الألمان في دراساتهم المستفيضة ، فمن قبلوا أحكامه ونظرياته ومن رفضوها لا يختلفون على حقيقة واحدة : وهي أن مواثيقه وأسانيده كافية وفوق الكافية ، وإنما يعرض لها النقد من التقسير والاستنتاج .

وميشل وصاحباه باريتو وسوريل متفقون على قواعد الرأي في حقيقة الحكومة الديمقراطية ، ولكن ميشل مختص بدراسة المنظمات والهيئات على أنواعها ولا سيا الأحزاب السياسية في نشأتها وتكوينها وأعما لها خارج المجالس النيابية وداخلها ، وخلاصة رأيه أن تكوين الفئات والطوائف في المجتمع البشري ضرورة عامة ،

وأن الأمة والنادي الخاص يتشابهان في قانون واحد يعمل عمل في كل جماعة بشرية مع اختلاف العدد والطبقة والغاية .

يقول ميشل إن الأحزاب المحافظة وأحزاب الأحرار والعمال جميعاً تدعي في العصر الحديث أنها تعمل بإرادة الأمة ، ومنها ما يعتقد أن جمهور الآمة لا يحسن الحكم على القضايا العامة ، إلا أنه بطبيعة الحال لن يتوجه إلى أصحاب الأصوات التي توصله إلى الحكم ليقول لهم إنه يستجهلهم ويستغفلهم ويعمل بإرادته لا بإرادتهم ، ولهذا شاعت في العصر الحديث فكرة و الارادة القومية ، مقترنة بتفسير معنى الديمقراطية ، وليست هي نتيجة تفكير ولا دليلا على الايمان بها في ضهائر الداعين إليها .

قال إن الدولة البونابرتية نفسها قامت على مبدأ الاستفتاء والاختيار الحر المنزه عن التخويف والاغراء ، وهي في جوهرها كالدولة التي قامت على دعوى الحق الإلمي من قبلها ولو أن أنصار الحق الإلمي طلبوا الاستفتاء على هذا النحو لما أعياهم أن يصلوا إلى الفتوى التي تعلقت بها الدولة البونابرتية .

ورأى ميشل أن الحكم الديمقراطي أحسن ما في الإمكان بالقياس إلى أنواع الحكم القائم على الدعاوى الآخرى ، لأنه في جملته أسلم عاقبة من غيره لا لأن دعوى الحكم بإرادة الأمة أصح في الواقع من دعاوى الحكام السابقين .

فلا الأمة ولا الجماعات البشرية على إطلاقها قادرة على تصوير رأيها وإمـلاء إرادتها في جلائل الأمور وصغائرها .

وقد يتوهم بعضهم أن الجماعات البشرية الأولى التي لا تعدو سكان المدينة الواحدة كانت أقدر على تطبيق الديمقراطية بن الأمم الكبرى التي تبلغ الملايين ، غير أنه وهم عاجل لا يثبت على المراجعة ولا ينخدع به من يعرف طبائع الجماهير في اجتاعها .

فالمعروف اليوم من دراسة الأطوار النفسية للجهاعات والآحاد أن رأي الجمهور ساعة الاجتاع لا يمثل آراء الآحاد المشتركين فيه وهم متفرقون ينظر كل منهم في الأمر على حدة ويقلب وجوهه على تبصر وروية ، وأن آراء الجمهور كثيرا ما تسفر عن الإجماع بالصياح والجلبة دون إصغاء إلى أصوات المخالفين إن كان بينه غالفون . فإذا كثر المخالفون ـ لاختلاف الزعهاء ـ فالاجتاع صائر إلى الفوضى

والشغب فلا يفهم منه رأى محدود .

ومعظم المسائل التي تباشرها الحكومات تدخل في اختصاص الفنيين وتحتاج إلى التثبت من البيانات والأرقام ، فإذا عرضت على جمهور من العارفين أو غير العارفين في ساعة الاجتاع فلا بد من إحالتها إلى فئة خاصة تبت فيها برأيها ، فيقبلها الجمهور على علاتها أو يقع الاختلاف عليها فيتغلب المتغلب بالمؤثرات « الجهاعية » التي يرجح فيها الصخب على الحجة وترجح فيها الخطابة على الاقتاع ، ويجدي فيها التمهيد بالمناورة والمداورة ما لا يجديه الرأي الخالص من شوائب التمهيد والترويج .

هذا عن الجهاعات التي تتلاقى في مكان واحد كها كانت تتلاقى جماعات الناخبين في المدن القديمة ، وهي على هذا لا تمثل المدينة كلها لاستثناء بعض سكانها من حقوق الانتخاب .

أما جماعات الأمم الكبيرة فالمسلم أنها لا تتلاقى في مكان واحـــد ولــو قصرت الاجتاع على وكلاء الانتخابات ، فلا مناص من التفويض والتوكيل .

ويطيل ميشل في شرح الإجراءات المعقدة التي تسبق ترشيح المرشح ولا حيلة للناخبين في مراقبتها ولا في تعديلها ، فيخلص منها إلى وصف الانتخابات بها اضطرار إلى الاختيار .

ولا يؤمن ميشل بما يسمى السيادة بالتوكيل أو التفويض ، فإذا صح أن الأمم قد انتخبت وكلاءها بمحض اختيارها ، فليس بالصحيح أن السيادة تبقى بعد ذلك في أيديها ! لأن وكلاءها يستطيعون أن يوجهوها من جين إلى حين ، وهي لا تستطيع توجيههم في كل حين .

وقبل أن يصل التوجيه إلى الأمة ينبغي أن ننظر إلى أساليب التوجيه في داخل الهيئة السياسية بين رؤ سائها وأعضائها .

فالجماعة بطبيعتها كسلى لا تنتزع من نفسها القوة على الإنشاء والابتداء في جميع الظروف.

ولهذا يحدث دائماً في النادي الصغير ـ كما يحدث في الجماعة الكبيرة ـ أن يبحث المجتمعون عن رئيس يكلون إليه تصريف الأعمال الضرورية لبقاء النادي والجماعة .

والذي جرت به العادة في هذه الأحوال ان يظفر بالانتخاب من يفرغ للعمل ويحرص عليه ويدأب على طلبه ، وقد يقع عليه تفضيل أصحابه وزملائه للسبب ونقيضه ، فيفضلونه لاتقاء بأسه كها يفضلونه لأمنهم من جانبه واطمئناتهم إلى سلامته ، ويعضلونه لرجحانه كها يفضلونه لقلة منافسته وقلة منافسيه ، ويندر أن تكون هذه الصفات أكرم الصفات التي تصلح عليها رئاسة الرؤساء .

وقد لوحظ أن الرئيس يبقى في رئاسته متى رصل إليها ، فيعيد الأعضاء انتخابه كسلا من عناء البحث والاختيار وفض المنازعات وإغضاب هذا لارضاء ذاك ، أو يعاد انتخابه لما اتخذه هو من الحيطة وتذرع به من الذرائع التي تخيل إليهم أنه عامل مهم لا غنى عن عمله ، أو أن التجديد أسلم على الأقل من ابتداء التجربة من جديد .

يجري هذا في الانتخاب لرئاسة الأندية والجهاعات القليلة التي من قبيلهــا ، ويجري مثله على التقريب في انتخاب الـرئيس للهيئـات السياسية والأحـزاب الكبيرة التي تتناوب الحكم مع غيرها أو تنفرد به فترة طويلة بغير مزاحمة . فمتى ظفر الرئيس بالرئاسة جعل همه الأول أن يحيط نفسه ببطانة من أخصائه يبقون ببقائه ويذهبون بذهابه ، فيشرف معهم على خزانة الهيئة وجدول الانتساب إليها ومجلس تاديبها وأداة نشر الدعوة لها ولحكومتها ، وبهذا يامن المزاحمة ويتيسر له أن يقضي عليها في مهدها ، لأنه يملك أسباب التخلص من المزاحم قبل أن ينجح هذا في تأليب القـوى للتخلص من رئاسته ، ويلجـا الرؤ سـاء عادة في بعض المواقف إلى إرهاب الجماعة بإعلان العزم على الاستقالة تهديداً لهما وقُسراً على طاعتهم والتسليم بما يفرضونه عليها ، وهم لا يلجاون إلى هذا التهديد حين يعلمون أن الاستغناء عنهم ميسور وأن أنصارهم المتكفلين بتاييدهم قليلون ، ولكنهم يلجأون إليه كلما علموا أنه ضربة مربكة للجماعة محيرة لها بين من يتنازعونها ولا سيما حين ينجح الرئيس وبطانته في تهـوين خطـب المنافسـين الأقوياء وإضعاف كل من تحوم الشبهة حوله منهم ، قبل أن يستفحل خطبه . ومتى توطد مكان الرئيس وبطانته على هذا النحو ففي وسعه أن يفرض مرشحيه للمجالس النيابية على الحزب كله قبل إعلان ترشيحهم للناخبين ، فإذا هم مرشحو رئيس واحد تؤيده بطانته ولا تأمن أن تشق عليه عصا الطاعة ، واسمهم

أمام الناخبين « مرشحو الحزب ونواب الأمة » .

يقول ميشل إن جريان الانتخاب على هذا النمط بين المحافظين مفهوم لأنهم يشكون كل الشك في كفاءة الجمهور لولاية الأحكام ، وإنه كذلك مفهوم بين الأحرار لأنهم يعتبرون الجمهور ضرورة لا محيد عنها ، ولكن العجيب فيه أنه يجري على هذا النمطأو أشد منه بين طوائف العمال التي ارتهنت مصالحها كلها بحقوق النيابة وتوزيع هذه الحقوق بين صفوفها على سنة المساواة التي لا تسمح باحتكار الرئاسة . فالواقع أن انتخابات النقابات العمالية تسفر عن احتكار للرئاسة لا يقل عن احتكارها في لجان المحافظين والأحرار إن لم يكن أشد منه وأطول أمدا ، وأن الظافر بالرئاسة يندر أن يستحقها بإخلاصه للقضية وقدرته على الدفاع عنها ، فالغالب أن الظافرين بها يستحقونها بالتهجم والاقتحام والتهويل على المنافسين الأمناء ، ثم يحتفظون بها متى وصلوا إليها آمنين المزاحمة بل آمنين الانتقاد .

وإذا انهزم رئيس من كبار الرؤ ساء مرة فإنما ينهزم لأن المنتصر عليه قد هيات له الظروف أن يغلبه بهذه الوسائل لا أنه انتصر عليه بوسائل خير منها ، فالقاعدة والحلبقون لها متعددون .

والأستاذ ميشل شديد الثقة بنظرياته هذه حتى ليرتقي بها إلى درجة القانون ـ بل القانون الحديدي ـ الذي لا فكاك من حلقاته المقفلة ، ويسميه القانون الحديدي لولاية الخاصة : The Iron Law of Oligarchy فلا يتاتى حكم في البلاد الديمقراطية أو في سواها لغير فئة خاصة توافق زمانها . فمن فئة الفرسان إلى فئة النبلاء إلى فئة أصحاب الأموال إلى فئة الخبراء والصناع ، إلى فئات من قبيلها يبر زها كل حكم على مقتضى الزمن بغير خلاف في جوهر القانون ، وهو أن الجهاهير تسلم مقادها لأحاد معدودين .

هذه النظرية أو هذا القانون الحديدي قد شاع في بيئات البحث الاجتاعي ودوائر الفلسفة السياسية ، فكان له أثران : أحدهما ارتداد بعض المفكرين عن الديمقراطية والآخر قبول الديمقراطية على علاتها لأنها أقرب إلى الإنصاف والاصلاح من النظم الأخرى .

والأستاذ ميشل _ على فرط إيمانه بقانونه الحديدي _ هو أحد هؤ لاء الفلاسفة

الذين رأوا هذا الرأي في حقيقة الحكم الديمقراطي فلم يتحولوا عنه إلى غيره ، وحجتهم في ذلك أن المهم هو نتيجة الديمقراطية لا أقوال الدعاة في تفسيرها . فقد يكون صحيحاً أن الناس لا يتساوون ، وقد يكون صحيحاً أن الأمة لا تحكم نفسها بإجماع آرائها أو إجماع كثرتها ، ولكن لا شك مع هذا وذاك في نتيجة الديمقرطية ما دامت مستمسكة بهذا الوصف وهذا العنوان ، وتلك النتيجة هي حسبان الحساب للعديد الأكبر من الرعايا في سياسة الحكومة ، ومها ينخدع الرعايا بالوعود والأكاذيب فلا بدعلى الأقل من إرضائهم بتوفير أقواتهم واجتناب شبهاتهم ، وهذه مزية للحكومة باسم الأمة كائنا ما كان عدد الرؤ ساء المستاثرين فيها بالرأي والسلطان .

غير أن تلاميذ ميشل - عمن كانوا يتشيعون لأراء كارل ماركس - قد أثرت فيهم نظريته أو قانونه الحديدي أبلغ الاثر في وزنهم للمبادىء الماركسية ، ومنهم الكاتب البولوني الذي يكتب اليوم في الولايات المتحدة باسم ماكس نوماد Max الكاتب البولوني الذي يكتب اليوم في الولايات المتحدة باسم ماكس نوماد Nomad وينشر آراءه عن تناوب السيادة ومظهره في البلاد الروسية . فهو في كلامه عن المتمردين والمرتدين يقرر أن النظام الشيوعي وضع السلطة الحكومية كلها في أيدي الموظفين ورؤساء المصانع وأنشأ طبقة حاكمة تستغل الطبقة العاملة ولا تفكر في النزول لها عن سلطتها ، ويكاد يردد المثل العربي القائل : ما أشبه الليلة بالبارحة ! فالمفكرون الشيوعيون وطائفة الادباء والصحفيين هم كهنة هذا النظام الذين يقدسون طبقته الحاكمة كها كان كهان القرون الوسطى يقدسون الامراء والملوك بحق السهاء ، والسادة الموظفون هم المستغلون الجدد في مكان المستغلين من أصحاب رؤوس الاموال ، والاجراء هم بغير تبديل إلا أن يكون تبديل الحجر بحرية العمل وحرية الإضراب .

قال : ﴿ إِن التجربة السوفيتية قد أثبتت أن إمكان الاستغلال في ظل الاشتراكية لا يقل عن إمكانه في ظل أية حكومة سابقة . . وإن المرء اذا استرسل في النبوءة ففي الوسع أن يخمن أن الصورة العالمية المقبلة لاستغلال الانسان للإنسان كها تومىء إليها الاساليب الروسية في امتلاك المولة لجميع المرافق واختلاف دخول العاملين ـ سوف يكون قصاراها من التغير تحمل عنوان الاشتراكية ٢ .

فقد ظهر أن الاشتراكية تهتم بمسألة الاستيلاء على أداة الإنتاج ولا تهتم بمسألة التوزيع . مع أن التوزيع المذي يمنع الاستخلال هو المقصود من كل حركة اشتراكية ، ولكن هذا (المقصود » هو الذي لم يكن ولا يكون .

جيمس برنهام

James Burnham

تتسع المسافة بين النظرية السياسية وتطبيقاتها العملية في بلاد العالم القديم، ولكن هذه المسافة تضيق كثيراً أو قليلا في البلاد الامريكية ، فإن النظريات فيها شيء أكثر من مجرد الاقتراح أو الامنية ، فهي إما برنامج يطبقه الداعون إليه في نطاقهم المحدود ويحاولون تطبيقه على الاثر في نطاق قومي واسع ، وإما وصف لحالة واقعة يلخصها الواصفون في قالب المبادىء والنظريات .

وربما نشأ تقدير النظريات على هذا النحو في البلاد الامريكية من حداثة التجربة السياسية في تلك البلاد وموافقة الزمن الذي تأسست فيه حكوماتها هناك للزمن الذي تداول فيه العلماء الاوروبيون أحدث النظريات في القرن الثامن عشر .

فقد كانت هذه النظريات في حكم الحقائق المقررة عند تأسيس الجمهورية الامريكية الاولى ، فضمنها آباء الجمهورية دستورهم وبياناتهم التي قدموا بها لذلك الدستور ، وعملوا بمبادىء فصل السلطات والحق الطبيعي وحقوق الإنسان وسيادة الامة وتحريم « الضريبة بغير نيابة رقيبة) كأنهم ينفذون أوامر الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأصبح من اليسير منذ قيام الحكم على هذا الاساس أن توضع النظريات موضع التنفيذ السريع أو أن يتلقاها الناس كأنها تلخيص الشؤون الواقعة التي يجري بها العمل فعلا في دوائر السياسة والمال .

ومنذ تأسيس الدولة الامريكية لم تخيل بلادها من أصحاب دعوات دينية أو سياسية يطبقونها في نطاقهم المحدود، وفي هذا الزمن الذي نعيش فيه حاول القصاص الشيوعي ابتون سنكلير أن يطبق الشيوعية في مستعمرة يسكنها من يدينون برأيه، وأصدر الفيلسوف الفاشي لو رنس دنيس كتابه عن « دوافع الحرب والانقلاب » وهو يؤكد فيه أنه يتتبع الواقع الذي سيتم وقوعه بجميع تفصيلاته في أعوام قليلة، فهو لا يدعو إلى ثورة ولا انقلاب ولكنه يرى بوادر انقلاب يسميه « بانقلاب القصر » آخذ في التهام منذ أعوام ؛ وقد اختار له اسم « انقلاب القصر » تشبيها له بالحركات التي كانت تقع في قصور الملك حيث يذهب أمير و يجيء أمير دون أن يدعو الامر إلى تحريض على الثورة أو سفك للدماء، وهكذا يعتقد لو رنس دنيس أن الحكم في الولايات المتحدة صائر إلى السيطرة الفاشية بغير خاجة إلى هدم بنيان أو زعزعة أركان، إلا أن يسجل الواقع ما أبرمه الواقع و يعترف الناس بما قد عرفوه فعلا ولم ينكروه .

وأهم النظريات السياسية التي ظهرت في الولايات المتحدة حديثاً نظرية يعتقد صاحبها أنها من هذا القبيل، أي أنها وصف للوقائع الحاصلة ونبوءة عن الوقائع التي تحصل تباعاً وتطرد في طريق الحصول، وهذه هي نظرية الانقلاب الفني . M التي يدعو إليها جيمس برنهام في كتبه ورسائله وأحاديثه، ومنها كتاب بهذا الاسم وكتاب عن المكيافليين وكتاب عن الصراع على العالم وكتاب عن هزيمة الشيوعية المقبلة، وهي من أشهر الكتب السياسية التي يتداولها اليوم من يعنون بفلسفة السياسة من الامريكيين والاوربيين.

جيمس برنهام صاحب هذه النظرية هو أصغر الفلاسفة السياسيين سناً وأحدثهم رأياً ، ولا يزال الساعة في مقتبل العمر يوالي تثبيت رأيه أو تثبيت القول بأنـه هو الواقع المقرر الغني عن إطالة العناء في التقرير والإثبات .

ولد في شيكاغو سنة (١٩٠٥) وتعلم في أمريكا وإنجلترا وأعجبت الشيوعية الماركسية في مبدأ الامر فبشر بها واشترك في مساعيها ، وجاء زمن من الازمان كان معدوداً فيه من أقوى أنصار تروتسكي بين الشبان الامريكيين المتعلمين ، ثم قادته دراسته العلمية والاجتاعية إلى الشك في مبادىء الشيوعية ومبادىء الاشتراكية على

إطلاقها والايمان بأن نظام رأس المال ونظام الشيوعية كلاهما غير صالح للبقاء في الاحوال الإنسانية التي تمخض عنها العصر الاخير .

وقد ظل عضواً عاملا في القسم الفلسفي بجامعة نيويورك منذ سنة ١٩٣٣ ، وما واشتغل خلال هذه السنين بالحركة الشيوعية في دوائر الصحافة وتقابات العمال ، وما زالت آراؤه تتطور مع الدراسة والخبرة حتى انتهى إلى الجزم برفض الشيوعية على سنة ماركس ولنين وعلى سنة ستالين وتروتسكي ، ثم الجزم بأن الشيوعية ورأس المال معاً صائران إلى الزوال ، وأن نظاماً جديداً سيخلفها عما قريب ، ليستقر به سلطان الطبقة التي تقبض الآن على أزمة الإنتاج وهي طبقة المديرين الفنيين .

يقول برنهام إن العالم سيرى عهداً بغير « نظام رأس المال » كما رأى من قبل عهوداً لم يكن فيها لهذا النظام وجود .

ويستدل على اقتراب أجل هذا النظام بدلائل كثيرة ملموسة في أحوال العالم الحاضرة : منها بطالة الملايين من العمال والصناع مما يثبت أن نظام رأس المال قد فشل وأخفق في تدبير الثروة الإنسانية أو تدبير القوى الإنسانية المعطلة بين يديه .

ومنها عجز رأس المال عن توظيف ماله في الجهات التــي تعــود استغلالهــا على أسلوب المستعمرين في القرن التاسع عشر .

ومنها تزعزع القواعد الفكرية والاقتصادية التي كانت لازمة أو كانت مصاحبة لدولة رأس المال. فقد كان إطلاق الاعهال لازما لاصحاب رؤوس الاموال تمكيناً لهم من إرسال أموالم في التجارة والصناعة بغير رقابة من الحكومة ، وكان مذهب و دعه في طريقه Laissez Faire هو شعار الدولة كلها لانه أنسب شعار للسياسة والاقتصاد في إبان سلطان رأس المال .

ومنها نشوء طبقة أخرى تستولي على آلة الصناعة والاقتصاد غير الطبقة التي يتألف منها أصحاب رؤوس الاموال .

ومنها عجز هذا النظام عن حل النقائض التي تواجهه كل يوم ولا تزال مواجهة له بطبيعة تكوينه وتكوين المجتمعات الحديثة ، وأقوى علامات هذا العجز أن تضطر الحكومات إلى تقييد الإنتاج والإشراف على تنظيم المرافق العامة والحد من الارباح وإحلال نظام « الرسم والتقدير » Planning محل نظام الاباحة والإطلاق .

* * *

لكن زوال رأس المال لا يفيد في رأي برنهام أن الشيوعية الماركسية أو الاشتراكية على العموم هي البديل الوحيد من ذلك النظام الزائل .

فسيزول رأس المال ولا تحل محله الشيوعية ولا الاشتراكية التي تتلخص جميعاً في دعوة واحدة : وهي إقامة مجتمع بغير طبقات .

* * *

إن القول بانقضاء رأس المال شيء والقول بأن الشيوعية البديل الوحيد الذي يخلفه شيء آخر . فليس في بوادر الاحوال ولا في التجارب القومية أو العالمية ما يشير إلى اتجاه الحضارة الإنسانية في هذه الوجهة ، وقد تشير التجارب على عكس ذلك إلى اتجاه مناقض لذلك الاتجاد .

فالاهداف التي ترمي إليها الشيوعية كما هو معلوم .. هي إنشاء مجتمع عالمي بغير طبقات يسيطر عليه العمال .

والتجربة الكبرى التي حصلت في روسيا قد أسفرت عن طبقة حاكصة جديدة تستأثر بالنصيب الاوفر من أرباح الايدي العاملة ، ويتبين من الإحصاءات المعول عليها أن نحو أحد عشر في المائة من السكان يستولون على خمسين في المائة من موارد الدولة ، وهي نسبة أعلى من نسبة الارباح التي تستولي عليها الطبقة العليا في الولايات المتحدة . إذ لا يستولي العشر الأعلى من السكان في الولايات المتحدة على أكثر من خمسة وثلاثين في المائة من مواردها .

ولم يحدثقط حتى الساعة أن الطبقة العاملة سيطرت على مصنع واحد في البلاد الروسية من أقصاها إلى أقصاها ، وهذه حالة يعترف بها الزعماء من عهد لنين ولا يرون لهم محيصاً عنها في تطبيقاتها العملية ، فهم يعترفون اليوم بأن سيطرة العمال على الصناعة وموارد الإنتاج إن هي إلا « صيحة حرب » تجمع الصفوف ليس إلا

وتظل كذلك فترة من الزمن لا يدركون منتهاها ، بل يعترفون _ وعلى رأسهم لنين _ بأن الكلمة العليا في المصنع ينبغي أن تترك للمدير الذي يحكم فيه بأمره ولا يتأتى أن تدار أداة الصناعة بغير هذه (الدكتاتورية) المطلقة .

وقد اختل حساب كاول ماركس في مسألة من أهم المسائل التي بنى عليها تقديراته ونبوءاته وهي مسألة القضاء على أصحاب الاموال باستيلاء العهال على المصانع وإدارتها لحسابهم ، واستيلاء الجند على الاسلحة واستخدامها في مقاومة القادة والرؤساء .

فقبل مائة سنة _ في أيام كارل ماركس _ كانت الآلات الصناعية من البساطة بحيث يستطاع أن تدار بأيدي العهال ، وكانت الاسلحة على مثل هذه البساطة بالقياس إلى خبرة الجندي وذكائه . أما اليوم فقد أصبحت خبرة المهندس لازمة كل اللزوم لتناول الادوات الدقيقة وتحصيل العلم الضروري لتنظيمها في جملة حركاتها ، وأصبحت الخبرة الفنية التي يتدرب عليها المهندس العسكري أعظم وأدق من أن تسلم مقادها للجندي أو للثائر الذي لم يتدرب على استخدام الاسلحة المحتلفة بالاساليب الفنية .

ومن هنا نشأت طبقة غير طبقة أصحاب الاموال وغير طبقة الصناع والعمال تشرف على أدوات الإنتاج ولا يتأتى الاستغناء عنها في المجتمع القائم على الصناعات الكبرى .

وهذه هي طبقة المديرين الفنيين Managers الذين حذقوا أسرار الصناعة أو حذقوا أساليب تنظيمها وتصريفها وترويج مصنوعاتها، وهم بين مهندس وعالم طبيعي وخبير بتسيير العمل في المكاتب أو نشر الدعوة أو استطلاع حاجات الجهاهير وأهوائها المهيمنة على أشكال السلع وأغراضها، فلا غنى لمجتمع من المجتمعات عن هذه الطبقة في العصر الحديث، لانها تسيطر قام السيطرة على أدوات الإنتاج ومحدثات الاختراع التي يتعذر استخدامها عاماً بعد عام على غير الخبير المختص بالهندسة أو بالتدبير والتنظيم.

ومن الواجب تصحيح الخطأ الذي يسبق إلى بعض الاوهام كلها قيل إن طبقة من

الطبقات قد أجلت غيرها من مراكز النفوذ في مجتمع من المجتمعات .

فإذا قال المؤرخ إن طبقة أصحاب الاموال والمصانع قد أجلت فرسان الاقطاع عن مراكز نفوذهم واستولت عليها فهو لا يعني بالبداهة أن هذه الطبقة قد جمعت صفوفها وزحفت على الفرسان في معاقلهم فأخذت عليهم موثقاً بالطاعة والتسليم .

وإذا قيل اليوم إن طبقة المديرين تزجزح أصحاب الاموال عن مراكز نفوذهم فليس المقصود بذلك أنها تغلبهم في مصارعة أو حومة قتال ولو من قبيل المجاز، وإغا المقصود بهذه العبارات أن المجتمع قد أصبح ولا غنى له عن رأي هذه الطبقة في تصريف المرافق العامة، ولا حاجة بعد ذلك إلى تنازع النفوذ بسلاح غير سلاح الواقع الذي لا حيلة فيه للغالب ولا للمغلوب.

يقول برتهام إن العلامات النفسية أحق شيء أن يسمى علامات الساعـة في هذه الشؤون.

فنحن إذا التفتنا إلى أية طائفة من علية القوم في زماننا هذا وجدنا عوارض الحيرة والشك وفقدان الثقة بادية عليها شائعة في خطواتها ومساعيها ، وما من قطب من أقطاب المصارف والشركات وما إليها ترى عليه اليوم أمارات النظر إلى المستقبل في صدق وهمة واطمئنان إلى مصائر الاموركما يتمخض عنها الغد المجهول . إلا طبقة واحدة من هذه العلية المختارة ، وهي طبقة المديرين الفنيين وخبراء الصناعة وما إليها ، فإنهم مطمئون إلى أعهالهم مؤمنون _ من حيث يشعرون أو لا يشعرون _ بأنها الاعهال التي لا غنى عنها في عاجل ولا أجل ، وأنها لا تتوقف على رضا أصحاب الاموال ولا على رضا الصناع والعهال .

ومن الإحصاءات التي يعول عليها برنهام يثبت لديه أن أصحاب الاموال قد أوشكوا أن ينفضوا أيديهم عن العمل المباشر في المصانع والشركات، وأنهم تركوها للمديرين والخبراء يعالجون مشكلاتها بما يعن لهم من مطالب الساعة، وقنعوا بحضور الجلسات السنوية أو الدورية في مجالس الإدارة التي تقصر مهمتها على المراجعة العامة، وقد تكون مراجعة اسمية في معظم الأحيان.

وسيمعن أصحاب الاموال في التخلي ويمعن المديرون في التمكن ، ويمعن المجتمع

في تنظيم مطالب المعيشة ومطالب التجارة إلى أن يصبح تثمير المال في الارباح الفردية صورة لا حقيقة لها في الحياة الاقتصادية ، وتدار المصانع والمتاجر على حساب المرافق العامة التي ترسمها الدولة ، فلا يملك أصحاب الاموال شيئاً من الحرية في التشمير والاستغلال .

ويسأل برنهام : ما هو مصير الديمقراطية مع النظام الجديد ؟ فيسرع في الجواب إلى التفرقة بين الحرية الشعبية والديمقراطية ، ويسلم أن النظام الذي يسميه نظام « الطبقة الفنية ، يكتنفه بعض الغموض ، ولكنه يرى أنه يمترن بالحرية على وجه جديد ، لان الديمقراطية في رأيه مقترنة بنظام رأس المال ، وليست الديمقراطية مرادفة لمعنى « حق الحرية ، حيثها استمتع به الإنسان في الحال والاستقبال .

* * *

وفي تقدير برنهام أن نصيب الشعب من الحرية في النظام الجديد لا يقل عن نصيبه منها في ظل الديمقراطية ، فها كانت الديمقراطية قط حكماً شعبيا إذا أريد بالحكم الشعبي أن يختار كل فرد من أفراد الشعب حكامه ووكلاء ، ورأي برنهام كرأي موسكا في قيام جميع الحكومات على قاعدة واحدة وهي قاعدة و القلة تحكم الكثرة ، على الدوام سواء جرى الحكم على أساس الانتخاب أو على غير أساس الانتخاب ، وغاية ما يحدث بعد مصير الحكم إلى الطبقة الفنية أن الصيغ والعناوين التي يترنم بها الشعب ويتخذها شعاراً له في السياسة تتغير وتتجدد على نحو آخر ، فتحل قداسة الدولة أو الامة أو السلالة محل قداسة الحرية الفردية ، وتحل الجهود المشتركة محل الحوافز الشخصية ، وتحل كلهات النظام والرسم والترتيب محل كلهات العمل المطلق الرخص الحرة وما إليها ، ويستغني الناس عن الحرية التي كانت لازمة في ظل الديمقراطية فلا يطلبونها ، وفرق بين الاستغناء عن حرية من الحريات وبين فقدها أو الديمة بسلطان القانون .

والظاهر من الطور الصناعي الذي انتهى إليه العالم في العصر الحاضر أن مسألة الانتاج قد أصبحت مسألة عالمية لا يتسنى على الإطلاق تنظيمها وتعميم النفع منها مع كثرة الحدود بين الامم وكثرة المكوس والعوائق التي تعترض الإنتاج العالمي من

جراء تعدد الحكومات وتعدد الخطط الاقتصادية . فلا بد إذن من نظام عالمي أو من حكومة عالمية ، وهذه هي النتيجة المحتومة للتنظيم الفني المذي يكفل المنفعة العظمى من تدبير الصناعة وتصريف المصنوعات والتوفيق بين مقادير الخامات ومطالب الاسواق .

نهل من الميسور تأسيس حكومة عالمية تتولى تدبير شؤون الامم جميعاً وتجمع أعنة السيادة كلها في أقل عدد مستظاع من الايدي والرؤوس!

إن الحوائل دون هذا الغرض كثيرة ، ومنها اختلاف الآجناس والتقاليد الموطنية وصعوبة الاعتاد على جيش واحد لتوطيد سلطان الدولة العالمية ، ولكن برنهام يعتقد أن تدبير الامر مستطاع بالاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ريثها تتهيأ الاحوال التي تسمح بتوحيد الحكم أو توحيد القواعد الاقتصادية بين أمم العالم ، وما دام هذا هو المصير الذي لا محيد عنه فسوف تنجم الحيلة من هنا أو هناك لتوجيه الخطى إلى هذه الوجهة ما بقى للحضارة حظ من البقاء .

ويحرص برنهام على التمييز بين مذاهب الدعوة ومذاهب البحث والاستقراء في مسائل السياسة .

فمذاهب الدعرة يراد بها الإقناع باختيار نظام معين ، ومذاهب البحث والاستقراء تلتزم أمائة العلم فيا تقرره وتأخذ نفسها بوصف ما هو واقع أو ما سيقع بالقياس إلى التجارب الماضية والحاضرة .

ومذهب برنهام ـ في اعتقاده ـ من المذاهب العلمية التي يراد بها تقرير الواقع ولا يراد بها التبشير والتأثير على الجماهير وهو يسوق الامثلة على صحة استقرائه من قيام النظام الشيوعي في روسيا وقيام النظام النازي في ألمانيا وقيام التوزيع الجديد Deal في الولايات المتحدة وقيام خطط الرسم والتنظيم في شؤون الصناعة والتجارة في العالم كله منذ نشوب الحرب العالمية إلى اللحظة الحاضرة .

فكل هذه التجارب _ كما يراها برنهام _ هي عوارض التحول إلى حكم الطبقة الفنية أو إلى الطور الجديد من أطوار الحكم والسياسة .

فليس مذهب كارل ماركس هو الذي يطبق في روسيا بل هو نظام الطبقة الفنية ، وليست فلسفة النازية هي التي نفذت في ألمانيا على عهد هتلر ولكنها هي المحاولة في طريق الحكم الفني مع القضاء على نظام رأس المال ، وليس التوزيع الجديد في الولايات المتحدة برنامجاً مرتبطاً بشخص الرئيس روزفلت كها خيل إلى بعض نقاده ولكنه هو حكم الضرورة الذي أوجب عليه أن يلجأ إلى و توزيعه الجديد و يوجب الاستمرار فيه على من خلفوه وسيخلفونه .

ومتى تداعى نظام رأس المال فتلك علامة على التطور الطبيعي الذي لا يرجع إلى الوراء ، وسينقضي عهد الشيوعية في روسيا وفي غيرها فلا يلزم من زواله أن تعود الامم إلى نظام رأس المال كما كانت قبل التجربة الشيوعية ، وإنما تبطل التجربة الشيوعية لتعقبها ولاية المديرين الفنيين حيثها وجدت الصناعة الكبرى ، فإن لم توجد فالبلاد التي تخلو منها تظل معلقة بدولاب من دواليب الامم الصناعية الكبرى إلى أن تتالك قواها وتتمكن من الوقوف على قدميها .

هذه هي النتيجة العملية التي فصلها برنهام في كتبه المتعددة وأهمها هو كتابه الدي ألف في أوائل ايام الحرب العالمية وسياه الانقلاب الفني Managerial الفني Revolution ، ففي هذا الكتاب خلاصة مذهبه كله بتفصيل كاف لبيان مواطن القوة والنقص فيه . إلا أنه أضاف إليه بعض الحواشي والتعليقات في خلال كلامه عن فلاسفة الحكم الذين سياهم بالمكيافيليين لانهم جميعا يجعلون للحكم صورتين تختلف الظاهرة منها عن الباطنة ، ولا تنطبق الدعوى فيها على الحقيقة الواقعة .

ففي ختام هذا الكتاب يوجه برنهام ثلاثة أسئلة وهي : هل يمكن الوصول إلى مقررات علمية في شؤون السياسة ؟ وهل يتيسر تعويد الجماهير أن تتصرف في أعمالها السياسية وفاقاً للعلم أو لمقتضيات المعقول ؟ وهل يتيسر للحاكمين اتباع قواعد العلم في حكم الرعايا ؟

وجوابه عن السؤال الاول « نعم » لان استقصاء الوقائع والمقابلة بينها وردها إلى أهم أسبابها المتواتزة واستخلاص النتائج منها هو كل ما يلزم لإنشاء ه علم السياسة » والوصول إلى المقررات العلمية في مسائلها ولو على وجه التقريب ، وهذه المباحث كلها ميسورة لمن يعكف على دراستها وللذين يتابعون درسها لنقد عيوب الدراسات

الاولى منها .

أما جوابه عن السؤال الثاني فهو نفي هذا الاحتال لان الدرس العملي لا يتساح للالوف والملايين في حالات الطلب والغضب والتشيع والتعصب وما شابع هذه الحالات التي لا تخلو منها جمهرة الرعايا في وقت من الاوقات .

وقد أجاب عن السؤال الثالث بترجيح إدكانه ، لان توزيع العصل بين العلماء والفنيين يتيح لهم أن يعتمدوا على طائفة منهم يتفرغ للبحث وتملك المعلومات الكافية للتقدير الصحيح ، ولا سيا التقدير الذي تدار على أساسه مصانع ومعامل توازن بين ما هو مطلوب منها في مختلف المواسم والمناسبات .

ولعل الطبقة الفنية التي تشرف على أدوات الإنتاج ستتولى الحكم وهي أقدر على صد الاغنياء وكبح الجهاهير من حكومات رأس المال. لان الاغنياء هم الذين يسيطرون على تلك الحكومات وجهرة العمال قادرة على تهديدهم في مصالحهم بالإضراب والاعتصاب والهجوم على المصانع أملا في إدارتها لحسابهم كما يمنيهم زعماء الشيوعيين، وهذا خلاف ما يجري عليه العمل في حكومات الفنيين، لانهم لا يملكون شيئاً غير الخبرة التي لا ينتزعها منهم المهددون من الفريقين.

على أن الذين يقرون برنهام على اعتقاده في « علم السياسة » يخالفونه في سهولة التطبيق الصحيح ، والمهم في السياسة هو التطبيق .

فردريك أوجست قون هاييك

Friedrish August Von Hayek

1199

تعتبر مدرسة الحريين مدرسة إنجليزية في نشأتها وتدعيمها وكثرة أتباعها ، ولا يستثنى بعضهم مذهب «هوبس» الفيلسوف من مذاهب هذه المدرسة وهو الداعي إلى تزويد الحكومة بالسيطرة القوية ، لانه _ مع ميله إلى تعزيز سيطرة الحكم _ يقرر أن الحكم كله قائم على تراضي المحكومين واتفاقهم على تنصيب الحاكم ، منعاً لعدوان بعضهم على بعض وضماناً من الخوف الذي يساور ضعفاءهم من أقويائهم إذا ارتفعت عنهم سطوة الهيئة الحاكمة .

ويتفق فلاسفة الاقتصاد السياسي وفلاسفة الحكم على مذهب الحريين ، فالمدرسة الإنجليزية ـ مدرسة آدم سميث ـ تلخص آراءها الاقتصادية في إرسال المعاملات بغير قيد وتتخذ شعارها عبارة (دعة في سبيله) على اعتقاد أن سنن الاخذ والعطاء والعرض والطلب خير كفيل بتنظيم المعاملات في الاسواق الداخلية والاسواق الخارجية على السواء .

ويجاريها فلاسفة الحكم من جون ملتون إلى جون ستيورات ميل إلى اللورد أكتون إلى هربرت سبنسر إلى برتراند رسل في العصر الحاضر ، وخلاصة آرائهم جميعا أن « الحرية الفردية » غرض مطلوب لذاته وليست وسيلة نتوسل بها إلى غرض آخر ، وأن مهمة الحكومة مقصورة على كفالة هذه الحرية الفردية فلاحق لها في استخدام شيء من السيطرة وراء هذه الغاية .

على أننا اخترنا الاستاذ هاييك لتمثيل هذه المدرسة لان كلامه فيها أقرب إلى البحث المجرد الذي لا يصدر عن تقليد من التقاليد القومية ، فليس هو من صميم الانجليز ولا من الذين تعلموا في المدارس الإنجليزية ، ولكنه ولـ في النمسا وتعلم فيها وفي الولايات المتحدة وانتقل بعد ذلك إلى إنجلترا حيث يقيم الآن ويشتغل بالتعليم في جامعاتها . وقد أصبح له صوت مسموع في ميدان الثقافة والسياسة وشاعت آراؤه على أثر نشرة لكتابه المسمى « بالطريق إلى الرق » ويعنى الكتاب أنه لا يكتفي بترديد المبادىء الاولى التي أيد بها الحريون مذهبهم لاختلاف الاحوال بين القرن الماضي والقـرن الحـاضر ، فإن مبـادىء الحـريين الاولى قد لوحظ فيهـا تفنيد حجـج المخافظـين الـذين كانـوا يميلـون إلى تقييد الواردات وزيادة المكوس واحتكار الاسواق ، أما مبادىء الحريين في العصر الحاضر فالملحوظ فيها تفنيد القائلين باستيلاء الدولة على المرافق العامة وتعميم نظام التأميم على المنشآت القومية الكبرى ، وقد ساعد على إقحام هذه المبادى، في البيئة الإنجليزية عوامل جديدة لم تكن معهودة في القرن الثامن عشر ، ومنها مشكلة البطالة وتكاثر حزب العمال والاضطرار إلى تقييد التجارة وتنظيم الإنتاج في الحرب العالمية الاولى وفي الحرب العالمية الثانية ، وتزاحم الدول على الاسواق واعتاد أصحاب المصانع والشركات على مساعي حكوماتهم عند الحكومات الاخرى.

فمذهب الحريين كما يعرض الآن مذهب جديد في أسبابه ومناقشاته وإن كان قديماً في أصوله وغاياته ، ويبلو من ذيوع كتاب الاستاذ هاييك أن أنصاره والمستعدين للاقتناع به غير قليل بين قراء الإنجليزية ، فقد طبع ست مرات بعد طبعته الاولى ونشرت منه طبعة شعبية غير الطبعة الخاصة ، واعتبره الحريون

معبراً صادقاً عن آرائهم في الرد على أنصار التأميم والتعميم .

يعمد الاستاذ هاييك إلى الحجة الاولى من حجج المقيدين والمنظمين ـ وهمي ضرورة التأميم في العصر الحاضر تبعاً لتقدم الصناعة ـ فينفيها كل النفي ويستند في نفيها إلى بيانات لجنة الاقتصاد القومي الامريكية التي درست مسألة التركيز الاقتصادي وسجلت نتائج بحثها في تقرير واف قدمته إلى الكونجرس منذ عشر سنين (1981) .

وفحوى حجة المقيدين والمنظمين أن تقدم الصناعة في العصر الحاضر لا بد أن يفضي إلى نتيجة من اثنتين : إما احتكار الاسواق في أيد قليلة ، أو سيطرة الحكومة على المصانع والاسواق ، لان تقدم الصناعة يجعل في مقدور المصانع الكبيرة ان تقضي على المنافسة بقلة التكاليف وجودة البضاعة ورخص الآسعار ، فإذا تركت الحكومة حبل المصانع الكبرى على غاربها فالنتجية المحتومة هي الاحتكار والقضاء على صغار الصناع والتجار .

والاستاذ هاييك يقول إن شيئاً من ذلك لم يثبت من بحوث المختصين ، فلا جودة الصناعة ثابتة للمصانع الكبرى ولا سيطرة الحكومة ضرورية لتنظيم الصناعات .

ويختصر الطريق فيقول إن السيطرة الحكومية بدأت في ألمإنيا منذ ثلاثين سنة حيث لم تبلغ الصناعة غايتها من التقدم وتأخرت في إنجلترا الى سبقت الامم الاوربية في هذا المضهار . والمعروف أن أصحاب المصانع هم الذين يسعون إلى تقرير نظام التقييد والتنظيم ويبذلون في هذا السبيل غاية ما يستطيعون من وساطة وتأثير . فلو أن الامر كان حتما مقضياً لا محيد عنه لاراحوا أنفسهم من المساعي الحثيثة في هذا السبيل .

وليس قصارى الاعتراض على التقييد والتنظيم أنه عمل لا تقضي به الضرورة في الظروف العامة ، وإنما يعترض عليه الحريون لانه سياسة ضارة بالصناعة نفسها وضارة بالاخلاق والاداب وضارة بقضية السلام في العالم .

فقد كان تقدم الصناعة والاختراع مقترناً بحرية المعاملة وفتح باب المنافسة لمن

يشاء ، ولن يطرد هذا التقدم إذا بطلت المنافسة ووكل الامر إلى رقابة الموظفين الذين يعملون لغيرهم ولا يعملون لانفسهم .

ومتى استقر الرأي على تفويض الحكومات في شؤون الإنتاج والاقتصاد فمن لوازم هذا التفويض أن يسمح لها مقدماً باتخاذ كل « إجراء » يستدعيه التنفيذ في حينه ولا يتأتى أن يحسب له حسابه قبل ذلك الحين ، ومؤدى ذلك ذهاب حكم القانون الذي يتعارف عليه الناس قبل تنفيذه ، وإيكال الامور كلها إلى تقديرات المنفذين على حسب كل ظرف من الظروف .

يقول الاستاذ إن خير وسيلة لحسن العمل هي إقناع العاملين بصوابه وحسن جدواه ، وليس من الممكن إقناع الناس قاطبة بخطة من الخطط السياسية أو الاقتصادية تطبق عليهم في جميع الاحوال ، فينتهي الامر بإحلال الدعوة والتبشير محل التعقل والإقناع ، ويتعارف الساسة والرعايا على الخداع والتضليل للتوفيق بين الدعوة وبين أمزجة الناس وآرائهم ، وتنشطر الامة إلى فريق مع النظام وفريق خارج عليه محتاج إلى الإكراه أو إلى التشنيل لإدخاله في سلك ذلك النظام ، ومن هذا الانقسام تنشأ رذيلة الاستنداد التي تقصر الحقوق القومية على من يشايعون السلطان القائم ، ومتى كانت الحكومة هي صاحبة العمل وصاحبة السلعة فالذي يخالفها يقاطع موارد الرزق ويتعرض للجوع والانتقام على يد القانون .

ويناقش الاستاذ أقوال القائلين إن الآفة في الدولة المستبدة هي آفة الحاكمين بأمرهم لا آفة النظام نفسه ، وإن البلاد الالمانية والايطالية لو أسندت إلى حكام غير هتلر وموسوليني ومن معها لما ساءت فيها الامور كما ساءت ولا تعرض السلم في العالم للخطر كما تعرض له من جراء خطل الرجلين ومن على شاكلتهما من الاشرار أو الإمعات ، ولا أفضي الخطر فعلا إلى وقوع الحرب واتصال القلاقل في العالم بعد هزيمة المعتدين .

يناقش الاستاذ أقوال هؤلاء ويخرج منها على نقيض ما زعموه: وهو أن الأفة في النظام حيث كان وليست الأفة في آحاد معدودين يبرزون بالمصادفة والاتفاق في بلد دون بلد وزمان دون زمان.

إن الدكتاتور ـ الحاكم بأمره ـ يصعد إلى عرش جبروته بتأييد جمهرة من الامة يستمد منها القدرة المطلقة على قمع معارضيه وفرض الطاعة العمياء على جميع المحكومين ، وهي تخوله الامر المطلق لانها تتقبل و نظرية واحدة ، في شؤون السياسة .

ومن القواعد المقررة أن الإنسان كلما اترقى في العلم والفهم بلغ مرتبة الاستقلال بالرأي والاستقلال بالخلق ، فلا يتسنى اجهاع كثرة غالبة من هؤلاء المستقلين فيها وبغير تعقيب عليها .

فالجمهرة التي تؤيد الدكتاتور هي بطبيعتها جمهرة مسفة في طبقة الفكر والخلق ، تهون عليها حريتها وتهون عليها حرية غيرها . ولا تشعر بفقدان الحرية ، لان الذي يشعر بفقدانها هو الذي يقدر على استقلال الرأي فيشعر بالحجر عليه .

ولا يخفى أن الحاكم بأمره يتعلل على المجالس النيابية لانه يتهمها بتضييع الوقت في المناقشات ويرغب في سرعة الإنجاز ومضاء العزيمة عند البت في جلائل الامور ، فإذا رسخت قدمه في مكانه فليس من المعقول أن يطبق المعارضة عمن حوله ولا أن يحتمل المشاركة وهو قادر على التفرد برأيه ، فلا يلبث أن يحيط عرشه بمن يذعنون له خوفاً واستسلاماً أو عجزاً عن مقابلة الرأي بالرأي والدليل بالدّليل . ولن تطول هذه الحالة حتى تقضي على عناصر التفكير والاستقلال فيمن يقبضون على أزمة الدولة ويذيرون معه أداة الحكومة .

ولما كانت جمهرة المحكومين لاتساس بالرأي والروية فلا غنى للحاكم المستبد عن سياستها بإثارة العواطف وتحريض نوازع البغضاء والحماسة على « العدو المزعوم » الذي يخترعه لها إن لم يكن له وجود في مخيلتها . وقد كان « اليهودي » هو العدو المختار لشعب ألمانيا ، وكان الكولاك او مالك الارض هو العدو المختار لشعب روسيا ، وكانت إنجلترا تارة وحكومات « رأس المال » تارة الحرى هي العدو المختار في السياسة الخارجية ، وعلى الدكتاتور متى استثار حفائظ البغض في نفوس رعاياه ـ أن يسمح لها بافتراس ضحاياها وأن يخلي بينها وبين أعدائها ،

ولها منه أيضاً أن تعينه على ضحاياه وأعدائه . . إذا انهم هم العدو المشترك الذي يقف في الطريق دون بلوغ العظمة المنشودة والمجد المأمول .

فحكم القسوة والإجرام وضيق الحظيرة وقلة الصبر على الآراء المخالفة طبيعة ملازمة للحكومة المستبدة ، وقد قيل إن الطغيان يفسد صاحبه وإن الطغيان المطلق فساد مطلق في جميع الاحوال ، فإذا اتفق مرة أن يتبوأ عرش الطغيان حاكم صالح فلا أمان عليه من عدوى الفساد والانحدار .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن الحكومات انما تسيطر على المصانع والسلع لتتولى هي أعمال التجارة مع الامم الاخرى على أساس القوة والغلبة ، فتصطدم القوة بالقوة ويقع الاحتكاك الذي يخشى منه على السلام العالمي ، ويلتفت العالم بعد الخراب الجائح الذي ابتلي به من جراء المنازعات والحروب فإذا هو قد أضاع من الزمن بتلك السرعة المزعومة أضعاف ما يضيع عليه في المناقشات الحرة ، فضلا عن خسائر الارواح والاموال .

ويعتقد الحريون أن تجارب التقييد والتنظيم محاولات مخفقة تؤول في النهاية إلى الاعتراف بالمنافسة الحرة في نضاقها الصالح الذي لا يجاريها فيه نظام آخر.. فهي محاولات غير ممكنة كما أنها غير ضرورية . فليس في الدنيا إنسان ولا جملة من الناس يملكون المعلومات والوسائل الكافية لإخراج كل سلعة بالقدر اللازم في الأونة اللازمة ، وإنما يتكفل التنظيم بناحية وتتكفل المنافسة الحرة بناحية أخرى ، وتتقلب الاحوال في الاسواق أبداً على حسب الطلب والمحصول وكثرة هذه السلعة وقلة تلك وتغير الاذواق والحاجات بما لا يدخل يوماً في حساب ولا تدس .

ويطول شرح الأراء والاسباب التي يبنون عليها نظرياتهم في حكمهم على عاقبة التقييد والتنظيم ، سواء منه ما يطبق في ميدان الاقتصاد القومي أو في ميدان المبادلات العالمية .

وقد جمع الاستّاذ هاييك طائفة من بحوث علماء الاقتصاد في الامم الاوربية كالاستاذ بيرسون الهولاندي والاستاذ لدقع قون ميز النمسوي والآستاذ جورج هالم الالماني والأستاذ بوريس برتزكاس الروسي وقدم لها في مجموعة باللغة الإنجليزية نشرت باسم (تنظيم الاقتصاد الجهاعي Collectivist Economic الإنجليزية نشرت باسم (تنظيم الاقتصاد الجهاعي العجاوب الجهاعية في المحافظة المنتخل المتناء روسيا الشيوعية ، وخلاصة هذا الرأي أن الإنتاج الجهاعي مستحيل بغير تقدير (ثمن اللسلع يتوقف على نسبة الحاجات المعيشية بعضها إلى بعض ولا ينيسر التحكم في تقديره بحال من الاحوال .

وما معنى تقدير « الثمن » الذي يرتفع ويهبط من حين إلى حين ؟ معناه الموجز أن ضبط مقادير السلع بالتحكم والإملاء السابق غير مستطاع ، وأن الحرية الاقتصادية على نحو ما تتغلب على أوامر التحكم والإملاء .

والاستاذ بيرسون الهولندي يعرض في بحثه عن مشكلة (القيمة التوزيع اللخل في بلاد الصناعة المقيدة فيتساءل : هل يوزع اللخل بتقدير عمل العامل أو يوزع الدخل بغير نظر إلى عمله ؟ فإذا تغاضى ولاة الامر عن عمل العامل فلا صناعة ، وإذا دخل تقدير العمل في الحساب فهناك التفاوت بين الدخول المتعددة ، وإذا تكفلت الدولة بتشغيل كل عامل فلا بد من وقت يقل فيه الطلب أو تقل فيه الخامات أو تختلف فيه النسب والمقادير فيتعرض فريق من عمل بعض الصناعات لركود الحركة أو البطالة وتصل إليهم الاجور من قبيل الإعانة والإحسان ، وتتشابه الصناعات المؤممة والصناعات الحرة في علاج البطالة على هذا الاسلوب .

ويتساءل أيضا: هل تتغير عادات الكسل والتواكل وإدمان السكر والطمع والإجحاف في الرؤساء والمرؤوسين اذا كان نظام التقييد والتأميم متوقفا على صلاح الاخلاق ؟ وإذا كانت هذه العادات تتغير فما الحاجة إلى قلب النظام الاجتاعي من حال إلى حال والناس يستريحون في ظل كل نظام حيثها عدل الكسلان عن الكسل وعدل السكير عن السكر وعدل المجخف عن الإجحاف ؟ وظاهر من هذه الأراء أن الاستاذ بيرسون وزملاءه من الحريين يرجعون بأسباب الفقر إلى عادات الإنسان وأخلاقه كيفها كان النظام وكيفها كانت أساليب الإنتاج .

والتنظيم العالمي مشكلة أعضل من مشكلة التنظيم القومي وتوزيع الدخل بين العاملين في الامة الواحدة . فمن الذي ينهض بعب، رأس المال في الصفقات الدولية ؟

تريد هولندة أن ترسل إلى جاوة بضائع مصنوعة في مقابلة صفقة من الارز والبن . فهناك ثلاث طرق لإجراء هذه المبادلة : إحداها أن يصل الارز والبن إلى هولندة ويؤدى ثمنه بعد وصوله أو بعد وصوله واستنفاد بعضه ، والاخرى أن تصل البضائع المصنوعة إلى جاوة ويؤدى ثمنها بعد وصولها واستنفاد بعضها ، أو يرسل كل من الطرفين مبادلته وتلتقيان في منتصف الطريق . فجاوة هي التي تنهض بعبه رأس المال في الحالة الاولى ، وهولندة هي التي تنهض به في الحالة الثانية ، وكلتاها تنهضان بالعبء في الحالة الثانية .

ثم يتساءل الاستاذ بيرسون قائلا: ما العمل في الامم التي لا تملك رأس المال حاضراً وتتسلف عليه في انتظار موسم من المواسم ؟ فهنالك أمم لا يحضرها رأس المال كل ساعة وهناك أمم يحضرها الوفر منه دائما ولا يضيرها أن ترجىء الحصول على ثمنه في مقابلة شيء من الربح المنتظر ، وهناك أمم تنقص نصيبها من مادة لتتم نصيبها من مادة اخرى ، وقد يعظم الطلب في العالم على مادة زراعية على حسب المواسم التي تختلف من سنة إلى سنة ثم يقل الطلب على تلك المادة يعينها في نهاية ذلك الموسم ، وتداول المواد والاثمان والصفقات العاجلة أو الأجلة يجري الأن على السنن التجارية والاقتصادية في أعمال المصارف والبيوت التجارية . فكيف يحل التنظيم العالمي محل هذه الطريقة ؟ وعلى أي سنة يجري تقدير الاثمان وتقدير ما تؤديه كل أمة في كل حالة ؟

وخلاصة ما يتوافق عليه الاقتصاديون الحريون في مشكلة التنظيم العالمي أنها تحتاج إلى تدبير أصحاب الحيلة الناجحة وتدبير أصحاب الكفاءة الضرورية لتنفيذها وتدبير أصحاب الهمة والامانة إذا توافرت الكفاءة . فمن الذي يضمن تدبير ذلك كله في وقت واحد وعلى حساب المفاجات التي لا تدخل في حساب ؟

وكلهم يتسلملون: ما الحاجة إلى قلب نظام الدنيا إذا فرضنا أن الدنيا ستتحول فيا بين ليلة ونهار إلى فردوس كفردوس الملائكة الابرار؟ ويتسلملون أيضا: ربما وجدنا الرجال الذين يصبرون على الشظف من أجل تمجيد صناعتهم الوطنية. ولكن أين هم الرجال الذين يصبرون على الشدة ويقاومون المحنة من أجل سكان مجهولين في جزيرة مجهولة يسمعون بها كرقعة ملونة على خريطة الكرة الارضية؟

كذلك تستطيع الحكومة القومية أن تقنع بعض رعاياها بالتحول من زراعة إلى زراعة باسم الحمية الوطنية وعلى اعتقاد أن المنفعة تؤول إلى إخوانهم في الوطن الواحد . ولكن كيف تقنع الناس في كل موسم بخطة جديدة تصدر من الهيشة العالمية التي تشرف على تنظيم الموارد والمصادر ؟ ومن أين تأتي القوة العسكرية التي تكره المخالفين والعصاة على الطاعة ؟ وكيف يرضى أبناء إقليم من الاقاليم بإهدار مصالحهم كلما وقر في أخلادهم أنهم ضحية لمطامع الدول الغنية ؟

إنه على الجملة تنظيم غير ضروري وغير ممكن ، ويزيد على ذلك أناس من الاقتصاديين المؤمنين بمحاسن المنافسة الحرة فيقولون إنه ضار بالافراد وبالامم وبالانسانية على عمومها . ففي ظل المنافسة الحرة التي تكفل بها نظام رأس المال نشأت حرية الفكر وحرية الضمير وحرية المعاملة واتسعت حقوق العمال وارتفعت أجورهم وتهيأت لهم ولاية الحكم في أمم كثيرة وتبين بالإحصاء أن دخل الفرد قد تضاعف من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين بحسبان ما يقدر على شرائه لا بحسبان ما يقبضه من العملة وتبين بالإحصاء كذلك أن دخل العامل في روسيا الشيوعية يزيد بقليل على ربع الدخل المتوسط بين عمال الولايات المتحدة ، وهذا مع الفارق البعيد بينها في الحرية وفرص التقدم ، ومع الفارق البعيد بين مخاطر الحياة قبل القرن الثامن عشر في الدنيا عامة وضها نات الحياة المختلفة بعد قيام رأس المال . فقلت المجاعات والاوبئة وقلت ضحايا الجهل والخرافة ، وخطا بنو الإنسان في قرن واحد خطوة أوسع وأجمدى عليهم من خطواتهم في عشرات القرون .

ومساوىء النظام حقيقة لا ينكرها أحـد . ولكننـا لا نقابـل نظامـاً معـروف المساوىء بنظام خلا من جميع المساوىء . فها من نظام في الحاضر والمستقبل يخلو

من مساوئه التي تعاب عليه . وإنما المقارنة بين مساوى، نظام ومساوى، نظام يلفيه ويعفي على محاسنه ولا ينبغي أن ننسى أن من المساوى، ما هو لصيق بعيوب الإنسانية ولا أمل في تبديله حتى تتبدل طبائع الإنسان .

إنما الوجه أن نحسب الحسنات مع السيئات ، فلها ذا ينسون الحسنات حين يذكرون السيئات ؟ ولماذا يعالجون نظام المنافسة الحرة بهدمه ولا يعالجونه باصلاح سيئاته ؟ فالسيارات مثلا لها مخاطرها وتكاليفها وأضرارها وضحاياها ، وما من أحد يقول بإلغاء صناعة السيارات من أجل تلك الآضرار ، بل يقولون جميعا بتحسين معاملها وتوسيع طرقها ومد مسافاتها ، ويحتملون العيوب من أجمل الحسنات ، ثم ينظرون في إصلاح العيوب حيثها استطيع الإصلاح .

والنتيجة من مذهب الحريين الحديث والقديم معاً هي « أولا » أن التقييد غير لازم و« ثانيا » أنه غير مستطاع و« ثالثا » أنه غير مأمون العاقبة على المصالح والحريات و« رابعا » أن نظام المنافسة الحرة كغيل بإصلاح عيوبه مع الزمن على حسب مقتضيات الاحوال .

وقد يسبق الى الخاطر مما تقدم أن الحريين المحدثين يتابعون الحريين الاقدمين في رفض التقييد بنة وإطلاق الحرية للمنافسة الصناعية والتجارية بغير استثناء ، وأنهم يعودون إلى شعار الحريين الاول الذي فحواه : « دعه لسبيله » أو « دعه في سبيله » Laissaiz Faire كما وضعه الساسة والاقتصاديون في القرن التاسع عشر بغير تنقيح .

إلا أن الحريين المحدثين لا ينحون هذا النحو ولا يرفضون التقييد والتنظيم كل الرفض في جميع الاحوال .

إنما يرفضون شيئاً واحداً وهو التقييد الذي يبنيه أصحابه على نظريات فلسفية قابلة للخلاف ويفرضونها على المجتمعات كأنها وحي مبرم لا تبديل لكلماته ولا يطاق الخلاف عليه .

إنما يرفضون الحجر على المستقبل إلى آخر الزمان ذهاباً مع معلومات تتغير في كل عصر وقد تنقلب من النقيض إلى النقيض ، أو هم يرفضون التقييد الـذي هو

حجر على مساعي الارزاق وحجر في الوقت نفسه على العقائد والافكار وإكراه للعقول على أن تفهم كما يفهم فريق من الناس ، وللايدي على أن تعمل كما يسوقونهم من الآن إلى غير انتها.

فهذا هو التقييد الذي يرفضه الحربون المحدثون ، ولكنهم لا يرفضون إشراف الله المرافق التي لا يستقل بها فرد أو جملة أفراد ، ولا يرفضون التقييد الذي توحيه المصالح والظروف حسب الحاجة المتجددة ، وقد يبيح في عام ما يحظره في عام ويخضع في الاباحة والحظر للرقابة العامة التي تصونه عن فساد الاحتكار وفساد الطغيان وفساد التعسف بالاهواء والنزوات .

واسم الحريين كاف لبيان لباب المذهب بحذافيره . . فالحربة الفردية أو حرية الضمير الإنساني هي الغاية القصوى التي تخدمها كل غاية ، وتحسين العيوب مع بقاء الحرية أمل مشروع يجاري سنة الحياة التي تقوم على الخطأ والتجربة والإصلاح ، ولكن ذهاب الحرية خسارة محققة بغير عوض مضمون ، لانه مقدمة لذهاب المصلحة الفودية والمصلحة القومية ، ومن وراء ذلك ذهاب المصلحة الإنسانية وخسارة المادة والروح .

جراهام والاس

Graham Wallas

1944 - 1404

كاتب اجتاعي اشتغل بالتدريس وساهم في تأسيس الجمعية الفابية الاشتراكية وكان أحد الاعضاء في لجنة التحقيق التي ندبتها الحكومة الإنجليزية لبحث مسألة الوظائف والموظفين ، وألف كتبا قيمة في أصول السياسة والاجتاع : منها كتاب « الطبيعة البشرية في السياسة » وكتاب « الهيئة الاجتاعية العظمى » وكتاب « الرأي الاجتاعي » ورسائل منوعة تدور حول هذا المرضوع ، عدا بعض التراجم والتقارير .

وهذا الكاتب الالمعي طراز آخر غير الكتاب الذين أجملنا الكلام عليهم في هذه الرسالة ، فهو لا يتشيع لشكل خاص من أشكال الحكومة ولا يستخلص من عبر التاريخ محورا خاصا تدور عليه النظم الحكومية ، ولكنه يحاول أن ينشىء علما للسياسة يضارع علم الاقتصاد أو علم الاجتاع إن لم يبلغ في دقته مبلغ العلوم الطبيعية والرياضية ، ويهتدي في محاولته هذه بقول أرسطو إذ يقرر أن السياسة علم يدرس للعمل لا لمجرد الفهم والمعرفة ، فلا ينفعنا أن نرصد حركات الامم

في الماضي ونقيس عليها حركات الامم في المستقبل ونضبط القياس حتى لا يختل قيد شعرة في تقدير ما هو كائن وما سوف يكون . فإن علماء الفلك يتقنون الحساب الذي يترسمون به سير الكواكب في مداراتها وملتقى الشموس والاقمار في أوقاته ، ومواعيد الحسوف والكسوف بأيامها وساعاتها ودقائقها ، ولكنه علم لا يتيح لاحدهم أن يحول كوكبا عن عجراه أو يؤخر لحظة من موعد الحسوف والكسوف .

أما المقصود بعلم السياسة فهو الاحاطة بمجاريها والاقتدار على تعديلها وتحويرها والتأثير فيها ، ومثل هذا العلم لا يكمل في سنوات ولكنه قد يبدأ في ساعات وينتهي بعد حين إلى فائدة لا شك فيها ، ولوظل ناقصا مختلطا عدة سنين .

ورأى جراهام أن تكوين علم السياسة لا يستلزم أن يكون الإنسان معقولا في تصرفاته السياسية ، وهو على حق في ذلك . إذ ليست المراقبة العلمية وقفا على أعال المتعلقين والمناطقة بل هي قد تتناول حركات الجاد كما تتناول حركات الإنسان في المجتمع السياسي معقولا وغير معقول . وصدق من قال إن المرء ليحتاج إلى كثير من التعقل ليعلم كم يخلو الإنسان السياسي من التعقل ، ولا سبيل إلى فهم السياسة ولا إلى وضع علم للسياسة مالم تكن هذه الحقيقة ماثلة أمام من يدرسونها .

وقد مات جراهام والاس ولما يفرغ من محاولاته في تقرير قواعد علمه ، فلا نريد في هذا الفصل أن نلخص محاولاته تلك أو نلخص المقررات التي عساه كان منتهيا إليها لو امتدت به أوقات الاستقراء والتقرير ، فغاية ما في الوسع أن نعرض هنا نماذج من الاغاليط التي طرحها على مشرحته وأن نلم بأمثلة من أساليبه في مناقشتها أو تفنيدها ، وهي باتفاق الأراء أساليب علمية منزهة عن الهوى السياسي والدوافع الشخصية .

عرض مثلا لقول القائلين إن العامل الاول الذي يحسب حسابه في تصرفات الإنسان السياسية هو حب المنفعة .

فبعد أن تساءل : هل يصدق الإنسان في تقدير منفعته دائها ؟ عاد يضرب المثل لحالة إنسان عرف منفعته في صفقة من الصفقات فإذا بمعرفة المنفعة وحدها لا تكفى لتحقيق غاية من الغايات .

اطلع ذلك الإنسان مثلا على نبأ في صحيفة يدله على طريق منفعة من وراء المساهمة في إحدى الشركات . . فليس هذا الاطلاع وحده كافيا لعمل ما . بل ينبغي أن يتبعه النشاط اللازم للعمل والخبرة الصالحة لاستخدام ذلك النشاط ، وإلا فالعلم بالمنفعة والجهل بها يستويان .

وعرض لرأي القائلين إن الإنسان خاضع لعاطفته في حركاته السياسية ، فقال إن العاطفة الواحدة قد تكون خالصة أو تكون مشوبة فيختلف أثرها في الحالتين .

فالرجل الذي يرى صديقاً مشوها يرحمه ويبكي لمصابه ، وهذه هي العاطفة الإنسانية الخالصة .

غير أنه يصرع الناس ويشوههم إذا التقى بهم في ميدان القتال وقيل له إنهم أعداء الوطن أو أعداء الدين ، فينسى الرحمة أمام الصرعى والمشوهين وتخامره الغبطة حين يعمل الصراع والتشويه في أولئك الاعداء ، وشوائب العاطفة مهمة في هذه الحالة ، لا تقل في وجوب الاهتمام بها عن العاطفة كها خلقت في بنية الإنسان وهي خالصة من شوائبها .

وعرض لرأي القائلين إن نظام الحكومات الماضية والحاضرة قام على حق الملكية ، فقال إن أصحاب هذا الرأي يخيل إليهم أن الإنسان يعمل عملا معقولا حين يبسطيده على قطعة من الارض ، وأن حرصه عليها معادل لانتفاعه منها . على حين أن غريزة (الاحتجاز) تغرى الطفل بججز الاشياء التي لا تنفعه ولا يعرف منفعتها ، وما من أحد إلا وهو ينفر من الشعور بالمشاع في حياته ويحب أن ينفرد بحوزة خصوصية أو خلوة نفسية Privacy حيث كان في عزلته واجتاعه ، وقد لحظت بعض الاندية هذا الشعور فجعلت من أدابها المرعية أن يقصر العضو خطابه على معارفه من الاعضاء ، ولا يستبيح لنفسه أن يفاتح بالحديث عضوا لم

يتعرف إليه وإن كانت الاندية قد نشأت في الحضارة الحديثة للتعارف والاجتاع.

وعرض لرأي القائلين إن الحكم النيابي الصالح يتحقق بالانتخاب النسبي الذي يفسح المجال لكل ناخب أن يعطى صوته وأن تكون لجملة الاصوات المتفرقة قوة برلمانية لا تخضع لتدبير الاحزاب والزعماء .

فكانت مناقشته لهذا الرأي أنه ترك المفاضلة بين قوانين الانتخاب ورجع إلى البحث في قيمة التصويت: فهل المهم هو إعطاء الصوت فقط، أو المهم هو تكوين الصوت وما أدى إلى تكوينه من استقامة التفكير أو عوج التفكير ؟

وبحث في مزية المجلس الاعلى الذي يوازن المجلس الآخر ويصده عن الشطط أو الإخلال بسلامة الاداة الحكومية ، فكان من رأيه أن المجلسين معاً يضمنان الموازنة النافعة حيث يتولى وظائف اللولة « سلك » من الموظفين الدائمين لا ينقطع بانقطاع الصلة بين مجلس منتخب يليه أو بانقطاع الصلة بين المجلس الاعلى والمجلس الادنى في مازق النزاع . وأنكر أشد الإنكار أن ترجع الوزارة إلى النائب لاختيار الموظفين في دائرته الانتخابية ، وهو رأي يقول به بعض المتوسعين في حدود الهيئة التشريعية . فاستدل بتجاربه في لجنة التحقيق على وجوب العزل بين الاختصاصين ، وروى عن بعض الثقات أنهم يتشاءمون لما يلحظونه من تسامح المجالس الحديثة في الخلط بين عمل الوزارة وعمل التشريع ، فمن شأن هذا الخلط أن يجعل المشرعين عالمة على المنفذين ، وأن يصدف ذوى الكفاءات عن التقدم للانتخاب .

ومن المسائل التي ألم بها مسألة الاجتاعات التي تعقد لإقناع المستعمين ، فقال إن الذين يحضرون هذه الاجتاعات هم في الغالب مقتنعون بما سيقال فيها قبل حضورها ، وإنهم لم يحضروها إلا لانهم من أنصار الخطيب وحزبه في دعوتهم السياسية .

ونقل من خطب البرنس بولوف السياسي الآلماني المعروف في أواخر أيام آل هوهنزلرن كلاما يقول فيه عن تعميم حق التصويت : ﴿ لَا اَحَالُ أَنْ أَحَداً مَنْ غَيْرِ الاَسْتَرَاكِينَ المتعصبين للنظريات قد بقي على تقديسه لفكرة التصويت العام

واعتبارها بمثابة الآيات المنزلة » ثم يقول البرنس عن نفسه: إنه من جانبه لا يغبد الاصنام ولا يصدق المنزلات السياسية . وإن السلامة والحرية في أمة من الامم لا تتوقفان _ كلا ولا جزءا _ على شكل الدستور وأحكام قانون الانتخاب وألمع البرنس إلى كلمة للزعيم الاشتراكي الالماني « بيبل » يقول فيها إنه يفضل النظم الإنجليزية على النظم الفرنسية . فعقب عليها قائلا : غير أن الانتخاب ، في إنجلترا ليس بالحق العام على سنة المساواة وليس بالانتخاب المباشر ، ثم راح يسأل : هل في وسع قائل أن يزعم أن مكلنبرج التي ليس فيها انتخاب عام على الإطلاق أسوأ في حكومتها من جزر هايتي التي تسامع العالم أخيرا بغراثب أخبارها على الرغم من انتخاباتها العامة ؟»

وجواب الاستاذ جراهام على السياسي الالماني أنه على حق إذا كان المقصود بالانتخاب العام أن الذين يتساوون في الاصوات يتساوون في جميع الاعتبارات ، ولكنه يجهل معنى كلامه أو يتجاهله إذا كان الانتخاب العام مبنيا على « أن توسيع نطاق القوة السياسية عنصر هام من عناصر الحكومة الصالحة ، وأن هناك عناصر أخرى للحكومة الصالحة كالاستعداد القومي والتبعة الوزارية وما إليها » .

ومن أسئلة الاستاذ جراهام سؤال عن رضا المحكومين هل هو شرط من شروط الحكومة الصالحة ؟ وقد رجح أن العالم النفساني يجيب عن هذا السؤال بالنفي ، وأنه لو وجه في الزمن القديم إلى أفلاطون لاجاب عنه بالنفي كذلك ، لان العقل في رأيه لا يتصور أن يقوم الحكم على أساس متقلب كأهواء جمهرة الناس ، ويقتدي بأفلاطون في هذا الرأي مفكر حديث هو « ولز » صاحب كتاب « طوبى العصرية » الذي يتخيل فيه قيام ثورة من العلماء الممتازين تتسلم زمام الحكم وتمضي فيه على هدى العلم والاخلاق وإن سخط عليه الجهلاء ، فإنهم كثيرا ما يسخطون على ما ينفع ويفرحون بما يضر ويضير .

ولم يزعم جراهام أنه حل هذه المشكلة ، ولكنه قال انها عقدة جديرة بعقل كعقل بنتام يعود إلى الدنيا مستهديا في هذه المرة بدراسات النفسانيين والاجتاعيين المحدثين ، ولا يقتبس هداه من فنيلون وهلقسيوس .

من هذه الامثلة نعرف نهج الاستاذ جراهام والاس في محاولاته ، ونعرف المدى الذي وصل إليه من تقرير قواعد علمه . . فهو كالمهندس الذي يجس أعواد الخشب وحجارة البناء خشبة خشبة وحجرا حجرا ليدل على المادة التي تصلح لبناء البيت المقترح ، أو بناء « علم السياسة » كها بنيت علوم الطبيعة أو علوم الاجتاع والاقتصاد .

وفي اعتقاده أن مجرد الابتداء بتطبيق العلم على السياسة يرينا وجه الخطأ في كلام الذين يتحدثون عن (الديمقراطي المثالي) كأنه لا يعمل لغرض قط غير المصلحة العامة ولا يخطيء أبداً في فهم هذه المصلحة . . فنحن لا نسمع بعالم (بيولوجي) يتكلم عن الحي المثالي الذي لا يجوع ولا يمرض ولا يشكو نقصا في تركيب أعضائه ، فلهاذا يبقى بيننا من يتحدثو ن بالمثالية في تصرف المجتمعات والأحاد ؟ ولماذا نهادى في أخطاء المخطئين المذين يردون تصرف الإنسان السياسي إلى باعث نفساني واحد او يقيمونه على فرض عقلي واحد وهو مزيج من شتى البواعث والفروض ؟

إن علم السياسة مطلوب لضمان السلامة في المجتمعات الإنسانية ، وليكن مثل العالم السياسي كمثل الصانع الخبير الذي يتحرى في تركيب الآلة السليمة أن يكون الشطط في استعما لها محسوبا له حسابه في صسيم جهازها ، فتتقي الانفجار إذا زاد الوقود أو زادت السرعة أو أدير فيها مفتاح غير المفتاح الذي ينبغي أن يدار .

فليس من الضروري أن نتقن علم الآلات لتركيب آلة مثالية يمتنع عليها الخلل وتأبى المزيد من التحسين ، بل يكفي من العلم بها ما نحتاط به لعيوبها جهد ما تتيسر الحيطة ، ويكفي كذلك من العلم بالسياسة ما يؤدي بنا إلى مثل هذه النتيجة .

والمفهوم من مجمل أقوال الاستاذ جراهام أن استحالة التعقل في جميع التصرفات الإنسانية لا يحول دون الترقي في علاج الشؤون السياسية ، فإذا كانت الغلبـة للشعور في تصرف الإنسان فالشعور نفسه قد يتهيأ لقبول الآراء الصالحة حسب معلومات « الشاعر » واتساع مجال إدراكه ، وقد يكون أثر الحقيقة من الحقائق أبعد مدى من نتائجها الحسية . كما اثر كشف أمريكا في تصحيح أوهام الناس عن الكرة الارضية وصورة الكون كله ومركز الإنسان فيه قبل أن تستفاد من ذلك الكشف نتائجه الحسية التي تتعلق بترقية الملاحة والتجارة ، وجمع الملاحظات الصادقة عن طبائع الجماعات وبواعث العمل السياسي فيها وهي مجتمعة وبواعث العمل في آحادها وهم متفرقون ـ علم مطلوب كما تطلب العلوم ، ومحاولة طيبة لإيقاء النور على دوافع الساسة ودوافع المسوسين وحسب الناس من تقدم في هذا السبيل أن يخرجوا بالسياسة من الظلام إلى النور .

تعقيب

أول ما يبادر إلى ذهن القارئ من مراجعة المذاهب المتقدمة دفعة واحدة أنها تتقسم بينها الصواب والخطأ على حصص متفاوتة فليس بينها مذهب ينفرد بالخطأ كله . وهي على تناقضها من ناحية يتمم بعضها بعضا من ناحية أخرى ، بحيث يحتاج السياسي الحصيف إلى الاخذ بحصة من كل منها ليهتدى بها جميعا في سياسته العامة .

وتكاد تتفق كلها على استحالة « الطوبى » الموعودة التي تتعلق بها أحلام طلاب السعادة ويحسبونها نهاية الشقاء وبداية النعيم المقيم في هذه الدنيا . فمها تتبدل النظم وتتغير الحكومات فلن تنقطع أسباب الشكوى من الحياة الإنسانية ، ولعل ارتقاء الناس في معارج هذه الحياة يبعث من نفوسهم أسبابا للشكوى لم يشعروا بها في عهود الجهل والقلة ، فإن الشكوى تأتي من الشعور بالكال كما تأتي من الشعور بالكال كما تأتي من الشعور بالكال كما تأتي من الشعور بالتقاف ، وتأتي من حرية التعبير كما تأتي من فقدان الحرية ، بل لعل الارتقاء أدنى إلى الشكوى من الركود والجمود ، ولعل الحرية أدعى إلى التذمر من القسر والخوف .

وعبث أن يقال إن نظاما من نظم الحكم أو الإنتاج يختم التفاوت بين النـاس ويبطل دواعي الامر والطاعة بين جماهير الحكام والرعايا . فقد عهد الناس دائما أن القوة تجلب الثروة كما عهدوا أن الثروة تجلب القوة . وسيظل التفاوت بينهم في البأس والذكاء والهمة والحيلة والجمال بابا من أبواب الاختلاف في حظوظ الجاه والسيادة ، وما من حيلة قط تقضي على دواعي التفاوت بين بني آدم وحواء ، فإننا نرى الخيل يباع واحد منها باقل من عشرات الالوف وأخلق ببني الإنسان أن يمتنع التشابه بينهم إذا امتنع التشابه بين اللواب والحيوان الادنى .

وفي الحياة ظلم وحرمان ، ولكنهما لا يرجعان إلى طائفة دون طائفة ولا إلى خليقة دون خليقة ، وقد يكون الظلام من الاسفىل كها يكون من الاعلى ، وصدق المعري حيث قال :

ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت

في الصالحات كظلم الصقر والبازي

فليس علية الناس عالة على سفلتهم ولا سفلة الناس عالة على عليتهم ، وليس هناك علية سرمديون ولا سفلة سرمديون ومن قال إن طائفة تعمل وطائفة تغصب فقد ظلم الواقع وانحرف عن الحقيقة الوسطى ، ولا اعتدال قطفي أمر من الامور مع انحراف .

فالعاملون بأيديهم يعيشون اليوم بمخترعات العاملين برؤوسهم وقرائحهم ، ولولا هذه المخترعات لهلك العاملون بالايدي جوعا لندرة الصناعات وقلة الاعمال .

والعاملون برؤوسهم وقرائحهم ماكانوا ليخترعوا جديدا لوكانت المعيشة منذ القدم وقفا على حاجات الضرورة ، ولم تكن فيها تلك المعيشة الغالية التي تغري بتشييد القصور وتسيير السفن والتنقيب عن الجوهر والعكوف على فنون الملاحة والسبك والحفر والنسج وفضول الزينة ومناعم الفراغ .

ومن هو العالة على الآخرين ؟ ملايين من الخلق تستفيد الاقوات ولا تعطى الإنسانية شيئاً من تراث الفكر وقيم الاخلاق ؟ أو ألوف من الخلق يجدون فوق الكفاية فيرتفعون بالمعيشة من الضرورات إلى مطالب الكمال ؟

ومَنْ مِنَ الناس ظالم ومن منهم مظلوم ؟ مصلحون يفتحون آفىاق المعرفة والفضيلة والجهال او سواد لا يزالون ينصرون كل دجال على كل مصلح ويعينون كل طاغية على طلاب الحق والإنصاف ؟

كلهم إن رجعنا إلى الحقيقة عالة وكلهم عامل ، أو كلهم ظالم وكلهم مظلوم ، وصدق المعري مرة اخرى حيث قال : الناس للناس من بدو ومن حضر

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ولكما تقسمت الحظوظ وتوزعت الاعمال تبينت حاجة فريق من الناس إلى فريق ، واستحال اكتفاء أحد منهم بما عنده . فليس انقسام الحظوظ وسيلة لاستقلال أحد عن أحد بل هو على اللوام سبب جديد لتعويل كل منهم على سواه .

فلن يستقيم عمار الكون على فئة واحدة ، ولن يرجع عماره يوما إلى علمة واحدة ، وعلامة الخطأ الذي لا شك فيه أن نفسر هذا الكون الواسع بتفسير واحد أو ندعمه بدعامة منفردة . إذ لا نهاية لعوامل العمار ولا للمؤثرات التي تنجم عنها هذه الآثار .

فالذين يقولون إن الإنسان يدمل لطلب السرور واتقاء الالم يجهلون الانسان ويجهلون بواعثه التي تحجب غاياته ، ومنها بواعث الطفل الذي يتحرك لينمو وبواعث الرجل الرشيد الذي يتحرك لينمو كذلك ، وإن لم يكن نموه نمو أعضاء وقامات .

والذين يقولون إن الإنسان يعمل لطلب المنفعة يجهلون أنه يقدم على الخسائر وهو عالم بها ويهون عليه الموت ولا يهون عليه فوات أمل من الأمال .

والذين يقولون إن الإنسان يعمل ليعيش ينسون أن يسألوا أنفسهم : ترى لماذا يجرص على أن يعيش؟

والذين يقولون إن الإنسان يعمل للمجد ينسون لماذا يعمل لمجد غيره ويترك

مجد نفسه في كثير من الاحيان ؟

والذين يقولون إن الإنسان يعمل للدنيا لا يذكرون من يعتزلون الدنيا وينزوون عنها .

فها استقامت الدنيا قط على فكرة واحدة ولا صلحت الحياة قط على علة واحدة ، ولا موجب للعناء في نقد المطالب والآراء إذا بدا عليها أنها تنقبض هذا الانقباض وتنحرف هذا الانحراف . فكل مذهب باطل إذا غفل القائلون به عن سعة الآفاق التي نعلمها وسعة الآفاق التي نجهلها ، وهي هنالك قائمة عاملة لا تغفل عنا إذا غفلنا عنها ، ولا تتخلى عن مجالها إذا عن لنا أن نخلي منها ذلك المجال .

ومهما يكن من تعدد المذاهب وتشعبها في رؤوس الحكماء فرأس الحكمة كلها في السياسة أن الامة الفاسدة لن تتولاها حكومة صالحة وأن الامة الصحالة لن تتولاها حكومة فاسدة .

وما هي الامة الصالحة ؟

ومن الوهم أن يظن أن الامة الصالحة لا تعدو أن تكون مجموعة أفراد صالحين ، فقد يصلح المرء فرداً ولا يصلح عضوا في أمة ، ولا تعتبر الامة صالحة إلا بفضائلها الاجتاعية التي يكسبها أبناؤها بالمرانة الطويلة على الحياة السياسية .

فالصلاح للمجتمع استعداد لا يكسبه الفرد بما تعلمه من المدارس والكتب ولكنه حاسة اجتاعية تتولد في الامة من مرانتها على مزاولة الشؤون العامة أجيالا متعاقبة حتى تصبح رعاية المصلحة العامة عادة في أبنائها يباشرونها عفو الخاطر كأنهم لا يقصدونها ولا يتكلفونها ، مثلهم في ذلك مثل الأعضاء التي تشترك في تغذية بنيتها وتوزيع غذائها بين أجزائها في غير كلفة ولا روية .

نعم ان علوم المدرسة والكتاب قد تقرب المرء إلى فهم هذه الحاسة الاجتاعية . بيد أنها لا تخلقها لسبب بديهي : وهو أن العادة الاجتاعية تتربى بالاشتراك مع المجتمع ولا تتربى بالفهم والسماع . وشواهد ذلك بينة من المقابلة بين الامم التي

تساوت في انتشار التعليم ولم تتساو في التربية الاجتاعية او التربية السياسية ، فظاهر جدا من المقابلة بين هذه الامم أن المسألة مسألة تربية عامة مشتركة وليست مسألة فهم يستقل به كل متعلم من طريق المدرسة والكتاب .

فالامة الالمانية أمة متعلمة كثيرة المدارس والجامعات تروج فيها الكتب المبسطة والكتب المطولة ويندر فيها الاميون ولا يخلو فرع من فروع العلم من نابغة الماني يسهم فيه برأي جديد أو تفسير مبتكر ، ولابنائها ولع بالإحاطة والاستقصاء وتبويب المباحث وترتيبها تضرب به الامثال ولا تسبقها فيه أمة حديثة ، وقد كان ينبغي أن تكون قلوة بين الامم في التربية السياسية لوكان مدار الامر على معارف المدرسة أو معارف المطالعة ، ولكنها مع هذا أقل في هذه الخصلة من أمم أخرى دونها في انتشار التعليم ووفرة الاطلاع ، إذ كانت أحوالها التاريخية حائلة بينها وبين المشاركة في حكم نفسها معودة لها أن تدين بنوع واحد من الحكم هو حكم السيطرة والطاعة ، ومرجع ذلك إلى وجودها في وسط القارة الاوربية هدفا للغزاة من المثرة والغرب والشيل والجنوب وعرضة للمنازعات بين أمرائها إذا هي استراحت من الغزوات الاجنبية .

فتعاقبت العصور وهي أشتات من الولايات المتفرقة تخضع كل ولاية منها لامير يحكمها على النظام العسكري ويترقب منها طاعة المستسلم المعترف بضرورة هذه النظم العسكرية . فلم تتعود الوحدة القومية ولم تتدرب على مراقبة حكامها ولم تسر بينها عادات المشورة والمراجعة ولا الخبرة بترشيح من يسوسها في حلود هذه العادات وبرعاية من هدايتها ، فلا جرم سهل فيها وثوب المستبدين إلى مراكز السيطرة وتعذر فيها إسقاط مستبد من هؤلاء بغير كارثة تصدمه من خارج بلاده . ولولا طول العهد باستبداد الحاكم وخضوع الرعية لكانت أحرى بمن هم أفضل من هؤلاء الحكام .

ونكاد نقول إن نوع الحكومة لا يهم ما دام المحكومون على قسطوافر من الحاسة السياسية عارفين بحقوقهم مقتدرين على أخذ الولاة باحترامها ، غير أن المبدأ القائل « بأن الحكم من الامة للامة » هو أصلح المبادى، لمجاراة هذه الحاسة السياسية في وجهتها . وهو المبدأ الذي يعطي المحكومين فرصة بعد فرصة لاختيار

لافضل من الساسة والأكفاء من القادة والولاة ورؤساء الدواوين .

وكما جاء في الاثر : «كما تكونوا يول عليكم » .

وكما قال الافوه الاودي :

تمضي الامور بأهل الرأي ما صلحت

فإن توالت فبالأشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضي لاسراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فهرست كتاب الحكم المطلق في القرن العشرين

الصفحة	الموضوع .
11	هل فشلت الديمقراطية
17	لم تفشل الديمقراطية
Y1	تمثيل الشعب
	بلاد الدكتاتورية
40	اسبانيا
٣١	تركيا
41	ايطاليا
٥٢	موسوليني
٥٧	۔ بسمارك
71	نابليون بونابرت
78	خاتمة

فهرست كتاب الصهيونية العالمية

لموضوع الصفحة
بداءة : العقاد والصهيونية
١ ـ الصهيونية قبل الميلاد ٧٧
٢ ـ الصهيونية من الميلاد الى القرن التاسع عشر
٣- الصهيونية منذ وعد بلفور
٤ ـ الصهيونية العالمية
٥ ـ الصهيونية العالمية : جنايتهم على انفسهم
٦ ـ الصهيونية العالمية : دعوى الاضطهاد
٧ ـ الصهيونية العالمية والنبوغ
٨ ـ الصهيونية العالمية وطوابيرها الخامسة في ميادين السياسة والاقتصاد١١١
٩ ــ الصهيونية العالمية وطوابيرها الخامسة في ميادين الثقافة ١١٥
١٠ ــ الصهيونية العالمية وطوابيرها الخامسة في المجالس النيابية ١١٩
١١ ــ الصهيونية العالمية وطوابيرها الخامسة في السياسة الشرقية ١٢٣

الموضوع
١٢ ـ الصهيونية العالمية : أساليبها في الوقت الحاضر(١) ١٢٨
١٣ ـ الصهيونية العالمية : أساليبها في العصر الحاضر(٢)١٣٢
١٤ ـ الصهيونية العالمية : أساليبها في العصر الحاضر(٣) ١٣٦
١٥ ـ عصبية الصهيونية : في ميدان الثقافة والسياسة ١٤٠
١٦ ــ مصير الصهيونية العالميَّة والاسباب الدولية ١٥٢
١٧ ــ مصير الصهيونية العالمية ونفوذها المهدد١٥٧
١٨ ــ مصير الصهيونية العالمية وبنيتها المتناقضة
١٩ ــ مصير الصهيونية العالمية : في أعينهم
٢٠ ــ مصير الصهيونية العالمية : في أعين أصدقائهم
٢١ ــ مصير الصهيونية العالمية : ومقاطعة العرب١٧٤
٢٢ ـ الاستعمار الصهيوني
٢٣ ـ الصهيونية والمستقبل
٢٤ ـ الصهيونية العالمية في الختام
تعقیب: بروتوکولات حکّاء صهٰیون

فهرست كتاب النازية والأديان

الصفحة	الموضوع
199	النازية والاديان
4.0	النازية والاديان للنائب عباس محمود الغقاد(١)

فهرست كتاب هتلر في الميزان

الصفحة	الموضوع
440	مقدمة
774	الفصل الاول ـ مخلوق الظروف والمصادفات
731	تهید
74.8	مخلوق الظروف والمصادفات
Y & 0	أفكاره وافكار غيره
101	لا يخطىء !
Y00	لماذا اختاروه ؟
774	سياسة هتلر
779	الفصل الثاني _ مطالب المانيا وشكاياتها
YYI	مطالب ألمانيا وشكاياتها
YVY	نظرة اخرى في المطالب الالمانية
YVY	فسحة العيش
141	المستعمرات

٠٠ الصفحة	الموضوع
440	دانزيج
***	خلة المانية
۳٠١	الفصل الثالث ـ نفس هتلر
4.4	نفس هتلر
4.4	التربية والنشأة
414	شبجاعته
444	مبلغ صدقه
441	غرآبة الاطوار
274	كفاءته الذهنية
481	كفاءته الخطابية
404	سياه
٣٦.	اصحابه
۳٦٧	تلخيص
***	الفصل الرابع ـ قضية اليوم
444	قضية اليوم
441	بداية القضية
494	هل فشلت الديمقراطية ؟
٤٠١	لم تفشل الديمقراطية
٤٠٤	الفُوارق بين الديمقراطية والنازية ـ التقدم
٤٠٧	الفوارق بين الدبمقراطية والنازية ـ الاخلاق
٤١١	الفوارق بين الديمقراطية والنازية ـ حل المشكلات
113	الفوارق بين الديمقراطية والنازية ـ النظام
217	الفوارق بين الديمقراطية والنازية الصحة

٠٠٠٠٠٠ الصفحة	الموضوعالموضوع
٤١٨	الفوارق بين الديمقراطية والنازية ـ التربية
114	الفوارق بين الديمقراطية والنازية البيئة
140	الفصل الخامس _ قضية الغد
£ Y Y	قضية الغد
133	مصر
£ £ A	كلمة الختام

فهرست كتاب فلاسفة الحكم في العصر الحديث

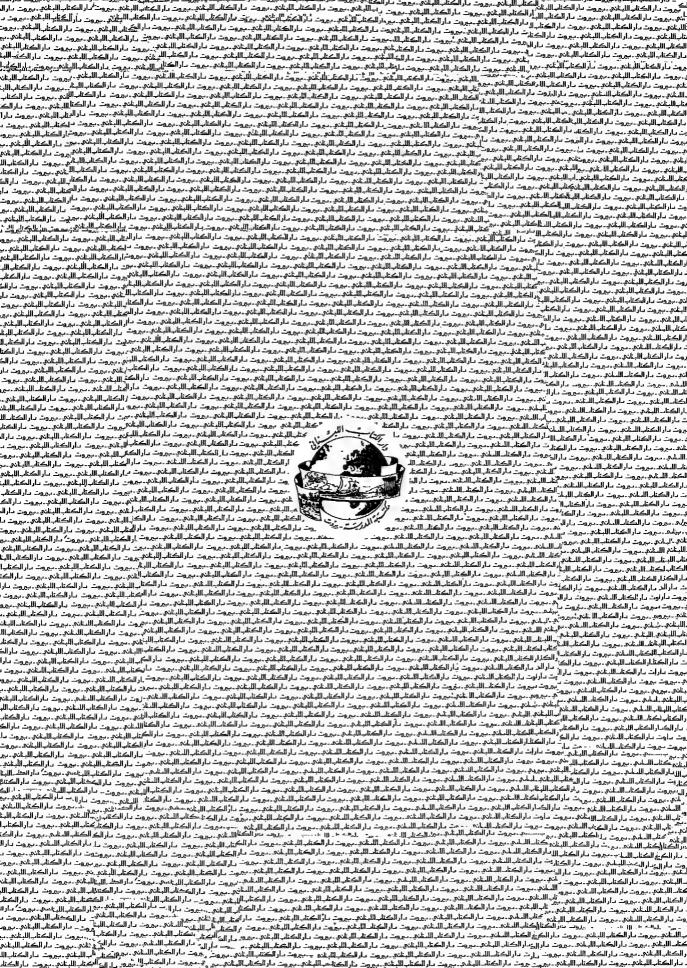
220	فلاسفة الحكم في العصر الحديث
¿ o y	مقدمة
٤٧٤	جورج.سوربل
£A£	باريتو
190	جايتا نوموسكا
7.0	روبرت میشل
014	جيمس برنهام
٥٢٣	فردريك اوجست فون هابيك
370	جراهام والاس
0 { \	تعقيب

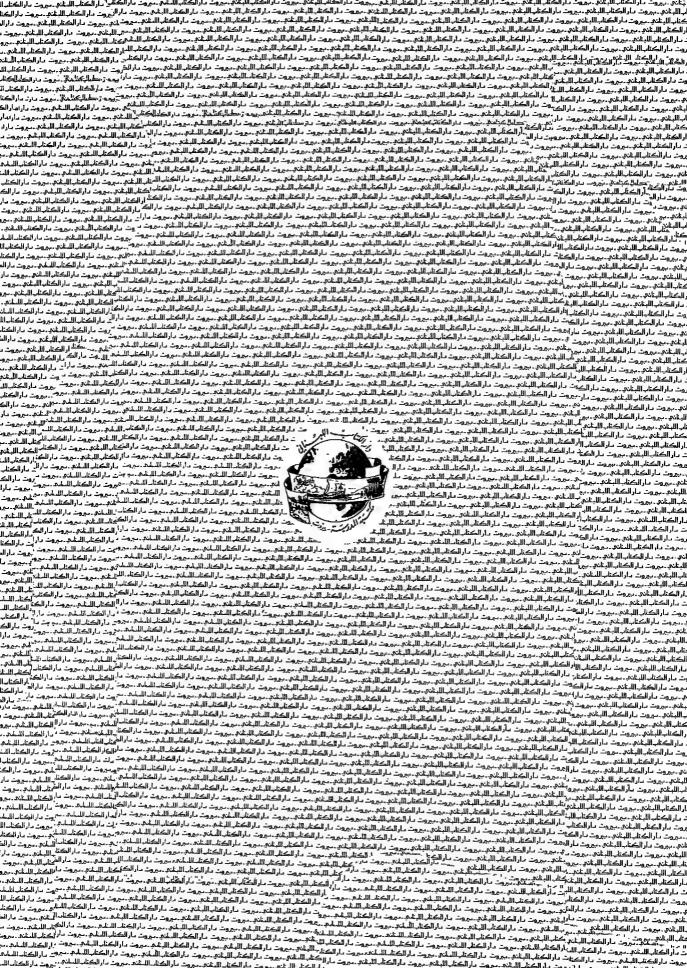
الادارة العامة:

شارع مدام کوري ـ بناية حطب مقابل أوتيل البريستول ص.ب ۱۱/۸۳۳ - بيروت ـ برقيأ: داکلبان. ماتف: ۲۵۲/۲۸۲۷۷۲/۸۲۵۲ ـ مستودعات: ۸۲۰۲۸

ئلكى: 23715 D.K.L. Att. Miss MAY. H. EL-ZEIN فرع ثانًا: سد البوشرية ـ سنتر فياض النجاري هاتف: ٨٨٣٥١١







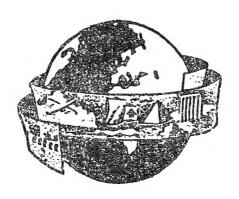


دَارُ الْكِرَابِ الْمُسْرِيِّ

طباعة - نشر - توزيع

۳۳ شكاع قصر النيل - القك هرة جمع ع ت: ۱۹۲۲۱۲۸ مولنديك و القك هرة جمع مع ع صيب: ۱۵۱ - الرمت و البريدي و ۱۱۵۱۱ - برق با کتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN FAX:(202):3924657 CAIRO - EGYPT



طباعة - نشتر - توزيت مستارع مستارع مستارع مستارع مستارع مستارع مستاره مرست ولست ولست و بست و بست و بستاره مسلم : ۱۱۸۰۳ ۱۹۳۳ ۱۹۱۳ ۱۹۳۸ میلی : ۱۱۸۳۳ ۱۹۳۸ ۱۹۳۸ میلی : ۱۱۸۳۳ ۱۹۳۸ ۱ و ۱۸۳۸ برهنا داکلتان د بیروت لبنان میرود البنان المیرود البنان المیرود المیرود البنان المیرود المیرو

The Complete Works of ABBAS MAHMOUD AL - ĀAKAD

Volume XIV

DAR AL-KITAB ALLUBNANI